المجلس الأعلى للثقافة

العصر الذهبى للإسكندرية

تأليف: جون مارلو

ترجمة: نسيم مجلى



المشروع القومى للترجمة

419

المشروع القومى للترجمة

العصر الذهبى للإسكندرية

تأليف : جون مارلو

ترجمة : نسيم مجلى

المجلس الأعلى للثقافة

٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤١٩
- العصر الذهبى للإسكندرية
- جون مارلو
- نسيم مجلى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :

The Golden Age of Alexandria

تأليف : **John Marlowe**

الصادر عن دار نشر : **Victor Gollancz Limited**

London 1971

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

---

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة

عندما استسلمت مدينة الإسكندرية لعمرو بن العاص فى ٢٩ سبتمبر ٦٤٢م ، كتب الفاتح العربى التقرير التالى، وأرسله إلى الخليفة: "لقد استوليت على مدينة يمكن أن أقول إنها تضم ٤٠٠٠ من القصور ، ٤٠٠٠ من الحمامات ، ٤٠٠ مخزن ، وبها ١٢٠٠ من بائعى الخضروات ، ٤٠,٠٠٠ من اليهود دافعى الجزية ، جندى آخر من أبناء الصحراء استخدم المبالغة فى وصفه للمدينة الرائعة ذات الحوائط البيضاء التى سقطت توًا فى أيديهم ؛ فكتب يقول " إن ضوء القمر المنعكس على الرخام جعل المدينة تسبح فى نور ساطع بدرجة تكفى لأى ترزى أن يلضم الخيط فى إبرته دون حاجة لمصباح ، ولا يستطيع أحد أن يدخل المدينة دون أن يغطى عينيه ليحجب عنهما وهج الجص والرخام" ؛ ذلك لأن المدينة كانت تشكل منظرًا مدهشًا لهؤلاء المحاربين الصحراويين الأجلاف .

ففى القرن السابع ، فى وقت الفتح العربى ، كانت الإسكندرية لا تزال أجمل مدن العالم على الرغم من ذهاب الكثير من مجدها الغابر ، فقد كانت الإسكندرية منذ أن أنشأها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م حتى غزاها أكتافيوس قيصر فى ٣٠ ق.م عاصمة لإمبراطورية عظيمة ، كما كانت المركز الثقافى والاجتماعى للعالم الهللينستى ، مركز الجاذبية الذى تأتيه الثروات المادية من آسيا وأفريقيا، وتنجذب إليه كل مصادر الثقافة والفكر من كل بلاد الإغريق ، إذ كانت هى مصدر الطاقة المحركة التى تحول هذه الثروة إلى حضارة وتنشرها عبر البحر الأبيض المتوسط ، وحتى بعد أن انتقل مركز الجاذبية غربًا إلى روما ، فقد بقى للإسكندرية تفوقها وسيادتها الفكرية والثقافية، وظلت كما هى البوابة الرئيسية التى يمكن من خلالها أن تنتقل الثروة المادية بل والأفكار الروحية وتراث الشرق إلى ما كان يسمى آنذاك العالم الرومانى للبحر المتوسط، وحتى فى القرن الرابع الميلادى ، حين انتقل مركز العالم شرقًا إلى بيزنطة ، تحت تأثير غزوات البرابرة الغربيين ، فإن روما الجديدة القائمة على مضيق البسفور

لم تكن سوى انعكاسة باهتة للمدينة الأقدم على الشاطئ المقابل للبحر المتوسط على الرغم من كل السمعة والرعاية التى كان يغدقها القصر الإمبراطورى على تلك المدينة، وقد أدت الصراعات الاجتماعية ، وسوء الإدارة الحكومية ، والوضع الإقليمى ، وربما الحياة الرتيبة المملة نتيجة تفتت بعض الثوابت اليقينية للعصر الهللينستى الوثنى ، ونتيجة لتغلغل فلسفة التشاؤم القادمة من بلاد الهند وبابل ، كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى تآكل ثروة الإسكندرية ، وأسلوبها البطلمى فى النظر إلى الأمام وإلى المستقبل ثم التطلع خارجًا إلى حوض البحر المتوسط ، بل و حتى حدودها الطبيعية وفخامة مبانيها قد تآكلت أيضاً .

لكن من الناحية العقلية ، كانت الإسكندرية لا تزال فى موقع السيادة ، فتغلغل روح التشاؤم الشرقى التى ساهمت فى اضمحلالها مادياً ، اتحدت مع العقلانية الهللينستيةالصارمة فأنتجت تلك الخميرة الدينية التى سيطرت على الحياة الفكرية والحياة السياسية فى عالم الرومان طيلة القرون الستة الأولى للمسيحية ، فالمدينة التى كانت فى عصر البطالمة ، تقود العالم فى ميادين الاكتشافات العلمية ، وفى مجال الثقافة الهللينستية عامة ، و التى كانت تعتبر أن "الإنسان معيار كل شيء" صارت الآن مركزًا للتأملات العميقة حول طبيعة الكون ، وحول العلاقة بين الله و الإنسان ، ومشكلة الشر، وطبيعة الإرادة الحرة ، لقد أنتجت الإسكندرية مسيحية كليمندس وأوريجين المطعمة بالروح الهللينستية ، وصوفية الغنوصيين والأفلاطونيين الجدد ، بل أنتجت كذلك محاولة التوفيق بين الوثنية الكلاسيكية والفلسفة الهللينستية، وفى نهاية الصراعات الشرسة بين المسيحيين حول طبيعة الثالوث المقدس ، وكما حدث فى مركز توليد الطاقة العقلية فى إسكندرية البطالمة ، بدأ تجميع الأدب الكلاسيكى الإغريقى ، وتحريره ، والتعليق عليه ، وحفظه للأجيال القادمة ، ومن ثم فقد جرت فى الإسكندرية الرومانية عملية تهذيب لكتابات وتقاليد وعقائد المسيحية البدائية وتلطيفها بحيث تحولت إلى عقلانية حاذقة بل وإلى سلاح سياسى ساهم فى تزويدالمسيحيين بسيوف من أجل الهجوم وبدروع من أجل الدفاع ضد الوثنية والهرطقة على مدار ١٢٦ عامًا بين مجمع نيقية فى سنة ٣٢٥ ومجمع خلقيدونية فى عام ٤٥١ . كانت الإسكندرية هى مركز المسيحية الأرثوذكسية ، كما كانت من قبل هى مركز الوثنية الهللينستية ، لكن انتصار

آثناسيوس قد أكمل فعلاً عملية التراجع الإغريقى والتقدم المصرى إلى حاضرة الإسكندرية ، لم يعد عقل المدينة يتطلع إلى الخارج ، إلى ما وراء جزيرة فاروس وإلى أرض اليونان وأيونيا حيث يسود فكر الاعتدال بل استدار إلى الداخل تجاه صحارى طيبة وجزيرة العرب ، فالانشقاق الذى حدث فى أعقاب مجمع خلقيدونية كان تأكيداً سياسيًا لقرار ثقافى وفكرى تم اتخاذه مسبقًا ، وكان هذا علامة ظاهرة وملحوظة لبداية النهاية بالنسبة للعصر الذهبى للإسكندرية .

كانت الهللينستية تتراجع فى كل مكان ، وليس فقط فى الإسكندرية ، فقد جرى نهبها اقتصاديًا بواسطة جباة الضرائب الرومان الذين استخدموا أقصى وسائل الابتزاز والاغتصاب ، ثم أصابها الوهن على المستوى الفكرى بفعل عقم الحكم السياسى المسيحى المستبد فأخذت الأخطار الخارجية تتوالى ، حتى تغلبت عليها فى النهاية ، نتيجة التقاء تم بالصدفة بين الفرس القادمين من الشرق ، والبرابرة من الشمال والعرب من الجنوب ، فمن بين مدن شرق البحر المتوسط جميعاً ، نجد أن بيزنطة فقط أى روما الجديدة على مضيق البسفور ، هى التى نجت وحدها من الانقضاض العنيف للانحلال الداخلى و العدوان الخارجى وظلت على نحو ما ، هى المنقذ الحقيقى الوحيد للحضارة الهللينستية لمدة ثمانية قرون أخرى ، وعندما سقطت أخيراً فى أيدى الترك فى سنة ١٤٥٣ تكون قد عاشت أكثر من ١١٠٠ سنة، فقط منذ تأسيسها على يد قسطنطين فى ٣٣٥ م ، أما الإسكندرية - كمدينة إغريقية ، لم تعش هذا الزمن الطويل بعد تأسيسها على يد الإسكندر فى ٣٣١ ق.م حتى غزاها عمرو بن العاص فى ٦٤٢ ق.م ففى أيام عزها كانت الإسكندرية تجذب إليها ثوابت الحضارة الهللينستية اليقينية ، وفى أيام اضمحلالها ، صارت تجذب ، وتولد وتنشر صفات السذاجة وتحجر العقول وانعدام روح التسامح ، وهى العوامل التى قضت على هذه الحضارة .

والآن لم يبق هنالك شئ فوق سطح الأرض من الإسكندرية القديمة ، وفى ذات الموقع ، إلا العمود المرتفع هناك ، المعروف بعمود بومبى فى البقعة التى كان فيها معبد السرابيوم العظيم ، واختفى كل شيء آخر تقريبًا، ودفن تحت ماء البحر أو تحت الرمال وتحلل إلى طمى فى مياه النيل ، وتم استخدامه كمواد للبناء أو ربما سلبه

الغزاة الأجانب كغنيمة حرب ، بل حتى موقع المتحف والمكتبة لم يعد معروفا بصورة مؤكدة، واندثر معظم الأدب البطلمى وما بقى منه وجد معظمه فى ترجمات لاتينية أو عربية، لكن الإسكندرية ، ظلت لمدة ألف عام ، هى أعظم مدن العالم فى وجه أو أكثر من وجوه عظمتها الكثيرة فقد كانت أعظم الموانى ، ومركز التجارة العالمية ، بل "مجتمع التسامح" الذى لا يرقى إلى مستواه مجتمع آخر ، فقد استحوذت فى متحفها وفى مكتبتها على أعظم كنوز المعرفة الأكاديمية والبحث العلمى ، وكانت فى نفس الوقت مصدر الإلهام لطلائع الأدباء والفنانين الذين كانت نماذج أعمالهم بل وحالاتهم المزاجية نماذج يحاكيها كل الذين كانوا يودون أن يتطلع الناس إليهم على أنهم "من أتباعها" فى كل أنحاء البحر المتوسط ، كانت هى الحكم والفيصل فى أسلوب الموضة وتفصيل الملابس وخياطتها على أحسن طراز وأرخصه ، وكانت ملاذاً للهيبيز "hippies" من كل أنحاء العالم – وملجأً لرهبان الصحراء ، والمتصوفة ، وربما للسحرة والحشاشين الذين يتعاطون أنواعًا غريبة من المخدرات والمشروبات السحرية ، وكذلك الطقوس الطريفة الغامضة التى تتنوع تصميماتها إرضاء للذات أو لتجميل الحياة ، كانت الإسكندرية قلعة المذهب الأرثوذكسى وقاعدة لفرض أى لون من ألوان الفكر المسيحى أو من الهرطقة .

بالنسبة لنا ، فإن النصب التذكارية التى أقيمت فى ذلك الوقت ، إنما تصور أهل الإسكندرية أنفسهم بطريقة أكثر حيوية من المدينة التى عاشوا فيها ، الانطباع الرئيسى الذى نحسه هو انطباع الخصوبة والوفرة والحيوية فى محيط المتعلمين ، والاضطراب والصخب بين غير المتعلمين ، فى الفريق الأول نجد قليلاً من الاعتدال الإغريقى أو الغطرسة الرومانية ، وفى الفريق الثانى لا نجد شيئًا من إذعان أهل الشرق ، وفى عالم وثنى لا يعرف عنه كبح الذات ، كان السكندريون مشهورين بالفجور والإباحية ، وكانت أكثر المذاهب شعبية عندهم مذهب ديونيسوس وفى عالم مسيحى لا يعرف عنه التسامح اشتهر السكندريون بالتعصب للرأى بصورة مزعجة ، أما المحاولات المختلفة الرامية إلى تحقيق المصالحة بين هذه الطوائف المتنافسة التى نجحت فى المحافظة على السلام فى بعض المدن الأخرى فإنها باءت جميعها بالفشل فى مدينة الإسكندرية ، وكانت نزاعاتهم المزعجة تتوقف فقط عندما يواجهون عدوًا خارجيًا ،

وكان من عادتهم أن يستسلموا دون كثير من الجهد ؛ لأنهم يفضلون أن يتفرغوا لمعاركهم الداخلية .

إن الحياة الحسية التى ارتفعت نغماتها فى المدينة لم تكن تختلف فى النوعية عن مثيلتها فى أنطاكية التى كانت إحدى المدن الهللينستية العظمى فى ذلك الوقت .

أما الشئ الفريد فيها فهو نشاط تلك الفئة من العلماء و الباحثين الذين كانوا يعملون فى المتحف وفى المكتبة بدعم من الدولة ، وكانوا يعيشون منفصلين عما يجرى حولهم فى المجتمع خارجهم ، بل إننا نتخيل أنهم كانوا فى حالة نفور منه ، فتبعا لكل ما وصلنا من أخبارهم ، فإن كل هؤلاء العلماء كانوا يعيشون فى عزلة ، فهم يعيشون ويعملون فى المتحف أيضًا ، لا يشاركون فى وجوه النشاط العامة إلا نادراً (ولا يظهرون إلا فى المرات الضرورية ، وفى مناسبات توجيه الشكر والمديح للقصر البطلمى) إنهم يعيشون بأنفسهم ولأنفسهم keeping themselves to themselves هذه الفئة من العلماء هم الذين استطاعوا باكتشافاتهم وبعملهم فى جمع وتحرير وحفظ مكتشفات الأجيال السابقة ، أن يبقوا على شعلة العلم مضيئة ، وأن يبقوا على جذوة المعرفة مشتعلة، وهم الذين ملأوا ذلك الفراغ الذى لولا جهودهم لحدث ما كان يمكن أن نسميه بالفجوة بين العالم القديم والعالم الحديث ، وربما كان الأهم من ذلك أنهم خلقوا مناخًا علميًا ونقديًا ترك تأثيره الفعال والعميق على تطور الفكر المسيحى ، وأرغم المسيحيين على أن يصوغوا لأنفسهم أسلحة فكرية جديدة يحاربون بها ، ومن ثم نجحوا فى الارتفاع بمستوى الحوار بين الوثنية والمسيحية بدرجة لم تتحقق فى أى مكان أخر ، وحين صارت المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية ، تخلى المسيحيون فى الإسكندرية وغيرها عن الأسلحة الفكرية والفلسفية ، واعتمدوا على سيف الدولة بدلا منها ، وكان لهذا التحول نتائجه الخطيرة والمدمرة ، ليس فقط للمسيحية ذاتها من الناحية الروحية ، بل ومدمرة للوثنية أيضًا على المستوى المادى ، لكن شيئًا ما قد تحقق وربما كان مفيداً لمستقبل الحضارة مثل المعارف العلمانية (الدنيوية) secular knowledge التى حافظ عليها أهل الإسكندرية ومثل الاكتشافات العلمية التى أنجزوها .

١ - الخلفية الهللينستية

لقد أوجدت فتوحات الإسكندر الأكبر هيمنة إغريقية مؤقتة تعترض الطريق بين قوة روما الوليدة فى الغرب وقوة فارس العريقة فى الشرق ، وهذه الحادثة فى تاريخ الصراع الطويل بين أوربا وآسيا قد دفعت بالحدود بين القارتين من مضيق البسفور والنيل شرقًا إلى الفرات والخليج الفارسى ، وظل هذا الوضع تحت سيطرة خلفاء الإسكندر إلى أن تمكنت روما – بعد أن دعمت قوتها فى غرب البحر المتوسط بانتصارها على قرطاجة – أن تغتصب هذا الامتياز تدريجياً وتحمل على عاتقها عبء السيادة على الحدود الأوربية ، ونتيجة لغزوات البرابرة من سهول روسيا شمال البحر الأسود Euxina وكاسبيان Caspian فى ذلك الوقت ، فقد امتدت هذه الحدود شمالاً وغرباً فى خط يسير فى انحناء شديد من رأس الخليج الفارسى بحذاء خط زاجروس Zagros والقوقاز ، حتى الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ووديان نهر الدانوب والراين وعلى المستوى الاقتصادى ، كانت فتوحات الإسكندر أبعد أثرًا ، لأنها أطلقت شرارة البدء لحركة تجارية عظيمة بين أوروبا والشرق – عبر وادى الفرات ، ومدينة تدمر Palmyra السورية والجزيرة العربية ، والبتراء Petra والبصرة ، وفى مصر ووادى النيل والإسكندرية وعن طريقها استقبلت أوروبا أجمل أنواع الأقمشة والبهارات وأجمل وسائل الرفاهية الشرقية ، التى كانت تستبدل بالمعادن من الغرب ،وهكذا قدمت هذه الحركة سببًا لوجود القوة ووسيلة لإنفاق الثروة المكتسبة من الفتوحات ، والتى تضاعفت عن طريق استغلال رعايا هذه الأوطان بواسطة الغزاة الغربيين .

فحركة التجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط اشتدت سرعتها نتيجة انتزاع موانى وأسواق مصر وسوريا وآسيا الصغرى من أيدى الخائفين من البحر والقوميين الفرس والمصريين ، انتزعتها أيدى المنتفعين من البحر وأهل العواصم الإغريقية من أصحاب الأعمال التجارية الكبيرة المرتبطين بالمستعمرات الإغريقية حول البحر المتوسط بعلاقات تقليدية .

ففي غضون المائتى عامًا السابقة على فتوحات الإسكندر ، تنامت هذه المستعمرات الإغريقية وازداد عددها على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، فوطن الإغريق كان محصوراً فى شبه جزيرة جبلية أساسًا ، منقسمة إلى مجتمعات صغيرة مستقلة ، منفصلة سياسيًا بسبب المنافسات والصراعات المستمرة بينهم ، وكان لضغط السكان ووجودهم بالقرب من البحر أثره الفعال فى تنشيط عمليتى : الهجرة ، وإقامة المستعمرات بصورة مستمرة وبرغم المنازعات والتنافس بين المستعمرات المختلفة ، فقد كانت هناك وحدة خفية تربط بينهم كما هو الحال فى الوطن الأم للإغريق وهى وحدة قائمة على لغة مشتركة وتقاليد مشتركة ، ومصالح تجارية مشتركة ، وأحيانا كانت هذه الوحدة تتكشف مؤقتًا فى شكل تحالفات غير مأمونة للدفاع ضد مختلف الأعداء الخارجيين مثل أهل قرطاجة والرومان فى الغرب ، والفرس فى الشرق الذين كانوا يهددون وجودهم بصورة مستمرة ، وقد جاء التهديد الرئيسى من بلاد فارس ، ففى منتصف القرن السادس ق.م ، بدأ كورش Cyrus بغزو أسيا الصغرى واكتسح المستعمرات الإغريقية فى أيونيا ، ومد حدود إمبراطوريته غربًا حتى مضيق البسفور، واحتل ابنه قمبيز مصر ، وفى ٥١٣ عبر داريوس الأول مضيق البسفور واحتل طراقيا الشرقية Thrace ، وفى سنة ٤٩٠ - بعد إخماد ثورة تمرد فى المستعمرات الإغريقية بجزيرة أيونيا - قام الفرس باكتساح بلاد اليونان قبل أن تتم هزيمتهم على أيدى الأثينين فى معركة ماراثون، وفى سنة ٤٨٠ قام أكسيرسيس Xerxes بغزو أوربا بجيش جرار على أمل وضع حد للمقاومة الإغريقية ودفع حدود الإمبراطورية الفارسية إلى أبعد ما يمكن باتجاه الغرب ، حتى هذا التهديد الخطير لم ينجح فى توحيد الدول الإغريقية جميعاً، لكن تم تنظيم حركة مقاومة مكنتهم من هزيمة الفرس أولاً فى موقعة سلاميس البحرية (٤٨٠) ثم فى معركة بلاتيا Plataea "٤٧٩" البرية وهذه أبعد نقطة وصلها العدوان الفارسى عن طريق البحر .

تعتبر الخمسون عامًا التالية عمومًا هى قمة العصر الكلاسيكى للإغريق - عصر ثيمستوكليس وبريكليس ، وايسخيلوس وسوفوكليس ، بل عصر بندار وفيدياس ، وعصر بناء معبد البارثينون .

لقد تفتت التحالفات الطارئة التى ضمنت هزيمة اكسرسيس وبعد وقت قصير – وحوالى منتصف القرن الخامس ق.م ، عادت الدول الإغريقية إلى حالة الحرب الأهلية المعتادة ، على الرغم من وجود الفرس على مقربة منهم ، إذ كانوا لا يزالون فى آسيا الصغرى ، بعد أن تحالفوا مع الفينيقيين وأصبحوا يشكلون تهديداً للسيادة البحرية الإغريقية ، أما أثينة التى تمثل رأس الحربة فى المقاومة الإغريقية للفرس ، فقد اشتبكت فى عام ٤٥٠ للمرة الثانية مع العدو الفارس الشرقى وحثت المصريين على الثورة ضد المحتلين الفرس ، وحاولت أن تستولى على قبرص ، لم تحصل أثينة على أى مساعدة من بقية شعوب الإغريق ، وتحقق السلام سنة ٤٥٠ ، تاركًا قوة فارس وهى لا تزال معلقة مثل سحابة سوداء فوق رءوس الإغريق .

فى ٤٣١ بدأت حرب السنوات العشر بين أثينة وإسبرطة وهما أعظم المدن الإغريقية وأقواها ، وانتهت الحرب بهزيمة أثينة واحتلالها وتصادف حدوث ذلك مع نهضة مقدونيا ، دولة المحاربين القائمة فى الشمال الغربى ، والتى استطاع ملوكها بقوة السلاح أن يفرضوا اتحاداً عابراً على الدول الصغرى المتحاربة فى شبه جزيرة الإغريق ، كان هذا هو عصر يوربيديس وأريسطوفانيس ، عصر زينوقون ، وبراكسيتليس ، بل عصر سقراط وأفلاطون .

لكن حتى إسبرطة ، المنتصرة على أثينة ، كانت أضعف منها فى العمل على جمع الإغريق وتوحيدهم ضد تهديد فارس الماثل أمامهم أو من أجل أى هدف أخر ، وسرعان ما تفتت قوتهم ، وقد تمكنت أثينة ، بتحالف غير آمن مع طيبة أن تستعيد استقلالها مرة ثانية ، وفى ذات الوقت ، أخذ المقدونيون وهم فلاحون ومن فرسان الريف الأثرياء الذين ينطقون لهجة إغريقية خشنة ، ومن أجل ذلك يحسبونهم من البرابرة[1] ، أخذوا يمدون حدودهم شمالاً إلى إيلليريا ، وغرباً إلى طراقيا وجنوبياً إلى شبه الجزيرة الإغريقية وعبثًا حاولوا توحيد الدول القائمة فى الجزيرة اليونانية ضد الغزاة ، وفى سنة ٣٣٨ هزم فيليب المقدونى الأثينين وحلفائهم فى موقعة خيرونيا Ghaironeia ، التى جعلته سيداً على شبه الجزيرة الإغريقية كلها ، وهكذا أصبح الإسكندر ابن فيليب المقدونى وخليفته ، حاكماً لبلاد الإغريق الموحدة قسراً وغير المستقرة عندما شرع فى سنة ٣٣٤ فى قيادة المحاربين المقدونيين عبر مضيق الدردنيل للقيام بحملة عسكرية

ضد الفرس ، وفى ٣٣٣ دخل سوريا بغرض الاستيلاء على موانئ الفينيقيين وتدمير الأساطيل البحرية الفينيقية وقواعدها التى تؤمن مواصلات الفرس مع أيونيا وتمكن الفرس دائمًا من تهديد شبه جزيرة اليونان وما حولها من الجزر ، واقتحم داريوس الثانى بالجزء الرئيسى من جيشه المعركة فى محاولة منه لسد الطريق المؤدى إلى سوريا ، لكن الإسكندر هزمه هزيمة نكراء فى أيسوس Isuss ، عند أبواب قليقيليا بين جبال طاوروس وبين البحر الأبيض المتوسط ، فى معركة هى إحدى معارك التاريخ الحاسمة (٣٣٢) .

واستسلمت الموانى الفينيقية سريعًا ماعدا مينائى صور Tyre وغزة Gaza ، وسقطت صور بعد حصار ستة أشهر أما غزة فقد سقطت بعد شهرين ، وتقدم أحد جيوش فارس عبر الطريق البرى لاستعادة آسيا الصغرى ، لكنه منى بالهزيمة على يد انتيجونس الأعور، أحد قادة الإسكندر الأكبر وانتهى أمر تهديد فارس المباشر لبلاد الإغريق ، لكن الإسكندر لم يعد يفكر بمنطق الدفاع ، فقد انفتحت أمامه آفاق جديدة بعد انتصاره فى أيسوس ، انفتحت له بلاد فارس ودنت منه كل الثروات الأسطورية فى الشرق وراء نهر الفرات ، لكن مصر كانت لا تزال تحت الاحتلال الفارسى ، وقبل الزحف نحو الشرق ، اضطر الإسكندر إلى القضاء على هذا التهديد القوى بمحاصرة جيشه ، ولم يجد سوى مواجهة ضعيفة ، كانت الحامية الفارسية التى تحرس مدينة الفرافرة Pelusium بوابة مصر الشرقية حامية ضعيفة ، وكان المصريون فى حالة ثورة مستمرة ضد المحتلين الفرس ، فرحبوا بالغزاة المقدونيين كحلفاء ، لقد قضى الإسكندر صيف ٣٣٢ – ٣٣١ ق.م فى مصر حيث أسس على شواطىء البحر المتوسط المدينة التى عرفت فيما بعد باسم الإسكندرية، وهناك علم بنبوءة آمون رع فى سيوة التى تقول بأنه ابن الإله ومن ثم فقد أصبح الإسكندر رسول العناية الإلهية لحكم مصر، لذلك لم يترك سوى حامية صغيرة وعددًا قليلاً من الموظفين للإشراف على أمور الإدارة فى آخر بلد قام بفتحها ، ثم تقدم نحو الشمال الشرقى تجاه الفرات لغزو بلاد فارس .

وقعت المعركة الحاسمة فى خريف ٣٣١ ق.م عند جاوجيمالا Gaugemala وراء نهر دجلة ، وهزم داريوس للمرة الثانية وانسحب عبر جبال زاجروس Zagros

فطارده الإسكندر ، "واحتل العواصم الفارسية ، وحرق قصورهم ، واستولى على احتياطى الإمبراطورية من الذهب ، وطوق شباب فارس ووضعهم تحت أمر المدربين المقدونيين لإعدادهم كجنود فى مملكته الجديدة" ، أما داريوس فقد قتل بيد شعبه ، واضطر الإسكندر لقضاء ثلاثة أعوام يحارب من أجل إخضاع الجزء الشرقى كله من بلاد فارس ، عندئذ سار إلى الهند ، لكنه عندما وصل إلى إندوس Indus كان المقدونيون قد فاض بهم الكيل ، فرفضوا أن يتبعوه لتعزيز غزواته هناك ، فعاد وجيشه عن طريق البر ، لكنه أمر أحد قواده واسمه نياركوس Niarchos من جزيرة كريت ، أن يعود بالبحر من عند مصب نهر الإندوس حتى رأس الخليج الفارسى ، وهكذا كشف الطريق وأنار هذا الممر الذى صار فيما بعد طريقاً تجارياً هاماً .

عاد الإسكندر ثانية إلى بلاد فارس فى ٣٢٥ ق.م ، ويبدو أنه كان مصمماً على أن ينشىء مركز إمبراطوريته هناك ، وأنه اعتبر نفسه خليفة لنسل عظيم من ملوك فارس ، لقد تبنى عادات البلاط الفارسى وتزوج روكسانا ، ابنة أحد النبلاء ، لم يبد أى إشارة على رغبته فى العودة إلى الأرض التى ولد فيها أو إلى المدينة التى بناها فى مصر ، لكن أياً كانت الخطط التى أعدها للمستقبل فقد ذهبت كلها هباء ؛ إذ مات الإسكندر فى صيف ٣٢٣ بمرض الحمى الذى أصابه فى بابل حيث كان يعد لحملة بحرية للاستيلاء على جنوب الجزيرة العربية .

أما وريث الإسكندر المفترض فقد كان لا يزال جنيناً فى بطن أمه روكسانا ، وكان المطالب الثانى بالوراثة هو أخوه غير الشقيق ، ارهيدايوس ، الذى كان موجوداً فى بابل فى ذات الوقت الذى مات فيه الإسكندر ، ولم يثر أحد منهما حماساً كبيراً لدى قواد الإسكندر الكبار الذين وقع عليهم عبء إدارة الإمبراطورية ، وفى نطاق تلك الملابسات كان يبدو أن الصراع على السلطة سوف يستمر وقتاً طويلاً بينهم إذ لم يتفقوا إلا على موضوع واحد ، فلم يكن لدى أحد منهم حماس سيدهم الراحل للبقاء فى بلاد فارس ، ولم يشاركه أحد منهم حلمه الخاص بإيجاد جنس متفوق ، أو اتحاد بين الشرق والغرب عن طريق الزواج المختلط ، وبمجرد رحيل الإسكندر إلى العالم الآخر ، فإنهم قاموا بطرد زوجاتهم الفارسيات اللاتى فرضهن عليهم - ونظروا إلى الفرس كشعب مهزوم وخاضع لهم ، و فقدت البلاد الواقعة شرق الفرات أهميتها بعد

أن سلبوا كنوزها وثرواتها ، وأصبح فى إمكانهم الاستغناء عنها ؛ فقد ساورهم القلق بسبب بقائهم بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط .

لقد أعقب ذلك فترة صعبة امتلأت بالمنافسات والحروب ، التى استمرت عشرين عامًا ، انقسمت فيها إمبراطورية الإسكندر بين قواده الكبار ، وظل التأثير الواسع لهيمنة إغريقية ، يمارسها عدد من الحكام الإغريق الطغاة تساندهم جيوش يقودها ضباط إغريق ، أما الشئون الإدارية فقد كانت فى أيدى البيروقراطية الإغريقية التى أثرت عن طريق البحار ورجال الصناعة والزراعيين ، أما عمليات تجميل تلك البلاد فكان يقوم بها المعماريون والنحاتون والرسامون الإغريق ، الذين كانوا يستلهمون شعراءهم وفلاسفتهم ، وكانت الأجناس الخاضعة تقوم على خدمتهم ، ثم أخذ هؤلاء الحكام موقع الهيمنة الفارسية السابقة على الجزء الجنوبى من آسيا الصغرى ، وسوريا ، ومعظم وادى الفرات ، وعلى مصر وقورينا Cyrenaica وجزر شرقى البحر المتوسط ،وكذلك على الجزء الرئيسى من وطن الإغريق ذاته(٢) .

لم يكن الإغريق غرباء على أى من هذه البلدان ، فأيونيا إغريقية شأنها شأن شبه الجزيرة ، فقد عاشت المستعمرات اليونانية قرونا فى دلتا النيل بمصر ، حيث بنيت هناك مدينة نوكراتيس ، على الفرع الكانوبى Canopic للنيل ، وفى قورينا وعلى سواحل آسيا الصغرى ، وكان الجنود الإغريق يخدمون كجنود مرتزقة فى جيوش ملوك مصر وآسيا الصغرى ، وقد تقاسم تجار الإغريق تجارة شرق المتوسط المحمولة بحراً مع الفينيقيين ، لكنهم خارج شبه الجزيرة الصغيرة ، وخارج سواحل جزرهم ، فإنهم ظلوا دائمًا ، جنسًا غريبًا يعيش تحت حكم أجنبى ، فى وسط بيئات غريبة ، وديانات غريبة ، وعادات غريبة ، الإغريق كأفراد كان منهم أغنياء نوى نفوذ وتأثير ، لكن الإغريق ككل فليس لهم إلا أثر ضئيل فى نطاق الثقافة الهيراطيقية والإدارية فى الإمبراطورية المصرية والفارسية وفى بعض المستعمرات الإغريقية ، وخصوصًا ما كان منها فى أيونيا وصقلية ؛ إذ كان لهم نصيب من الإنجازات الفكرية الكلاسيكية للإغريق ، لكن الحضارة الإغريقية الكلاسيكية كان اهتمامها الأكبر بالشئون الإقليمية ، وبتعبير حديث ، نقول إنها كانت ثقافة شعبية ، كان يمكن لسجلاتها أن تختفى من التاريخ لولا الإسكندر ، ففتوحاته التى حققها فى غضون عشر سنوات رفعت الإغريق من المستوى

الإقليمي إلى مستوى الجنس الإمبريالي ، الذى يتحكم فى كل القوى والثروات التى سيطرت عليها إمبراطورية مصر وإمبراطورية فارس من قبل ، وكما يحدث لاندفاع الماء عند انهيار سد ، هكذا حدث للعبقرية الإغريقية حين تدفقت خارج حدودها الضيقة المضطربة ، وانتشرت فى شرق البحر المتوسط ؛ إذ تلاشت ضغوط المكان الضيق ، والفقر ، وخطر الغزو من الخارج ، وخطر التخريب من الداخل ، وأتيح لفضائل الإغريق ورزائلهم أن تزدهر في جو أكثر سعة ورحابة ، وقد جرى استنساخ النمط السياسى القديم للتحالفات المتغيرة والمنافسات واستخدامه مرات كثيرة عبر خلفية تاريخية كبيرة ومتسعة .

لكن فى ظل حكم الممالك الاستبدادية الجديدة التى أنشأها خلفاء الإسكندر لم يعد ممكنًا للمواطن الإغريقى العادى أن يندمج فى السياسة بحيوية ونشاط كما كان يفعل فى السابق ، لقد تحول هذا إلى اهتمام لا يقل حدة لإبراز قدراته وإمكانياته الفردية في الشعر الإغريقى ، والدراما الإغريقية ، والفلسفة الإغريقية ، التى كانت فى السابق فنًا شعبيًا ، ووسيلة للتعبير عن الذات ، وأصبحت الآن موضع رعاية ، ورمزًا للمكانة الإغريقية فى مختلف القصور الإغريقية ، أما طريقة حياة الإغريق التى تتراءى فى الجمنازيوم ، والباليسترا ، والمسرح ، والمسابقات الرياضية ، ومسابقات الخطابة والشعر ، وكذلك فى المعابد ومسرحيات الأسرار ، كانت تتحكم فى أسلوب المعمار وفى الجو الاجتماعى فى المدن الإغريقية الجديدة فى شرق البحر المتوسط ، وصارت هى الوسيلة المرئية التى ظهرت بها وبرزت عن طريقها الحضارة الإغريقية حتى وصلت إلى الأجناس الخاضعة لسيطرتهم .

هذا الجو الحضارى لم يكن محدوداً بالبلاد شرق المتوسط التى يحكمها خلفاء الإسكندر الأكبر ، بل أن روما الجمهورية والبلاد الواقعة غرب المتوسط قد تأثرت به أيضًا ، فسطوتها على عقول الناس كان يصعب إدراكها بوضوح لكنها كانت سطوة عميقة ، غير أنها لم تفعل شيئًا لتلقين الناس الإيمان بالأفكار الديمقراطية المتداولة آنذاك فى العديد من دول المدن الإغريقية ، وظل تأثيرها محصوراً بين المترفين والمتعلمين والمثقفين ، وكان تأثيرها بين هؤلاء تأثيراً تحررياً فى أنها شجعت الأخذ بالمناهج الفردية المعتمدة على منطق العقل والمحترمة لرغبات الإنسان ، غير المستمدة من سلطة التقاليد ، وكانت هذه الحضارة محافظة سياسيًا ، ومدمرة فكريًا ؛ إذ افترضت أن

حدود الحرية الإنسانية تفرضها الأقدار ، ثم قبلت لنفسها القيود التى يفرضها الحكم كبديل أخف ضرراً من شرور الفوضى ، وفى نطاق هذه القيود الحقيقية أخذت تدعو لتنمية العقل البشرى إلى أقصى حد ممكن ، كما دعت للاستمتاع بالحياة الإنسانية لأقصى حد ممكن دون عوائق خيالية يفرضها الدين أو التقاليد ، فالآلهة ملوك مثل سائر الملوك ، تتوجب على الناس عبادتها ، لكن عبادة شكلية وليست بدوافع إيمانية ، بل كجزء من جهاز حضارة يمكن الاستمتاع فيها بحرية الفكر وحرية السلوك .

وكانت الهللينستية هى الاسم الذى أعطى لهذه الحضارة الإغريقية الإمبريالية المتسعة ، كانت الهللينستية وسيلة لحقن العلوم والفنون الإغريقية فى مجرى تاريخ العالم وتوصيلها للأجيال التالية .

لقد تغير عالم الهللينستية وازداد اتساعاً ، وعلى الرغم من أن الخاصية المميزة لدولة المدينة كانت هى الاحتفاظ بقدر كاف من القوة الفعلية إلا انها انهارت على المستوى النظرى ؛ إذ حلت محلها فكرة العالمية universalism ثم وليدتها الفردية individualism وقد نبعت هذه الفكرة من كلمة oecumene ومعناها المسكونة أو العالم المسكون ، وهو ملكية مشتركة بين الشعوب المتحضرة ، ومن أجل الاستفادة بهذه الفكرة تم وضع صيغة لغوية يونانية هى koine بمعنى الخطاب العام the common speech ، الذى كان يستخدمه كثير من الآسيويين أيضًا ، فاللغة اليونانية بإمكانها أن تحمل إنسانًا على الذهاب من مرسيليا إلى الهند ، أو من الكاسبيان Caspian إلى الشلالات ، لأن الخطاب العام أو اللغة المشتركة والتعليم كانا يساهمان فى تنمية وإشاعة ثقافة مشتركة فى كل مدينة من مدن العالم المتحضر ، فالأدب والتعليم ، وفوق كل ذلك الفلسفة ، يصورن جميعاً عالمًا أكبر وأكثر سعة من بلاد اليونان ، فقد كان أبناء الطبقات العليا فى مجتمع روما وفى بعض المجتمعات الآسيوية يشعرون أن الثقافة الإغريقية هى مطلب هام لابد من الحصول عليه ، على الأقل بالنسبة للشئون الخارجية ، إذ تم تدويل التجارة وسقطت الحواجز ، وتحرر الفكر بدرجة لم تتكرر إلا فى العصور الحديثة ، أصبحت الكراهية بين الأجناس شيء ينتمى إلى زمن مضى ، ولم يعد هناك اضطهاد بسبب الدين ، فالأخلاق أصبحت مسألة تخص العلم ، لا السلطة ، فقد اتسع مجال الحرية الشخصية للفرد[٣] ، أما بؤرة هذه الحضارة الهللينستية ، وعاصمتها غير الرسمية فكانت الإسكندرية .

Notes

(1) A. R. Burn. The Pelican History of Greece, p. 326.
(2) ibid. p. 339.
(3) A. W. Tarn & G. T. Griffith. Hellenistic Civilisation (3rd ed.). pp. 2-3.

٢- البطالمة الأوائل

اختار الإسكندر موقع الإسكندرية بالقرب من الطرف الشرقى لسلسلة التلال الحجرية الجيرية الضيقة الممتدة من الغرب إلى الشرق والبارزة على شكل إصبع خارج من حافة الصحراء الليبية ومتداخل بين دلتا النيل والبحر الأبيض المتوسط، بين حافة الصحراء فى الغرب إلى أبو قير فى الشرق ، يحيط بها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بحيرة مريوط ، التى تشكلت أساسًا من الفرع الغربى للنيل الذى كان يتجه نحو البحر عند حافة الصحراء ثم غير مجراه نحو الشرق بفعل سلسلة التلال الممتدة بمحازاة السفح حتى التف حول رأس أبى قير ومنها إلى البحر الأبيض ، وقبل إنشاء الإسكندرية بوقت طويل زحفت الصحراء شرقًا وردمت هذا الفرع ولم تترك سوى شريط بحيرة مريوط الواسع يغطى المنخفض الواقع إلى جنوب التلال مباشرة ، كانت بحيرة مريوط مرتبطة براس كانوب Canopic ، وكان فى ذلك الوقت هو الفرع الغربى للنيل الذى يصب فيها من الجنوب الشرقى عن طريق عدد من القنوات الصالحة للملاحة .

كان اختيار موقع الإسكندرية القريب من الطرف الشرقى لرأس أبى قير بحوالى سبعة أميال اختياراً فرضته الظروف الطبيعية نتيجة وجود جزيرة صغيرة بعيدة عن الشاطئ بحوالى ميل ، وتشكل طبقة صخرية بارزة من تلال حجرية جيرية مغمورة تحت الماء تمتد شمالاً فى محاذاة سلسله التلال الرئيسية والمتفرعة بعيداً عنها بمسافة تقرب من نصف الطريق المحاذى لامتدادها وهى منطقة العجمى الآن ثم يعاد ربطها بما يسمى السلسلة silsileth على الجانب الشرقى لميناء الإسكندرية الشرقى ، هذه الجزيرة عبارة عن شريط صخرى تسمى جزيرة فاروس Pharos ، والتى تحمى الجزء الرئيسى عند هذه البقعة من الرياح الشمالية التى تهب دائمًا على هذا المكان وبعد اتصالها بالجزء الرئيسى من أرض المدينة عن طريق جسر فإنها تقوم بحماية الميناءين الشرقى والغربى على جانبى الجسر ، وفى حالة توفر الإمكانات لقيام ميناء مزدوج

ممتاز يقع على البحر الأبيض شمالاً وميناء نهرى يرتبط بالنيل فى الجنوب ، وسهولة تشغيل قناة قصيرة بصورة عملية خلال التلال التى تربط الاثنين ، تصبح الإسكندرية فى موقع متميز من الناحية الاقتصادية ، وهو مكان محصن يسهل الدفاع عنه وعن طريق مدخلين ضيقين يربطانها من الشرق والغرب باليابسة ، كانت مياه الشرب العذبة تصلها بكميات كافية ، وكانت تتمتع بمناخ معتدل بسبب هبوب الرياح الشمالية الغربية الدائم والتى تهب على مسافة بعيدة فوق البحر حتى تصل إلى مياه البحيرة البارد ، كما يقول استرابو Strabo :

إن الجو الصحى للهواء ناتج من حقيقة أن الأرض تغسلها المياه من كلا الجانبين وأيضًا بسبب فيضان النيل فى وقته ، أما المدن الأخرى ، والتى تقع على البحيرات فيهب عليها هواء جاف وثقيل أثناء حرارة الصيف لأن البحيرات كانت عندئذ تتحول إلى مستنقعات من ناحية الأطراف بسبب التبخر ، وعندما ترتفع الرطوبة الملوثة يصبح الهواء كريه الرائحة ويتسبب فى انتشار الأمراض المعدية وحين يفيض النيل صيفًا عند الإسكندرية فإنه يملأ البحيرة أيضا بالماء ، ويقضى على المستنقعات التى تفسد البخار المتصاعد ، وفى ذلك الوقت تهب الرياح الآتية من الشمال ومن فوق بحر شاسع مما يتيح لأهل الإسكندرية أن يقضوا أوقاتهم صيفًا فى جو من المتعة والبهجة(١) .

لم يكن المصريون بحارة عظماء ، ومع ذلك بنوا فى فترة غائرة من التاريخ ميناء على الطرف الجنوبى الغربى لجزيرة Pharos وقد ذكرها هومر Homer فى الكتاب الرابع من الأوديسة Odyssey وهو يصف عودة مينيلاوس Menelaus من طرواده Troy والتى ما تزال بعض آثارها مرئية حتى اليوم ، ولكن عند فتح الإسكندر لمصر لم يكن هناك ميناء على الأرض اليابسة ، بل مجرد قرية مصرية تسمى راكوتيس Rhakotis على الطرف الجنوبى للتلال الضيقة المواجهة لبحيرة مريوط حسب ما يقول استرابوا Strabo .

كان ملوك مصر الأوائل قانعين بما عندهم لا يحتاجون للواردات الأجنبية إطلاقًا ، وكانوا يتحاملون ضد كل من أبحر فى البحار ، فوضعوا حارسًا على الإقليم ، وأمروا السكان بإبعاد كل من يحاول الاقتراب منهم ثم أعطوهم مكانًا للسكنى فى قرية راكوتيس ، التى قام سكانها بتسليم المراعى حول القرية لرعاة من القادرين على منع اقتراب الغرباء(٢) .

ومن المؤكد أن الإسكندر بنظرته العسكرية الثاقبة قد تنبه سريعاً إلى أهمية هذه المدينة كميناء ومركز تجارى ، لكن من غير المحتمل أن يكون قد تنبأ بما سوف تحققه هذه المدينة من أمجاد فى المستقبل ، إذ لم تكن سوى واحدة بين كثير من المدن التى أنشأها وسماها باسمه، كما كان يفعل كل الفاتحين القدماء ، ومن غير المحتمل - أيضاً - أن يكون قد قصد أن يجعلها عاصمة الإمبراطورية التى كانت فى طور التكوين ، ولم يكن يستطيع التنبؤ بأن جثمانه سوف ينقل ليدفن فيها ، وكان قد أعطى تعليمات عامة إلى دينوكراتيس Dinocratis وهو المهندس الذى شيد معبد ديانا العظيم فى أفسس Ephesus لكى يقوم ببناء هذه المدينة ، ومن المحتمل أنه بعد أن أشرف على الخطط الخاصة بتنفيذها رحل إلى بلاد فارس Persia ، وقد قدر له أن يعود بعد عدة سنوات جثماناً محنطاً ومكفناً فى صندوق من الذهب وفى وسط موكب رائع ليرقد فى مقبرة تليق به عند تلاقى الطريقين الرئيسين فى وسط المدينة.

تقع التلال الحجرية الجيرية المنخفضة بين البحر والبحيرة التى يبلغ عرضها من واحد ونصف إلى اثنين ميل عند النقطة التى أقيمت فوقها مدينة الإسكندرية ، وقد وضع أساس المدينة على شكل متوازى أضلاع يمتد حوالى أربعه أميال بطول التلال وعرضها كله حيث يجرى فيها سبعه شوارع متوازية ومتساوية الأعراض ، وعلى زوايا مستقيمة لهذه الشوارع يمتد طوليا أحد عشر شارعاً متوازية بعضها مع بعض ومتساوية الأبعاد تقريبا إن الشوارع الطولية قد أختيرت مواقعها لتمتد فى نفس اتجاه الرياح الشمالية الغربية السائدة والتى تسهم فى تبريد جو المدينة صيفا ، يمتد الشارع العرضى الرئيسى بعرض ٣٠ متراً ، ويتقاطع معه فى وسط المدينة الشارع الطولى الرئيسى بعرض ١٤ متراً أما بقية الشوارع الأخرى طولية وعرضية حوالى ٧ أمتار عرضاً وأن محيط الأسوار حوالى ١٢ ميلا ، وكان جسر الهيبتاستديون Heptastadion الذى يربط المدينة بجزيرة فاروس يختصر المسافة بين الجزيرة وأرض المدينة من نقطة عند الطرف الغربى للمدينة إلى أقصى نقطة جنوب الجزيرة ، مما يمكن أطراف الجزيرة الشرقية والغربية على حماية الموانى الشرقية والغربية على التوالى ، إن الجانب الغربى للميناء الشرقى تحده الجزيرة والجسر بينما الجانب الشرقى محدود برأس لوكياس lochias حيث تلتقى التلال الثانوية الجيرية المغمورة بالمياه بالتلال

الرئيسية عند طرفها الشرقى ويرتبط هذا النتوء الجبلى ببقية المدينة عن طريق شريط ضيق من الأرض يرتكز على الميناء الشرقى و يسهل الدفاع عنه عند الضرورة، وقد صمم على شكل قلعة حيث موقع السكنات العسكرية ومقر الحاكم .

وفى المفاوضات التى دارت بين قادة الإسكندر عقب وفاته انصب اهتمام معظمهم على المناورات التى تمكنهم فى الوقت المناسب من الحصول على التأييد الشعبى اللازم لخلافة الإسكندر على كامل إمبراطوريته ، والتى ما زالوا يعتبرون جذورها مغروسة فى مقدونيا **Macedonia** وشبه الجزيرة اليونانية ، ومن ثم لم تكن هناك سوى معارضة ضئيلة عندما تخلى أحدهم وهو بطليموس لاجوس **Ptolemy lagus** عن المطالبة بحقه فى الوصاية على أريدهايوس **Arridhaeus** أخو الإسكندر غير الشقيق أو طفله الذى لم يولد بعد من **Roxane** روكسانا ، واختار أن يكون حاكمًا لمصر ، ويبدو أن الآخرين قد نظروا إلى هذا الأمر على انه أشبه بتعيين "مندوب استعمارى" يخرج صاحبه من الاشتراك فى الصراع النهائى من أجل الخلافة .

يستحيل طبعًا أن نعرف ما كان يدور فى عقل بطليموس حين فضل هذا الاختيار، وكما أظهرت الحوادث المتتالية فإنه كان رجلاً طموحًا وقديراً ، وكان فى الرابعة والأربعين من عمره عند وفاة الإسكندر ، وكان مقربًا جداً منه كرئيس لهيئة أركان حربه وكقائد لحرسه الخاص ، وهو الذى كتب فيما بعد تاريخ حملاته ، لكن من غير المؤكد أنه اصطحب الإسكندر فى حملته إلى مصر ولكنه حصل بغير شك بطريق مباشر أو غير مباشر على بعض المعلومات عنها وبناء على هذا الافتراض الذى يبدو محتملاً ، فإنه رغب فى الحصول على مملكة مستقلة وفى تأسيس عائلة ملكية ، وهناك أسباب صحيحة تبرر اختياره هذا ، منها أن مصر بلد يسهل الدفاع عنها والطريق الوحيد المحتمل لغزوها من الشرق هو صحراء سيناء والتى كانت تسيطر عليها قلعة بيلزيوم **Pelusium** (الفرافرة) فى الركن الشمالى الشرقى لدلتا النيل ، كانت دلتا النيل نفسها بشبكتها من القنوات والترع الطبيعية تمثل عائقًا هائلاً لأى غاز ، ويحتمل أنه قد تنبأ انه سيكون نسبيا بمنأى عن الحروب الحتمية القادمة بين القادة الآخرين من أجل الخلافة ، وفى المدينة الجديدة التى قام بتأسيسها سوف تكون له ميناءً بحريًا ممتازًا يسهل الدفاع عنه ، ويستطيع عن طريقه أن يطور تجارته ، كما يستطيع بواسطة

أسطول بحرى كفء إذا واتته الفرصة ، أن يهدد ويتحالف ويسيطر عمومًا على جزر بحر إيجة وموانى ساحل سوريا وآسيا الصغرى المعرضة للهجوم ، وكانت مصر بلداً غنياً وأهلها سلسوا القيادة طيعون و مواصلاتها سهلة وجهاز الإدارة بها يتسم بكفاءة وسطوة تحكمية راسخة منذ زمن طويل ، ومن خلال مصر توجد إمكانية لمبادلة التجارة الغنية مع الشرق والوصول بها إلى كل البلاد التى فتحها الإسكندر أمام الإغريق سواء عن طريق البحر الأحمر ، أو بضم الأرض المجاورة لسوريا ؛ لأن غزو سوريا الواطئة Coele Syria من مصر أيسر جدا من عملية عكسية لعدم وجود عوائق فى سوريا) .

تتجه الإسكندرية بموقعها الإستراتيجى للداخل نحو النيل وللخارج نحو البحر الأبيض ، ويمكن الدفاع عنها ضد الهجمات الآتية من أى جهة ويمكنها أن تكون مركز جاذبية لكل من الشرق والغرب ، بل يمكن أن تصير مصفاة تمر من خلالها وسائل المواصلات بين بلاد الشرق والغرب التى فتحها الإسكندر ، باجتياز الأماكن التى مزقتها الحرب والطرق الشمالية المعرضة للهجوم الأكيد من خلال آسيا الصغرى ومن المحتمل أن بطليموس كان يعمل مع الإسكندر فى خططه لإرسال حملة إلى جنوب الجزيرة العربية وقد ألغيت بسبب وفاته ، وعن طريق هذا صار واعياً لإمكانيات شبه الجزيرة العربية Arabia felix والتجارة مع الشرق بصفة عامة ، وأدرك أهمية موقع مصر بالنسبة لهم .

وبنهاية سنة ٣٢٣ ق.م خلال خمسة شهور من وفاة الإسكندر كان بطليموس فى مصر ، وكان الإسكندر بعد احتلاله مصر قد عين عدداً من المقدونيين والمدنيين اليونانيين والضباط العسكريين للإشراف على سير الإدارة وكانت مصر تمتلك نظامًا بيروقراطياً مؤسساً على أسس متينة ويتمتع بكفاءة نسبية ، وكنتيجة للاحتلال الفارسى فقد أصبح الشعب معتاداً على الحكم الأجنبى بالرغم من عدم رضاه ، ولقد كان اليونانيون يحملون نفس الإعجاب بالمصريين كما فعل الرومان فيما بعد بالحضارة اليونانية ، ونتيجة لذلك أظهر اليونانيون احترامًا عظيمًا وتسامحًا نحو الديانات والعادات الوطنية أكثر من الفرس ، وبذلك فضلهم المصريون على الفرس .

وأثناء غياب الإسكندر فى فـارس قـام كليمونيز Cleomenes وهـو مواطـن من مستعمرة نوكراتيس بالدلتا كان الإسكندر قد عينه مشرفًا عامًا على الشئـون المالية dioscetes ، قام هذا الرجل بتنصيب نفسه ديكتاتورا على مصر ، واشتكى الناس من سوء سلوكه ، ووصلت فعلاً شكواهم إلى بلاد فارس ، إلا أن الإسكندر لم يعرها اهتمامًا ، لكن بطليموس كان يعلم بها ، وأدرك مقدما أنه لابد أن يتعامل مع كليمونيز بما يتطلبه هذا الموقف ، لأنه كان مصممًا على أن يكون سيدًا فى بيته ، وفى خلال بضعة أسابيع من وصوله إلى مصر ، تم طرد كليمونيز من وظائفه وتم إعدامه ، وفى نفس الوقت أعطى بطليموس لقادة الإسكندر إنذارًا بمدى طموحاته ،وكان من المقرر أن يتم نقل جثمان الإسكندر المحنط إلى مقدونيا ليدفن فى أرض آبائه ، فقد كانت إمبراطوريته من الناحية التقليدية تعد وحدة واحدة لا تتجزأ ، وأن موقع قبره سوف يحدد أين تكون عاصمتها ، إن امتلاك جثمان الإسكندر فى مثل هذه الظروف كان يمثل صفقة رابحة فى مقابل الوصاية على ورثته ، وفيما كان موكب الجنازة العظيم يتحرك من فارس باتجاه الشرق نحو البحر الأبيض ، قام بطليموس بإغراء أريهيدايوس Arrhidheus الضابط المسؤول ، وقدم له رشوة – فغير اتجاه الموكب جنوبًا واحضر الجثمان إلى مصر ، وبذلك استقبل بطليموس الجثمان فى مدينة ممفيس العاصمة القديمة لمصر ، وبناء على أوامر بطليموس وضع الجثمان مؤقتًا فى استراحة وفيما بعد (فى تاريخ غير معروف) كفن الجثمان ووضع فى صندوق من الذهب ، ونقل موكبه باحتفال مهيب إلى الضريح Soma ، وهى مقبرة فخمة كانت قد أعدت من أجله فى وسط المدينة التى أسسها الإسكندر بنفسه على البحر الأبيض ، والتى يحكمها بطليموس الآن .

وفى الحال وضع هذا العمل الرمزى بطليموس فى صدام مع بيرديكاس Perdiccas أحد قادة الإسكندر الذى كان وصيًا على ابن الإسكندر من روكسانا ، وبحكم هذا الوضع أصبح المنافس الرئيسى لبطليموس على الخلافة ، واتضح أن بيرديكاس كان بينه وبين كليمونيز نوع من التفاهم بخصوص مستقبل مصر، وكان إعدام كليمونيز سببًا فى تفاقم عدائه لبطليموس .

وهكذا بدأت أولى حروب الخلافة التى اشتعلت على مدى العشرين عاماً التالية بين بطليموس وبيرديكاس ، وقد غزى بيرديكاس مصر صيف ٣٢١ ، وانتهت حملته بكارثة ؛ فقد أعاق الفيضان تقدمه ، وأصيبت قواته بالعجز عن مواصلة القتال ، فهزم فى المعركة التالية ولقى حتفه .

وفى أعقاب موت بيرديكاس ، عقد قادة الإسكندر الأحياء اجتماعًا فى تريباراديسوس Ttriparadisos فى سوريا ، وكانت الإمبراطورية قد قسمت فعلا إلى ولايات ، وتأكد وضع بطليموس كحاكم لمصر وقورينا Cyrene التى احتلها حديثا ، وحصل أنتيجونوس Antigonus الأعور على فريجيا Phrygia فى آسيا الصغرى وحصل سيلوقى Seleucus على بلاد ما بين النهرين (أى العراق) وشمال سوريا ، فى حين استقل ليسيماخوس lysimachus بمملكة طراقيا Thrace ، وحصل أنتيباتر على مقدونيا ، أما دول المدن القديمة فى شبه الجزيرة اليونانية ، والجزر وأيونيا فقد كانوا مستقلين اسميا وخاضعين للنفوذ التنافسى لحكام فريجيا وطراقيا ومقدونيا ، لقد استمرت خرافة الوصاية سنوات قليلة ، حتى قام الأوصياء المحترمون بقتل الوريثين الرئيسيين الموضوعين تحت وصايتهم واصبح حكام الولايات - على اختلافهم - يخلعون على أنفسهم ألقاب الملوك .

كانت تريباراديسوس الوحيدة الحائزة على اعتراف مؤقت بالوضع القائم ، فلا أحد من المشاركين كان مستعداً لقبول الأراضى المقسمة هناك كتسوية دائمة حتى بطليموس الذى كان مكتفيًا بمصر ، تمنى أن يمد حدوده ونفوذه إلى سوريا الواطئة coele-syria وإلى أجزاء من جنوب آسيا الصغرى وإلى بعض الجزر اليونانية من أجل تقوية مركزه التجارى ، وبذلك ظلت العشرون سنة التالية فترة حروب مستمره. فى عام ٣٢٠ أى السنة التالية لتريباراديسوس Triparadisos احتل بطليموس سورياالواطئة وفى عام ٣١٦ ؛ فإن أنتيجونوس Antigonus الأعور حاكم فريجيا والذى اصبح بعد موت بيرديكاس المنافس الرئيسى لبطليموس قام بطرد سيلوقى من ولايته ، وأرغمه على اللجوء إلى بطليموس الذى حاول إقامة تحالف مع حكام الولايات الأخرى ضد أنتيجونوس وبناء عليه قام أنتيجونوس عندئذ باحتلال سوريا ، وتوغل جنوبيًا حتى غزة (فى سنة ٣١٥) وبعد أن أخمد بطليموس ثورة فى قورينا ، واحتل جزيرة قبرص سار

عبر سيناء ، وهزم ديميتريوس Demetrius ابن أنتيجونوس فى غزة ، ومكنه هذا من إعادة احتلال سوريا مرة أخرى وإعادة سيلوقى إلى ولايته (فى سنة ٣١٢) وسرعان ما أخذ ديمتريوس بثأره ؛ إذ هزم بطليموس فى شمال سوريا وأعاد احتلال سوريا الواطئة.

وفى هذا الوقت فإن طموحات أنتيجونس Antignus وابنه قد دفعت الحكام الآخرين – بطليموس Cassander الكاسندر المقدونى الذى خلف أباه المتوفى ، أنتباتر، وليسيماخوس حاكم طراقية وسليوقى حاكم بابل – إلى الدخول فى تحالف قلق ضدهما وجرت معارك الحرب بين بطليموس وبين ديمتريوس أساسًا فى البحر ، وتهددت التجارة البحرية فى شرق المتوسط بأشد الأخطار بما فى ذلك السيطرة على الموانئ والتجارة البحرية المحمولة بالبحر ، وتأرجحت أقدار المتحاربين فى سنة ٣٠٦ فأخذ بطليموس تحت حمايته جزيرة ديلوس فى بحر إيجة وكانت تحكمها أثينة لكن ديمتريوس أخذ يهددها ، فى نفس العام منى أسطوله بالهزيمة أمام ديمتريوس فى معركة سلاميس القبرصية وقام ديمتريوس بمحاولة فاشلة لغزو مصر .

وكانت جزيرة رودس أحد المراكز الهامة للتجارة فى شرق البحر الأبيض ، وكانت فى ذلك الوقت جمهورية مستقلة تحالفت مع بطليموس ، وفى سنة ٣٠٧ حاصرها ديمتريوس ولكنها صمدت أثناء الحصار بمساعدة أسطول بطليموس الذى استطاع اختراق الحصار عدة مرات وإمدادها بالمؤن والذخيرة وفى النهاية أرغم ديمتريوس على رفع الحصار عام ٣٠٥ وكان هذا انتصارًا كبيرًا لبطليموس فى الصراع من أجل السيطرة على شرق البحر الأبيض .

وبعد سنتين استطاع حكام مصر ومقدونيا وطراقية ، وبابل ، الذين انتحلوا لأنفسهم ألقاب الملوك واتبعوا أساليبهم أن يقوموا بهجوم برى موحد ضد أنتيجونيوس وابنه ، وفى اللحظة الأخيرة تراجع بطليموس إلا أن الحلفاء الثلاثة الآخرين بعد أن التقوا فى تقدمهم عند نقطة واحدة ، تقابلوا مع جيش أنتيجونوس فى شرق آسيا الصغرى وهزموه وقتلوه فى معركة إبسوس Ipsus سنة ٣٠١ ، أما ابنه ديمتريوس المعروف باسم Poliorcetes أو Besieger البسيجر نتيجة لهجومه الفاشل على جزيرة رودس ونجاته من المعركة فقد أصبح مصدرًا لإزعاج كبير ، وقام الحلفاء المنتصرون بتقسيم جديد للإمبراطورية فيما بينهم ، وحول هذا نشبت المعركة بين بطليموس

وسلوقى، فقد طالب بطليموس يأخذ سوريا الواطئة ضمن منطقة نفوذه ، ولكن سلوقى طالب بها لنفسه على أساس أن بطليموس لم يقدم أى مساعدة فى معركة إيسوس ، ونتيجة لهذا احتلها بطليموس وصارت منذ تلك اللحظة مصدراً للصراع بين المملكة البطلمية ومملكة سيلوقس .

وباستثناء سوريا الواطئة فإن الاهتمام الأساسى لبطليموس خارج مصر كان منصبا على إقامة سيطرة بحرية فى شرق البحر الأبيض باحتلال أو بالتحالف مع قبرص ورودس وكريت وقلقيليا وأفسوس Ephesus القريبة من Smyrna (أزمير الحديثة) والتى كانت بمثابة النهاية لواحد من أعظم الطرق التجارية فى الشرق ، وتضمنت هذه الخطة الاحتفاظ بأسطول قوى والسير فى عملية سياسية معقدة عن طريق التزاوج بينهم ، وإقامة التجمعات أو التحالفات سريعة الزوال الموجهة لجذب ولاء دول المدن فى شبه الجزيرة الإغريقية والجزر الأخرى وأيونيا بعيداً عن التحالف معه وجذبهم إليه هو نفسه ، ومنع بهذا بطليموس أى ائتلاف بين هؤلاء الحلفاء للوقوف ضده أما الكاسندر وليسماخوس وسليوقس وديميتريوس فقد كرسوا أنفسهم للعملية نفسها .

فى سنة ٢٩٨ تحالف بطليموس مع ليسيماخوس حاكم طراقيا وكان مساوياً له فى العمر وزوجه ابنته أرسينوى ، وفى نفس الوقت مات الكاسندر حاكم مقدونيا واستولى ديمتريوس على مملكته ، وبعد ذلك بقليل تحالف مع سيلوقى Seleucus الذى تزوج ابنته استراتونيس ولم يضع ديمتريوس وقتا إذ قام بمحاولة للسيطرة على شبه الجزيرة اليونانية وعلى مجموعة الجزر المحيطة بها وفى سنة ٢٩٦ حاصر أثينة وتمشياً مع سياسته العامة قدم بطليموس العون لأهل أثينة كما ساعد أهل رودس Rhodians دون أن يحقق نجاحًا فى هذه المرة واستولى ديمتريوس على أثينة سنة ٢٩٤ ونجح بطليموس فى إعادة احتلاله لقبرص عن طريق البحر والتى كان قد فقدها وأخذها ديمتريوس فى معركة سلاميس ، واستولى على جزرالكيكلاديس Cyclades فى سنة (٢٨٧) وسرعان ما تم طرد ديمتريوس من مقدونيا والتى عمتها الفوضى ، أما شبه جزيرة اليونان وجزر الأرخبيل فقد استأنفت استقلالاً ناقصاً ومشكوكا فيه تحت حماية الأسطول البطلمى ، وبعد جولات عديدة وجد ديمتريوس ملجأ فى بلاط سيلوقى حيث أخذ يغرق نفسه فى الخمر حتى مات .

في سنة ٢٨٤ منح أهل رودس لقب المنقذ Soter لبطليموس اعترافًا بالمساعدة التي قدمها لهم أثناء الحصار وقام هو بالتنازل عن الملك لابنه من زوجته الثانية ، والذي سمي فيما بعد ببطليموس فيلادلفوس Ptolemy Philadelphus وتوفي بعد ذلك بعامين في الثانية والثمانين من عمره .

لقد تزوج بطليموس المنقذ مرتين ، كانت زوجته الأولى أيروديس Eurydice ابنة أنتيباتر Antipater حاكم مقدونيا وعن طريقها رزق بابن عرف باسم كيراونوس Keraunos والذي سنسمع عنه فيما بعد بالإضافة إلى عدد من البنات ، و في حوالي ٣١٦ طلق بطليموس زوجته ايروديس لكي يتزوج إحدى وصيفاتها واسمها برنيس Berenicce ، والتي كانت قد احضرتها معها من مقدونيا ، وقد أنجب منها عدة أطفال من بينهم خليفته بطليموس فيلادلفوس وابنته أرسينوي التي تزوجت ليسيماخوس حاكم طراقيا .

وقد حكم بطليموس سوتر مصر من عاصمته الإسكندرية لمدة ٣٧ عامًا حتى وقت تنازله ، فقد خاض حروب الخلافة الصاخبة وبقي حيًا ، وهو الوحيد من كل خلفاء الإسكندر الذي مات في فراشه ، وترك مملكته التي بناها لنفسه في سلام وأمان ، فعلاوة على مملكته الأصلية مصر ، فقد أضاف قورينا وسوريا وقبرص وكريت وخلقيدونية وعدداً من دول المدن في أيونيا والجزيرة اليونانية تحت حمايته ، وبعد سقوط ديمتريوس سيطر أسطوله على شرق البحر الأبيض .

بين خلفاء الإسكندر اثنان فقط احتفظا بمملكتيهما بالإضافة إلى بطليموس سوتر أحدهما ليسيماخوس ملك طراقيًا زوج أبنته وخليفته وكان متحالفًا معه أشبه بالشريك الأصغر ، والآخر كان سيلوقي ملك بابل والذي أعاده بطليموس إلى عرشه ولم يكن منافسًا خطرًا ، لأنه كان محصوراً بين ليسيماخوس في الغرب وبين عدة دول مختلفة تابعة للإمبراطورية الفارسية في الشرق ، وعلى النقيض فإن بطليموس سوتر في مدينته الجديدة والرائعة الإسكندرية كان يعيش في وطن آمن لا يخشى من الفتن الداخلية أو الغزو الخارجي ، فأمكنه أن يجمع الموارد المادية الضرورية ويكرسها من أجل هذه اللعبة المعقدة للسياسة والحرب ، التي لعبها بمهارة ونجاح في عالم القوى السياسية الإغريقية الشائكة الدروب ، والحافلة بالذكاء والتي أوجدتها فتوحات الإسكندر .

اعتمد نجاح بطليموس المنقذ فى تحقيق الرخاء والرفاهية للإسكندرية على النواحى الاقتصادية ، لقد كرس بطليموس وخلفاؤه جهودهم لاستغلال ثروات مصر الطبيعية ومزايا موقع الإسكندرية الجغرافى لإثراء خزينة الدولة وبهذا استطاعوا الاحتفاظ بجيش قوى وأسطول قوى من أجل استمرار عائلته فى الحكم والدفاع عن حدود مصر، وأيضًا من أجل حماية أو تنمية تجارة مصر، واستطاعوا تقديم المعونة لحلفاء مصر ، وأن يجعلوا عاصمتهم الإسكندرية وأن يقدموا امتيازات قيمة للسكان الإغريق و أن يجذبوا إليها الكثير من المصادر الفكرية والفنية التى يزخر بها عالم الثقافة الهللينستية.

وقد استفاد البطالمة بنوع من البيروقراطية يتميز بالعراقة والكفاءة فى استغلالهم لثروات مصر الطبيعية بالإضافة إلى شعب طيع نشيط ومجتهد ، يعيش على تربة خصبة، ولقد تعاملوا مع مصر تعامل الفلاحين الحكماء الذين يحصلون من مزارعهم على أقصى قدر من الغلة دون الأضرار بقدرتها الإنتاجية فاستخدموا نفس الأساليب والطرق التى استخدمها محمد على بعد ألفى سنة ، لقد قاموا بتحسين نظام الرى وجففوا المستنقعات واستصلحوا الصحارى وانشئوا سجلا للأراضى وشكلوا احتكارات الدولة التى وضعت زراعة معظم المحاصيل الأساسية تحت إشراف حكومى كما وضعت الواردات والصادرات الرئيسية وعمليات البيع والشراء تحت رقابة حكومية أيضًا : ثم فرضوا الضرائب على الأراضى وحدوا من استغلال الكهنة لنفوذهم القوى ، وعملوا على بناء جيش دائم فى أوقات الحرب والسلم وعلى استمرار الخدمات المدنية بإقطاع قطع الأراضى كمنح للجنود والموظفين بدلاً من دفع رواتبهم ، كذلك حصلوا على أفضل مصادر الخبرة الإغريقية ، واستخدموها فى تنمية الزراعة المصرية وشجعوا زراعة الكروم وجنى العنب من مناطق تنمية الخمور الإغريقية ، وأدخلوا إلى مصر منتجات البحر الأبيض الأصلية – مثل الزيتون والثوم ، كما اهتموا بتربية الأغنام من أجل الحصول على صوفها الذى كان يستخدمه الإغريق على اختلاف مشاربهم فى صناعة الملابس ، واحضروا منها سلالات جديدة من ميليتيس **Miletus** ثم فيما بعد من الجزيرة العربية واستوردوا الخنازير من صقليه ، وربما كان الأهم من ذلك كله ، هو تنمية الصادرات من الحبوب فقد أدخل الفرس سلالات مطورة من القمح

من ميديا Media أما تصديرهم للحبوب من مصر فقد بدأ أثناء أحتلالهم للقطر ، وفى ظل حكم البطالمة الأوائل تم إصلاح المنطقة المعروفة الآن بالفيوم واستخلاصها من الصحراء ومن المستنقعات حتى صارت منطقة زراعية عظيمة لإنتاج القمح ، وفى البداية كانت معظم صادرات القمح ترسل لأرض الإغريق والجزر المحيطة بها وشكلت هذه الصادرات عاملاً فعالاً فى إقامة التحالفات التى عقدت بين البطالمة ودول المدن الإغريقية .

كانت الآلات الزراعية المصنوعة من الحديد ، الذى كان يستورد معظمه استخدمت لأول مرة فى مصر فى عصر البطالمة ، منها الشادوف البدائى الذى أضيف إليه إحدى أدوات رفع المياه، وهى الساقية أولاً، ثم الطنبور أو حلزون ارشميدس فيما بعد ، والذى قيل إن أرشميدس قد اخترعه أثناء زيارة له فى مصر ، كما ادخلوا أيضًا معاصر الزيوت والنبيذ التى كانت تعمل بعمود لولبى من الخشب ، بالإضافة إلى المحراث والنورج وهو عبارة عن عربة خشبية مزوده بسكاكين دائرية لدرس القمح .

وقد تطورت المناجم والمحاجر وأيضًا الصناعات المختلفة من أجل الاستهلاك المحلى و التصدير ، كما أنهم استخرجوا الحديد من مناجم الصحراء الشرقية والذهب من النوبة أما الجرانيت المصرى ذو الشهرة العالمية فقد استخرج من محاجر أسوان ، وكذلك الرخام والأحجار الكريمة وشبه الكريمة من تلال الصحراء الشرقية القريبة من البحر الأحمر ، وكان يعمل فى معظم هذه المحاجر والمناجم عمال من المحكوم عليهم وهناك وصف مرعب لظروف العمل فى مناجم الذهب بالنوبة كتبه ديودورس Diodorus[٣] استشهد فيه بتقرير دونه كاتب قديم اسمه اجاثا راخيدس (Agatharachides) .

"عند أقاصى أطراف مصر وفى المناطق المجاورة فى إثيوبيا والجزيرة العربية توجد منطقة تحتوى على مناجم كثيرة وكبيرة للذهب ، حيث كان يتم استخراجه بكميات عظيمة ، لكن بكثير من المشقة وبتكلفة عالية وقد اعتاد ملوك مصر أن يجمعوا معًا كل المتهمين بجريمة ما وأسرى الحرب ، وكذلك الذين اتهموا ظلمًا وألقى بهم فى السجن عقابًا على إظهار الغضب ، بل وأقاربهم أيضًا ، ويرسلونهم معا الى مناجم الذهب ، وكان هؤلاء الذين أدينوا على هذا النحو وهم جمع كبير يظلون مقيدين

بالسلاسل يعملون بلا توقف طيلة النهار وأثناء الليل دون فترة راحة ودون وجود أى منفذ للهرب ، إذ كان الحراس الأجانب الذين يتكلمون بلغة مختلفة يراقبونهم بشدة .

كانت الأرض التى تحوى الذهب صخرية صعبة جداً ، فكانوا يحرقونها أولاً بشدة وعندما تتفتت يواصلون العمل فيها بالأيدى ، أما الصخر اللين الذى كان يستجيب للجهود العادية فكان يتم سحقه بمطارق يحملها عشرات الآلاف من التعساء وكانت هذه العملية يتولى مسؤليتها عامل ماهر يعرف كيف يفرز الأحجار ويحدد مكانها للعمال ، ومن بين هؤلاء الذين تخصصوا فى هذه المهمة يتعين على الأقوياء بدنياً أن يقوموا بتكسير أحجار الكوارتز بمطارق من الحديد ، وهذا العمل لا يحتاج إلى أى مهارة بل إلى القوة فقط .

وكانوا يشقون الصخر فى خطوط غير مستقيمة بل يتتبعون وميض الصخر إلى حيث يقودهم ، وكان هؤلاء العمال يحملون مصابيح مربوطة فى جباههم لأنهم يعملون فى وسط الظلام بسبب الإنحناءات والتعرجات داخل الممرات مما يضطرهم إلى تغيير أوضاع أجسادهم معظم الوقت تمشيا مع الطبيعة الخاصة بالصخور ، وكانوا يلقون بالكتل الصخرية على الأرض عند تقطيعها ، وهم يؤدون هذا العمل دون توقف ليلاً أو نهاراً خوفاً من ضربات المشرف عليهم أما الأولاد الذين لم يبلغوا سن النضج بعد ، فإنهم كانوا يدخلون من الأنفاق إلى الدهاليز التى نتجت عن إزالة الصخور ويعملون بنشاط فى جمع الصخور الملقاه ويحملونها قطعة قطعة إلى خارج المدخل .

أما العمال فوق ٣٠ عاماً فكانوا يحملون حجارة المحاجر من هؤلاء الصغار حيث يدقونها بكميات محددة فى مدقات الهون الحجرى ، وتقوم النساء وكبار السن من الرجال بتسلم هذه القطع منهم وإلقائها فى الطواحين العديدة المصطفة أمامهم ، ويتبادل هؤلاء العمال مواقعهم فى مجموعات كل منها اثنان أو ثلاثة يمسكون بمقابض كل طاحونة ويطحنون كميات الحجارة المعطاة لهم حتى تصير ناعمة إلى أقصى درجة ولأن هؤلاء العمال لا يمنحون أى فرصة للعناية بصحة أجسادهم ولا يجدون جلابيب تستر هذه الأجساد ، فإن أحداً لا يستطيع النظر إلى هؤلاء التعساء دون أن يشعر بالشفقة عليهم من هول المعاناة التى يتعرضون لها ، ونظراً لأنهم لا يلقون أى نوع من التساهل أو التخفيف عن أى واحد منهم سواء كان مريضاً أو عاجزاً أو مسناً وحتى مع المرأة

فى حالة العجز أو المرض ، إذ كانوا جميعاً دون استثناء مرغمين تحت ضربات السياط أن يواصلوا العمل حتى يلقون حتفهم من شده العذاب ونتيجة لهذا ، فإن هؤلاء المساكين التعساء ، ونتيجة لقسوة العقاب الموقع عليهم ، فإنهم كانوا يرون أن المستقبل سوف يكون أشد هولاً من الحاضر ، وصاروا يتطلعون إلى الموت كشئ مرغوب فيه أكثر من الحياة .

وفى المراحل الأخيرة كان العمال المهرة يتسلمون مسحوق الحجارة لإتمام العمل النهائى فهم يفردون الحصى الذى تم إعداده على لوحة تميل ميلا خفيفاً ، ويصبون فوقها الماء طول الوقت فتذوب المواد الترابية بفعل الماء وتنزلق إلى أسفل اللوحة المائلة وتبقى الخامات التى تحوى الذهب على سطح اللوحة الخشبية بسبب ثقل وزنها ، وبتكرار هذه العملية عدة مرات ثم تجفيفها بواسطة إسفنجة من نسيج رقيق يضغطون عليها ضغطاً خفيفاً ، وبذلك يزيلون كل ما هو مسامى أو ترابى و يتبقى فقط غبار الذهب النقى ، وأخيراً يقوم عمال مهرة آخرون بوضع هذه الخامة بمعيار ثابت ووزن ثابت فى جرار من الطين وخلطها بكتلة من الرصاص مساوية تتناسب مع كتلتها وكتل من الملح وقليل من القصدير مع إضافة نخالة الشعير إليها ثم يضعون عليها غطاءاً متيناً ثم يلطخونها بطبقة من الطين ثم يحرقونها فى أفران لمدة خمسة أيام وعدة ليالى ، وفى نهاية هذه الفترة يتركون هذه الجرار لكى تبرد وعندئذ لا يجدون أثراً لأى مادة أخرى غير الذهب فى شكله النقى إلا من شوائب طفيفة" .

الصناعات المصرية التى طورها البطالمة ، تشمل صناعة الكتان والزجاج والفخار وأعمال المعادن و الزخرفة وأوراق البردى المستخدم كورق ، هذه الأخيرة صنعت من أعشاب البردى التى كانت تجمع من البحيرات والمستنقعات ، وكانت تصدر إلى جميع موانىء البحر الأبيض بالإضافة إلى تصنيع وتصدير المنتجات الدوائية والعطور والحرير وسلع الرفاهية الأخرى المستخلصة من مواد خام مستوردة من الهند والجزيرة العربية .

حصل البطالمة من ممتلكاتهم الخارجية على دخول وموارد مالية عظيمة ، وكانت مصر تعانى نقصاً فى شيئين على جانب كبير من الأهمية هما الأخشاب اللازمة للأسطول والخيول المطلوبة للجيش ، فحصلوا على الأخشاب من قبرص ومن سوريا

ومن ليكيا lycia فى جنوب آسيا الصغرى عندما كانت هذه البلاد تحت سيطرتهم وحصلوا على الخيول من مدينة قورينا Cyrene والتى زودتهم أيضا بفائض من الحبوب إلا أنهم كانوا يواجهون مطلبًا هامًا عسكريًا وهو الحصول على الفيلة لمواجهة الفيلة الهندية التى كانت متوفرة لدى أهل سيلوقيا فى الحروب التى شنها عليهم بطليموس الثانى وخلفائه وجاءوا بها من وسط أفريقيا عن طريق البحر الأحمر .

إن موانئ برينيس وفيلوتيراPhilotera على البحر الأحمر وطريق القوافل بين قفط Coptos فى وادى النيل والبحر الأحمر والبعثات من موانىء البحر الأحمر إلى الصومال ، كلها قد أنشئت بغرض الحصول على الأفيال ونقلها . أما قبرص فقد أمدت مصر بالنحاس إضافة إلى الأخشاب .

ورغم أن مصر والدول التابعة لها قد أصبحت مكتفية ذاتيًا فى الطعام وفى معظم الصناعات إلا أن البطالمة كان ينقصهم الكثير من المعادن الأساسية فى أراضيهم ، واستطاعوا الحصول عليها عن طريق تبادل صادراتهم النامية، ومن بين المعادن الأربعة الأساسية ، الحديد ، والنحاس ، والفضة ، والذهب ، فكانوا يستوردون معظم الحديد والفضة وبعض كميات من الذهب من أسبانيا ومن غرب البحر الأبيض ، ولأن الفائض من المنتجات الزراعية كان يذهب إلى بلاد اليونان وجزر الأرخبيل المحيطة بها وإلى آسيا الصغرى مقابل استيراد الخشب والسفن ومواد البناء إلا أن البطالمة كانوا مهتمين بالعمل على زيادة الفائض من الحبوب ، المصرية وبتنمية تجارة الشرق الخاصة بوسائل الترف والرفاهية لإيجاد صادرات وإعادة التصدير حتى يتمكنوا من دفع ثمن الواردات الأساسية من الغرب ، وكانت احتياجاتهم شديدة لكميات متزايدة من الذهب والفضة والنحاس من أجل صك العملة اللازمة لدفع أجور الجنود المرتزقة وتمويل التجارة ، كذلك كانوا يحتاجون إلى الحديد والقصدير لصنع المعدات الزراعية ، ولسد احتياجات الصناعة ، ولتصنيع الأسلحة اللازمة للجيش والأسطول .

وكانت سيطرتهم على سوريا الواطئة تشكل أهمية خاصة بالنسبة لتجارة الشرق التى يمر القدر الأكبر منها من وإلى البحر الأبيض على طول طريقى القوافل العظيمين – إلى الجزيرة العربية عن طريق البتراء وإلى وادى الفرات عن طريق تدمر ، وكان البطالمة الذين أنشؤا محطات الأفيال قد طوروا أيضًا طريقًا ثالثًا عبر البحر الأحمر ،

فى البداية استخدموا القناة التى تصل بين البحر الأحمر والنيل ،التى بدأ فى إنشائها داريوس الفارسى وأكملها بطليموس الثانى ، وفيما بعد هجرت هذه القناة إلا أن التجارة استمرت عن طريق موانى برنيس Berenice وفيلوتيرا Philotera وأخيرا عن طريق ميود هرموس Myod Hormos والتى بنيت على البحر الأحمر وارتبطت بوادى النيل عند قفط (مدينة قنا الحديثة) بطريق وادى الحمامات فى الصحراء الشرقية وكانت مواد الكماليات الشرقية هذه تشمل الصمغ والبخور وعطر الناردين والبلسم واللؤلؤ والمرجان من الجزيرة العربية ثم العاج والقرفة من الصومال والأصداف والنيلة والفلفل والأخشاب النادرة والمواد الطبية المختلفة والحرير من الهند وبات طريق البحر الأحمر مهما فيما بعد بصفة خاصة عندما فقد البطالمة سوريا وفقدوا معها السيطرة على طرق القوافل الشمالية ، ونتيجة لوجود طريق البحر الأحمر التجارى هذا وتنميته استطاع البطالمة الحياة وتحقيق الرخاء حتى بعد أن فقدوا ممتلكاتهم ونفوذهم خارج مصر .

ويبدو أن الأهمية النامية لتجارة الشرق قد فرضت مستوى العملة البطلمية ، فى أول الأمر صكت العملات الفضية الذهبية بأمر بطليموس سوتر (الذهب والفضة للاستعمال الخارجى أما النحاس فللاستعمال الداخلى) وقد سكت هذه العملات بالمستوى الأتيكى كما هو الحال فى بقية مدن العالم الإغريقى ، و فيما بعد بالمستوى الروديسى بسبب أهمية جزيرة رودس كمركز تجارى ، وفى النهاية سكت بمستوى العملة الفينيقية لكى ييسر المعاملات التجارية مع الشرق والتى كانت فى ذلك الوقت فى أيدى الفينيقيين الذين أصبح الكثير منهم من رعايا دولة البطالمة ، وكان العدد الأكبر منهم ، يرتبط بعلاقات تجارية مع الغرب ، نتيجة لصلاتهم بمدينة قرطاجة .

إن رخاء مصر المرتبط بالظروف السلمية والامتيازات الممنوحة للمستوطنين الإغريق فى ظل الحكم الإغريقى أدت إلى جذب الكثير من المهاجرين الإغريق إلى مصر وانتشالهم من حالة الفقر النسبى والحياة غير الآمنة فى اليونان والجزر اليونانية ، إذ سرعان ما تجمع فى الإسكندرية قطاعا كبيرا من السكان الإغريق ، أصبحوا يشكلون طبقة حاكمة ، يعيشون فى أجمل أحياء المدينة ، ويعفونهم من القدر الأكبر من الضرائب ،

لقد أنشأ البطالمة مدينة إغريقية تماماً هى بطلميس Ptolemais فى صعيد مصر ، حيث تدار مؤسساتها إدارة ذاتية ، وكانت مدينة نوكراتيس الإغريقية القديمة تقع فى الدلتا وفى أماكن أخرى نجد أعداداً من الإغريق قد استقروا بين السكان الوطنيين ، حيث يتوفر لهم عدد من الفرص المربحة فى التجارة وبدواوين الخدمة والقوات المسلحة ، وكان هناك عدد كبير من الأعمال التى تحتاج إلى مهارة كبيرة من الذين كانوا يعملون فى ميدان الخدمة الحكومية فكان أمامهم فرص متاحة للحصول على منح من الأرض الزراعية ، وبنهاية القرن الثالث قبل الميلاد قدر عدد الذكور البالغين من اليونانيين فى مصر بحوالى ١٥٠,٠٠٠ كان نصفهم على الأقل يسكنون الإسكندرية من بينهم جنود الحرس الملكى الخاص من المقدونيين ربما بضعة مئات قليلة ،بالإضافة إلى الجيش النظامى وهو يتكون من بضعة آلاف أخرى يعيش الكثير منهم فى أوقات السلم على الإقطاعيات الزراعية التى منحت لهم ، (وفى أوقات الحرب كان البطالمة يجمعون الجنود المرتزقة الإغريقيين للجيش من خارج مصر ،كان أغلب رجال الأسطول عندهم من حلفائهم فى الجزر المحيطة ببلاد اليونان) .

وكان اليهود يشكلون العنصر الأكبر الثانى فى الإسكندرية ففى عهد بطليموس سوتر استقر عدد كبير من أبناء اليهودية فى الإسكندرية ، حيث خصص لهم حى خاص من المدينة ، بالقرب من القصر الملكى ، كما أعطيت لهم امتيازات خاصة فقد شجعهم بطليموس سوتر على الاستقرار هناك ، لأنه كان دون شك ـ يقدر مهارتهم ويعتمد على ولائهم .

عاش الإغريق واليهود فى الإسكندرية أولاً كتجمعات منفصلة ،إلا من اختلاط قليل مع بعضهم البعض أو مع المصريين ، ولم يكن لدى بطيموس أى من أراء الإسكندر الخاصة بامتزاج الأجناس فى ظل حكمه ، وعلى مستوى الاحتفالات كان بطليموس وخلفاؤه يتصرفون خارج الإسكندرية تصرف الفراعنة ، فيقدمون الذبائح للآلهة ومن المحتمل انهم كانوا يضعون الشعارات الملكية المصرية وعلى مستوى الإدارة كانت المؤسسات الدينية المصرية تفرض عليها ضرائب ثقيلة ، ورغم هذا كانت موضع اعتراف بها واحترام وحماية ، أما المحاكم المصرية والحكومات المحلية فقد تركت لشانها تدار إدارة ذاتية كعهدها السابق معرضة دائما لعمليات الابتزاز المفاجئة

والمنتظمة والتى يقوم بها جباة الضرائب وأيضاً لعملية الاحتكارات الرسمية ، وعلى المستوى الاجتماعى فقد اتضح أن هناك أولا عملية متدرجة محدودة للاستيعاب والامتصاص ، فقد تم استيعاب بعض المصريين وخاصة الأكثر ثراء منهم ضمن مجتمع الإغريق وقد تعلم بعض الإغريق ممن يعيشون فى الأقاليم اللغة المصرية وتزوجوا من زوجات مصريات ، عموما فقد بقيت الإسكندرية مدينة إغريقية أساساً أما الأقاليم فباستثناء المستوطنات الإغريقية فقد بقيت فى الأغلب الأعم مصرية فى الأساس فيما يتعلق بثقافاتهم وطرق حياتهم عموماً .

وقد ظل البلاط البطلمى إغريقيا تماما أو على الأصح مقدونياً كما كان بلاط نائب الملك فى الهند بريطانيا تماماً ، وكما كان الأمر فى بلاط نائب الملك ، إذ يحدث فى النادر غزو مؤقت فى شكل مستشار من الوطنيين ، أو وفد ، أو موكب أو احتفال أو شغب ، وبمرور الزمن أصبح العنصر المصرى أكثر ظهوراً ونتيجة طبيعية لازدياد السخط بين المصريين ازداد النفوذ المصرى وأصبح التمصير Egyptianisation هو الموضة عندما لم يعد من الممكن الحفاظ على الهدوء بين المصريين بإظهار التوقير للكهنة والمساهمة وإعادة بناء معابدهم ، ويبدوا أن كليوباترا وهى آخر سلالة البطالمة هى الوحيدة التى تعلمت اللغة المصرية ، كان هناك دائماً الأمتان مع الإغريق شأنهم شأن بعض الإمبرياليين المتأخرين إذ كانوا يتشبثون بامتيازاتهم بغيرة شديدة ولأبعد مدى ممكن .

عندما اختار بطليموس سوتر ابنه من زوجته الثانية برنيس ليخلفه فى حكم مصر ، فإن ابنه كراونوس Keraunos من زوجته إيروديس ، غادر مصر وذهب ليعيش فى بلاط ليسيماخوس ملك طراقيا ، زوج أخته غير الشقيقة أرسينوى ، وكان اجاثوكليس Agathocles ابن ليسيماخوس قد تزوج من ليساندرا Lysandra ابنة سوتر من زوجته ايروديس ومن ثم فهى الأخت الشقيقة لكراونوس ، ومن المرجح أن أرسنيوى كانت حريصة على أن تضمن الخلافة لنسلها فقط فحرضت زوجها على قتل ابنه أجاثوكليس بإقناعه أنه يتآمر ضده وتبعا لهذا هربت ليساندرا المترملة وأخوها كراوتس إلى سيلوقيا ، وفى نفس الوقت تقريبا أو قبله مباشرة تزوجت أخت أجاثوكليس وهى تسمى أرسينوى أيضاً من بطليموس الثانى الملك الشاب الجديد لمصر وهكذا ثبت التحالف بين البيتين ومن الراجح أن هذا التصرف قد أخاف ليسيماخوس من كراونوس وأبعده عنه .

من الواضح أن كراونوس كان أستاذاً فى التآمر والخداع فحرض سيلوقى لإعلان الحرب ضد ليسيماخوس وغزو أراضيه ، وقد هزم ليسيماخوس وقتل ، وعندئذ زاد طموحا فى الاستيلاء على المملكتين ثم تحدى أخاه غير الشقيق بمصر وقام بقتل حاميه سيلوقى وتزوج من أخته الغير الشقيقة Arsinoe وهى أرمله ليسيماخوس بالقوة غصباً عنها وبعدها بقليل قتل طفلها الرضيع من ليسيماخوس lysimachus .

وتلت هذه الأحداث الدامية فترة اضطرابات فى كل أنحاء آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإغريقية وطراقيا ومقدونيا تسببت فى ثوره خطيرة قام بها المرتزقة من بلاد الغال الذين كان يستخدمهم مختلف ملوك الإغريق وقد قتل كراونوس أثناء هذه الثورة.

وبعد إخماد ثورة الغاليين بدأ يظهر نمط جديد للحكم فى العالم الهللينيستى الذى مزقته الحروب ، فقد نجح أنطيوخس Antiochus ابن سيلوقى فى إرساء دعائم حكمه فى مملكة أبيه التى تتكون من شمال سوريا وبلاد الرافدين وجزء من شرق آسيا الصغرى وبدأ يحكمها من عاصمة جديدة هى أنطاكية Antioch ، والتى بناها على شواطىء البحر الأبيض فى شمال سوريا ، وقام أنتيجونوس جوناتاس Antigonus Gonatas ابن ديمتريوس بتنصيب نفسه ملكًا على مقدونيا بعد أن طرد بيرهوس Purrhus ملك إبيروس Epirus وقريب الإسكندر الأكبر والذى كان مشغولاً بتحدى القوة الرومانية المطلة على الشاطىء الآخر من الإدرياتيكى . وبينما كان بيرهوس مشغولاً على هذا النحو ، واصل أنتيجونوس سياسة مقدونيا القديمة فى محاولة السيطرة على دول المدن الإغريقية ، وقد أدخله هذا فى صراع حيث كان بطليموس الثانى يحاول دون نجاح أن يواصل سياسة أبيه فى مد حمايته على حكومات هذه المدن ، وكان فى جزيرة أيونيا ، عائلة ملكية جديدة هى عائلة أتاليدس Attalids والتى تأسست بعاصمتها برجاموم Pergamum .

أما أرسينوى ، وقد ترملت مرتين نتيجة لموت زوجيها فى حوادث عنف ، فقد هربت إلى صوما طراقيا Somatherace أثناء ثورة الغاليين ، ومن هناك ذهبت إلى مصر حوالى ٢٧٧ وبعدها بقليل تزوجت للمرة الثالثة من أخيها بطليموس الثانى ، ولم يعرف إن كان بطليموس قد طلق زوجته الأولى أم أنها ماتت والتى كانت تسمى أرسينوى

أيضا وهى ابنة ليسيماخوس ، إن زواجه من Arsinoe الثانية وهى أخته كان عملاً سياسيًا متوافقًا مع العادة القديمة للفراعنة والإغريق الذين كانوا يتزوجون من أخواتهم كوسيلة للمحافظة على نقاء الدم الملكى المتوارث فى أبناء العائلة الملكية ، وقد سار كثير من خلفائه على هذا النهج ، وقد استوحى بطليموس من هذا الزواج لقبه فيلادلفوس أى "الشخص الذى يحب أخته" لكن من غير المحتمل أن يكون زواجًا مبعثه الحب ، ولم ينجب فيلادلفوس منها أطفالاً ، وقنعت Arsinoe الثانية بالسيطرة على العرش تاركة الفراش الملكى لسلسلة من النساء ذوات السمعة السيئة .

عاش فيلادلفوس السنوات الثمانية الأولى من حكمه فى سلام ورخاء فى حين كانت الأحداث الدامية التى وصفناها تقع على الجانب الآخر من البحر المتوسط ، ولكن مع استقرار انتيوخ الأول فى مملكته، وسيطرة أرسينوى على عقل زوجها المطياع، لم يمر وقت طويل حتى انفجرت العداوة الكامنة بين الإسكندرية وأنطاكية حول الجزء المسمى ، سوريا الواطئة .

ونحن لا نعرف سوى القليل عما يسمى بالحرب السورية الأولى التى اشتعلت بين بطليموس وأنطيوخوس فى عام ٢٧٦ ، لكن يبدو أن مصر قد احتفظت بسوريا الواطئة وقبرص وحققت نجاحًا فى البحر إذ استولت على ساموس Samos وميليتوس Miletus على الشاطىء الشرقى من بحر إيجة ، وحل السلام بين المملكتين فى عام ٢٧٢ .

وفى مكان آخر كانت الجيوش المصرية أقل نجاحًا ففى عام ٢٧٤ ثار ماجاش Magas حاكم قورينا والتى استقلت عن مصر فترة من الزمن ، وفشل الأسطول المصرى فى الحفاظ على استقلال حكومات المدن الإغريقية فى غرب بحر إيجة ضد مقدونيا خلال ما كان يسمى بحرب خريمونيديا Chremonidean والتى دامت من سنة ٢٦٦ حتى سنة ٢٦١ ق.م وكان من نتيجتها أن أعاد انتيجونوس جوناتاس فرض السيادة المقدونية على شبه الجزيرة الإغريقية والجزر المحيطة بها ، ونتيجة لذلك تخلى أهل رودس عن مصر وتحالفوا مع جوناتاس الذى تمكن عن طريق مساعدتهم من هزيمة المصريين فى عدة معارك بحرية والتى منحته سيطرة مؤقتة على بحر إيجة .

وفى عام ٢٦١ مات انطيوخس الأول وخلفه ابنه انطيوخس الثانى الذى لقب بلقب ثيوس ، هناك بدأت الحرب السورية الثانية بين مصر وسيلوقيا ، التفاصيل غير معروفة ويبدو أن النتائج لم تكن حاسمة ، وعندما حل السلام فى سنة ٢٥٢ ، احتفظت مصر بسوريا الواطئة ، وتم تزويج برينيس أبنة فيلادلفوس إلى أنطيوخس الذى انفصل عن زوجته الحالية لاوديس laodice .

وفى نفس الوقت تمت تسوية مسألة قورينا نتيجة لموافقه الحاكم المتمرد ماجاش على أن يخطب ابنته المسماة برينيس أيضاً إلى ابن فيلادلفوس ووريث عرشه بناء على تفاهم تم بينهما على أن تعود قورينا للاتحاد مع مصر عند موته ، ونتيجة لذلك ، فإن وفاة ماجاش أعقبتها دراما دامية من تلك الدراميات العنيفة التى كانت سمة للحياة فى العائلات الملكية فى ذلك العصر إذ قامت أرملته، أباما Apama بإحضار شاب هو ديمتريوس العادل ، وهو الأخ غير الشقيق لأنتيجونوس جوناتاس ، وابن بطلميس ، ابنة بطليموس سوتر من زوجته ايروديس Eurycdice التى تزوجت ديمتريوس بعد طرده من قورينا ، وحاولت أن تغرى برنيس بالزواج منه وهكذا تحافظ على استقلال قورينا عن مصر ، ومن خلال نشاطها كوسيط للزواج ، أصبحت أباما عشيقة لديمتريوس ، وكانت برنيس فتاة تتميز بالحمية والشهامة مثل كثير من أميرات البلاط الهللينستى فاعترضت على هذه العلاقة وعلى الاتحاد وأمرت بقتل ديمتريوس فى فراش أمها ، وبعد هذا تزوجت ابن فيلادلفوس طبقًا للخطة .

توفى بطليموس فيلادلفوس سنة ٢٤٥ فى سن الثالثة والستين ،وماتت أخته وزوجته أرسينوى الثانية قبله ٢٤ عاما سنة ٢٦٩ ، وبعد موتها بالغ زوجها المفجوع فى تكريمها بصورة غير معتادة ، فبنى لها المعابد فى الإسكندرية وفى غيرها من المدن ، وأمر بأن تعبد كواحدة من الربات ، وأطلق اسمها على إقليم جديد (أرسينوى نوم Arsonoite Nom الذى يعرف الآن بالفيوم وعلى إحدى الموانىء عند الطريق البحرى للقناة بين النيل والبحر الأحمر ، كما أطلقه على كثير من المدن الواقعة تحت الهيمنة المصرية ، وكانت عملية التأليه جزءًا من سياسة البطالمة ، ابتدأها فيلادلفوس سيراً على نهج الفراعنة ، حيث تنسب الكرامات الإلهية لمن يتوفى من أفراد العائلة الملكية (فقد أله فيلادلفوس أيضا أباه بطليموس سوتر وأمه برينيس) ، وربما يكون هذا دليلاً

على ألنفوذ الذى مارسته أرسينوى على زوجها وعلى السياسة البطلمية عمومًا ، فقد كانت الدبلوماسية المصرية أكثر نجاحًا خلال الفترة القصيرة التى قضتها فى الحكم مع زوجها أكثر مما كان بعد ذلك .

يظهر أن بطليموس فيلادلفوس كان رجلا مثقفًا محبًا للترف والرفاهية لأنه كان يألف فنون السلام ويستريح لها أكثر من فنون الحرب ، لكنه لم يكن إطلاقًا تنقصه الكفاءة كحاكم ، فقد لعب دور سليمان بالنسبة لوالده داوود ، فقد أكمل العمل الذى لم يجد والده الوقت لإنجازه،فى تجميل الإسكندرية ، وتأسيس متحفها والمكتبة وإعلاء سمعتها كمركز للفكر والثقافة الهللينستية ، فقد استثمر حالة الاستقرار ومناعة مصر ضد الاضطرابات وإراقة الدماء التى أضرت ببقية العالم الهللينستى من أجل تنمية التجارة ، وتكديس الثروة ليجعل من عاصمته ملجأ للباحثين والعلماء الراغبين فى العيش فى سلام ، وبالرغم من فشله فى الصراع مع جوناتاس فى محاولة السيطرة على بحر إيجه وشبه الجزيرة اليونانية فقد كانت مصر فى وقت وفاته هى الأغنى والأكثر أمنًا والأقوى بين ممالك العالم الهللينستى .

وطبقًا لما كتبه بوليبيوس Polybius فإن فيلادلفوس كان مدمن بل شديد الإدمان للمتع الحسية ، "excessively addicted to amatory pleasures" ، فقد كان أثناء وبعد حكمه المشترك مع أرسينوى الثانية على علاقة بسلسلة طويلة من العشيقات ، كانت هناك ميرتيون Myrtion ، وهى ممثلة وكان بيتها من أجمل بيوت الإسكندرية ، وهناك منيسيس Menesis وبوثين Pothine عازفتان محترفتان للناى فى مجتمع كان للناى فيه شأن كبير مثل آلة الجيتار الآن وكانت كلينو Clino بتماثيلها الصغيرة والكبيرة التى تمثلها متشحة برداء شفاف وهى تحمل فى يدها قرن الخصوبة وهناك أيضا استراتونيس Stratonice التى خلدت ذكراها فى ضريح مهيب بجوار البحر فى مدينة إليوسيس Eleusis وهى ضاحية فى شرق الإسكندرية ، وكانت بيلستيش Bilstiche هى أشهر العشيقات جميعًا ، وقد وصفها خصومها والقادحين فى سيرتها بأنها "بربرية" و "وسوقية داعرة" وهى التى شاركت فى الألعاب الأوليمبية عام ٢٦٨ بعربة سباق وفازت بجائزة وكانت تعرف باسم بلستيش أفروديت وصار قبرها مزارًا مكرسًا لآلهة الحب .

خلف فيلادلفوس على عرش المملكة ابنه من زوجته الأولى المسماة أرسينوى الأولى ، والذى حكم باسم بطليموس الثالث ولقب يورجيتس (المنتصر) وكانت رفيقته هى برنيس من قورينا ابنة ماجا ش التى تخلصت سريعًا من زوجها الذى اختارته أمها وبمجرد اعتلائه العرش وجد الملك الجديد نفسه فى حرب مع مملكة سيلوقيا Seleucia ، وقبل ذلك بعام أو عامين ، قامت لودايس Laodice طليقة أنطيوخ الثانى والتى كانت تعيش منفية فى أفسس ، بإغراء زوجها بأن يعود إليها ، ولكنه مات بعد وقت قصير ويرجح أنها قتلته ، وأرسلت مبعوثيها إلى أنطاكية لقتل برينيس ، أخت يورجيتس التى كانت قد خلعتها وحلت محلها وخلف أنطيوخ الثانى ابنه من لودايس ، سليوقى الثانى ، والملقب كيلينيكوس Killinikos الذى وقف إلى جانب أمه ضد زوجة أبيه ، ونتيجة لهذا قام يورجيتس وهو فى الثلاثين من عمره بغزو سوريا لكى يحمى أخته أو لكى ينتقم لها .

لكنه جاء متأخراً جداً ، فقد تم قتل أخته قبل وصول الجيش المصرى الى شمال سوريا ، لكنه انتقم لها بشكل ما فقد حصل على نصر وصف بأنه "أعظم الانتصارات العسكرية التى حققها بيت بطليموس"[٤] ، فقد هزم جيوش سيلوقيا فى سوريا وعبر نهر الفرات الى بلاد ما بين النهرين واستولى على كمية كبيرة من الغنائم ثم أوقف الحملة وعاد الى مصر ، ويرجع سبب عودته المبكرة الى حدوث ثورة فى مصر ، ويبدو أن هذا كان إرهاصاً بسلسلة متصلة من الفتن الداخلية التى أشعلها المواطنون ضد الهيمنة الإغريقية ، والتى استمرت ، من وقت لآخر طيلة المائة عام التالية ، ونتج عنها التقارب المستمر لتضييق الفجوة الاقتصادية والاجتماعية فى عملية اندماج بين الإغريق والمصريين خصوصا فى الإسكندرية ، وعندما أصبح العنصر المصرى اكثر قوة وعندما شرع فى تبنى الأساليب الإغريقية فانه عمد إلى تحطيم هيمنة المجتمع الإغريقى الأصلى من أجل تشكيل نمط جديد من المواطنين ، ليس إغريقياً ولا مصرياً ، وإنما إسكندرانيا بصفة خاصة ، منغمساً فى السياسة والمؤامرات الخاصة بمدينته على نحو إقليمى ، وينظر الى الجالس على العرش نظرته إلى عمدة لتلك المدينة لا حاكمًا لإمبراطورية عظيمة .

ولكن عندما عاد يورجيتس Euergetes محملاً بالغنائم من حملته المنتصرة فإن ذلك ترك تأثيره البعيد على المستقبل ، ومهما كانت المتاعب الداخلية فقد تمت تسويتها

بسهولة وقد ارتاح المصريون لعودة بعض كنوز معابدهم التى كان الفرس قد استولوا عليها وقد استردها يورجيتس نتيجة لانتصاره .

استمرت الحرب مع سيلوقيا على مدى أربع أو خمس سنوات حتى ٢٤٠ ، وانتهت بمعاهدة سلام وبقى الحال على ما كان عليه بين المملكتين . وقضى يورجيتس بقية سنوات حكمه فى سلام ، باستثناء الصراع البحرى والدبلوماسى المستوطن بين مصر ومقدونيا من أجل السيطرة على مدن بحر إيجه ، وفى عام ٢٢٩ أصبح انتيجونوس الملقب باسم دوسون Doson ملكًا على مقدونيا بعد موت ديمتريوس الذى كان قد خلف جوناتاس قبل ذلك بعشر سنوات ، وقد شغلت مقدونيا خلال هذه السنوات العشر بصد غزوات البرابرة القادمين من الشمال ، ولكن بمجرد توليه الحكم ، استأنف دوسون سياسة مقدونيا التقليدية فى محاولة السيطرة على المدن الإغريقية وكالعادة انقسمت هذه المدن على نفسها ، كانت إسبرطة هى رأس الحربة فى المقاومة الإغريقية ، التى كان نظامها ديمقراطيًا لفترة مؤقتة ، فى ظل زعيم "اشتراكى" هو كليمونيز ، الذى حظى بمساندة الأسطول المصرى فى صراعه مع دوسون ، ولكن هذه المساندة فقدت جدواها ، وتحالف دوسون مع عصبة دول الآخيين وهزم الإسبرطيين فى معركة سلاميس فهرب كليمونيز إلى مصر ، وهناك سوف نسمع عنه مرة ثانية .

ولذلك كانت السياسة المصرية غير ناجحة فى شبه الجزيرة اليونانية ولنفس السبب لم تنجح أيضًا أثناء حكم فيلادلفوس ، باستثناء تلك الفترة القصيرة أيام الحرب السورية الأولى – دون شك – بسبب تصميم أرسينوى الذى أدى إلى تجميد الحركة . ففى صراعاتهم البحرية مع جوناتاس ، ومن بعده مع دوسون ، فإن الأسطول المصرى لم يظهر أنه خرج للدفاع بقوة عن حلفاء المصريين وحين تمت محاصرتهم ، فإن الأسطول المصرى لم يخترق الحصار كما فعل أسطول بطليموس سوتر حين قام ديمتريوس بحصار جزيرة رودس ، لم يسعوا أبدًا للدخول فى معركة مع أسطول مقدونيا ، وحين كان الحلفاء يحتاجون لمعونة عاجلة لم يكونوا يجدونها ، وقد نجد تفسيرًا لهذا الموقف فى أن الأسطول المصرى كان مكونًا فى معظمه من سفن وبحارة ينتمون إلى الجزر الإغريقية ، وكان كل همهم استرضاء أحد الفاتحين من جيرانهم وليس خدمة سيد غريب عنهم .

ورغم كل هذا ، فعندما توفى يورجيتس عام ٢٢١ كانت الإمبراطورية البطلمية وبالنسبة للناظرين إليها من الخارج لا تزال غنية وقوية كما كانت عندما ارتقى العرش قبل ذلك بخمس وعشرين عاماً ، كانت لا تزال تضم سوريا وقبرص وقورينا ورغم فشل الأسطول المصرى فى حماية دول المدن الإغريقيــة فى بلاد اليونان فــإن مصر كانت لا تزال تتحكم فى معظم الجزر بالإضافة إلى ساحل جزر أيونيا وشبه جزيرة جاليبولى Gallipoli كانت مصر لا تزال ذات هيبة عظيمة ، وثراء ضخم وتجارة نامية .

مرت مائة عام فقط منذ أن تولى بطليموس سوتر جد يورجيتس حكم ولايته ، وقد انقضى زمن طويل منذ انتهت حروب الخلافة ، كان عالم الشعوب الهللينستية يتمتع باستقرار سياسى نسبى وثراء شديد من الناحية الاقتصادية ، وتحت سطح المنافسات التى كانت تنفجر أحياناً كثيرة فى شكل حروب ، هناك تكمن الوحدة ، فحين ضربت جزيرة رودس بالزلزال عام ٢٢٤ فى عهد Eurgetes يورجيتس ،تبارت كل مدن وحكومات العالم الهللينستى للمساهمة فى تخفيف حدة الكارثة وإعادة تعمير الجزيرة ، وكانت هناك لغة مشتركة هى اليونانية والتى أصبحت لغة المجتمع الراقى من صقلية حتى حدود فارس ومن شواطىء البحر الأسود إلى شواطىء الخليج الفارسى ، وكانت هناك حرية حركة للبشر وتبادل للبضائع والأفكار ومدن جديدة تتميز بالروعة والفخامة تظهر وتنمو ، تحيط بها حقول الريف الخصبة والغنية ، كانت الموانى العديدة تمتلىء بالسفن والأرصفة مكدسة بالبضائع ، وكانت الاكتشافات العلمية والإنجازات الفنية تجد رعاية من الأمراء فى جميع القصور الهللينستية فيتنافس الرياضيون والشعراء فى مباريات ومسابقات ودية كانت تعقد لفترات زمنية فى كل العواصم والمدن الهامة ، واشتركت مختلف الديانات الوثنية ، بنبوءاتها وأساطيرها وأسرارها مع الفلسفة والفنون الجميلة فى تزيين الحياة وتجميل التفاعل الاجتماعى فى ظل النفوذ الهللينستى وجو التسامح والشك الحميد .

ولكن كانت هناك سحابة سوداء فوق الأفق الغربى فقد هزم الرومان بيرهوس حاكم ايبروس Pyrrhus of Epirus فى موقعة بنفينيتو عام ٢٧٥ واستولوا على ترينتوم Tarentum عام ٢٧٢ مما أدى إلى وضع كل المستعمرات اليونانية فى جنوب إيطاليا تحت سيطرتهم وبعدها أخضعوا شبه الجزيرة الإيطالية كلها، وتحركوا جنوباً نحو

المستعمرات الإغريقية فى صقلية وسرعان ما اشتبكوا فى صراع مع قرطاجة ، إن حرب البونيك Punic war والتى دامت من ٢٦٤ إلى ٢٤١ جرت أساساً فى صقلية ومن أجل الاستيلاء على ،المستعمرات اليونانية فى الجزيرة وأهمها سيراكوزة والتى كان يحكمها فى ذلك الوقت الملك هيرو الذى كان راعيا لأرشميدس - هذه الجزر انضمت أولاً إلى أحد الجانبين ثم انضمت إلى الآخر ونتيجة للحرب انتقل الجزء الأكبر من صقلية إلى الرومان ، تلك كانت هى الجولة الأولى فى الصراع الطويل بين روما وقرطاجة من أجل السيطرة على الجانب الغربى من البحر الأبيض ، ثم بدأت الجولة الثانية فى ٢١٨ عندما حرك هانيبال جيشه من شمال أفريقيا عن طريق أسبانيا وعبر جبال الألب لغزو إيطاليا ، ومهما كانت نتائج الصراع فقد كان يبدو مؤكداً أن العالم الهللينستى المنقسم سياسيًا سوف يظل معرضا لتهديد دولة غربية قوية عسكريًا ومنتصرة تتلهف على ملأ خزينتها التى أنهكها الحرب وتتعطش إلى مزيد من الفتوحات .

Notes

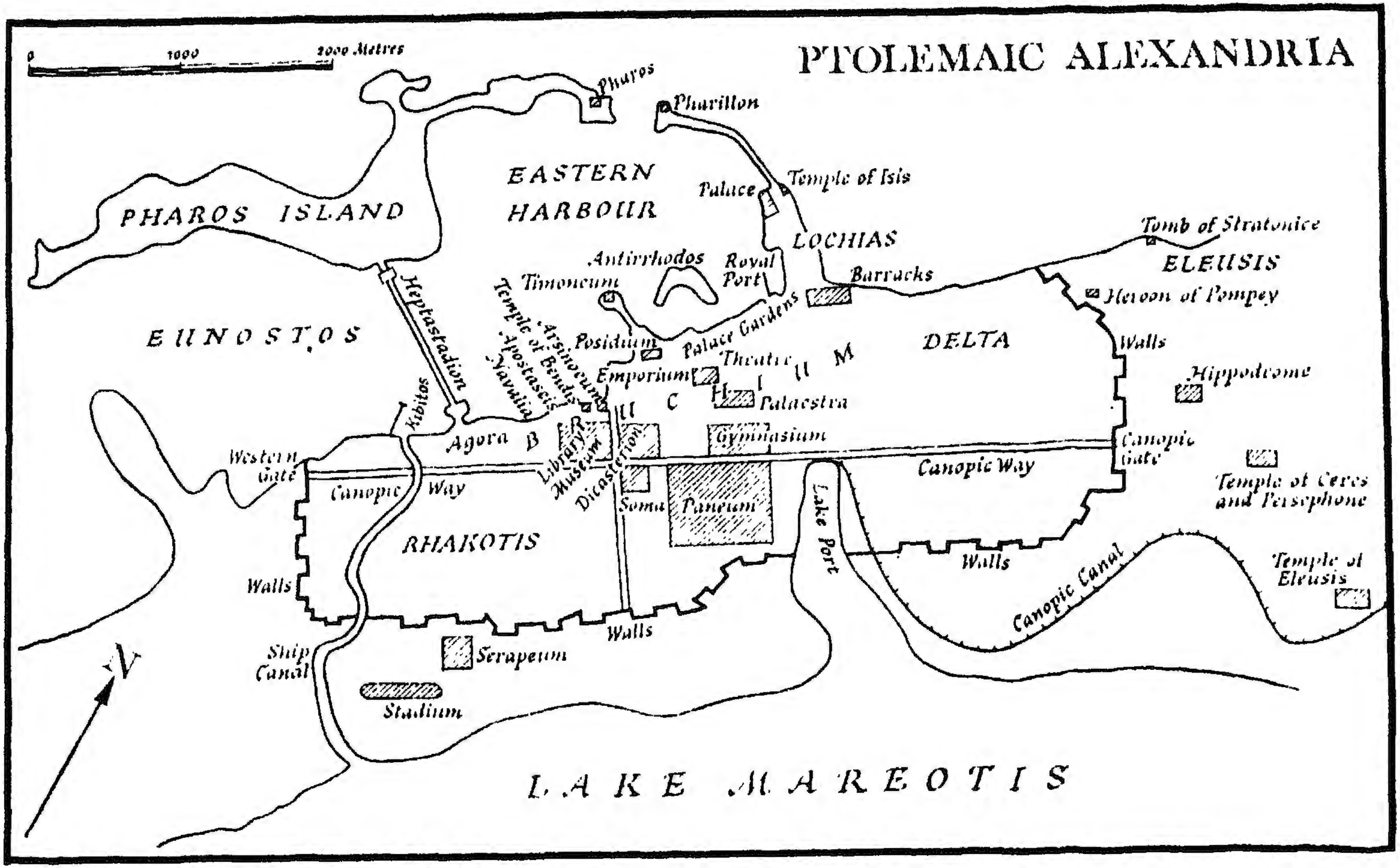
(1) Strabo Geography. Book 17. Chapter 7.
(2) Ibid Book 17 Chapter 6.
(3) Diodorus. History. Book 3. Chapter 12.
(4) E. R. Bevan. A History of Egypt Under the Ptolemaic Dynasty. p. 189.

٣ - المدينة البطلمية

إذا نظرنا إلى تاريخ الإسكندرية من الناحية المعمارية فإننا نجد أنه مثل تاريخ أى مدينة أخرى ، من حيث التغير المستمر وتزامن التدمير والتجديد فى آن واحد ، فالمبانى الجديدة فى الضواحى يصاحبها التآكل والانهيار فى وسط المدينة ، ربما يكون من المستحيل أو من باب التضليل ، أن نرسم للإسكندرية فى أى لحظة من الزمن صورة ممثلة لثلاثمائة عام من حكم الأسرة البطلمية ، لكن بالرغم من هذا ، فالتخطيط العام الذى رسمه دينوكراتيس سنة ٣٣٢ للمدينة ، يبدو وكأنه ظل محفوظا لم يصبه أى تغيير ، وأن معظم المبانى العامة الرئيسية وكذلك المبانى المكشوفة التى بنيت فى الأيام الرحبة لأول ملكين من ملوك البطالمة قد نجت من أضرار الاضطرابات والفتن الأهلية المتوالية وعاشت حتى استهل الاحتلال الرومانى عهداً جديداً فى تخطيط المدن .

والاحتمال الظاهر أن الجزء الأول الذى تم تطويره ، بعد تخطيط الشوارع والأسوار ، الذى سبق وصفها ، كان هو الميناء ، إن الجسر المقام بين الشاطئ وأقصى نقطة جنوب جزيرة فاروس والذى يبلغ طوله سبعة آثمان الميل ، أوجد ميناءين ، الميناء الشرقى و الميناء الغربى على التوالى،اللذين يحتميان بقرنى جزيرة فاروس من الرياح الشمالية الدائمة .

وكان الميناءان متصلين عن طريق ثغرتين فى الجسر ، يمكن للسفن أن تمر من خلالهما ، ويبدو أن الثغرتين كانتا تغطيهما كبارى متحركة ، وعند نهاية كل طرف من أطراف الجسر بنيت قلعة صغيرة ، ويحكى لنا المؤرخ استرابو بأنه كانت هناك قناة صناعية بنيت على طول الجسر لإمداد سكان الجزيرة بمياه الشرب ، كان الميناء الشرقى أو الميناء الكبير هو الميناء البحرى الملكى و كان يحميه حاجز يمتد فى البحر من طرف رأس لوكياس والذى أقيم عليه القصر الملكى والثكنات العسكرية المقدونية ، وعلى الخليج الصغير الذى تكون بين الميناء الشرقى ورأس لوكياس فى الغرب تم


PTOLEMAIC ALEXANDRIA
0
1000
2000 Metres
PHAROS ISLAND
Pharos
Pharillon
EASTERN HARBOUR
Palace
Temple of Isis
LOCHIAS
Tomb of Stratonice
ELEUSIS
Antirrhodos
Royal Port
Timoneum
Barracks
Heroon of Pompey
EUNOSTOS
Heptastadion
Temple of Bendis
Apostasis
Navalia
Arsinoeum
Posidium
Palace Gardens
DELTA
Walls
Emporium
Theatre
Palaestra
Hippodrome
Kibitos
Agora
Library
Museum
Dicasterion
Gymnasium
Canopic Gate
Western Gate
Canopic Way
Soma
Paneum
Canopic Way
Temple of Ceres and Persephone
RHAKOTIS
Lake Port
Walls
Walls
Canopic Canal
Temple of Eleusis
Walls
Serapeum
Ship Canal
Stadium
N
LAKE MAREOTIS

تشييد ميناء داخلى للعائلة الملكية ، وكانت واجهة البحر التى تقع مباشرة غرب رأس لوكياس ، المواجه للميناء الشرقى ، بين رأس لوكياس وبين شبه الجزيرة الصغيرة تبرز حدائق القصر ناحية الميناء الذى أقام عليه انطونيو مؤخراً معبد تيمونيوم Timoneum ، وكان مسرح ديونيسوس يقع مباشرة خلف حدائق القصر على مكان يرتفع قليلا عن الأرض والذى بنى تحت رعاية بطليموس الأول وبطليموس الثانى وارتبط بالقصر عبر ممر تحت الأرض يسمى سيرنكس Syrinx ، وأمام حدائق القصر، وبعيداً قليلاً عن الشاطىء ، كانت هناك جزيرة تسمى جزيرة أنتيرهودوس Antirhodos بنى عليها قصر ملكى ثان وميناء صغير ، وغرب شبه جزيرة تيمونيوم الصغيرة بقليل يوجد معبد متخصص لنبتون Neptune ووراءه بطــول واجهــة البحــر ، يوجـد السوق الكبيــر ، أو البورصة ، ومخازن الجمرك ، وأحواض السفن .

وغرب جسر الهيبتاستديون Heptastadion كان الميناء الغربى – أو ميناء العودة السعيدة للوطن Eunostos ، وكان مخصصاً لاستيراد وتصدير البضائع وله ميناء داخلى – الكيبتوس Kibitos – متصلاً ببحيرة مريوط وكذلك بالنيل فى داخل مصر عن طريق قناة تسمح بمرور السفن وتمتد داخل الأسوار الغربية للمدينة ، وهناك أيضاً ميناء على بحيرة مريوط ، على مدخل يقع إلى الشرق من نقطة اتصالها بقناة السفن ، وهى مخصصة لمرور المسافرين والبضائع من الإسكندرية إلى داخل مصر ، وكان النيل يمد المنازل بمياه الشرب عن طريق قناة تمتد شمال بحيرة مريوط وتدخل المدينة قرب ميناء البحــيرة وتربط المدينة بفــرع النيــل الكانوبى Canopic المتجه إلى الغرب (وفى الأصل كانت هذه القناة تربط الفرع الكانوبى عند مدينة كانوبوس Canopus قرب مصب الفرع الكانوبى) ، وفيما بعد وبسبب تزايد الطلب على المياه ، فقد أضاف أوكتافيوس Octavius فرعاً جديداً يتصل بالفرع الكانوبى للنيل عند سكيديا Schedia التى تبعد عن مدينة كانوبوس فى أعلى النهر ، وكانت توزع المياه عن طريق مجموعة كبيرة من الأنابيب أو المواسير الممتدة تحت الشوارع الرئيسية للمدينة وكانت توصلها أيضاً إلى كسارات الصخور التى تقوم بإمداد المبانى العامة والبيوت الرئيسية بالأحجار .

وطبقًا لما يذكره الكتاب القدامى كانت المدينة مقسمة إلى خمسة أسماء أخذت أسماء الحروف الخمسة الأولى من الأبجدية اليونانية ، لكن موقع هذه الأحياء غير واضح ، فالحى الملكى Bruchium مفروض أنه أخذ حرف beta وكان محدوداً برأس لوكياس فى الشرق وبالميناء الشرقى من الشمال وبشارع ضريح الإسكندر من الغرب وبفرع الكانوب من الجنوب ومنطقة الدلتا ، التى خصصها بطليموس سوتر إلى المهاجرين اليهود الذين كان يشجعهم على الاستيطان فى الإسكندرية ، كانت تقع إلى الشرق من الحى الملكى ،يحدها من الشمال البحر ، وأسوار المدينة من الشرق وفى الجنوب الفرع الكانوبى ، وكان حى راكوتيس أى ، الحى المصرى يقع فى الجنوب الغربى للمدينة ، يحده من الشمال فرع الكانوب ، ومن الشرق شارع الضريح ومن الجنوب والغرب أسوار المدينة .

والمنطقتان الأخريتان هما منطقة الميناء ، شمال وغرب الفرع الكانوبى وشارع الضريح ، والمنطقة الجنوبية الشرقية تحد أسوار المدينة من الشرق والجنوب والفرع الكانوبى وشارع الضريح من الشمال والغرب .

وكان موقع المتحف والمكتبة المتاخمين لها غير محدد وإن كانا كلاهما يقعان فى الحى الملكى ، والبعض يظن أنهما كانا فى حدائق القصر ، والبعض الآخر يضعهم فى مكان أبعد إلى الغرب خلف مخازن الجمرك ، وفوق اليابسة ، كانت مبانى المتحف محاطة بأفنية ومشايات مزروعة بالأشجار ، وفى المدخل رواق بالأعمدة ، يغطى الواجهة والجانبين ، ويوصل إلى القاعة الكبرى Exedra وخلف القاعة الكبرى توجد قاعة الطعام أو Oecus ، كان هذا المبنى دائرياً مسقوفًا بقبة فى الوسط ثم شرفة تستند إلى دوائر من الأعمدة المتحدة المركز فى داخل قاعة الطعام Oecus ، وفوق الشرفة يوجد مرصد ، وخارج المبانى الرئيسية كان هناك عدد من المبانى الملحقة ففى المنتزه الممتد حول المكان توجد حديقة حيوان ، إلا أنه لا توجد أوصاف هندسية لمعمار المكتبة والمحتمل أنها كانت فى داخل الحديقة المحيطة .

كان ضريح الإسكندر المسمى الصوما Mausoleum of Alexander The Soma فى وسط المدينة عند التقاء طريق كانوب بالشارع الذى أخذ اسم الضريح أو المقبرة ، ولم يعرف شىء عن هندستها المعمارية ومن المحتمل أنها بنيت فى عهد بطليموس

سوتر وقد نقل جثمان الإسكندر بعد تحنيطه فى كفن مذهب من مدينة ممفيس إلى هناك تقريبًا فى السنوات الأخيرة من عهد سوتر ، ويقال أن أحد البطالمة اللاحقين وكان فى حاجة شديدة إلى المال ، استبدل الكفن الذهب بآخر من الزجاج ، والضريح الذى كان فى عهد بطليموس من أهم المعالم الرئيسية فى المدينة ، قد اختفى فى القرن الرابع الميلادى .

أما الجمانيزيوم الذى يقع فى الجانب الشمالى من طريق كانوب فى منتصف المسافة بين الضريح وبوابة كانوب فى حائط السور الشرقى فكان بمثابة المدرسة العليا أو جامعة للشبان الإغريق **ephebes** كما كان مركز النشاط الأهلى للمجتمع الإغريقى ، وكان رئيس الجمنازيوم **The Gymnasiarch** أشبه شيء بالعمدة ، فهو رئيس الهيئة المدنية الإغريقية ، وقد كان لكل مدينة أو مستعمرة إغريقية جمنازيوم خاص بها ، وكانت الإسكندرية أروع المدن الإغريقية وأفخمها ، بها جمنازيوم رائع ، وبه أروقة مسقوفة بالإضافة إلى الإستاد .

بالقرب من الجمنازيوم تقع ساحة اللعب أو الباليسترا **Palaestra** وهى مؤسسة أخرى إغريقية الطابع ، والتى تتفق كثيراً مع مفهومنا الحديث للجمنازيوم ،كانت معهداً للتربية البدنية ، حيث كان الشباب يتدربون على رياضة المصارعة والملاكمة ، وبعد انتهاء التدريب ، كانوا يستحمون ويدهنون أجسامهم ، ويصف **Theocritus** فى إحدى أناشيده **Idylls** فتاة مريضة بالحب ، تنتظر حبيبها ليأتى إليها بعد أن أدى التمارين الرياضية مع زملائه فى ساحة الباليسترا **Palaestra** ، والباليسترا مثل مسرح ديونيسوس كانت متصلة بالقصر عن طريق نفق مغطى .

وفى طريق كانوب ، ربما فى الجانب الشمالى بين الضريح والجمنازيوم يوجد قصر العدالة ، أو الديكاستيريون **Dicasterion** والذى ذكر استرابو أنه محاط بغابات صغيرة من الأشجار .

وكان فى الحى الملكى أو البروكيوم **Bruchium** العديد من المعابد ، معبد بوزيدون **Poseidon** ، أو نبتون ، إله البحر ، الذى كان يواجه الميناء الشرقى قريبا من قاعدة

شبه جزيرة تيمونيوم ، وإلى الغرب مباشرة من المركز التجارى أو السوق Emporium وبينه وبين مخازن الجمارك Apostaseis يقع معبد أرسينوى الذى بناه فيلادلفوس تكريما لأخته التى تزوجها وأضفى عليها صفة الألوهية بعد وفاتها ، وطبقا لما ذكره المؤرخ بلينى Pliny فإن هذا المعبد كان يحتوى على مذبح صغير من الذهب وتمثال من الياقوت لأرسينوى يبلغ ارتفاعه ستة أقدام ، وطبقا لرواية أخرى ، فان هذا التمثال كان معلقا من السقف بسلاسل من الذهب ، وعند المدخل المواجه للبحر توجد مسلة ترتفع مائة وعشرين قدما وهى الآن موجودة فى القسطنطينية .

و بجوار معبد Arsinoe كان يوجد معبد بنديس Bendis وهى إلهة من فريجيا معروفة باسم أرتميس Artemis وكانت بهذا المعبد مسلتان عند المدخل ، وهما الآن فى روما أما معبد إيزيس : عند طرف رأس لوكياس ، فالراجح أنه لم يشيد إلا فى زمن كليوباترة ، عندما أصبحت عبادة هذه الإلهة المصرية الأصل مذهبا عصريا فى كل أرجاء البحر الأبيض المتوسط ،

أما حرف دلتا Delta أو الحى اليهودى ، فلم يظهر به أى مبانى مرموقة .

وكان حى Rhakotis المصرى فى الجنوب الغربى للمدينة يهيمن عليه معبد السيرابيوم ، القائم على مرتفع يطل على المدينة والبحيرة ، و من الأعمال الأولى التى قام بها بطليموس سوتر بعد إقامة ملكه فى الإسكندرية هو تنصيب ربة حارسة للمدينة ، تمشيا مع الموضة الشائعة عند المصريين ، مما يمكن أن يوحد المصريين والإغريق فى عبادة مشتركة وولاء مشترك للمدينة ، ثم ابتكر سوتر ومستشاروه معبوداً صناعياً مركبًا من توليفة متنوعة من آلهة الإغريق وآلهة المصريين تجمع بين الإله زيوس مطلق الرعود ، واسكيليبيوس الشافى والعجل أبيس Apis the Bull ، ثم إيزوريس واهب الحياة ، أطلقوا عليه اسم سيرابيس Serapis وأعطوه الإلهة المصرية إيزيس ، كزوجة له وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى يرى فيها العالم إلهًا يخلقه مجتمع ، وهذه الطريقة الخاصة بتأسيس ديانة جديدة لم تكن تبشر بالنجاح ، ولكنها نجحت بصورة لم تصل إليها أقصى التوقعات لدى من خلقوها .

كانت هناك دعاية نشطة عن سيرابيس فى جو المدن المصرية ، وانتشرت عبادته انتشاراً سريعا فى مدن بحر إيجة ، واتجه الناس فى كل مكان إلى سيرابيس باعتباره رسول الخلاص ، ربما كان القصد منه جمع المصريين والإغريق فى عبادة مشتركة ، لكن المصريين لم يتقبلوه ، ورغم احتفاظه بصفات أوزيريس وبإيزيس كزوجة لـــه ، فقد صار هو الإله الإغريقى للإسكندرية وكان تمثاله العظيم برأسه الذهبية وعيناه المرصعة بالجواهر تتلألأ من مزاره المظلم مما جعله أحد الأمجاد الرئيسية للمدينة ، لقد أصبح الحاكم العام الذى أقامه عابدوه لأنفسهم بالطريقة التى تحلو لهم ، لكن الأهم أنه حين صار هو سرابيس فلم يعد ندًا لرفيقته ، ففى حين كان الناس يبتهلون إليها منفردة ، فانهم لم يبتهلوا إليه أبدًا بدونها ، فمن بين الربات الهللينستية ربما كانت إيزيس ذات الأسماء التى لا تحصى هى أعظمهن ، فهى سيدة الجميع ، البصيرة بكل شىء ، والقديرة القهارة ، ملكة المسكونة كلها ، نجم البحر ، إكليل الحياة ، المخلص ومانح القانون ، هى النعمة والجمال والحظ الحسن هى الوفرة والحقيقة ، والحكمة والحب ، الحضارة كلها من عطاياها وازدهرت تحت رعايتها ، كانت إيزيس إحدى الظواهر التى لم يسبق لها وجود فى البحر المتوسط على مدى العصور التاريخية لكنها وقد ظهرت ، فإن العالم لم يهجرها أبداً ، وعندما انتصرت المسيحية أخيراً وسقط زيوس وأبوللو ، وسيرابيس وآلهة النجوم عن مقاعدهم ، فإن إيزيس وحدها هى التى نجت من السقوط العام . إن عبادة العذراء دخلت إلى مصر قبل إهمال السيرابيوم ، وقد تحول أتباع إيزيس فى هدوء إلى أم ثانية[١] .

السيرابيوم ، وهو المعبد الرئيسى الذى أقيم من أجل عبادة سيرابيس ، وقد بنى فوق تل مسطح عند قمته على شكل هضبة مستطيلة يبلغ طولها ٥٠٠ ذراعًا (حوالى ٢٨٠ قدمًا) وعرضها ٢٥٠ ذراعًا ، وإذا كان المرجح أن المعبد الأصلي قد بنى فى عهد بطليموس سوتر فان المجمع الكبير الذى صار فيما بعد المركز الرئيسى والقلعة الأخيرة للوثنية فى الإسكندرية ، لم يكتمل بناؤه إلا فى عهد بطليموس الثالث فقط ، وذلك طبقا للوحات التذكارية التى وجدت على حوائط الأساسات أثناء الحفريات التى تمت سنة ١٩٤٢ ، وكانت الهضبة المقام عليها المعبد يقترب منها من الشمال والجنوب طريق عربات ومن الشرق سلم بارتفاع مائتى درجة ، وعند قمة السلم يوجد

دهليز Propylaeum أما المعبد فكان يرتفع فوق أربعة أعمدة كبيرة متقاربة بين مسلتين ، وبداخل الدهليز توجد قاعة مستديرة ، مغطاة بقبة ذهبية تستقر فوق حلقة مزدوجة من الأعمدة ، أما المعبد نفسه فإنه يقع فى وسط ساحة مربعة تتكون من الهضبة المسطحة وحول محيطها المربع توجد قاعات المحاضرات والمكتبات والمخازن ،الخ ، التى تنفتح على رواق cloister قائم فوق عدد من الأعمدة ، وكان هذا الرواق متصل ببهو الأعمدة الذى يحيط المعبد بأربعة صفوف مزدوجة من الأعمدة تمتد فى زوايا قائمة من وسط كل جانب من جوانب القاعة على هيئة صليب ، يقع المعبد فى داخله عند ملتقى الخطوط ، كان المعبد مستطيل الشكل ومحاط ببهو الأعمدة ذى الرؤوس المذهبة أما أرضية المعبد فكانت مغطاة بالرخام ، وكانت الحوائط مغطاة بألواح معدنية من الذهب والفضة والبرونز ، وكان فى الجانب الشرقى تمثال ضخم للإله سيرابيس مصنوع من الخشب ومغطى بالعاج وتكاد ذراعاه الممتدتان أن تلامس الحوائط على الجانبيين ، وفى يده اليسرى يمسك صولجان الملك وتحت يده اليمنى توجد صورة سيربيروس Cerberus المكون من ثلاث رؤوس للأسد والكلب والذئب يلتف حولها تنين ضخم أو ثعبان كبير موضوع بطريقة منظمة تتيح لأشعة الشمس فى لحظة الشروق أن تضئ ملامح الإله .

وفى وقت من الأوقات فى عهد بطليموس تم إنشاء ما كان يعرف بالمكتبة الابنة The Daughter Library فى داخل معبد السيرابيوم ، وهى أشبه بملحق للمكتبة الأم The Mother Library المقامة فى البر وكيوم أو الحى الملكى.

وفى عهد دقلديانوس Diocletian تم بناء عمود يبلغ ارتفاعه ٨٠ قدمًا فى الساحة المربعة ، يعرف بعمود بومبى تخليدًا لزيارة هذا الإمبراطور وعندما أصبحت المسيحية هى الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية فيما بعد، أصبح معبد السيرابيوم هو القلعة ليس فقط للعبادة الوثنية ، بل للفكر والفلسفة الوثنية ، أى رمز الكبرياء والملاذ الأخير لقضية خاسرة ، إن اجتياح معبد السرابيوم فى عهد البطريرك ثاوفيلوس ، بناء على أوامر الإمبراطور فى نهاية القرن الرابع كان رمزًا لنهاية الوثنية فى مصر ، مثلما كان اجتياح الباستيل رمزًا لنهاية الملكية فى فرنسا .

وفى راكوتيس أيضًا التى تقع إلى الجنوب الغربى من السيرابيوم وبالقرب من الضفة الغربية للقناة الملاحية التى تربط البحيرة بالميناء الغربى ، كان هناك الإستاد

الذى بناه فيلادلفوس للمباريات الأوليمبية ، تخليدا لذكرى والده ، وكانت هذه المباريات تعقد كل خمسة سنوات ويشترك فيها الرياضيون من جميع مدن العالم الهللينستى.

وفى الشمال الغربى للمدينة حول نهاية الجناح الأرضى للهبتاستديون Heptastadion توجد ساحة واسعة مكشوفة تضم فى جزء منها السوق Agora وفى الجزء الثانى المنتزه ، وكان فنار الإسكندرية أو الفاروس ، هو أعظم مبانى المدينة ، وقد صنف فيما بعد كواحد من عجائب الدنيا السبع ، وقد بنى الفنار فى عهد فيلادلفوس عند نهاية الطرف الشرقى لجزيرة فاروس أى عند مدخل الميناء الشرقى .

يقف الفنار فى وسط فناء تصطف فيه الأعمدة المنحوتة من جرانيت أسوان ، لازالت بقاياها تقبع فى قاع البحر ، تشكل الأثر الوحيد الباقى للفنار الذى نراه الآن وكان يرتفع على هيئة برج بارتفاع يبلغ ٣٥٠ قدمًا ، يتكون من ثلاثة طوابق يعلوها فانوس ، الطابق الأسفل مربع الشكل ، يبلغ ارتفاعه ١٨٠ قدمًا تخترقه عدة نوافذ ، وهو يضم غرفًا ، قدرت بثلاثمائة غرفة ، يسكنها الميكانيكيون والمشرفون وكان يحيط بهذا الطابق رصيف مربع وكورنيش مزين بتماثيل الإله Tritons ، وكان الطابق الثانى يتكون من ثمانى أضلاع ويصل ارتفاعه إلى ٩٠ قدمًا وحوله شرفة ، أما الطابق الثالث فهو مستدير الشكل بارتفاع ستين قدمًا ، وفى داخل البرج يوجد مدرج حلزونى ، ربما كان مزدوجًا ، يصعد الى أعلى حتى القمة ، وكان هناك بئر فى وسط البرج وبه مصعد هيدروليكى لرفع أخشاب الوقود المستخدمة فى الإضاءة ، والبديل هو أن الوقود كان ولابد أن يرفع الى أعلى عن طريق دواب الحمل وتصعد به فوق المدرج الحلزوني ، ويقف الفانوس فوق قمة البناء وهو يتكون من ثمان أعمدة يعلوها قبة فوقها تمثال من البرونز للإله بوزايدون ، ارتفاعه عشرون قدما ، وقد بنى البرج من الحجر الجيرى وهو مغطى بالرخام ومزخرف من الخارج بتماثيل من الرخام والبرونز ، كانوا يحرقون خشب الصمغ للحصول على اللهب اللازم للإضاءة ، وكانت المرايا المحدبة تستخدم لكى تعطى الضوء مجالا أطول ، وحول هذه المرايا نسجت أساطير عديدة ، كانت هناك افتراضات مختلفة إذ قيل عنها إنها ليست سوى تليسكويات تكشف السفن على أبعاد لا تراها بالعين المجردة ، وقيل إنها عبارة عن زجاجات مشتعلة قادرة على تدمير سفن العدو عند اقترابها من الإسكندرية ،الافتراض الأول ممكن أما الأخير فهو بعيد الاحتمال .

وعلى الرصيف عند قمة الطابق الأول كانت هناك نقوش إغريقية بحروف كبيرة من الرصاص : "من سوستراتوس الكنيدى ابن ديكسفينز إلى الآلهة المنقذة" التى تقف إلى جانب البحارة ، إن آلهة الإنقاذ هم كاستور وبولكس Castor and Pollux اللذان يقومان بحماية البحارة ولكن النقوش كان المقصود منها أن يكون لها معنى مزدوج يشير أيضاً إلى سوتر وبرنيس والدى فيلادلفوس اللذين أضفى عليهما صفة الألوهية ثم أخذ يروج لعبادتهما ، أما سوستراتوس الكنيدى Sostratus of Canidus فكان هو المهندس المعمارى الذى بنى الفنار .

كان الفنار لا يزال قائماً فى موقعه لم يصبه أى ضرر عندما استولى العرب على مصر فى عام ٦٤١ ميلادية ، وقد سقط الفانوس عام ٧٠٠ م وكذلك أنهار الطابق الثالث والثانى ، نتيجة لزلزال ضرب الإسكندرية حوالى ١١٠٠ م ، أما الدور السفلى الرباعى الشكل فقد قاوم الزمن وبقى حتى القرن الرابع عشر حين دمره أيضاً الزلزال، لقد أطلق عليه العرب إسم المنارة almnara (أى مكان النور) وقد اقتبسوا الإسم والشكل فى بناء المآذن .

وفى المدخل الشرقى المواجه للميناء الكبير Grand Harbour خارج رأس لوكياس ، كان هناك فنار آخر صغير جداً يسمى الفاريلون Pharillon .

وكان البانيوم Paneum أو منتزه الإله بان Pan ، يقع على الجانب الجنوبى لطريق كانوب ، المواجه للجمنازيوم " وقد شيد البانيوم بالأسلوب الفنتازى متأثراً بالمهندس المعمارى دينوكراتيس ، والبانيوم عبارة عن سلسلة من الشرفات الصناعية بها كهف grotto خصص للإله بان Pan تعلوه منصة وبرج صغير يتم الصعود إليها بسلم حلزونى"(٢) ، لقد وصفه استرابو بأنه عبارة عن تل صناعى ، مقام على شكل مخروط من خشب التنوب fir-cone ، به طريق حلزونى يوصل إلى القمة ، وهناك يمكن الإلمام بمنظر المدينة الجميل ، إنه مكان ملىء بالحشائش ومسا قط المياه والممرات النائية المعزولة وهو بلا شك مكان مفضل للعشاق وبديل دنيوى عن معبد السيرابيوم يمكن للباحثين عن الجمال أن يستمتعوا فيه بجو الخضرة والمناظر الجميلة .

وكان طريق كانوب وهو الشارع الرئيسى فى المدينة محاطا على الجانبين بأرصفة ذات أعمدة تمتد بطول الشارع كله ، أما شارع ضريح الإسكندر المستعرض ففى وسطه حارة مشجرة ، وكانت واجهات معظم المبانى من الرخام ، مما أضفى على المدينة بياضًا لامعًا ، وكانت جميع شوارع المدينة الرئيسية صالحة لاستعمال المركبات على عكس المعتاد فى المدن اليونانية .

وكان طريق كانوب وطريق الضريح وهما الشريانان الرئيسيان ، يضاءان ليلاً بمصابيح زيتية وبعض الشوارع الرئيسية كانت مرصوفة بكتل حجرية رمادية اللون مربعة الشكل ، سمكها حوالى ٣٠ سم وطولها من ٣٠ - ٥٠ سم .

وقد توفرت مياه الشرب للمدينة بفضل القناة ، والأنابيب الجوفية والخزانات ، وكان هناك عدد من النافورات فى حدائق القصر ، وكانت المعابد مزودة بماء للاغتسال والتطهر وبعض المبانى الكبرى الخاصة كانت بها نافورات فى الأفنية ، وكانت المبانى المختلفة تشيد من الطوب الأحمر ولم يكن الخشب يستخدم إلا نادراً ، وكانت المبانى العامة تغطى واجهاتها بالرخام والمبانى الخاصة كانت تطلى لكى تعطى لون الرخام ، وقد قلل هذا من خطر الحرائق التى كانت تعد من أخطر الكوارث والويلات فى المدن القديمة ، وقد قيل لنا إن النجارين بالإسكندرية كانوا يعملون فقط فى بناء السفن أو فى صنع الأثاث .

يصل المحيطُ الخارجى للأسوار حوالى ١٢ ميلاً تخترقها ثلاثة بوابات رئيسية ويقال إن الأسوار الشرقية والغربية كانت ثلاثية ومن طابقين كل طابق يعلوه برج ، وفى الجهة الجنوبية حيث تتمتع المدينة بحماية إضافية لوجود بحيرة مريوط ، لم يكن هناك سوى جدار واحد يتكون من طابقين يعلوهما أبراج ، وفى عصر بطليموس كان الجزء المواجه للبحر يخلو من الجدران ، أما بوابة كانوب (كانت تسمى أحيانًا بوابة الشمس) فكانت تقع فى الطرف الشرقى من طريق كانوب ، وكانت بوابة مريوط تقع على الطرف الجنوبى لشارع الضريح .

وبالنسبة لعدد سكان الإسكندرية فى عهد البطالمة فهناك تقديرات متباينة ، فالمؤرخ الرومانى ديودورس ، قدر عدد السكان بثلاثمائة ألف مواطن عند نهاية حكم

هذه الأسرة ، وكانت لفظة مواطن citizen تعنى الأحرار من اليونانيين بصفة مؤكدة ومن اليهود احتمالاً ، ومن المرجح أنهم استبعدوا المصريين وبدون شك استبعدوا العبيد والأقرب إلى الدقة أن نقول إن إجمالى عدد السكان فى ذلك الوقت كان فى حدود نصف مليون .

لم يمر وقت طويل حتى أخذت الإسكندرية فى التمدد جهة الشرق خارج أسوار المدينة ، حيث نمت هناك ضاحية إليوسيس والتى يهيمن عليها معبد اليوسيس Eleusis والذى كان مكرسًا لعبادة إليوسيس Eleusinian mysteries والاحتفالات الخاصة بأسرار هذه العبادة التى جاءت من بلاد اليونان ، وكانت هناك ضاحية أخرى تسمى إليوسيس أيضاً على شاطىء البحر مباشرة خارج الأسوار الشرقية وكان إستاد سباق العربات أوالهيبودروم Hippodrome إلى شمال بوابة كانوب والى الشرق قليلاً من الإستاد يوجد معبد مخصص للربة كيريس Ceres والربة بيرسيفونا Persephone ، وعلى طول الساحل الممتد نحو مصب كانوب على بعد ١٥ ميلاً نجد عدداً من المعابد والآثار وعند رأس زيفريون Zephyrion هناك معبد مخصص لأرسينوى وأفروديت ، وبالقرب من مصب كانوب توجد مدينة كانوب ذات الأهمية الكبيرة ، وهناك عدة معابد ؛ أحدها لسيرابيس ، حيث اشتهر بقدراته الشفائية ، ويخبرنا المؤرخ استرابو "أن الذين كانوا يؤمنون به وينامون فى هذا المعبد كانوا من أكثر الناس شهرة " ويأملون فى الحصول على علاج سحرى لأمراضهم .

أصبحت مدينة كانوب منتجعًا عظيمًا للحجاج والساعين إلى المتعة من أهل الإسكندرية ، وقد عبر استرابو عن استنكاره لجماهير الماجنين الذين ينزلون من الإسكندرية ويذهبون عن طريق القناة إلى الاحتفالات العامة ففى كل يوم ، وكل ليلة ، يزدحم المكان ، براكبى القوارب الذين يعزفون الناى ، ويرقصون رقصات فاجرة منحلة ، وحتى أهل كانوب ذاتها ، الذين كانت لهم منتجعاتهم الخاصة القريبة من القناة اعتادوا على ممارسة اللهو والمرح ، هذا ما كتبه استرابو ، طبعًا ، عند نهاية القرن الأول ق.م وربما كانت صفات الإفراط والتحلل هذه هى نفس صفات فترة الاضمحلال الأخيرة لحكم البطالمة .

وإلى الغرب من المدينة تمتد سلسلة جبلية بطول أربعين ميلاً بين بحيرة مريوط والبحر، وكانت مستوطنة تابوزيريس التى أقامها بطليموس وتعرف باسم تابوزيريس العظمى Taposiris Magna تمييزاً لها عن تابوريس القريبة من كانوب ، تقع عند طرف السلسلة الغربى وعند الركن الشمالى الغربى للبحيرة .

كانت السلسلة وشواطىء بحيرة مريوط أرضاً خصبة وعامرة بالسكان فى عصور البطالمة والرومان ، وعلاوة على تابوزيريس كانت هناك عدة مدن أخرى ، وكان أكبرها مدينة ماريا Marea ، وهى تقع بجوار الشاطىء الجنوبى للبحيرة ومن خلفها أرض عالية مزروعة ترتفع حوالى ٢٠٠ قدماً وعلى شواطىء البحيرة كانت هناك الفيلات والخلوات الخاصة بأغنياء الإسكندرية .

كانت وسيلة المواصلات المستعملة بين الإسكندرية وبين هذه المناطق الخصبة هى القوارب عبر بحيرة مريوط ، وكانت البحيرة متصلة بفرع النيل الكانوبى عن طريق عدد من القنوات ، وكان هذا الفرع هو وسيلة الاتصال بين الإسكندرية وبين المدن الداخلية بمصر وكان الاتصال مع إقليم قورينا المجاورة يتم أيضاً عبر البحيرة حتى مدينة تابوزيريس ، ومنها بالطريق البرى بحذاء الشريط الضيق بين الصحراء والبحر .

Notes

(1) Tarn & Griffith. op. cit. 355.

(2) Matter. L'Ecole d' Alexandrie. Vol. I, p. 6I.

٤ - غاية التعليم

فى بلاد اليونان القديمة ، لم يكن هناك تفرقة عملية بين التعليم والفن ، أكثر من هذا فإن الشكل الفنى سواء فى النحت ، والموسيقى ، والخطابة ، والفلسفة ، والشعر الملحمى ، والكوميديا ، والتراجيديا ، والرقص ، كان يعتبر الوسيلة الطبيعية لتوصيل المعرفة، فرجل العلم لكى يتسنى لـه توصيل ما يعرفه بلغة مفهومة، لابد أن يكون فنانًا ، فغاية التعليم هى الحقيقة ، وهدف الإبداع الفنى هو الجمال ، فالحق والجمال متطابقان فالجمال هو مظهر الحقيقة الخارجى .

والفلاسفة الذين ابتدأوا هذا التقليد ، كانوا هم الفاعلين فى وضع نهاية له ، فأفلاطون بأفكاره عن الملوك الفلاسفة ، كان يميل إلى نقل مظهر التعليم من إنجاز فنى إلى إنجاز إدارى ، أما أرسطو فقد أراد عن طريق تأكيده على الملاحظة والاستنتاج أن ينتقل التعليم من الأستوديو إلى المعمل ، أما زينو من كيتيوم و أبيقور ، بتأكيدهم على السلوك ، إنما كانا يريدان أن يريا الحياة الفاضلة لا من خلال تعبير الحق والجمال ، بل بالتكيف مع القوى الآلية الحتمية التى يتكون منها الكون حسب اعتقادهم .

فمدارس الفلسفة الأربعة ، التى أسسها هؤلاء الرجال هى :

أكاديمية أفلاطون ، ليكيوم أرسطو **Aristotle's Lyceume** ، رواق زينو **Zeno's Stoa** ، ومدرسة أبيقور ، التى أنشئت فى أثينة فى منتصف القرن السابق على فتوحات الإسكندر ، ونتيجة لهذه الفتوحات ، انتشر تأثيرها و تلاميذها فى كل أنحاء العالم الهللينستى ، و كان التلاميذ ينجذبون نحو المدن الغنية أو الأكثر ثراء ، و بالأخص الإسكندرية ، وذلك لتوفر الرعاية ، وجماهير المستمعين ، و وسائل الراحة ، والفرص التى كانت تنتظرهم هناك ، بالمقارنة بالظروف المعيشية الضيقة فى مدينة إقليمية مثل أثينة التى مزقتها الحرب وأقعدها الفقر .

وربما رأى بطليموس سوتر أن غاية الابتعاد النسبى عن شئون الحياة العامة ، وهو السمة المميزة لمدارس الرواقيين و الأبيقوريين التى تعارض السمات الديمقراطية العادية فى مدرستى أفلاطون و أرسطو قد تساهم مستقبلا فى خلق رأى عام ملائم لنظامه بين الإغريق فى الإسكندرية ، على أى حال ، فإنه عرض ضيافة قصره على كبار فلاسفة الإغريق ، و كان ابرز هؤلاء وأعظمهم هو ديمتريوس الفاليرى Demetrius of Phaleron أحد الفلاسفة المشائين Peripatetic (الأرسطيين) الذى لعب دورا بارزا فى الحياة العامة فى أثينة ، إذ كان الحاكم الأوتوقراطى للمدينة فى أثناء حكم الكسندر المقدونى Cassander ، وفى أثناء هذا الوقت ساهم فى تأسيس الليكيوم تحت إشراف ثيوفراستوس خليفة أرسطو وفى سنة ٣٠٧ عندما استولى ديمتريوس آخر على أثينة – أى ديمتريوس البسيجر ، The Besieger ، ابن انتيجونوس الأعور ، الذى استعاد النظام الديمقراطى ، هرب ديمتريوس الفاليرى إلى الإسكندرية ، حيث أصبح أمين سر بطليموس سوتر و موضع ثقته ، وأصبح مسئولا عن تأسيس المتحف والمكتبة و كان تأثيره حاسمًا فى تحديد شكل و وظيفة هذه المؤسسات التى أصبحت قلب الحياة الفكرية للإسكندرية .

كان المتحف مؤسسة حكومية ، اختير مكانه فى أراضى القصر الملكى ، واعتمد على إعانة القصر ، و من ثم صار خاضعًا لإرادة القصر وعلى غرار أكاديمية أفلاطون ، وهبوه لربات الفن Muses (ومن هنا جاء الاسم Museum) ، وبهذا تأكدت العلاقة بينه وبين العلوم و الفنون الإغريقية الكلاسيكية ، وتبعًا لهذا ونتيجة لصلته بالقصر الملكى ، كان لابد أن يكون رئيس المتحف التعليمى كاهنًا أو ربما كان الكاهن الأكبر فى معبد سيرابيس ويعينه الملك لكن وظيفته كانت وظيفة إسمية تقريبًا ، فعلماء المتحف كانوا يأتون إلى هناك بدعوة ملكية ، و كانوا يقيمون ويتلقون الإعانات من الخزينة الملكية ، كانوا يعيشون حياة منعزلة إلى حد ما ، على غرار النمط الذى كان يتبعه العلماء الإغريق فى العالم الهللينستى ، ففى أزمنة الاضطرابات بعد فتوحات الإسكندر ، "صاروا أرواحًا رقيقة حساسة أحست بالحاجة إلى الهروب من إذلال الحياة العامة فلاذوا بالخلوات حيث لا يمكن لصخب العالم الخارجى و ضوضائه أن تنفذ إليهم فعزلوا أنفسهم عما حولهم ليس فقط من أجل العلم بل أيضا لكى يعيشوا "عيشة هادئة "[١] .

يعتقد مطر Matter[٢] أن عدد الباحثين بالمتحف لم يزد فى أى وقت من الأوقات عن ثلاثين باحثًا ، رغم أنه كان هناك تبادل بين المتحف و المؤسسات المشابهة فى المدن الهللينستية الأخرى ، وكان كبار العلماء الزائرين أيضًا يلقون الترحيب للإقامة كضيوف فى المتحف ، ويبدو أن المتحف لم يكن به تلاميذ مقيمين ، لكن علمائه كان لهم تلاميذ و مريدون ، يتلقون العلم عليهم، ربما خارج المتحف ،إن العلاقة بين المتحف والمكتبة لازال يحيط بها الغموض ، وإن كان من المرجح أنهما كانتا متجاورين مادياً وشيداً فى نفس الوقت ، كان كلاهما موضع رعاية ملكية ويواصلان أداء مهمتهما على نفقة البلاط الملكى ، لكن أمين المكتبة الرئيسى ، رغم أنه كان يعين من قبل البلاط ، فإنه كان يبدو مستقلاً تقريبًا عن المتحف.

على كل حال فإن المكتبة اتسعت فى وقت قصير وأصبحت أكثر شهرة من المتحف ، لقد أنفق ملوك البطالمة الثلاثة الأول مبالغ طائلة و استخدموا كثيراً من الموظفين لشراء المخطوطات الكلاسيكية حيثما يجدونها فى كل أنحاء العالم الهللينستى ، ويقال إن ديمتريوس الفاليرى قد جمع فى عهد بطليموس سوتر ٢٠٠,٠٠٠ من لفائف المخطوطات منها ٥٠,٠٠٠ مخطوطة أصلية والبقية صور منسوخة ، وذلك قبل أن يفقد رضا الملك وينفى بسبب نصيحته غير المستحبة بترشيح كراونوس Keraunos ابنه من زوجته الأولى ، كوريث للعرش ، بدلاً من فيلادلفوس ابن زوجته برينيس Berenice ، ويقال إن فيلادلفوس و زينودوتس Zenodotus كبير أمناء المكتبة ، و هو باحث مشهور فى تراث هومر قد اشتريا مكتبة أرسطو ، وفى نهاية حكمه حسب ما يذكر الشاعر كليماخوس الذى ربما خلف زينودوتس كأمين للمكتبة و وضع لها الفهارس ، فإنها كانت تحتوى على ٩٠,٠٠٠ لفة لمخطوطات أصلية و ٤٠٠,٠٠٠ ، لفة من الصور المنسوخة ، بالإضافة إلى ٤٢٨٠٠ فى ملحق أو مكتبة صغيرة أطلق عليها لقب "الابنة Daughter" تم إنشائها فى معبد السيرابيوم ، كما يقال إن بطليموس الثالث يورجيتس و أمين المكتبة ايراتوسطين العظيم ، ليونارد دافنشى عصره ، حصلا على مخطوطات ايسخيلوس وسوفوكليس ، ويوربيديس ، وقد أنشأ بطليموس الرابع فيلاباتور فرعًا للمكتبة كرس خصيصاً لدراسة تراث هومر وتحريره .

فى عالم الأدب الهللينستى ، كانوا ينظرون إلى هومر باعتباره أعظم شعراء الملاحم ، أعظم الحكماء ، وراوى القصص الذى لا مثيل له ، فهو مرآة الثقافة الكلاسيكية ، وآلهته وأبطاله الذين لم يعد أحداً من المتعلمين يعتقد فيهم أو يعبدهم ، فإنهم لا يزالون يشكلون جزءاً من سداة النظام الإغريقى ولحمته ، كانت إحدى المنجزات الرئيسية التى حققتها مكتبة الإسكندرية فى المائة سنة الأولى ، هى جمع أعمال هومر وتحقيقها ، وتحريرها وتصحيحها وحفظها للأجيال القادمة ، لقد جعل زينودوتس هذه المهمة هى شغل حياته و قد زيدت أعماله واكتملت على يد خلفائه ، مثل أريستوفانيس البيزنطى ، وأريسطارخوس الصامى .

وقد قامت مكتبة الإسكندرية بالنسبة للأدب الكلاسيكى عموما بمهمة الجمع والتحقيق والحفظ ، فقد تخصص علماء مختلفون فى أشكال الدراما المختلفة - الإسكندر الأيتولى Aetolia فى التراجيديا والهجاء ، وتخصص الشاعر ليكفرون Lycophron فى نصوص شعراء الدراما الكلاسيكية التى تم الحصول عليها وتم وضعها فى المكتبة ، هؤلاء الباحثون أدوا للأدب الكلاسيكى ذات الخدمة التى أداها الرومان فيما بعد بالنسبة لشعراء الإسكندرية ، لقد أنقذوهم من النسيان و سلموا أعمالهم لمن أتى بعدهم من الباحثين لحسن الحظ، وحيث أن الأدب الإغريقى هو أكثر من الأدب السكندرى فإنهم قد قاموا بهذه المهمة على أحسن وجه و اكمله .

وقد لوحظ أن الطريقة الأرسطية التى كان ينتهجها ديمتريوس الفاليرى قد تركت أثرها فى نمط الدراسات التى سار عليها المتحف والمكتبة ، هذه الدراسات القائمة على مبادىء أرسطو و هى الملاحظة و الاستدلال (الاستنتاج) ، تتكون أساساً من الطب ، والفلك ، والهندسة فى المتحف و الفيلولوجى و النحو فى المكتبة ، وقد تفوقت مدرسة الإسكندرية فى هذه الميادين و ظلت كذلك نحو خمسمائة عام ، فكل اكتشاف علمى له أهمية قد تم الوصول إليه أو تسجيله قد تم تطويره فى الإسكندرية ، التى كان علماؤها أيضاً ، فى العلوم وكذلك فى الأدب يقومون بجمع وتحقيق وحفظ الاكتشافات التى تمت فى عهود من سبقهم .

أما الفلسفة البحتة فقد أصابها الذبول أثناء حكم فيلادلفوس ، بسبب تأثير أرسطو للاتجاه بعيداً عن التأملات المجردة ولأن فيلادلفوس امتنع عن تقديم أى معونة

للفلاسفة لأن لديهم عادة مزعجة هى مجادلة الملوك ذى السلطة المطلقة ، ولم يعد الاهتمام بالفلسفة إلا مؤخرا نتيجة لضغط رجال الكنيسة فى أثناء القرون الخمسة الأولى للمسيحية حيث انطلقوا فى كفاحهم الطويل من أجل السيطرة المسيحية على العالم المتحضر .

ربما كان أعظم علماء الإسكندرية جميعًا ، وأكثرهم شمولاً هو ايراتوسطين Eratosthene القوريني ، الذى سيطر على العالمين عالم المتحف وعالم المكتبة ، كان تلميذا للأبيقوريين فى أثينة ، ولد فى قورينة حوالى ٢٧٥ ق.م وعاش حياة طويلة ، ومات فى الإسكندرية حوالى ١٩٤ ق.م ، جاء إلى الإسكندرية وهو شاب فى أواخر حكم فيلادلفوس ، وعمل كبيراً لأمناء المكتبة ، فى عهد بطليموس يورجيتيس وظل كذلك حتى وفاته ، كان ينافس أرسطو فى سعة معرفته ، كتب الشعر كما كتب أعمالاً فى النقد التاريخى ، وفى علم الكرونولوجيا Chronology وفى الفلسفة والرياضيات وكتب بحثا فى الجغرافيا ، أوجز فيه المعلومات الجغرافية فى عصره ، واستنتج فيه أن الكون مستدير الشكل فإذا سافر إنسان من أسبانيا فى إتجاه الغرب فإنه سوف يصل فى النهاية إلى الهند ، لأن كل بحار العالم مرتبطة بعضها مع بعض تطوق اليابسة بطوق كالحزام ، ونتيجة لذلك فإنه يمكن لأى إنسان أن يطوف حول قارة أفريقيا ، ابتكر طريقه يمكن بها اكتشاف الأعداد الأولية تسمى الغربال "The Sieve" وجهازاً ميكانيكيا لاستنساخ المخطوطات ، ثم اخترع آلة تسمى الميزولاب Mesolabe للتأكيد على النسب الطفيفة Maenproportional بين خطين و للوصول إلى جذور الكميات هندسيا ، كان أول شخص يحدد قياساً أقرب ما يكون إلى الدقة لدرجة الميل فى القطع الاهليجى (Obliquity of The Elliptic) وكما حدد قياسًا دقيقًا للدرجة فى الجغرافيا ، ربما ابتكر ما عرف و تم تسميته باسم تقويم جوليان الذى أمكن عن طريقه إضافة يوم Intercalary لإتمام السنة الشمسية (٢٩ فبراير) كل أربع سنوات ، وقام بحساب قطر الأرض بنسبة خطأ أقل من ١٪ بحساب كسر الانحناء فى خط الزوال بأنه مساوى للمسافة المعروفة بين الإسكندرية و أسوان ، و يرجع الخطأ الذى وقع فيه إلى أنه لم يكن يجد وسيلة لتحديد إذا كانت الإسكندرية وأسوان على خط طول واحد ،

كثير من العلوم التى تمت دراستها فى الإسكندرية كفروع الرياضة المختلفة ، والفلك ، والجغرافيا كانت مقيدة إلى حد ما بالأغراض العملية وكانت دراستها تجد الإعانة والتشجيع فى كل الأحوال ، فالهندسة كما يشير اسمها كانت تستخدم لقياس مساحة الأرض ، وهى مسألة هامة فيما يختص بتحديد الضرائب فى بلد مثل مصر تزرع بكثافة ، إذ يمكن لعلامات الحدود أن يجرفها الماء بعيداً عن مواقعها عند غمر الأرض بمياه الفيضان ، كانت الهندسة تستخدم لنقل و رفع الأوزان الثقيلة وخاصة فى المبانى و فى إنزال السفن إلى الماء - وفى رفع و تصريف المياه للرى ، وفى تصميم القذائف للحرب ، فارشميدس الذى كان مشهوراً فى وطنه سيراكوزة باختراع الوسائل المستخدمة فى بناء السفن و فى الحروب ، يقال إنه اخترع أثناء زيارته لمصر ، آلة متطورة لرفع الماء من أحواض السفن ومن القنوات لرى الحقول (يقصد الطنبور) هذه الآلة لازالت تعرف بحلزون أرشميدس وهى عبارة عن أسطوانة خشبية بداخلها لولب به قطب فى كل من طرفيه وذراع تدوير فى القطب الأعلى وتركب على عمودين بزاوية ميل حوالى ٣٠ درجة ، على أن يكون قاعها مغموراً فى الماء الذى يتم رفعه ، ولازال حلزون أرشيميدس أو الطنبور يستخدم فى مصر لأغراض الرى حتى الآن ، إن اكتشاف ارشميديس الرئيسى لقانون الطفو والماء المزاح الذى توصل إليه فى سيراكوزة (يوريكا يوريكا المشهور) صار هو القاعدة فى علم الهيدروليكا ، الذى تطور فى الإسكندرية كما سنرى فيما بعد .

كانت دراسة الجغرافيا والفلك أمراً ضرورياً لأغراض الملاحة ، وعمل الخرائط ، وهى مسائل هامة خصوصا للبطالمة المتأخرين ، الذين سعوا لاستمرار و زيادة التجارة بفتح الطرق البحرية خارج حوض المتوسط - حول شبه الجزيرة العربية وعبر الهند وبحذاء ساحل أفريقيا الشرقى ، وحتى عن طريق أعمدة هرقل **The pillars of Hercules** حتى الساحل الغربى لأفريقيا، بل كانت مهمة جداً بالنسبة لعلم الكرونولوجيا ، أما الفلك فكان يعتمد على الهندسة وعلى أحد مشتقاتها وهو علم حساب المثلثات .

وكما أن دراسة الفلك قد ساعدت حركة الملاحة ، فإن حركة الملاحة ساعدت على دراسة الجغرافيا ، فالأساطير القديمة عن البلدان البعيدة عن "أولئك الرجال الذين لهم رؤوس كلاب و النساء ذوات الآذان الضخمة على الأذرع و على الظهور ، والأقزام

الذين لا يزيد طول الواحد منهم عن بضعة بوصات ، و البرابرة المتوحشين"، هذه الأوصاف التي كانت تمتدح كبرياء الإغريق ، اختفت من العلوم[٣] ، ونتيجة لرحلات الاكتشافات التي تمت في عصر البطالمة ، الذين كانوا يساندونها كما يساندون الاكتشافات العلمية ، فإن بحارة الإسكندرية ، بدلاً من وقوفهم ملاصقين للسواحل في بعض المواسم خوفا من البحر ، صاروا يبحرون طوال العام بعد أن كفوا عن الاعتماد على التطير والمعجزات[٤] ، فقد غامر بحار اسمه هيبارخوس **Hipparchus** ، في عصر فيلادلفوس بالإبحار إلى ما وراء باب المندب وإلى المحيط الهندي ، والمعلومات التي تم الحصول عليها فيما بعد عن الرياح الموسمية المسماة مون سون **Mon Soon** قد جعلت الملاحة إلى المحيط الهندي و خارجه ممكنة ، وفي عام ١٢٠ ق.م في عهد بطليموس السابع أو بطليموس سيكون **Psychon** استطاع ايودوكس السيزيكي **Eudox of Cyzicus** أن يقوم بأول رحلة من مصر ، وأن يفتتح طريقًا تجاريًا ازدادت أهميته دائمًا من أجل رخاء مصر .

أما رائد الدراسات الرياضية في الإسكندرية فهو إقليدس، يقال إن ديمتريوس الفاليري استدعاه فور الإنتهاء من إنشاء المتحف لكي يقوم بفتح مدرسة هناك وقد أنتج معظم أعماله في الإسكندرية ، وأن مؤلفه الأساسي وهو كتاب "المبادئ" كان تجميعًا وتلخيصًا للمعارف الرياضية في عصره ، ومن خلال عمله ، استطاع أن يصنف كتبًا أربعة في الفروض وهي معلومات تحتوي على ٩٥ فرضًا ، ١٨ فرضًا في الظواهر ، ٦١ فرضًا في البصريات و ٣١ فرضًا في الكالوبتيكا **Caloptica**، كتب أيضًا عن السطوح المستوية وأقسام المخروط **Conic Sections** وكان تلميذه الأول ابولونيوس البرجاوي **Apollonius of Perga** وهو ليس مجهولاً عند تلاميذ المدارس بسبب النظرية التي تحمل إسمه ، كانت بحوثه في المخروط و الاقماع هي إنجازه الرئيسي .

ازدهرت مدرسة إقليدس بالإسكندرية على مدى سبعمائة عام ، ومعظم الكشوف التي تمت في ميادين الفلك والميكانيكا كانت مشتقة مما أنجزته هذه المدرسة من دراسات كانت لا تزال مزدهرة في القرن الرابع ق.م حين نشر بابوس السكندري **Pappus** وهو أحد علماء الرياضة اليونانيين العظام ؛ مجموعة من ثمانية كتب في البحوث الرياضية ، وفي هذه المجموعة "حافظ" على الطريقة التحليلية التي كان

يستخدمها القدماء فى أبحاثهم ، كما استخدم الجاذبية وحافظ على أعمال عدد آخر من علماء الرياضة المجهولين(٥) .

تطورت الاكتشافات و الاختراعات الفلكية بواسطة مدرسة الفلك فى المتحف ، والتى يبدو أنها قد تأسست فى نفس الوقت تقريباً الذى أسست فيه مدرسة الرياضيات وسرعان ما أصبحت دراسة الفلك دراسة عصرية جداً ومن الناحية العملية دراسة مفيدة ، فى عصر يورجيتس اكتشف فلكى القصر كونون الصامى **Conon of Samos** برجاً جديداً من أبراج النجوم أعلن أنها تكونت من خصلات شعر الملكة برينيس التى قصتها وقدمتها على مذبح الإلهة من أجل سلامة زوجها، الذى ذهب لمحاربة السوريين، تناقصت أهميـة الفـلك فيمـا بعد وازدادت موضاته كنتيجة لارتباطه المتزايد بعلوم التنجيم الشرقية الزائفة ؛ التى صارت تؤثر على حياة الإنسان وقراراته بصورة مدمرة .

أما ايراتوسطين **Eratosthenes** الموسوعى المعرفة فكان أشبه شيء بفلكى من الهواه ، فقد صنف كتالوجاً به ٤٤ برجاً و ٤٧٥ نجماً ثابتاً لكنه خلط هذا الكتالوج بقدر كبير من الأساطير ، والأهم من ذلك أنه وصف آلة سماها (الأرميلا) **Armilla** تتكون من طوق دائرى مثبت فى مستوى خط الاستواء يتقاطع معه طوق آخر فى مستوى خط الطول ، و كانت الأرميلا تقف بوضوح فى رواق المتحف

مثل ايراتوسطين كان اريستارخوس الصامى و هو عالم واسع المعرفة كان يحيط بالعالمين عالم المتحف وعالم المكتبة وقد خلف ايراتوسطين فى منصب كبير أمناء المكتبة ، كتب اريستارخوس بحثاً عن المسافات و الأجرام السماوية **Distances and Magnitudes** خرج منه كما يبدو بالشك فى دوران الأرض حول الشمس ، متفقاً فى ذلك مع فيثاغورث ومختلفاً مع فكر الأرثوذكسية المقبول الذى أسسه أرسطو وهى أن الشمس تدور حول الأرض ، من أجل هذا اتهمه الفيلسوف الرواقى كلينسوس **Cleanthus** بالمروق والزندقة ، وكان بطليموس فيلوباتر هو الذى دعا كلينسوس للعمل بالمتحف ، وكان أريستارخوس أقل دقة فى حساباته الأخرى إذ قدر المسافة بين الشمس والأرض فقال بأن الشمس تبعد عن الأرض مسافة تزيد عن بعدها عن القمر ١٩مرة و أن قطر القمر هو ثلث قطر الأرض .

أما هيبارخوس البيثينى Hipparchus of Bithynia فقد أنجز معظم أعماله فى جزيرة رودس لكنه جاء للعمل بالإسكندرية فى عصر بطليموس السابع أو بطليموس سايكون Psychon ويوصف هيبارخوس بأنه "أعظم عباقرة التاريخ القديم[٦] " على اعتبار أنه قد "أحدث تغييراً شاملاً فى حالة علم الفلك[٧] " إذ حدد وقت قدوم الإعتدالين ، Procession of Equinoxes (فصل الربيع و فصل الخريف) كما قدر حجم الشمس واستواء سطحها apogee عند أبعد نقطة فى مدارها عن الأرض كذلك قدر متوسط حركة القمر عند أدنى نقطة Nadir وأبعد نقطة بينها وبين الأرض وكذلك ميل مدارها ، كان رائداً فى مجال هندسة السطوح وحساب المثلثات الكروية ، لقد رسم خريطة فلكية مسطحة لنصف الكرة السماوى تبين ما يرى فيه من نجوم فى وقت واحد بإسقاط مجسم وكان لديه معرفة باختلاف الأوضاع الظاهرية تبعًا لتغير المكان، وعرف كيف يحسب خسوف القمر ، وابتكر طريقة لوصف أى موقع على سطح الأرض باستخدام خطوط الطول وخطوط العرض .

أما (الماجست) تحفة العالم الأشهر كلوديوس بطليموس Claudius Ptolemy الذى عمل فى الإسكندرية بعد ذلك بثلاثمائة عام و طبقًا لما يقوله جاو Gow[٨] إنه انتحل كل أعمال هيبارخوس تقريبًا ، وعلى الرغم من هذا ، فإن كلوديوس بطليموس الذى ولد فى بطلميس وهى المستوطنة الإغريقية فى مصر العليا فى منتصف القرن الثانى قبل الميلاد وعمل ومات فى الإسكندرية كان يعد أعظم المصادر الفلكية فى العالم الغربى – حتى تفوق عليه كوبرنيكس بعد أكثر من ألف عام ، لقد حافظ على استمرار نظرية أرسطو الخاطئة التى تقول إن الأرض هى مركز الكون و أن الشمس تدور حولها – وكتب بحثًا عن علم توصيف الكون Cosmography وكان خاطئًا فى مجمله لأنه اندمج تقريبًا فى الموضة العصرية الخاصة بعلم التنجيم الزائف .

بلغت اكتشافات الإغريق فى ميدان الفلك درجة مرموقة بالنسبة لقلة الآلات البصرية الموجودة لديهم ، فرغم المعرفة النظرية المعقولة بالبصريات فإن الإغريق لم يصنعوا تلسكوبًا فعالاً فما بالك بميكروسكوب ، وكان هذا عائقاً كبيراً فى كل العلوم تقريبًا ، يقال إن أرشميدس أقدر علماء الإغريق الكبار على ابتكار المخترعات العملية – لو قدر له أن يتغلب على كراهية الإغريق للحرف الميكانيكية و اخترع منظاراً لكان قد تغير تاريخ العالم كله وصار شيئًا مختلفًا .

كان تحامل الإغريق على الحرف الآلية أو ، بتعبير آخر ، الإحساس المفروس لديهم بتفضيل التعليل العقلى على التجربة ، هو الذى أعاق التطبيقات العملية ، بل وحتى التطورات النظرية ، فى جملة علوم أخرى مثل الطبيعة ، والنبات ، والحيوان والطب ، وأدى هذا أيضاً إلى إهمال علم الكيمياء إهمالاً تاماً .

والنتائج العملية المباشرة التى ظهرت من تطبيق المعرفة الرياضية و الفيزيائية تتجلى صورتها واضحة فى مخترعات هيرو السكندرى **Hero of Alexandria** ، الذى كان يعيش ويعمل فى الإسكندرية خلال النصف الثانى من القرن الأول ق٠م ، وكان معاصراً لهيبارخوس مع أنه كان يصغره بسنوات قليلة ، ويبدو انه كان ابنًا أو تلميذاً لتسيبوس السكندرى **Ctesibus of Alexandria** الذى قام بدراسة أعمال أرشميدس ، وطبقًا لبعض الروايات فـإنه بدأ حيـاته كحلاق ، لكنه كان مهـندسـاً فى الأساس ، أى رجلاً عمليًا استخدم المعارف النظرية فى عصره ، دون أن يقدم أى إضافة كبيرة ، وبالنظر إلى مستوى ما كان لديه من معرفة مؤكدة بالهيدروليكا ، فقد يبدو مدهشاً أن قليلاً من مخترعاته قد خصصت لتحقيق الهدف الرئيسى للميكانيكا التطبيقية – مثل إكمال و إبدال الجهد العضلى للإنسان والحيوان فى أداء الأعمال الشاقة اللازمة لحياة المجتمع المتمدن كرفع و نقل مواد البناء ، وحفر التربة ، وتحريك السفن على الماء والمركبات على الأرض ، بجانب ضخ المياه ، وقطع الأحجار والمعادن وسحقها، لكن التصورات من هذا النوع تبدو كمفارقة زمنية، لأن المتعلمين الإغريق كان لديهم إحساس بالازدراء للآلات الميكانيكية، كان هناك قدراً كبيراً من الأعمال الشاقة يقوم بها عبيد ، ففى العصر الهللينستى كما فى ، العصر الكلاسيكى ، كانت المشكلة الاجتماعية الأساسية هى ازدحام السكان ، التى كان يجرى تصحيحها فى العصر الهللينستى و أيضًا فى العصر الكلاسيكي بقتل الأطفال ، وهى عادة كان يدافع عنها "التقدميون" من الإغريق بنفس الحجج التى تستخدم الآن فى الدفاع عن الإجهاض .

من الواضح ، والمحزن جداً ، أن ندرك أن معظم ، إن لم يكن كل ، معرفة الإغريق النظرية قد طبقت فى صنع أسلحة للحروب مثل المنجنيق لرمى المقذوفات**Catapult** والمرواش **Battering Ram** لدك الحصون و بنادق من نوع تعمل بضغط الهواء(٩) لكنهم استخدموا مضخات ميكانيكية لدفع الماء وبكرات عديدة لرفع مواد البناء ،

أما استخدام طاقة البخار المعروفة كمحرك أول فإن كل ما كان يعرفه الإغريق عن هذا ما هو إلا معرفة نظرية ، وهذه الأنواع من الميكانيكا كان لابد لها أن تنتظر ألفى عام حتى تأتى العبقرية العملية لأحد المهندسين الأسكتلنديين .

يقال إن تسيبوس ، ناصح هيرو وموجهه ، اخترع الساعة المائية التى تقيس الوقت قياساً دقيقاً عن طريق التحكم فى إطلاق الماء ، أما مخترعات هيرو كما سجلها فى كتابه "الهواء المضغوط" Pneumatics ، كان معظمها أعمالاً فى باب العبث - مجرد حيل مرتبطة بالاحتفالات الدينية ، تصمم عادة لخداع المصلين بمحاكاتها لأشياء يتصورون أنها من خوارق الطبيعة، وكان بين هذه المخترعات شخوص آليه تقوم بسكب النبيذ على المذبح ، ثم طائر آلى يغنى ، وحيلة أخرى تجعل أبواب المعبد تصدر أصواتاً عند فتحها و كذلك وعاء آلى على شكل قرن لمزج الماء بالنبيذ ، وهناك وعاء التبرعات الذى يفيض ما بداخله بمجرد وضع النقود فيه، ومن المخترعات آلة نارية ، وشخص آلى يشرب الماء عندما يقدم له ، وعجلة لإطلاق ماء الرشم عند دورانها بجانب آلات عديدة تستخدم فى صب الماء ، ومصباح يسوى فتيلته ذاتياً ، وكذلك آلة على شكل مخلوق أسطورى لصب الماء من قربة نبيذ فى حوض دون أن تفيض محتوياته على الحواف ، حيلة أخرى لفتح أبواب المعبد بإشعال النار فوق المذبح ، نافورة بطيئة تعمل بتأثير أشعة الشمس، جهاز ينفث البخار فيقذف ، الأشكال الكروية فى الهواء ، طبله فى يد أوتوماتون (إنسان آلى) تعطى أصواتا عن طريق ضغط الهواء ، جرس يعمل بالبخار ، حيلة لبخ الماء من قربة نبيذ لتصب فى يدى مخلوق أسطورى آلى ، سيرنجة من البرونز تحدث فحيحاً بفعل النيران ، جهاز عن طريقه يمكن الطائرالآلى أن يغنى بإدارة عجلة ، مصباح يرتفع الزيت فيه بفعل الماء الموجود داخل حامله ، مصباح يرتفع الزيت فيه بنفخ الهواء ، اورج Orgon للمذبح يعمل بواسطة طاحونة هوائية .

والأكثر أهمية بالنسبة لطريقة تفكيرنا ، فإن هيرو قد اخترع غلاية بخار تندفع منها لفحات البخار الساخن إلى داخل أنبوبة بإدخال الماء البارد إلى الغلاية، وكان هذا هو المبدأ الأساسى الذى قام عليه "الحمام الرومانى" الذى دخل إلى عالم البحر المتوسط فى حوالى ذلك الوقت ، وهو المبدأ الأساسى وراء "التسخين المركزى" التى يعتبر هيرو هو مخترعه .

أما دراسة الطب فى الإسكندرية فكانت العلم الوحيد الذى لم تعقه كراهية الإغريق للعلوم التجريبية و هو العلم الوحيد الذى أسهمت فى تطويره المعرفة المصرية، وهذه المعرفة مستمدة أساساً من معرفة المصريين بعلم التشريح نتيجة لمهارتهم الطويلة فى تحنيط الأجساد .

فى العالم الهلليينستى ، ارتبطت ممارسة الطب ارتباطًا لا فكاك منه بالدين والخرافات باعتبارها علاجات سحرية تنسب إلى اسكاليبوس وسرابيس ومعتمدة فيما بعد ، على دواء Gallimoufry مستورد من الشرق و لا فائدة منه عبارة عن تعاويذ سحرية وشربة يتناولها الإنسان للحماية من العين الشريرة ، ومن اللعنات ، ومن تأثير النجوم تلك التى كان يعتقد فيها كل الناس حتى المتعلمين منهم، فسقراط فى أخر كلماته التى سجلت قبل موته ، اجتمع بأصدقائه و قدموا ديكًا أضحية لا سكلبيوس Asclepuis ، لم يكن رجال الطب محصنين تمامًا ، فالكثير من أعمالهم كان عبارة عن مزيج من العلم و الشعوذة (وهذا لا ينطبق على الطب الإغريقى فقط فى العالم القديم).

فالأب الحقيقى للطب الإغريقى ، وللطب الحديث بدرجة ما ، هو أبوقراط Hippocrates ، الذى عبر عن تعريفه لواجبات الطبيب فى ميثاق أبى قراط Hippocratic Oath ، لقد مات فى بداية القرن الرابع ق.م قبل مائة عام من تأسيس المدرسة الطبية بالإسكندرية ، لقد ادخل أبو قراط التفكير العقلى فى علم الطب فى نفس الوقت الذى أدخل فيه سقراط العقل إلى علم الفلسفة ، وتمشياً مع معظم المفكرين الإغريق قبل سقراط ، فإنه اعتمد على التعليل أكثر من الملاحظة ، ويبدو أنه لم يقم إلا بالتعليل فى مجال التشريح ، سواء كان هذا راجعاً إلى كراهية الإغريق الكلاسيكية للتجريب عموماً أو تفضيلاً للتفكير المجرد ، أم هو التحامل المفترض للإغريق ضد تشريح الأجسام ، فالأمر غير مؤكد .

العمل الرئيسى الذى قامت به مدرسة الطب بالإسكندرية هو تطوير علم التشريح، وفى هذا المجال فإن دينها للمصريين كبير جداً، كذلك فإنها مدينة أيضاً للرعاية الملكية التى أتاحت للأطباء تشريح أجسام المجرمين و قدمت لهم المجرمين أحياء ، من أجل تشريح الأجساد الحية ، وكان أساتذة مدرسة الطب بالإسكندرية فى سنواتها الأولى

هما هيروفيلس الخلقيدونى Herophilus of Chalcedix وايراسطوراتوس الإيولى Eristratos of lulis in Coes ربما كان الأخير هو مؤسس المدرسة، لقد جمع هيروفيلوس حكم أبى قراط وقدم وصفًا دقيقًا لأعضاء البصر وأعضاء الحس ، والمخ والجهاز العصبى ، لم يكن أحد يعلم بوجودها من قبل واكتشف وظائف الكبد وكتب بحوثًا حول عمليات التشخيص diagnosis والتنبؤ بالتطورات المحتملة للمرض Prognosis وفرق بين المخ Cerebrum والمخيخ Cerebellum واكتشف أن الشرايين تحمل الدم لا الهواء كما كان الاعتقاد السائد ، واكتشف وظيفة القلب فى ضخ الدم خلال الشرايين ، هكذا اكتشف الحقيقة حول الدورة الدموية التى أعاد اكتشافها هارفى بعد حوالى ألفين من السنين ، بعض أجزاء الجسم مثل الاثنى عشر ، التوركيولاس هيروفيللى Torculas Herophilli لازالت تسمى باسمه أو طبقًا للتسمية التى أطلقها عليها ، لقد قام ايراسطوارتوس Eristratos بإجراء دراسة خاصة للمخ والأعصاب والمعدة ونظام التغذية وسمى "رائد علم التحليل النفسى" وفى هذا الجانب استطاع أن يتحقق من وجود بعض أمراض الجهاز العصبى وأسبابها المحتملة .

إن معرفة هذين الرجلين بالتشريح هى التى جعلت اكتشافاتهم شيئًا ممكنًا ، وقد شيد بعض خلفائهم على ما حصلوه من علم هؤلاء الرجال و على موجز علم النباتات الذى جمعه ثيوفراستوس Theophrastus فى كتابه "تاريخ النبات" History of Plants وقد كان ثيوفراستوس فى ذلك الوقت رئيسًا لمدرسة أرسطو فى أثينة وقد اكتشف بعض الخواص العلاجية للحشائش والعقاقير، وكانت صناعة العقاقير ومواد التجميل والعطور والمراهم تعتمد على استيراد البهارات والأعشاب والزيوت الأساسية من الشرق وصارت كلها صناعة اسكندرانية هامة، وأصبحت السلع المصنعة تصدر من الإسكندرية إلى جميع أنحاء البحر الأبيض المتوسط من أجل أغراض الرفاهية والترف ، وأيضًا لأغراض صحية ودينية .

ربما قدر للدراسات الطبية بالإسكندرية أن تستفيد من مجموعة الحيوانات التى جمعها فيلادلفوس فى حدائق قصره وألحقها بالمتحف ، وهذه المجموعة تضم أسودًا ، ونمورًا وفهودًا ، وقططًا كما تضم جاموسًا من الهند وأفريقيا وحمير الوحش الآتية من مؤاب Moab بالإضافة إلى تنين أو ثعبان ضخم Python طوله ٤٥ قدمًا ، وظرافة

وخرتيت ، ودب قطبى ، ثم ببغاء ، وطاووس ، لقد تم جمع الكثير من الحيوانات عن طريق رحلات صيد الفيلة من شرق أفريقيا التى نظمها فيلادلفوس ، وكان يتم إرسال الفيلة إلى منتزهات خاصة لتدريبها على الحرب ، أما الحيوانات الأخرى فكانت تذهب إلى حدائق الحيوان ، لقد وضع أرسطو أسس دراسة علم الحيوان فى كتابه "تاريخ الحيوان" لكن يبدو أن فيلادلفوس ، الذى لم يكن لديه تنوق للعلم ولا للفلسفة ، إلا بالقدر الذى يخدم أغراضه السياسية أو من أجل المتعة، فإنه كان هاوياً للشعر والدراما ، وكان فى نوقه الجمالى عاشقًا للفخامة الباروكية ، وكان ينظر إلى حيواناته كتحفه نادرة لتسلية عشيقاته أو للتودد إلى زواره .

لقد انقسم كثيرون من خلفاء هيروفيلوس وإراسطوراتوس إلى مدارس متنافسة تحت أعلام هذين الأستاذين العظيمين الراحلين ، واشتبكوا فى مجادلات أكاديمية طويلة بين الدوجماتية والتجريبية توارثها السكندريون والأطباء جيلاً بعد جيل ، فاعتبر اتبا ع هيروفيلوس أنفسهم دوجماتيين ونظر اتبا ع ايراسطوراتوس إلى أنفسهم كتجريبين ، وهذه المعركة لا علاقة لها بأى خلافات كانت بين وجهات نظر العالمين العظيمين الذين حملوا إسميهما عبثًا ، لقد رمزت هذه المعركة إلى طريقتين تكمل إحداهما الأخرى فى منهج العلوم الطبية ، وأشاعتهما بين العامة ، الطريقة الكلاسكية التى تقوم على التعليل والاستنباط التى كان يمارسها ابوقراط ، والطريقة التقدمية المعتمدة على التجربة والملاحظة التى كان ينصح بها أرسطو ، و التى مارسها كل من هيروفيلوس واريسطوراتوس . بعد حوالى مائتى عام من النزا ع العبثى (التافه) تم التصالح فى هذه المعركة عن طريق ثيموسون من اللاذقية **Laodicea** الذى ابتدع طريقة انتقائية تحت اسم المنهجية **Methodism** فى وقت صارت فيه الانتقائية صورة عصرية فى دوائر المثقفين .

استمرت مدرسة الإسكندرية الطبية فى الازدهار مع بعض التقلبات حتى العصر المسيحى فى القرن الثانى الميلادى حيث أخرجت واحداً من أعظم الأسماء فى عالم الطب هو جالينوس **Galen** ، الذى كتب خمسة عشر كتاباً فى التشريح تشكل أهم ما تبقى من الطب القديم ، خصوصًا فى تشريح الأوردة والشرايين ، والأعصاب وكان كتابه المسمى "فن الطب" يعتبر الدليل العلاجى لعصره .

بعد جالينوس ، أخذت ممارسة الطب تتراجع فى حوض البحر المتوسط وتعود إلى أصولها السحرية البدائية وأسرارها القديمة عند أورفيوس Orpheus واسكليبيوس Asclepuis وإلى ما هو أقدم و أشد تدميراً فى مصر و الهند و كالدونيا .

ولابد أن الحياة والتعليم فى المتحف قد تعرضا للتوقف فترات متقطعة بسبب الاضطرابات الأهلية المتكررة والتى كانت تحدث فى الإسكندرية بدءاً من أوائل القرن الثانى ق.م ، وعلى ما يبدو فإن انقساماً خطيراً قد وقع فور انتهاء الحرب الأهلية بين بطليموس السابع سايكون و بين زوجته الأولى المطلقة كليوباترا الثانية ، وفى هذه الحرب لقيت كليوباترا المساندة والدعم من سكان الإسكندرية الإغريق فى حين كان المصريون و اليهود يساندون بطليموس سايكون Psychon ويبدو أن هناك درجة من المبالغة فى التقديرات التى وصلتنا من الإغريق عن عدد المفقودين فى تلك المذبحة وعن الدمار الذى لحق بالمتحف ، إذ يخبرنا أثيناؤس Athenaeus أن سايكون قد حول المدينة إلى صحراء جرداء وأوقف الدراسات فى المتحف فعلياً ونهائياً .

من الواضح أن العلماء والفنانين وحتى الأطباء بالمتحف قد أصابهم الرعب والفزع بصدمة شديدة ، فتركوا الإسكندرية ، وأصبحت بلاد اليونان والجزر المحيطة بها مكتظة باللاجئين من علماء النحو والفلاسفة ، وعلماء الهندسة والموسيقيين والرسامين والأطباء وآخرين من رجال العلم الذين أرغموا بحكم الضرورة أن يقوموا بتدريس ما حصلوه من معرفة ، وسرعان ما أصابتهم الشهرة(١٠) .

وعلى الرغم من التخريب والتشتت ، فقد أعيد المتحف سريعاً ، لكن فى وقت غير معروف ، أو ربما على مدى فترة من الزمن ، ثم نقل الموقع المادى للمتحف إلى معبد السيرابيوم ، حيث توجد هناك مكتبة صغيرة (أى الابنة الصغرى للمكتبة الكبرى) التى كانت قد أنشئت فى عهد بطليموس فيلادلفوس ، ويبدو أن مبنى المكتبة الأصلية قد هدم بفعل الحرائق فى زمن يوليوس قيصر ، وظل المتحف فى موقعه الأصلى فى زمن استرابو Strabo الذى سجله فى كتابه "الجغرافيا" الذى وضعه حوالى ٢٥ ق.م وذكر فيه مبنى المتحف ولم يذكر المكتبة التى يحتمل أن تكون قد دمرت خلال الحرب الأهلية فى القرن الثالث الميلادى .

من بدايـة حكم الرومان لم يعد المتحـف مرادفًا للحياة العقليـة للإسكـندرية ، ولا يرجع ذلك إلى منافسة المؤسسات التى أقامها الرومان مثل السباستيوم **Sebasteum** والكلوديوم **Claudium** التى كـان تـأثيـرها مـثل تأثيـر المجلس البـريطـانى فى عـاصـمـة إحدى المستعمرات فى أواخر عصر الإمبراطورية البريطانية و ذلك لأن التيار الأساسى للثقافة قد انحرف عن طريق العلوم التى عرف بها المتحف ، و التى أصبح مشـهوراً بسببها، انحرف إلى طريق الفلسفة الانتقائية الزائفة ، وصارت تغذيها تيارات صوفية يهودية وسحرية كلدانية ، فـأخذت مسـاراً متعرجًا مثل انهار وسط فـارس فى المناطق الزراعية خلال القرنين الأول والثانى أثناء الحقبة المسيحية حتى جفت وتبددت مياهها فى الصحارى المالحة التى تعجز عن إدراكها العقول .

وقبل إن يحدث هذا ، كانت هناك وثنية فلسفية صـارمة توحد بطريقة غريبة بين التقاليد المنهجية للسيرابيوم وبين المناهج العلمية للمتحـف ، ثم تمزجـهـا بعناصر من أسرار عبادة أورفيوس وإليوسيس أضيفت من أجل القتال ، فى معركة عدوانية ضد المسيحية فى البداية ثم دفـاعية بعد ذلك ، فالمتحـف فى ظل رعـاية السـيرابيوم التى لا تصدق قد استعاد دوره مرة ثانية ، ولكن تلك قصة أخرى ، سوف نحكيها فى فصل قادم ، فمنذ بواكير أيام البطالمة ، وقبل أن تدخل إلى تيار الثقافة الرئيسى بالإسكندرية تأملات أريستوبولس **Aristobulus** وفيلو **Philo** كان هناك نشـاط فكرى فى المستعمرة اليهودية أدخله إلى الإسكندرية بطليموس سوتر .

كانت هذه المسـتـعمـرة تتقوى على الدوام بالمهاجـرين من اليـهـودية الذين كـانوا يطردون من هناك بفعل اضطهاد السلوقيين **Selecids** والمكابين **Maccabees** أو نتيجة لإرهاق القادة اليهود لهم بالضرائب ، فى تلك الأيام كـان يهود الإسكندرية على صلة ضعيفة بالإغريق أو بالمصريين وكانوا فى العادة مستعدين لمساندة رعاتهم من الملوك بالمال أو بالخدمات الشخصية ضد أى من الفئتين وباعتبارهم فئة مدنية كثيرة العدد وغنية تقوم بدور الحارس الأجنبى للحاكم بصفة غير رسمية فكان من الصعب عليهم أن يجدوا قبولا شعبياً عند جيرانهم ، فأيا كانت آرائهم فيما يتعلق بمسار التاريخ اليهودى المضطرب تحت سلطة السلوقيين والميكابيين ، إلا أنهم احتفظوا بعلاقات ثقافية وثيقة مع الوطن الأم (أرض الوطــن) ومارسوا تاثيراً قـوياً ودائمًا على الفـكر اليهودى ، إذ كانوا يتمتعون بوفرة المال وسعة الوقت والأمن والسلام اكثر كثيراً من أخوتهم

المقيمون في اليهودية ، وعن طريق اتخاذهم للغة اليونانية لغة لهم ، وبترجمة الكتب المقدسة العبرية إلى اليونانية واجراء الدراسات المقارنة بين الفلسفة اليونانية واللاهوت اليهودى فإنهم جعلوا من اليهودية ديانة عالمية و من اليهود جنساً عالمياً .

هناك أسطورة تصور كيف ترجمت أول طبعة للكتاب العبرى - النسخة السبعينية - قيل إن بطليموس سوتر ، كان يرغب فى تقديم نسخة موثقة من هذه المخطوطات لرعاياه من اليهود فأحضر سبعين باحثًا يهودياً متضلعين فى كل من اليونانية والعبرية ، وسبعين نسخة من المخطوطات العبرية وأمرهم أن يقوم كل واحد منهم بترجمة نسخته ، وسوف يتم اختيار أفضل ترجمة ، وبعد وقت قصير وبصورة معجزية وجد أمامه سبعين نسخة مستقلة فى وقت واحد ، ووجد أن كل واحدة منها مطابقة للأصل ، كانت الحقيقة أكثر معقولية فأسفار موسى الخمسة يحتمل أن تكون قد ترجمت إلى اليونانية خلال القرن الثالث ق.م وتُرجِم سفرا أشعياء وأرميا خلال النصف الأول من القرن الثانى ق.م ، أما المزامير و باقى أسفار الأنبياء فقد ترجمت خلال النصف الثانى من القرن الثانى ق.م .

وبالإضافة إلى هذه الترجمات ، فإن يهود الإسكندرية قد انتجوا فى خلال القرنين الأخيرين قبل المسيح ، كماً هائلاً من الأدب الدينى ، بما فيها سفر الجامعة **Ecclesiastes** وسفر دانيال بالإضافة إلى جزء من كتاب الأمثال ، وبعض المزامير ، والجزء الأكبر من الأبوكريفا **Apocrypha** ، وبعض كتب الأبوكريفا الأخيرة وبالأخص كتاب الحكمة من المحتمل أنه كتب فى القرن الأول الميلادى ، إذ تظهر فيه علامات واضحة على تأثير الفلسفة اليونانية ، مثلما تظهر فى أعمال فيلوجودايوس **Philojudaeas** التى سوف نتناولها فيما بعد .

لكن أهم إسهام قدمه يهود الإسكندرية لليهودية كان فى ميدان أدب الرؤيا **Apocalyptic Literature** وفى إحدى المراجع الموثوق بها[١١] إنه كان فى ذلك أهم عنصر فى عالم اليهودية وكان عند جماهير الشعب بديلاً عن عقيدة المسيا **Messianism** فى ذلك الوقت وقد أسهم هذا النوع الأدبى فى تنمية العقيدة اليهودية التى تقوم على الإيمان بوجود حياة بعد الموت ، و كما كان للشتات البابلى من أثر فى تنشيط العقيدة اليهودية فى النبوءة **Prophecy** وفى انتظار المسيا **Messiahnism** ، فإن الشتات السكندرى حفز اليهود على الاعتقاد فى "الأمور الباقية" وفى الحياة بعد الموت .

مثل جماعة الإسينز Essenes كانت طبقة أصحاب الرؤية أو الرؤويين Visionaries الذين انحدرت إلينا مفاهيمهم فى هيئة أشكال أدبية تعرف بأدب الرؤية أو الأدب الرؤوى Apocalypse الذى يتناول أدب الآخرة (الحياة بعد الموت) ويضم أعمالاً مثل كتاب اليوبيل Gubilees (عيد التحرر عند اليهود قديماً) كما يضم كتاب أخنوخ Enoch ، ومثل جماعة الإسينز ، فقد استولى اليأس من الأوضاع البشرية على كتاب الرؤية فاتجهوا بآمالهم نحو مستقبل يختفى فيه العالم الطبيعى ونظامه المؤقت ويخلى مكانه لعالم الخلود الدائم الذى يتحقق بتدخل العناية الإلهية عن طريق الكارثة ولا يملك الإنسان شيئًا فى هذا الأمر لأن مجىء هذا العالم كان قد تقرر منذ البدء حسب وصايا الله وعلى المؤمنين أن يصبروا و ينتظروا واثقين فى الخلاص العجيب و فى الحصول على حقهم فى الجزاء العادل(١٢) .

كان ليهود الإسكندرية أثر كبير فى تنمية هذه العقيدة وفى إنتاج الأدب الرؤوى، وقد وصف فيلو Philo رؤية لمجتمع يعرف باسم الثيرابيوتاى Therapeutae فيقول إنه استوطن شواطىء بحيرة مريوط Lake Mareotis خلال القرن الأول ق.م .

إن عقيدة الرؤية هى "نتاج اليأس الذى يبحث ضحاياه عن الخلاص فى ميلاد عالم جديد خارق للطبيعة Supernatural World(١٣) وهى النسخة اليهودية لمرض كان قد انتشر فى كل أنحاء العالم الهللينستى فى أعقاب الهجمات المدمرة التى قامت بها الكتائب الرومانية من الغرب ، والفرس النازحون من الشرق ، والبرابرة ذو اللحى والوجوه الشقراء من الشمال و ظهرت إلى جانب ذلك كله عملية إحياء لديانات الأسرار ، وانتشر السحر على المستوى الشعبى وزاد الاهتمام بالتنجيم بدرجة تكاد تكون عامة ، بالإضافة إلى اعتقاد متزايد فى القضاء و القدر و "ومقصاته الحادة الكريهة" Abhorredshears مقارنة بالاعتقاد المبكر فى "الحظ" باعتباره المتحكم فى حياة البشر وهو أداة أرحم وأكثر عطفًا ، لقد حدث هذا نتيجة إفقار الناس عن طريق جباة الضرائب الرومان الذين كانوا يتفننون فى ابتزاز الناس ، ونتيجة لعدم إحساس الناس بالأمان وربما نتيجة لتزايد الشك فى أن الإنسان لم يعد هو معيار كل شىء .

Notes

(1) A. Couat . La Poesie Alexandrine. P. 12.
(2) Matter. L'Ecole d'Alexandrie. Vol. I, P. 109.
(3) Matter. p. cit. Vol. II, p. 285.
(4) ibid. p. 292.
(5) ibid. p. 131.
(6) Gow. Greek Mathematics. P. 274.
(7) Matter. op. cit. Vol. II, p. 216.
(8) Gow op. cit. p. 275.
(9) Matter op. cit. Vol. II, p. 158.
(10) Athenaeus. Deipnosophists. Book. IV. Chapter. 83.
(11) Tran & Griffith. op. cit. p. 210.
(12) Epstein. Judaism. p. 103.
(13) ibid.

٥ - غاية الفن

فى العالم الهللينستى ، كانت العمارة هى الفن الوحيد ، بالمعنى الكلاسيكى الذى استمر فى تجسيد المعادلة المرئية للحق والجمال وهى المظهر المادى للحقيقة ، لقد جسدت المنارة حصيلة المعرفة الهندسية والميكانيكية المتراكمة كلها فى ذلك الوقت ، وبدونها ما كان يمكن لها أن تبنى ، ورغم قلة ما نعرفه عن هذه الأمور ، فإن الشىء نفسه ينطبق على معظم مبانى الإسكندرية العظيمة الأخرى مثل المتحف وجناحه الخارجى Exedra الذى تعلوه قبة وشرفة دائرية ، وحديقة الإله بان الصناعية Parkof Pan ثم صالة الجمنازيوم وكثير غيرها ، العمارة الهللينستية فى أفضل حالاتها شأنها شأن العمارة الإغريقية الكلاسيكية فى أفضل حالاتها ،هى مبانى مقدسة تمثل الإشارة الظاهرة المرئية للنعمة الروحية الداخلية المعبرة عن الروح الإغريقية بنفس البلاغة التى تعبر بها أعمدة الكرنك العملاقة الضخمة عن روح المملكة المصرية الجديدة .

لم يتبق من العمارة الهللينستية فى الإسكندرية ، شىء يذكر لا على الأرض ولا فى صورة وصف دقيق ، والأدب السكندرى لا يعرف عنه إلا القليل ، وهذا يرجع فى الجزء الأكبر منه إلى إعجاب شعراء اللاتين المتأخرين بهذا الأدب ومحاكاته - كما فعل هوراس وأوفيد وكاتللوس وبروبرتيوس وغيرهم الذين تأثروا به ونقلوا للأجيال اللاحقة مواقف الشعراء السكندريين وموضوعات أشعارهم ، والذين لم يصلنا من نصوص أعمالهم إلا جزء يسير .

لدينا كل القصائد المنسوبة إلى ثيوكريتس ، لدينا أناشيد كاليماخوس التى تحوى ألف ومائة سطر تقريبًا ومعها كثير من الأجزاء ، لدينا أيضًا الملحمة البطولية لأبولونيوس الروديسى المسماة الأرجونوتيكا Argonautica كاملة ، والملحمة التعليمية للشاعر أراتوس Aratus - المسماة الظواهر أو علامات الطقس - وقصيدة الإسكندر للشاعر ليكوفرون Lycophron لدينا الأجزاء الهامة المتميزة لتيمون (Timon)

السيلوجرافى (Sillograph) من بين مجموعة الابيجرامات اليونانية الساخرة، وهناك عدد كبير تمت نسبته بوضوح إلى مؤلفين سكندريين آخرين ، أيضاً المجموعة الخاصة بقصائد أناكريونتك (Anacreontic) واقتباسات طويلة متصلة من مرثيات فانوكليس Phanocles ومن ملحمة هيرمزيان Hermesianax لريانى Rhianus ومن الإسكندر الأيولى التى حفظتها كتابات استوبايوس Stabaeus وأثينايوس Aythanaeus[1] .

ينظر إلى كاليماخوس عموما على أنه نموذج مثالى لشعراء الإسكندرية ، فقد ولد فى قورينا حوالى ٣١ ق٠م ومثل أى شاب صغير ، درس فى مدرسة الفلسفة المشائية (الأرسطية) فى أثينة ، فى الوقت الذى يعتبر فيه تدريسها جزءاً ضروريا لرجل الأدب ، لقد جاء إلى الإسكندرية فى وقت مبكر من حكم فيلادلفوس ، وعمل بالتعليم فترة فى الإليوسيس ، إحدى ضواحى الإسكندرية ، وسرعان ما حصل على وظيفة فى المكتبة ثم أصبح كبيراً للأمناء خلفا لزينودوتوس (Zenodotos) فى الفترة من ٢٦٥ حتى وفاته حوالى سنة ٢٤٠ ق٠م وهو الذى وضع كتالوجا للمكتبة ، وكان ذا مكانة عالية عند فيلادلفيوس وعند يوريجتيس ، وبحكم هذه المكانة فهو أمير الشعراء بصورة غير رسمية ، أناشيده التى لم يصل إلينا منها سوى سبعة أناشيد كاملة ، كتبت كلها لكى تلقى فى المناسبات المختلفة ، فالنشيد الذى كان يكتب لتمجيد الإله أو الإلهة لتلاوته فى الاحتفالات الدينية، يعد واحداً من أقدم أشكال الشعر الإغريقى ، ولقد كتب كاليماخوس أناشيده بنفس التقاليد الكلاسيكية التى كتب بها هومر Homer وهيزيود Hesiod وبندار Pindar ، وربما كانت أشعاره أشعاراً رسمية كتبت بالصورة التى تتوافق مع إمكانياته ، إن الروح الأدبية التى جسدها وتأثيره على الشعراء اللاتين المتأخرين تتجليان بوضوح فى أجزاء مراثيه وأيضاً فى الإبيجرامات الساخرة التى نسبت إليه .

أما أراء كاليماخوس حول الشعر فقد جاءت نتيجة للمعركة الأدبية المشهورة بينه وبين أبولونيوس الروديسى ، كاتب ملحمة الآرجونوتيكا Argonautica وقد جرت هذه المعركة قرب نهاية حياة كاليماخوس وذلك عندما كان أبولونيوس ما يزال شاباً فتياً وكاليماخوس كبيراً لأمناء المكتبة ، *والزعيم الأكبر للأدب السكندرى* ، لقد قدم أبولونيوس قراءة عامة لجزء من قصيدته الآرجونوتيكا - وهى ملحمة تحاكى تقاليد هومر فى أحد الموضوعات الكلاسيكية الأصلية وربما بدافع من الغيرة هاجمها

كاليماخوس على أساس أنها قصيدة تقليدية تمثل نوعًا من المحاكاة الذليلة للقديم ، وألف إبيجراما لاذعة يسخر منها :

الملاحم أنا اكرهها ، لا يهمنى أن أذهب

فى ذلك الطريق المعتاد الذى يحمل الكثيرين جيئة وذهابًا

ولا حتى أشرب من آباره

نورك أو حبك أنا أكرهه

كل شىء يألفه الناس أكرهه

ألا تشرب نخبك ياليسنياس ؟ قبل أن يتلاشى الصدى

صوت يناديه وآخر يحصد الجائزة[٢]

وقد رد أبولونيوس على هذا ردًا مليئًا بنشاط الشباب وحيويته ، وسرعان ما بدأ تبادل رشيق للإهانات التى تكشف عن المعرفة وحضور البديهة فى أسلوب المعارك الأدبية المعتاد وراح النقاد والهواة يتجادلون فى الأمر بأصوات حادة وعالية فى المنتديات الأدبية ، وكان الملمح البارز لهذه المعركة هو أن كاليماخوس الرجل العجوز والزعيم الكبير يعلن أنه المبتكر المجدد فى حين يقف أبولونيوس الشاب كبطل للمحافظين ، وربما نتيجة لهذه المعركة رحل أبولونيوس إلى رودس ، حيث أكمل ملحمته الآرجونوتيكا، التى لقيت نجاحا كبيراً ، وقد ألف كاليماخوس هيكات Hecat لكى يبين أن فى مقدوره أن يكتب هو أيضا ملحمة إذا شاء – هيكات هى قصة ثيسيوس Theseus فى شكل ملحمى – ولم يصلنا منها سوى شذرات ، يتجلى إسهام كاليماخوس العظيم لفن الشعر فى إنشاء شعر المراثى Elegy أحد الأشكال الرئيسية للتعبير الأدبى ، وهو الشكل الذى قلده شعراء اللاتين ، وصار فيما بعد أكثر الأشكال شيوعاً فى الشعر الغربى ، ويمكن تعريف المرثية بأنها (فى العادة وليست بالضرورة) تأمل حزين لموضوع خصوصى – كالحب أو الموت – أثاره حادث أو مشهد فردى ، لم يبتكر كاليماخوس الرثاء فقد كان له رواد عديدون بين الشعراء الأوائل – مثل أنتيماخوس القلوفونى – Antimachus of Colophon فى نهاية القرن الخامس وفيليتاس

القوصى Philetas of Cos أول الشعـــراء السكندريين وهـرمزيـــان Hermesianax تلميذه وصديقه ، وفانوكليز ، معاصره ربمـــا الذى كـتب فى الحـب المثلـى (الشذوذ الجنسى) Homosexual love وكيف عاقبه كيبريس Cypris والإسكندر الأيتولى Alexander of Aetolia .

المرثية الوحيدة من مراثى كاليماخوس التى وصلت إلينا كاملة ، فى ترجمة لاتينية قام بها كاتوللوس Catullus هى قصيدة سخيفة جداً استوحاها من " الاكتشاف " الذى أعلنه منجم القصر كونون Conon ، أن خصلة شعر الملكة برنيس التى كانت قدمتها قربانا على مذبح الآلهة توسلا من أجل عودة زوجها يورجيتس من الحرب السورية سالما قد تحولت عن طريق معجزة إلى كوكبة من النجوم وهى مكتوبة باللغة اليونانية دون شك ، لأنها قطعة من النفاق والتزلف الموجه للزوجين الملكيين اللذين تزوجا حديثا ، وهى تصف كيف أنتزع يورجيتس من فراش الزوجية .

ضد أشور فأسرع بسيفه البتار

مرتديًا لثوب من ندوب جميلة حمراء

اكتسى به فى تلك المعركة الليلية التى أفسد فيها عذريتها(٣)

والقصيدة تنتهى بتحذير شديد للزوجات اللاتى يتعرضن لغواية السقوط فى غيبة أزواجهن .

مراثى كاليماخوس ، وكان منها مجموعات كثيرة أشهرها تسمى أيتيا Aetia حظيت برواج كبير ، ورفع من قدرها شعراء اللاتين ، وقد كانت موضوعاتها الرئيسية عن الحب الجنسى (الشهوانى) بين رجل وامرأة وأيضًا بين رجل ورجل وعن المحن والآلام المصاحبة لتلك العاطفة – المشهد كلاسيكى معتاد ، لكن الأحداث الموصوفة فظيعة مرعبة ، مثال مينوس الذى قامت بناته بحرقه وسلخه حتى الموت حبًا فى ديدالوس ، أما الصبى هيلاس Hylas الذى كان محبوبًا لهيرقل ، فقد مات غرقًا ، وكاسندرا التى اغتصبت فى غابة صغيرة مكرسة للربة أثينا ، ولكن هذه القصص كلها قائمة على الصنعة والتكلف ، إنها ترجمة رشيقة لقصة معروفة بألفاظ الشعر التقليدى المعبرة عن اليأس والذى صار موضة عصرية موجهة لتسلية المثقفين الفارغين ذوى

الأنواق المتعبة ، إنه عمل الباحث الذى يكتب الشعر لأنه شىء ينتظر منه وكان ذلك قد أصبح آخر صيحة فى الموضة .

فالإبيجراما Epigram شأنها شأن المرثية هى تعبير مميز عن عبقرية الشعر السكندرى .

وهى دليل على حالة المجتمع ووسيلة لتزجية وقت فراغ الأدباء ، بل وأهل الدنيا فقد كتبت لمديح الملك أو الملكة أو عشيقات الملك ، وكانت تعبيراً عن العلاقات الغرامية أو سلاحا للمنافسات الأدبية ، ولقد استخدمت الابيجراما لوصف الفنار ، ومعبد ارسينوى زيفريتس Zyphritis لتشبيه الملكة برنيس بالربة سيبرايس Cypris أو بالثلاث آلهات المانحات للجمال Three Graces والكثير من الابيجرامات كان تعبيراً عن الشهوة الجنسية ، والكثير منها يخاطب العشيقات أو الغلمان[٤] .

لم يخترع الشعراء السكندريون فن الإبيجراما ولكن شأنها شأن المرثية فقد نهضوا بتطويرها نحو الشكل الذى يلائمهم أكثر ، والتى تبلورت فيه بصورة نهائية ، فمن بين الإبيجرمات المائة والخمسين الباقية نجد أربعة وسبعين مقطوعة منها منسوبة إلى كاليماخوس ، وهنا بعض هذه المقطوعات وأكثرها تشخيصاً لصفات الإبيجراما .

إلى تمثال الملكة برنيس

ربات الجمال والفتنة صرن أربعة
فقد زدنا ربة متفردة
قد صورت كيما تكون
قرينة للثلاث الأخريات
لازال المر ينديها
فآه من يتردد فى اختيارها
ذات الجمال الصافى الرزين

فاتنة الفاتنات الملكة برنيس
لا وجود للثلاثة بدونها
إنها هى فقط بطلعتها البهية
تضفى الجمال على الجميلات[٥] .

إلى تيمون

تيمون ، والآن قد مت فهل الحياة أكثر وحشة أم الموت ؟
أتوسل إليك أن تخبرنى أيها الموت لأن المزيد منك موفور هنا[٦] .

مطاردة الحب

سوف يذهب الصياد فوق قمم الجبال
عبر الصقيع والجليد
فارسنا يدور فى كل مكان
يطارد الغزلان والأرانب البرية
إذا قيل له هنا حيوان راقد صريع
فإنه أبدًا لا يفاجئه
مثله مثل قلبى الرشيق
متأهب للصيد والطراد
فى لهفة وراء الهاربات
لا ينتظر ليأخذ الفريسة الراقدة
أمام عينى[٧] .

إلى هيراقليطس

أخبرنى أحدهم أن هيراقليطس مات
بكيت وتذكرت كم مرة انطلقنا إلى الشمس
أيها الصديق ، لابد أنك راقد الآن كومة من تراب ،
ولكن طيورك - أيها العندليب - لازالت حية تغنى
فوق أيدى الموت التى تنهب الجميع
ولن تكف عن الغناء أبدًا[٨].

إلى ميكيليوس

على الكفاف قد عشت حياتى القصيرة
لم أسقط عملاً ولم أخطئ فى حق إنسان
عزيزتى الأرض ، إذا كان قد عرف أن ميكيليوس امتدح
شيئًا من الأشياء الحقيرة
فلا تخففى عنه وطأتك الآن
لا أنت ولا كل القوى التى تقبض عليه[٩] .

وهنا بعض الإبيجرامات الشهوانية

ما فائدة الحرص على بكارتك الثمينة ؟
فحين تنزلين إلى القبر فى هاديس ، لن تجدى أحياء ولا عشاقًا
لا شىء سوى عظام ورماد

إذا كان لديك أجنحة ، وفى يديك قوس وسهم
فلن ينقش أحدهم تحت تمثال ابن سيبريس Cypris
اسم أيروس ، بل اسمك أيها الصبى .

أضعت يومًا مع هرميون الفاتنة ، إنها ترتدى حزامًا
مرسومًا عليه كثير من الزهور وعليه نقوش بحروف من ذهب
"حبنى إلى الأبد ولا تهتم إذا ارتبطت أنا بشخص آخر"

أى تعويذة تلك التى أكتشفها بوليفيموس من أجل شفاء المحبين ؟
عرائس الشعر يضعفن الحب والعمل هو العلاج من كل أمراضه
الجوع أيضًا له بعض الميزات ، فهو يشفى الصغار من مرض الحب
وعندى أنا درعى ضد أيروس المتلاف .

الجوع هو الذى قيد أجنحة هذا الصبى المحتال
فلم أعد أخشاه
لأنى أملك الأسحار التى تشفى جروحى المؤلمة (كاليماخوس).

لقد حظى أبولونيوس الروديسى خصم كاليماخوس الأدبى بمكانة أفضل عند الأجيال اللاحقة وذلك لأن ملحمته الأرجونوتيكا قد حفظت كاملة ، لقد ولد أبولونيوس فى مستعمرة نوكراتيس اليونانية بمصر حوالى ٢٧٠ ق.م ونشبت معركته المشهورة مع كاليماخوس حوالى ٢٤٥ ، وبعدها ذهب إلى رودس وأكمل ملحمة الأرجونوتيكا ، وعاد إلى الإسكندرية فى تاريخ غير معروف وأصبح كبير أمناء المكتبة ، حوالى ١٩٣ ، بعد موت ايراسطوستين ، ومات هو سنة ١٨٨ ، وقصة الأرجونوتيكا كانت تعد واحدة من

أعظم الموضوعات الكلاسيكية الإغريقية التى تكررت روايتها نثراً وشعراً مرات كثيرة ، ومن حيث الشكل واللغة فإن قصيدة أبولونيوس قد أقيمت على ملحمة هومر الكلاسيكية، وتبعًا لما يقوله أحد النقاد المحدثين(١٠) .

يبدو أنه كتب الأرجوناوتيكا تظاهراً بالشجاعة ليبين أن بإمكانه كتابة القصيدة الملحمية ، ولكن كان للعصر تأثيره القوى جداً ، وبدلاً من وحدة الملحمة لا نجد إلا سلسلة من الحلقات ، والذى يعطى هذه القصيدة قيمتها الباقية هو جمال وقوة إحدى هذه الحلقات وهى التى تدور حول حكاية الحب بين جاسون Jason وبين ميديا Media.

ويعلن ناقد حديث آخر أن الآرجونوتيكا كانت هى المبشر بنصف الأدب الحديث(١١) The precursor of half modern literature فمعالجة قصة الحب بين جاسون وميديا ، والقراءة المقصودة منها ، قد ألقت بظلالها على الرواية الرومانسية الحديثة ، فالتيما كلاسيكية وطريقة التناول رومانسية ، "فليس هو القدر الذى يدفع جاسون إلى ميديا ، بل روح المغامرة : فهو لا يحاول إنقاذ وطنه من انتقام الآلهة ، وإنما يسعى لكى يجمع ثروته ، تحول بطل الأسطورة الكلاسيكية النقى إلى قرصان جسور(١٢) وخلال مغامراته يقع فى الحب ، لكن قصة الحب تتشابك وتصبح أكثر أهمية من المغامرة .

كان ليكوفرون أحد شعراء البلاط السكندريين وكان يعمل فى المتحف أو المكتبة وألف مع ستة شعراء آخرين ، لا تعرف أعمالهم الآن ، جماعة الثريا Pleiades وهى عبارة عن جمعية ممن يتبادلون الإعجاب بالشعر الذى ازدهر فى عهد فيلادلفوس .

ولد حوالى ٣٢٥ ق.م فى منطقة البقاع فى سوريا at Chalcis in Euboea ثم جاء إلى الإسكندرية ، أغلب الظن أنه انجذب إلى الجمعية الأدبية المزدهرة هناك حوالى ٢٨٥ تقريبًا ، وسرعان ما حصل على وظيفة فى المكتبة ، حيث قام بتدوين مخطوطات الكوميديا الكلاسيكية الإغريقية ، وكان هو نفسه كاتبًا تراجيديا ألف حوالى خمسين تراجيديا لم يبق منها شيء ، وقصيدته المخطوطة الوحيدة ألكسندرا Alexandra عبارة عن حكاية غامضة عن نبوءات كاسندرا كما رويت للملك بريام عن طريق أحد عبيده المكلف بالتجسس عليها ، والقصيدة لا تتفق مع أى شكل من الأشكال التقليدية للشعر ، وهى فى غموضها وإبهامها الكلاسيكى ، وأسلوبها المهذب ، وحذلقتها ،

وتشاؤمها العقيم تحمل بعض وجوه التشابه مع قصيدة "الأرض الخراب" The Waste Land وفى المجتمع الأدبى التقليدى اليائس فى الإسكندرية وفيه الباحث عن المتعة والمتخم بالمتعة ، ربما حظيت هذه القصيدة بنفس الشهرة التى حظيت بها "الأرض الخراب" فى مجتمع لندن سنة ١٩٢٢ .

أما أراتوس فقد كان معاصرا أكبر قليلاً من صديقه كاليماخوس ، فقد ولد حوالى ٣١٥ فى سولى (soli) بقلقيليا Cilicia وتعلم مع كاليماخوس فى مدرسة الفلسفة المشائية فى أثينة وبعد ذلك تعلم على يد زينو فى مدرسته المسماة ستوا (Stoa) وقضى معظم حياته فى بلاط أنتيجونوس جوناتاس فى مقدونيا ، حيث أخرج كتابه العظيم "الظواهر" Phaenomena هناك وليس لدينا ما يؤكد أنه قد زار الإسكندرية ، ولكن لابد من إدراجه ضمن الشعراء السكندريين لأن كتابه "الظواهر" كان إلى حد كبير مستوحى من الاكتشافات الفلكية التى كانت تحدث فى الإسكندرية ، فضلاً عن أنه كان مثل الشعراء السكندريين ، باحثًا ، ومن علماء النحو ، و فقه اللغة ، ويكتب الشعر أكثر منه شاعر متفرد Sui generis وكان أيضاً أحد رجال البلاط وتمتع برعاية أنتيجونوس جوناتاس وأنتيوخ الأول سوتر ملك سيليوقيا Seleucia الذى حرر له نسخة من الأوديسة .

الجزء الأول من (فانومينا أو الظواهر) عبارة عن وصف بالشعر ، لمجوعة من النجوم ، مأخوذة من عمل نثرى بنفس الإسم كتبه الفلكى إيودوكسيوس الكنديوسى Eudoxus of Cnidus قبل ذلك بخمسين عامًا ، أما الجزء الثانى من القصيدة وإسمه "علامات الطقس" Weather Signs فإنه مكتوب شعراً وهو عبارة عن بحث فى علم الأرصاد الجوية meteorological treatise مبنى على حكايات ترويها بعض الزوجات العجائز ويمكننا الاعتماد عليها مثل اعتمادنا على التنبؤات الجوية البعيدة المدى فى أيامنا هذه ، خذ مثلاً .

من علامات العاصفة إضعاف نور المصباح المشتعل ونعيق البوم الخافت أثناء الليل ، ونعيق الغراب إذا نعق بنغمة هادئة متنوعة عند اقتراب المساء ، وعندما تصدر غربان rooks القيظ كل منها على انفراد نغمتين منفصلتين يعقبها صيحات سريعة متكررة بملىء الفم حالمًا يتذكرون الغصن الذى يحطون عليه من أجل النوم ،

أما طيور القرنق أو الكركى فإنها ترفرف بأجنحتها عند سماعها شجو الليل وتتلمس طريقها فى أحد الممرات ، وهم يطيرون فى جماعات ، وفى الطقس الملائم يسيرون فى طيران منتظم ولكن حين يغطى الظلام على ضوء النجوم الصافى فى غيبة الغيوم الكثيفة التى تحجب الضوء ، أويأتى ظلام آخر يخفيه أوأن يغطى القمر على ضوئها ، فجأة يشع ضوء النجوم ويزداد توهجا ثم يخبو ، ليس بعد ذلك ما يشير إلى الهدوء ، فانظر إلى العاصفة ، يأتى الطقس السيء أيضًا عندما تتجمع بعض السحب فى سكون ، وبعضها الآخر يمضى ويعقبها سحب أخرى بعد ذلك(١٣) .

تقول بعض التكهنات ، وربما كانت غير صحيحة أن انتيجونوس جوناتاس قد اختار هذه القصيدة وكافأه عليها وجعلها دليلاً للبحارة فى حروبه البحرية ضد بطليموس .

لكن فى عيون العالم الحديث فإن أعظم شعراء الإسكندرية قاطبة ، وربما الوحيد الذى لا يزال يقرأ من أجل المتعة هو ثيوكريتس Theocritus وقد عرف ثيوكريتس كشاعر بقصائده المسماة Idylls أو الأناشيد الرعوية وليس لها مثيل فى الشعر الكلاسيكى ويعرفها معجم أوكسفورد بأنها " قصيدة قصيرة ، تصف منظراً بديعًا يروق للعين ، أو يصف إحدى الوقائع فى بيئة ريفية ، ويبدو أن هذا الشكل كان من ابتكار فيليتاس القوصى Philetas of Cos ولكن ثيوكريتوس وصل به إلى درجة الكمال .

ولد ثيوكريتوس Theocritos حوالى سنة ٣١٧ فى سيراكوزة وحظى برعاية الملك هيرو ، ثم أتى إلى الإسكندرية فى سنة ٢٧٦ تقريبًا ، لم يكن واحداً من شعراء البلاط ، الذين تأسست جماعاتهم فى المتحف وازدهرت فى عهد فيلادلفوس واستشهاداً بقصائد "المديح لبطليموس"(١٤) فإن الافتراض القائل بأنه حظى برضاء البلاط الملكى يكون معقولاً ، توفى ثيوكريتوس سنة ٢٤٠ .. ربما كتب أناشيده الرعوية فى الإسكندرية ولكن المشهد فى الكثير منها يقع بوضوح فى مسقط رأسه فى صقلية Sicily فرعاة أغنامه وقطعان الماعز ، ومجارى المياه الجبلية، والممرات الريفية ، هى صيحة بعيدة عن الإسكندرية الحضرية ، وأن الشعبية التى لقيتها قصائده ومازالت تلقاها حتى الآن ، قد ترجع إلى النوستالجيا أو الحنين الذى كان يكابده اليونانيون

المتحضرون بالإسكندرية إلى حياتهم الريفية فى وطنهم الأم ، كتب ثيوكريتس معظم قصائده باللهجة الدورية للموطن الرئيسى للإغريق ، وكتب بعضها بلهجة هومر الأيونية ، لكنه خرج على التقاليد الكلاسيكية التى توجب على الشاعر أن يستخدم أوزانا معينة لكل نمط من أنماط الشعر ، (لقد عنيت ثورة الشعر السكندرى بالوزن مثل عنايتها بالموضوع وأسلوب التناول) معظم قصائده مكتوبة بالوزن السداسى **hexameters**

علاوة على موضوع الوزن ، فإن ثيوكريتس كان مجدداً فى أنه ، ولأول مرة ، يكتب شاعر عن الناس البسطاء وحاول بنجاح يتمناه كل شخص لنفسه - أن يصوغ الحياة اليومية ولغة هؤلاء الناس شعراً ، وربما كانت أنشودته "جورجو و براكسينو" **Gorgo and Praxinoe** فى لهجتها الدورية التى كتبها بها ثيوكريتس تبدو ساذجة فى نظر المثقفين بالإسكندرية وربما بدت لهم أناشيده عند قراءتها مثل قصائد بيرنز **Burns** بالنسبة لنا ، ومثل معظم الشعراء الإغريق فإنه يتغنى بكلا النوعين من الحب ، حب الرجل للمرأة ، و حب الرجل للرجل وفى شعره الكثير من التكلف الذى نجده عند شعراء الإسكندرية كالحب المرفوض وهو تيما تقليدية أكثر منه تجربة مأساوية ، نحن لا نشعر بالألم أو الحزن بسبب هذا الرجل العليل الذى يشتاق إلى حب شاب متغطرس مغرور ، رائع الحسن ومسالكه غير جميلة ، ثم شنق نفسه أمام باب هذا الصبى" بعد أن توسل إليه أن يقف لحظة حداداً ، قبل أن يقطعه إربا ويقبل وجهه الميت[١٥] .

أما تودد دافنيس **Daphnis** وتغريره بصديقته فهى قصة فائقة الإثارة .

الفتاة : نعم ، أحد الأنذال اغتصب هيلين الحكيمة .

دافنيز : كلا - لقد اشترته هيلين بقبلة مفعمة بالرغبة .

الفتاة : لا تتباه بهذا أيها الشهوانى العربيد لأن القبلة ليست شيئًا .

دافنيز : لكن حتى القبلات الفارغة تعطى مذاقًا حلواً .

الفتاة : سأمسح فمى وانزع قبلتك بعيداً .

دافنيز : لا تمسحى شفاهك وأعطنى إياهم مرة أخرى .

الفتاة : عليك بتقبيل الأبقار الصغار لا العذروات الطاهرات .

دافنيز : على رسلك و لا تتباهين هكذا فالشباب ينسل من بين يديك كالحلم ·

الفتـاة : ولكن الزبيب يؤخذ من الكروم والوردة الجافة تحيا ·

دافينز : أنا أيضاً – شاب مسن – دعينى أشرب الحليب والعسل .

الفتـاة : ارفع يدك ، كيف تجرؤ ؟ سوف أمزق شفتيك ثانية ·

دافينز : تعالى إلى تلك الزيتونة – لأحكى لك حكاية ·

الفتـاة : لا لن أجىء فقد خدعتنى حكاياتك الجميلة·

دافينز : تعالى خلف شجرة الدردار واستمعى إلى مزمارى ·

الفتـاة : سلى نفسك بعيدا عنى، أما أنا فأغانى الحب التافهة لا تغرينى ·

دافينز : آه أيتها العذراء – أيتها الفتاة – اتقى غضب بافوس·

الفتـاة : وداعًا لأرتميس العطوفة ·

دافينز : اصمتى ، لئلا تطرحك فى شباكها المعقدة ·

الفتـاة : كلا دعها تلقى بشباكها علىّ– فارتميس سوف تحمينى ·

دافينز : لا يمكنك الهروب من الحب – لا مفر منه لأية عذراء ·

الفتـاة : سوف أنجو بمعونة الإله(بان) أما أنت فعليك أن تحمل نيره ·

دافينز : أخشى أن يزوجك لرجل حقير دنىء ·

الفتـاة : كثيرون تودوا إلى ، لكن أحداً منهم لم يدخل قلبى ·

دافينز : أنا أيضاً أتوسل ، من بين هؤلاء أتيت ·

الفتـاة : ماذا أفعل ياصديقى ؟ – فأنا خائفة من الزواج ·

دافينز : ليس فى الزواج ندم أو أسف ، بل رقص وغناء ·

الفتـاة : قيل إن النساء ترتعد من أزواجهن ·

دافينز : بلى - إنهن يحكمن الأزواج .

الفتاة : أنا أخشى آلام المخاض .

دافينز : سيدتك أرتميس سوف تخفف آلامك .

الفتاة : ولكننى أخشى على جمالى من الحمل والولادة .

دافينز : أنت كأم سوف تتمجدين فى الأبناء .

الفتاة : ما هى هدية زواجى إن قلت نعم .

دافينز : قطعانى وغابتى والمرعى الخاص بى .

الفتاة : أقسم أن لا تتركنى بعد لأحزانى .

دافينز : لن يحدث أبداً ، أقسم بالإله (بان) إذا لم تبعدينى عنك .

الفتاة : هل ستبنى لى بيتا وحديقة حولها أسوار ؟

دافينز : سأبنى لك منزلاً وأرعى قطعانك .

الفتاة : ولكن ماذا سأقول للوالد العجوز .

دافينز : سوف يبارك الزواج عندما يعرف إسمى .

الفتاة : أخبرنى عن إسمك ، الإسم غالبًا ما يجلب السعادة .

دافينز : دافينز ، ابن نومايا Nomaea وليسيداس Lycidas .

الفتاة : كريم المولد ، لكن أصلى لا يقل عنك شيئًا .

دافينز : اعلم أنك من أصل كريم أيضا ، فأنت ابنة مينالكاس Menalcas.

الفتاة : أرنى حديقتك التى يوجد فيها إسطبل ماشيتك .

دافينز : تعالى هنا لترى كيف يزدهر الصنوبر فى رقة وجمال .

الفتاة : المعيز تأكل العشب الأخضر وأنا ذاهبة لرؤية مرعى القطعان .

دافينز : دعى الثيران تأكل ، سوف أريك غابتى يا فتاة .

الفتاة : ماذا تفعل أيها الداعر ، كيف تلمس نهداى .

دافينز : لأرى إن كانت هذه التفاحات قد بدأت تنضج .

الفتاة : اقسم بالإله بان أنى أنهار،ارفع يدك عنى .

دافينز : تشجعى يا فتاتى العزيزة ، لماذا ترتعشين من الخوف ؟

الفتاة : أتريد أن تلقى بى فى الحفرة وتبلل ثيابى ؟

دافينز : انظرى سوف أفرش هذه البطانة الصوفية تحت ثوبك .

الفتاة : حزامى قد تمزق – لماذا لا تفك رباطه ؟

دافينز : نذرت باكورة أبنائى للإله بافوس .

الفتاه : آه ، انتظر – يبدو أن أحداً قادم ، أنا أسمع ضوضاء .

دافينز : إنها همهمة الأشجار فرحا بحبنا .

الفتاة : ثوبى قد تمزق – وصرت عارية .

دافينز : سأهبك فستانا أجمل وأوسع .

الفتاة : هات كل ما عندك اليوم ، ربما لن يكون هناك ملح فى غد .

دافينز : بل كل حياتى أعطيها لك .

الفتاة : اغفرى لى يا أرتميس ، لقد أخلفت عهدى .

دافيز : سأذبح بقرة لإله الحب وبقرة لقبرص الداعر Cypris

الفتاة : عذراء أتيت إلى هنا ، والآن أخرج امرأة .

هكذا تمتع هؤلاء بعواطفهم الشبابية ، تمتعًا بالثرثرة معًا ، ثم ذاقًا حلاوة الحب المسروق، عيونها منكسرة ، لكن قلبها مبتهج ، انطلق هو إلى قطيع الثيران المتفرقة وقلبه مفعم بالحب .

أنشودة "جورجو و براكسينوى" هى إحدى الأناشيد التى ألفها ثيوكريتس فى الإسكندرية ، قصة زيارة قام بها زوجان إغريقيان من الطبقة المتوسطة لمهرجان أدونيس وبإجراء تبديل أو تبديلين صغيرين يمكن أن تتحول إلى قصة زيارة زوجين من الطبقة المتوسطة الإنجليزية من سكان الضواحى لحفلة ماتينيه أو لأحد مزادات فصل الخريف .

ازدهر الشعر السكندرى بصورة خاصة فى فترة حكم فيلادليفوس الذى قدم رعايته للشعر والدراما واستبعد العلم والفلسفة تماماً ، يبدو أنه بصورة مؤقتة قد حول المتحف ، كما ورد فى إحدى الإبيجرامات التى وضعها تيمون الفيلاسى Timon of Phelas إلى "قفص للمتعلمين" من شعراء البلاط ، وقد حدثت حركة إحياء العلوم فى ظل حكم خلفائه من البطالمة فى حين اضمحل الشعر والدراما وانحط قدرهما ، لقد خضع شعراء الإسكندرية لتأثير الظروف التى عاشوا فيها ، لقد كانوا علماء مغتربين يعيشون تحت رعاية حكم ملكى مستبد وفى وسط مجتمع من المثقفين الإغريق غرباء مثلهم ، لديهم امتيازاتهم ولكن بدون مسئوليات سياسية ، أثرياء ولكن بدون أى نفوذ سياسى ، مستمتعين إلى أقصى حد بوقت الفراغ وبالثروة والآمال وإلى جوارهم جيش من المقدونيين جاهز للذود عنهم ووطنيون من المصريين مخصصين لخدمتهم .وكان إيقاع الشعر السكندرى يعكس الأمزجة ويستجيب للأذواق التى ولدتها تلك الظروف - مثل الانشغال المسبق بعواطفهم الخاصة ، وحبهم الشهوانى ، والبحث عن اللذة أو الحنين للوطن الذى جسده ثيوكريتس والفراغ المحمل بالشؤم الذى انعكس فى شعر ليكوفرون Lycophron ثم السخرية المعبرة عن اتساع المعرفة التى اختزلت فى قطع الإبيجرامات التى تهاجم التملق الذليل المنتشر فى كل مكان وأصاب الجميع بالعدوى .

لكن لشعر الإسكندرية وجه آخر أرقى وأنبل :

إن لشعراء الإسكندرية دين كبير فى أعناقنا لاكتشافهم منابع الشعر الموجودة فى جوانب حياتنا اليومية - فى الأفكار والأفعال ومعاناة الناس البسطاء ، هذا الشعر - هو شعر رومانسى إذا شئت أن تسميه - قد عبروا عنه فى المراثى والإبيجراما ،

وكذلك فى الملحمة عندما غيروا شكلها الكلاسيكى وخلعوا عليها ثوبًا جديداً فصار الحب ولا شىء غيره هو الموضوع الرئيسى للأدب الخيالى لأنه كان فى نظرهم هو الموضوع الكبير Grand theme للملحمة وكذلك للقصائد الصغرى كالأناشيد ، لقد تشكل لديهم نوع من الفهم خلاصته أن الشعر يمكن أن يستوحى من الأشياء العادية جداً ، كالأشياء التى نصادفها فى حياتنا اليومية ، ومن ثم مالت قصائدهم إلى تصوير الناس العاديين البسطاء بدلاً من الأبطال ، فكسروا التقاليد القديمة الخاصة بالأوزان وبالأجناس الأدبية وفتحوا الأبواب لحرية التجريب أمام خلفائهم من الأجيال التالية ، علاوة على ذلك ، فإنهم جعلوا الشعر فنًا قائمًا بذاته دون اعتبار لدوره الدينى أو الاجتماعى أو السياسى ونظروا إلى الانشغال بكتابة الشعر وتأليف العبارات الرشيقة على أنه عمل مثمر معادلاً مساويًا لذلك التفرد الذى يمثله فى الفلسفة الرواقيون والأبيقوريون ، ربما كان الإسكندريون نظامين يحولون العبارات النثرية إلى نظم وليس شعراء ممن يبدعون الأفكار والصور لكن جهادهم فى هذا السبيل لم يكن عقيمًا ، فالشعر ليس فقط إلهام ، إنه فن ، أى أنه حرفة إذا شئت كما أنه تدفق تلقائى لروح الإنسان .

فقد قدم شعراء الإسكندرية خدمة جليلة للشعر عن طريق دراستهم لأسرار اللغة والوزن ، وقد ولد الشعر اللاتينى نتيجة لجهدهم فقد استعار كبار الشعراء اللاتين أسلوبهم كما استعاروا أساطيرهم وموضوعاتهم السكندرية Alexandrianism التى تعنى الانهماك الغيور بمسألة الشكل على نحو استثنائى ، وهذا ليس شيئًا سيئًا فى حد ذاته ، ولكن الافراط فيه هو السىء ، من منا لا يستميله سحر الأسلوب أو عذوبة الأصوات أو وضع كل كلمة فى مكانها الصحيح بصرف النظر عما تحمله من أفكار ؟ لم يترك السكندريون أدبًا فلم يظهر بينهم كاتب واحد عظيم من كتاب النثر ، ولم يبق من قصائدهم سوى قصاصات ، لقد تركت للأجيال التالية لتخصيب أفكارهم واستخراج الروائع منها(١٦) .

أحد الملامح الخاصة بالمجتمع الهللينستى فى المدن البحرية الكبرى بحوض المتوسط ، وربما برز هذا لأول مرة ، إلى جانب الصفوة المثقفة ، هذا الملمح هو وجود طبقة من أنصاف المتعلمين ، الملمين تقريبًا بالقراءة والكتابة ، وهى طبقة إغريقية ،

يتمتع أفرادها رجالاً ونساءًا بالإمتيازات ولديهم الكفاية من المال والوقت الذى يسمح لهم بالاستمتاع بالأدب وبوسائل التسلية الأخرى ، وكانت هذه الطبقة تشبع بعض احتياجاتها عن طريق الاحتفالات والمواكب الريفية التى كانت تشكل أحد وجوه الحياة اليومية فى كل المدن الهللينستية الكبرى ، ولكن من أجل إشباع بقية الاحتياجات أيضًا تطورت أشكال الفن الشعبى- فى الشعر، والمسرح ، والخطابة ، وفن الموسيقى والرقص ، وقد وجد هذا التطور دعامته فى دنيا الهللينستية ، جزئيا فى الانفصال بين التعليم والفن ، فالأغنياء ليسوا بالضرورة من المتعلمين تعليمـا عاليـا والذين يملكون تعليما عاليا ، لم يكونوا بالضرورة مثقفين فنيًا ، وهذه علاقة ملازمة بالضرورة للمجتمع التجارى الذى يتحقق فيه الثراء سريعًا ، والمجتمع الاستبدادى الذى تنفصل فيه العلاقة بين الثراء والمسئولية الاجتماعية ، ففى مجال الشعر هناك عدد من الشعراء الذين تخصصوا فى الأشعار الشعبية البذيئة الفاضحة ، التى تجارى الروح الشهوانية لذلك العصر ، ليس لدينا وسيلة للحكم على القيمة الفنية لهذه المؤلفات ، فشاعر مثل سوداتيس Sodates من الواضح انه متخصص فى كتابة قصائد فاحشة تسخر بمختلف أعضاء العائلة الملكية الهللينستية ، فقد تمادى إلى حد بعيد ، حتى أنه كتب قصيدة يسخر فيها من زواج بطليموس فيلادلفوس من أخته أر سينوى والتى أغضبت الملك غضبا شديداً حتى أنه أرسل الأدميرال باتروكلوس لمطاردته بعد أن هرب من الإسكندرية، وقد باغته باتروكلوس بين أهل كيليكاديس Cyclades فأمسك به ووضعه داخل صندوق من الرصاص وأغرقه فى البحر ، السطر الوحيد الذى وصل إلينا من هذه القصيدة الجارحة يقول : "لقد طعن الثمرة المحرمة بلسعة مميتة" He pierced forbidden fruit with deadly sting .

كان فيلادلفوس راعيًا عظيمًا لفن الدراما وكان عنده مسرح مخصص للإله ديونيسوس ، بناه فى حدائق قصره ، وقد مثلت فيه أعمال كبار شعراء التراجيديا والكوميديا الكلاسيكيين ، بالإضافة إلى هذه الأنواع ، وربما تزايدت بمضى الزمن ، وكنتيجة لتدهور الحساسية الملكية ألحقت بها التمثيليات الإيمائية والغنائية من نوع المحاكاة التهكمية Parody والهجائية Satires وبالمصطلحات العصرية نقول إن المنوعات والكوميديا الموسيقية غزت المسرح "الشرعى" تدريجيًا .

فى العصور الكلاسيكية كان ينظر لفنون الموسيقى والرقص نظرة جادة فكانت الموسيقى تعتبر جزءًا من علوم الرياضيات و عنصرًا أساسيًا فى تعليم أى شخص يعتبر نفسه متعلمًا ، كان الرقص جزءًا من الجمناستيك ، أى التعبير الظاهر المرئى للقوى الروحية وهو من الأشياء التى تصاحب الطقوس والاحتفالات الدينية ، أصبح الرقص والموسيقى فنونا شعبية فى العصر الهللينستى ثم تدهورًا حتى أصبحا من أشكال المتعة الجنسية .

أصبح الناى هو آلة العزف المفضلة فى الموسيقى واشتهرت الإسكندرية ببراعة عازفى الناى من الرجال والنساء ، وأصبح الكثير منهم نجومًا شعبيين **pop stars** وصارت بعض العازفات مثل مينسيس **Mensis** وبوثين **Rothine** عشيقات للملك وقد لقب أحد البطالمة المتأخرين - بطليموس الثالث عشر - بلقب أوليتس **Auletes** بسبب كفاءته العالية فى العزف على الناى ، ولم تكن هذه مجاملة إذ كان مؤنث الكلمة أوليترايدز **Auletrides** يطلق على ما تسميه فتيات الكباريه **cabaret girl** .

نفس الشىء الذى حدث مع الموسيقى حدث مع الرقص فانحط قدره وصار وسيلة للتسلية الشعبية يقدم أساسًا فى المسارح العامة والحفلات الخاصة عن طريق راقصات محترفات من المومسات عادة ، يصف لنا المؤرخ أثينايوس **Athenaeus** كيف أن بطليموس الحادى عشر المعروف باسم الإسكندر ، الذى كان لا يقوى على المشى إلا إذا استند على اثنين من أصدقائه ، كيف كان فى ولائمه يقفز من فوق أريكة عالية ويرقص حافى القدمين بنشاط وحيوية أكبر كثيرًا ممن جعلوا الرقص حرفة لهم وقد حدثت مثل هذه المشاهد فى حفلات أقل رقيًا فى مستوى الاستمتاع بعد أن يدور الكأس عدة مرات على الحاضرين .

كانت الخطابة مهنة مفضلة عند الإغريق وكان التدريب على هذا الفن جزءًا من تعليم كل إنسان مثقف ، ففى داخل دولة المدينة ، حيث يشارك كل الأحرار فى شئون الحكم ، وحيث تتواصل المناظرات والدعاوى القضائية حول أمور اللحظة الراهنة ، صارت الخطابة أداة عملية ضرورية مثلما هى مران عقلى مقبول سواء فى الممارسة أو الاستماع إليها ، لكن فى عالم الهللينستية القمعى ، حيث لم يعد هناك سببًا عمليًا معقولاً لوجودها طالما أن الاهتمام فيها كان مختصًا بأمر المواطن العادى ، فانحطت الخطابة

مثل الموسيقى والرقص ، إلى مستوى التسلية الشعبية ، التى يقوم بها خطباء محترفون يسلون المستمعين ببراعة التلاعب بالكلمات ،مثل بعض الشخصيات التى يقدمها التليفزيون الآن .

باستثناء العمارة ، فإن الإسكندرية الهللينستية ، لم تحفل بأى إنجازات بارزة فى الفنون المرئية ، بالنسبة لفن النحت الإغريقى العظيم ، فكانت الإسكندرية مكان تجميع وليست مركز إبداع ، ورث النحاتون السكندريون القليل من وحى أثينة واستمدوا القليل من التقاليد المصرية العظيمة ، وعلى النقيض من هذا ، فإن العمارة المصرية والنحت المصرى لم يتأثرا بالنماذج الإغريقية إلا فى القليل النادر ، كانت هناك مدرسة للنحت فى الإسكندرية ، وهناك أعمال عظيمة أنتجت فى فترة حكم البطالمة ، وما بعدها ، وكان أى بناء يخلو من التزين بالتماثيل ، والأفاريز والأعمدة ، والنافورات المزخرفة ، لا يمكن أن يكون محل اعتبار ، وهذا ما قاله أحد الخبراء عن فن التماثيل المبكر بالإسكندرية .

نقص فى التأكيد على بنية العظام تحت الجلد ، تكتل انطباعى خشن للشعر ، إدماج خفيف بخطوط حادة ،مع ميل إلى استخدام السطوح اللامعة ...الهالات المقدسة التى أضفاها البطالمة على الإسكندر الأكبر قد سارعت بالتأكيد فى إدخال موضة الملامح المميزة لشخصية الإسكندر فى أعمال النحت ، مثل حاجب كثيف ، عيون غائرة مستقرة ، نظرة حادة .. أما وحدة التحديق فهى حيلة من السهل الإمساك بها(١٧) .

ومضى الخبير نفسه ليشير إلى عادة الملاحظة الدقيقة التى وضع المتحف نموذجها فكان لها أثرها الكبير فى فن النحت .

الرأس الرخامى لبطليموس الثانى يتوافق مع الميل الذى كان سائداً فى ذلك الوقت . خلفية الرأس عبارة عن شكل كروكى وكذلك الشعر ، الحاجب به فجوة خفيفة ، والعيون ليست فى وضع غائر ولكنها مفتوحة على الآخر ، وفوقها جفون محددة المعالم ، أما الأنف فهو طويل ومستقيم الشكل ، والفم صغير ، مفتوح نصف فتحة ، واللمسات الأخيرة الرقيقة لا تبين أى تفاصيل فى رسم الموديل(١٨) .

أعظم قطع النحت السكندرى وأكثرها تشخيصًا للعصر ، ليست فى كتل التماثيل الضخمة ولكن فى قطع العملة الضخمة الخاصة بتلك الفترة ، بعضها تماثيل صغيرة غاية فى الجمال مصنوعة من الفضة والبرونز أحيانًا وعادة من الفخار تنقل صور الناس العاديين والحيوانات الذين ربما ترى مثلهم كل يوم فى شوارع الإسكندرية ، النحات اليونانى السكندرى بنظرته الصافية المدربة كان يدرك جيداً تعقيدات مجتمعه ، فرغم أن مخزونه الفنى كان محدوداً ولا يزيد عن الحد الأدنى ، فإنه قد وجد مجالاً يمارس فيه فنه بمجرد أن استيقظ فى داخله الاهتمام بالأنماط الموجودة فى الشارع ، حتى أخذ يحتضن مهن الناس وعاداتهم ، فتجد الرجال المسنين والأطفال والمزارعين والصيادين والباعة الجائلين ، كل هؤلاء ممثلين فى فن النحت السكندرى ، هناك قدر كبير من المبالغة يصل بهذه الأشكال إلى حد الكاريكاتير ففى معهد كونسرفاتوار بلازا Plazzo dei Conservatore يوجد تمثال صغير لامرأة عجوز (قد أعيد رأسها) تحمل تحت ذراعها اليمنى خروفًا صغيراً وترتدى عباءة معقودة على الكتف الأيسر فى حين تركت نهدها الأيمن عارياً ، إن جسد المرأة النحيل ، الذى أصابه الذبول بفعل الزمن ، يكشف لنا بهذه المعالجةعن ملامح دراسة علمية تميل إلى التعاطف لكنها واقعية ، وهناك أيضًا العديد من الأقنعة المصنوعة من الجبس ورؤوس تتلذذ ببشاعة التشوهات التى تعرضها .. فى متحف أثينة يوجد مجموعة برونزية لأحد الباعة النوبيين جالس القرفصاء على الأرض فى الشارع ورأسه مستندة فوق ركبته اليمنى المرفوعة ، ويجثم على كتفه الأيمن قرد مستغرقًا فى النبش فى شعر صاحبه ، التمثال كله لا يزيد ارتفاعه عن طول إصبع الإبهام ، وفى المتحف البريطانى نجد تمثالا من الفضة لصبى جالس وهو يمسك بيده إوزة تقضم أذنه ، وهناك فى برلين تمثال صغير من البرونز لشحاذ أحدب كسيح يتوسل بأسلوب المحتال الخبيث وله قضيب كبير ظاهر بصورة ملفتة للنظر ،، ثم تمثال آخر من البرونز لرجل عجوز يمشى أحدب الظهر عارى الجسم يحمل جرة وديكا يساوره شعور بالضيق والشك ، ربما من مضايقات المارة وتندرهم عليه بالنكات(١٩) .

لقد كشفت الحفريات حول الإسكندرية مئات التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار التى يعود تاريخها إلى فترة حكم البطالمة ، وعرفت باسم "تاناجراس Tanagras" ومن الواضح أنها كانت تستعمل لأغراض الزينة فى بيوت الإسكندرية .

والذى حدث فى الشعر ، حدث فى الفنون التشكيلية أو المرئية إذ تفوق السكندريون فى الأشياء الصغيرة ، بدقة الملاحظة والوصف ، وفى المشغولات اليدوية الدقيقة ، ربما ابتدعوا فن الفسيفساء بالحجر الملون وبالزجاج ، وعمومًا فإنهم لم يوفقوا كثيراً فى استخدام الحجر لكنهم برعوا فى تشكيل المعادن وبصفة خاصة فى صك عملاتهم المعدنية ، كما برعوا فى تقطيع الأحجار الكريمة والنقش عليها .

كانت الحوائط الداخلية فى المبانى العامة والبيوت الخاصة الكبيرة تغطى عادة بالرسومات أو بنقوش بارزة فى الجبس ، وهو ما كان يحدث فى أى مكان آخر من العالم الهللينستى ، فى الإسكندرية كانت هذه الرسومات والنقوش البارزة تصور عادة مشاهد رعوية مأخوذة من الأساطير الكلاسيكية ، وكان هذا تطوراً موازيًا للشعر الرعوى الذى روج له ثيوكريتس ومقلدوه فأظهرت إبداعاتهم أعراض النوستالجيا التى كان يكابدها المغتربون الإغريق فى الإسكندرية ، وهم يعيشون حياة حضرية محاصرين فوق شريط ضيق بين البحر والبحيرة ، ولا يجدون على مدى البصر جبالاً أو مجارى ماء أو غابات ، لا يوجد سوى نباتات الغاب على حافة البحيرة والخط الأخضر المزروع بين المدينة والصحراء ، لا توجد أى جبال تلوح فى الأفق - لا يوجد شىء من هذا سوى البحر فى الشمال وسلسلة التلال المنخفضة التى تطل من شواطىء البحيرة الجنوبية ، أرض ذات ألوان حادة متناقضة ، بياض المدينة اللامع ، وزرقة البحر والبحيرة ، ثم السماء ذات اللون الأزرق التركوازى إلى جانب الزراعة الضاربة فى الخضرة الشديدة وبعدها الصحراء بلونها البنى ، إنها صرخة مدوية بعيداً عن الألوان الهادئة والأنغام الخافتة المنبعثة من الوديان فى بلاد الإغريق .

لقد أخذ الفن الإغريقى بالإسكندرية طريقه إلى الاضمحلال والتدهور فى القرن الثانى ق.م ، بعد بطليموس الثامن لم يعد هناك من أعمال النحت ما يستحق هذا الإسم[٢٠] وقد تزامن هذا التدهور مع توقف هجرة الإغريق إلى الإسكندرية ، وتطور نمط من الفن السكندرى الهوية فلا هو إغريقى ولا هو مصرى بل مزيج من الاثنين مضاف إليه أثر ضئيل من اليهود ، ولم يؤد هذا إلى إزاحة الفن الإغريقى ، ولا إلى امتزاج أو اندماج بين الفن المصرى والإغريقى، فعلى المستوى الفنى بقى النوعان منفصلين ، لكن التقاليد الإغريقية اندثرت ، فقد أدت الغزوات الرومانية والبربرية إلى عزل بقية العالم

الهللينستى وإفقاره ، مما جفف ينابيع الموهبة الإغريقية والإلهام الإغريقى وأوقف تدفقها بين الإسكندرية وبين بقية المدن ، واضطر البطالمة المتأخرون لأسباب سياسية ، أن يحولوا القدر الأكبر من اهتمامهم بالإغريق ورعايتهم لهم نحو رعاية رعاياهم من المصريين ، وبدلاً من الإسكندرية صارت روما هى قبلة العلماء والفنانين ورجال الأدب من الإغريق ، وأخذت الإسكندرية فى التحول من الخصوصية اليونانية إلى ثقافة ذات صبغة عالمية أكبر ، يتجلى فيها التأثير العميق لطرق التفكير الشرقية والمصرية واليهودية التى اتجهت من المحسوس إلى المجرد ، بحيث صار التعبير الفنى ، سواء فيما يخصها ، أو حتى بالمعنى الكلاسيكى ، على اعتبارأنه مظهر لحقيقة داخلية ، وهو شيئًا لا مكان له .

Notes

(1) Mahaffy. Greek Life and Thought. p. 225.
(2) Callimachus. Epigrams (tr. G. M. Young) . Epigram X V, p. 31.
(3) Catullus. Poems (tr. J Cranstoun). Peom LXVI, p. 131.
(4) Coual. La poesie Alexandrine. p. 172.
(5) Callimachus. Epigrams. op. cit. Epigram X, p. 21.
(6) ibid. Epigram XXII, p. 45.
(7) ibid. Epigram XXXIV, p. 69.
(8) ibid. Epigram XLVIII, p. 97.
(9) ibid. Epigram LVII, p. 115.
(10) R. G. Seaton in his Introduction to his edition of Argonautica. p. ix.
(11) Tarn & Griffith. op. cit.
(12) Couat. op. cit. p. 293.
(13) Aratus Phaenomena (tr. G. R. Mair). pp. 460-1.
(14) Theocritus. Idylls (tr. G.H. Hallard). Idyll XVII, p. 84.
(15) ibid. Idyll XXVII, p. 133 et seq.
(16) Couat. op. cit. 517 et seq.
(17) Noshy. The Arts in Ptolemaic Egypt.
(18) ibid.
(19) ibid.
(20) ibid.

٦ - غاية الحياة

كانت مصر تحت حكم البطالمة الأوائل دولة ملكية مستبدة تتحكم فيها بيروقراطية قادرة اتخذت شكلها من البيروقراطية التى كانت سائدة تحت حكم الفراعنة إلا أن كبار الموظفين فيها كانوا جميعًا من الإغريق ، وكان هناك حرس صغير منتقى من المقدونيين لحراسة العضو الملكى وكان الحرس يعسكرون بثكنات تفصل القصر عن بقية المدينة ، كما كانت هناك حاميات صغيرة فى أنحاء شتى من البلاد تتكون من مرتزقة إغريق وإضافة إلى هذا ، فقد كان هناك جيش احتياطى لاستخدامه عند الضرورة تبعا لنظام الأجانب وبمقتضى هذا النظام كان الرجال يقطعون أرضًا زراعية يستوطنونها فى مقابل التزامهم بالخدمة فى الجيش متى طلب منهم ذلك ، وعلى مدى ما يقرب من مائة عام من حكم البطالمة كان الجيش إغريقيا عن بكرة أبيه ، شأنه شأن الوظائف المدنية العليا ، وخارج الإسكندرية وجدت فعلا مستوطنة إغريقية فى نوكراطيس غرب الدلتا ، كما أنشئت مستوطنات إغريقية أخرى فى بطلميس فى صعيد مصر وفى أرسينوى وهى التى باتت تعرف اليوم باسم الفيوم ، ولكن لم يكن هناك فى بادئ الأمر إلا اختلاط قليل بين الإغريق والمصريين ، وكان المصريون فى الإسكندرية يعيشون فى غالبيتهم بحى راكوتيس الخاص بهم إلى الجنوب الغربى من المدينة ، وفى سائر أنحاء البلاد استقر الأجانب وربما غيرهم من المستوطنين الإغريق خارج المستوطنات الإغريقية ، وجرت عملية الاندماج ببطء وبصورة جزئية ، وفى ما يتعلق بتطور هذه العملية فلقد كان ذلك تطورا إلى الخارج ، أى تحول المتعلمين المصريين إلى إغريق بدلا من تمصير الإغريق .

وفى أثناء ذلك نشأت فى الإسكندرية جماعة إغريقية متحذلقة تتكلم اليونانية ولكنها لم تكن إغريقية أو مصرية بل كانت سكندرية على وجه التحديد ، ويبدو أن مثل هذا الخليط **amalgam** لم يكن لـه وجود خارج الإسكندرية فالمصريون وهم الأغلبية الساحقة التى كانت تتمتع بقدر متزايد من الحكم الذاتى **autonomy** والنفوذ بقيادة

كهنتهم ، قد حتموا على البطالمة خارج الإسكندرية أن يصبحوا ملوكًا مصريين وفقًا للتقليد الذى جرى عليه أسلافهم الفراعنة ، منتحلين لأنفسهم خصائص الألوهية التقليدية ، وآخذين عن الفراعنة ما درجوا عليه من الزواج بشقيقاتهم ، وهكذا وجدت فجوة بين الإسكندرية وبقية مصر ، وهى فجوة مالت إلى الاتساع ، وفى عهد الرومان ، كان يشار إلى الإسكندرية باعتبارها الإسكندرية الملحقة بمصر Alexandria ad aegyptum – أى أنها قريبة من مصر وليست جزءًا منها .

وكان الإغريق فى الإسكندرية تحت حكم البطالمة الأوائل يمثلون نخبة أجنبية متميزة لا يختلفون عن الأوربية تحت الحكم البريطانى فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وفيما عدا بضعة من كبار الموظفين والعسكريين ، فلم يكن لهم – شأنهم شأن الجالية الأوربية – أى دور فى حكم البلاد أو مسئوليات سياسية ، ولم يكن لهم تقريبًا أى دور حتى فى حكم جاليتهم الخاصة ، وكانوا – شأنهم شأن الجاليات الأوربية معفين تقريبًا من دفع الضرائب ومعفين تمامًا من ضرورة المشاركة فى الدفاع عن أنفسهم ، ونظرًا لحزقهم فى التجارة والإمتيازات والحصانات التى استمتعوا بها فقد أفلح كثيرون منهم فى اقتناء ثروات طائلة .

واستطاع جزء صغير فقط من الإغريق السكندريين – وقوامه كبار الموظفين وكبار الضباط والعلماء والشعراء وغيرهم من الذين احتضنهم البلاط – أن يشكلوا جزءًا من دائرة البلاط ، وكان البلاط فى بادئ الأمر بلاطًا إغريقيًا إلى حد كبير ولكن دون الفخامة الشرقية ، وكان هناك المسئولون المعتادون فى البلاط الإغريقى ، وهم كبير القناصين huntsman, وكبير الخدم فى القصور وكبير الأطباء وكبير حملة الكؤوس وهلم جرا ، ولكن لم يكن هناك فى الأيام المبكرة أى خصيان (أغوات) ولا كان هناك أى مظهر من مظاهر النظام الهرمى الفاخرة المأثورة عن القصور الشرقية .

أما الثياب فلم تكن تبدى مظاهر الترف المصطنع المعروف فى بلاط ملوك الشرق ، وافتقرت الثياب إلى فن التفصيل المتعنت أو المتعسف ، وكانت تتسم بالبساطة الإغريقية ، أما فيما يتعلق بالرجال ، فلم يكونوا يضعون أغطية مسرفة للرأس – عصائب أو عمائم – وإنما اقتصر غطاء الرأس على شريط كالذى قد يرتديه الإغريقى

المنتصر فى الألعاب الرياضية حول رأسه ويسمى (ديادیما) أو قد يتمثل فى إكليل أشبه بالرقائق الذهبية ، أما غطاء الرأس بالنسبة للملك فلم يكن تاجًا وإنما (دیادیما) diadema ، ولا تتميز ثياب الملك إلا من حيث ثرائها فى : النسيج ، واللون ، والتطريز [١] .

وكانت ثياب الحاشية تتكون من قبعة مصنوعة من اللباد لها شراشيب تعرف باسم (كوسيا Kausia) وطرحة صغيرة مستديرة تعرف باسم (شالمى (Chalmy) وحذاء برقبة طويلة محاطة بالمخمل تعرف باسم (كريبيد) Krepides – وهذا هو الثوب الذى يرتديه عادة السادة المقدونيون فى الريف ، أما الملك ، فهو عندما يرتدى (الكوسيا) فيتم ربط (الديادما) حول التاج ، والراجح أن معظم الرجال كانوا حليقى الذقون ، وهى العادة المألوفة فى العالم الإغريقى بعد الإسكندر ، ومن المحتمل أن اللهجة المقدونية كانت هى لغة البلاط ، وهناك غلمان فى الحاشية هم من أحسن العائلات الإغريقية ، وقد أصبحوا فيما بعد ضباطًا أو موظفين فى البلاط ، أما المصريون فلم يكونوا يشاهدون فى البلاط إلا إذا كانوا كهنة ؟ تميزهم رؤوسهم الحليقة وطيالسهم المصنوعة من الكتان (وبصورة عامة كان الإغريق يرتدون الأصواف) .

وليست لدينا معلومات مباشرة عن المعمار الداخلى أو الديكور فى القصر الملكى (أو فى القصور لأن الأرجح أنها كانت عدة قصور) ولكن لدينا فعلاً وصفًا وافيًا جداً لداخلية اليخت Yacht الملكى الخاص ببطليموس الرابع " فيلوباتور " ، وكان شبيهًا بقصر عائم :

عندما تبدأ بدخول السفينة من مؤخرتها فإن عينيك تصادفان صفًا من الأعمدة مفتوحًا من الأمام وتحيط به دعائم ، وفى مقابلها فى مقدمة السفينة ما يشبه الرواق المصنوع من العاج والخشب الثمين ، وبعدما تجتاز عبر الرواق يصادفك شىء أشبه ما يكون بخشبة المسرح المغطاة من أعلى ، ومرة أخرى تصادف بنفس الطريقة فى وسط السفينة صف أعمدة مفتوحًا من الخلف ومدخلاً يفضى إليه من أربعة أبواب منفرجة ، وإلى اليمين و إلى اليسار نوافذ تسمح لنسمات الهواء المنعشة بالدخول ، وتتصل بهذه الأماكن غرفة كبيرة الحجم مزدانة بأعمدة حولها ، وهى تتسع لعشرين

أريكة ، والجزء الأكبر من هذه الغرفة مصنوع من خشب الأرز المشقوق ومن خشب السبرو الماليزى ، أما الأبواب حول الغرفة ، وعددها عشرون بابًا ، فقد صنعت متجاورة باستخدام عوارض من خشب اللباد المطعم بالعاج ، وكانت جميع المسامير والصواميل ظاهرة للعيان ومصنوعة من النحاس الأحمر بعد صقله وكأنه ذهب خارج من النار، أما الأعمدة فأجسامها مصنوعة من خشب السرو ولكن تيجانها تمثل مصنعية أهل كورنثوس وقد طعمت بالعاج والذهب وكانت جميع تيجان الأعمدة مصنوعة من الذهب وحولها ما يشبه الحزام المزدان بتماثيل لحيوانات منحوتة بالعاج نحتًا جميلاً ، يزيد ارتفاعها على ذراع (أى ١٨ بوصة) ولكن مصنعيتها لم تخطف الأبصار كما هو الشأن فى جمال المواد المصنوعة منها ، ولقاعة الحفلات سقف جميل مربع مصنوع من خشب السرو مزدان بنقوش وجوهها من الذهب ، وإلى جانب قاعة الحفلات غرفة للنوم تتسع لسبع أرائك ، ويتصل بها ممر ضيق يفصل غرفة النساء عنها بما يساوى عرض الجناح ، وإلى جوار الممر قاعة للحفلات تتسع لتسع أرائك وهى تشبه إلى حد كبير القاعة الكبرى بأثاثها الفخم ، وهناك أيضًا غرفة للنوم فيها خمس أرائك .

ولكن عندما تهبط على الدرج القريب من غرفة النوم المذكورة ، تصادفك غرفة أخرى تتسع لخمس أرائك ، ولها سقف مستطيل مقنطر ، وإلى القرب منها معبد لفينوس دائرى الشكل يضم تمثالاً من الرخام لهذه الإلهة ، وفى مقابل المعبد قاعة أخرى للحفلات ، شديدة الفخامة ، مزدانة حولها بأعمدة مصنوعة من الحجر الهندى ، وبالقرب من قاعة الحفلات المذكورة هناك عدد آخر من غرف النوم ، وإذ تتجه صوب رأس المركب ، تصادف شقة أخرى مخصصة لباخوس تسع لثلاث عشرة أريكة وهى محاطة بأعمدة لها كرانيش وكلها مذهبة نزولاً إلى العتبة الرئيسية epistyle التى تحيط بالغرفة ، وفى هذه الغرفة ، وإلى اليمين منها يقع محراب كبير مصنوع من الحجر الأصلى والذهب ، ازدان بصور تمثل جميع أقارب الملك ، وهى مصنوعة من حجر الليتشيت ، وهناك قاعة احتفالات أخرى بديعة جداً تقع فوق سطح الشقة الكبرى ، وقد هيئت على شكل خيمة بحيث بقى جزء منها بدون أى سقف فعلى ، ولكن هناك عوارض مقوسة ومقنطرة تمتد بطول السقف على تباعد ، ونشرت بطولها ستائر

أرجوانية اللون ، وهناك غرفة مفتوحة تشغل نفس مساحة الغرفة التى تعلوها ، وهى تضم الرواق ذا الأعمدة وهناك سلم حلزونى يتصل بها ويفضى إلى ممر سرى وإلى قاعة احتفالات تتسع لتسع أرائك شيدت على الطراز المصرى (٢).

وفى عهد فيلادلفوس ، الذى كان يستطيب الأبهة والأساليب الكفيلة بتعظيمها ، أصبح البلاط أكثر ترفًا ، ولكنه بقى مع ذلك بلاطًا إغريقيًا فى جوهره على الرغم من أن فيلادلفوس هو الذى دشن العادة المصرية المتمثلة فى تأليه الموتى من أفراد الأسرة deifying deceased members of the dynasty والزواج من الأخت الشقيقة ، أما البطالمة المتأخرون الذين تبينوا أن هناك ضرورة متزايدة لأن يتحالفوا مع الكهنة المصريين بقصد التأثير فى السكان المصريين ، وأن هناك حاجة إلى تعظيم الهيبة المتضائلة للأسرة ، فقد مالوا ميلاً مطرداً إلى تمصير الملكية ، وهكذا باعدوا بينها وبين إغريق الإسكندرية الذين كانوا يجنحون إلى النظر إلى البطالمة باعتبارهم حماة لامتيازاتهم فى بلد أجنبى بدلا من اعتبارهم ملوك هذا البلد ، ومن المحتمل فى الأيام المبكرة أن يكون إغريق الإسكندرية قد نظروا بتسامح معجب إلى الأوضاع المختلفة للبلاط عند المصريين - كتأليه سوتر وبرنيس ، وزواج فيلادلفوس من شقيقته أرسينوى وتأليه أرسينوى بعد ذلك - واعتبروا أن هذه الأمور هى بوادر سياسية يقصد بها تعزيز الحكم الإغريقى فى مصر والحفاظ بالتالى على امتيازاتهم الخاصة ، لكنهم فيما بعد ، عندما أكدت نوازعهم السياسية نفسها ، وعندما أخذت امتيازاتهم تتقلص بفعل تزايد النفوذ المصرى ، وعندما أصبح البيت المالك مستهدفًا بصورة أكبر من الهياج الشعبى ، ظهر قدر كبير من الاستياء عبر عن نفسه فى عدة محاولات من جانب السكان الإغريق فى الإسكندرية للحفاظ على الطابع الإغريقى للملكية ، ولجعل الملك مرشحهم وخادمهم المطيع ، ولكن الرخاء المتزايد والأمن السائد دون جهد فى عهد البطالمة الثلاثة الأوائل قد شكلاً ضمانًا لما يوشك أن يكون ولاءً إغريقيًا مطلقًا.

ولم يتسبب هذا الرخاء وذلك الأمن فى إنشاء مجتمع ثقافى خارج دائرة البلاط غير أن ما صاحب ذلك من فراغ ومن التشبه بالبلاط أدى إلى إيجاد مجتمع يهتم بالفنون ويعيش بصورة عامة عيشاً رخياً ، فالنحات والممثل والموسيقى والرسام ، بدلاً من أن يكونوا مجرد تجار محترمين ،صاروا أعلامًا مشهورين ، وكان يعتقد أن حياتهم

المتواضعة مصدر من أهم مصادر الحكايات ، وأصبحت مراسمهم أماكن يغشاها الملوك، وكان السكندريون الأثرياء يستخدمون الرسامين المبرزين لرسم لوحات جدارية في بيوتهم واستطابوا الأحجار الكريمة والحلى الغائرة النقوش وأعمال الخزف الفاخرة أما الموسيقى فلم تعتبر فرعا من فروع الرياضيات أو وسيلة لتحسين الأخلاق – كما كان الاعتقاد في الأزمنة التقليدية – بل أصبحت مصدرا للإمتاع ، وأحياناً مصدراً للإثارة الجنسية ، وأصبحت الفرق الموسيقية تقليداً شائعًا ، وعلى شواطئ بحيرة مريوط أنشأ السكندريون الأثرياء فيلات با لضواحى ومزارع ريفية تتوافر فيها الحياة الريفية الساذجة .

وهناك بيوت شيدت على أعلى درجة من الفخامة كمظهر استعراض وبقصد الترفيه أيضًا ، أما البيوت الأكبر حجمًا التى شيدت فى المدن ، فقد بنيت على شكل مثلث بحيث يطل واحد من جوانبها الضيقة على الشارع رأسًا ، وفى فنائها الأوسط رواق من الأعمدة مفتوح ناحية السماء ويتم الوصول إليه من خلال ممر من باب الشارع ، أما الغرفة الرئيسية ، وتسمى " ميجاروس " **Megaros** أو غرفة الرجال وغيرها من الغرف الأصغر حجماً ، فهى تنفتح على الفناء وهو عادة أدنى مستوى من الغرف ويمكن الوصول إليه من خلال درجتين أو ثلاث درجات من سائر أنحاء البيت ، خلف غرفة ميجاروس تقع غرف النساء، وإلى الخلف منها تقع غرف الخدم ، وهناك عادة طابق ثان للبيت يتم الوصول إليه من سلم يخرج من غرف النساء ، والطابق مغطى بسقف مستو يشبه إلى حد كبير طراز البيوت العربية فى القرون الوسطى ، والبيوت مجهزة تجهيزاً جيداً لتحمل المناخ الحار ، وكثيراً ما تكون هناك نافورة فى الفناء المفتوح فى وسط البيت ، وقد شيدت فيلات الضواحى والريف طبقا لهذا الطراز ، وفضلاً عن أنها تكون عادة من طابق واحد وتحاط بحدائق ، والمتبع عادة فى الجدران الخارجية للبيوت الأكبر حجماً أن تغطى بالرخام أو بحجارة تتخذ من طلائها شكل الرخام ، ولعل الأفاريز المصنوعة من الفسيفساء **Mosaic Pavements** ظهرت للمرة الأولى فى إسكندرية " البطالمة " والبيوت الأكبر حجماً تضم عادة بعض التماثيل واللوحات الجدارية .

وقد اكتسب السكندريون الأثرياء القدرة الطيبة على تذوق الطعام والأنبذة ، وكان من عادة الأجانب أن يستوردوا أطايب الطعام من بلادهم ، ولكنهم تعلموا فيما بعد أن يستطيبوا الطعام المصرى والأنبذة الواردة من الكروم التى كانوا يزرعونها على شواطئ بحيرة مريوط ، ويحدثنا أثنايوس قائلاً إن أنبذة مريوط بيضاء وحلوة المذاق وتفيد النفس وسهلة الهضم ... ولا تتسبب أبداً فى أى تأثير سيء فى الدماغ ، كما يحدثنا بأن الأنبذة " التانيوتيك " Taneotic التى تزرع كرومها فى شرق الدلتا هى أجود منها فعلاً وتتسم باللون الأخضر الباهت وتحتوى على مادة زيتية فيها سرعان ما تذوب عند خلطها بالماء ، ويؤخذ من أقوال أثنايوس أن أفضل جميع الأنبذة المصرية يجلب من انتيلا Antylla بالقرب من الإسكندرية ، ومما يؤسف لـه أنه لم يخبرنا بشيء عنها ، وكان نبات الكرنب يعتبر واقيا من حالة السكر ، وقد اعتاد السكندريون تناول الكرنب المغلى قبل الحفلات باعتباره ترياقًا لأبخرة الكحول ، وكان هناك اعتقاد بأن الكرنب الذى ينمو بالقرب من أحد الكروم كان من أثره إضعاف النبيذ ، وقد تم تقدير الفول المصرى باعتباره " مفيداً جداً للمعدة وغنيا بالمواد المغذية " وكانت الطواويس المستأنسة تربى وتلقى تقديراً فائقًا باعتبارها " طعاماً شهياً جداً " وإن كان يقتصر تقديمها فى القصور ، ومع أن أسباب الترفيه الخاصة كانت تقتصر إلى حد ما على الأغنياء ، فإن الحياة الاجتماعية كانت تدور حول الجمنازيوم ، وهو نوع من الأندية والمراكز المدنية ، فللشباب وصغار الذكور ملهى الباليسترا ، وهناك مسارح وملاعب وهناك فوق كل ذلك كثرة من الأعياد والاحتفالات الدينية التى كانت مظهراً من مظاهر الحياة فى جميع المدن اليونانية الكبيرة ، وكانت عبادة الأوثان الإغريقية ، شأنها شأن مذهب الروم الكاثوليك أو مذهب اليونانيين الأرثوذكس ، قادرة على تلوين نسيج الحياة لمدة طويلة تتجاوز اختفاء جوهر التعاليم الأخلاقية والروحية فى أى معتقد ، وفى الإسكندرية البطلمية كما هو الشأن فى إيطاليا أو اليونان فى يومنا الحاضر كانت العطلة تعتبر فعلاً يوماً مقدساً من حيث احترامها فى الظاهر ، وكان هناك عدد كبير من المعابد المقامة لآلهة وثنية من الجنسين ، فتقام احتفالات دورية تكريما لهم جميعا ، وكان هناك معبد للإله بوزيدون ، إله البحارة ، وهو أمر يتفق بصورة خاصة مع مدينة بحرية تقع على واجهة البحر ويحدثنا ثيوكريتوس فى واحدة

من قصائده عن احتفال أقيم تكريما لأدونيس ، وكان ديونيسوس يحظى باحترام خاص فى الإسكندرية لأنه الإله الذى قيل إن البطالمة خرجوا منه بصورة تقليدية ، وكان المسرح يخضع لرعاية خاصة ، وكانت الشعائر المرتبطة به تتناسب تماماً مع مزاج الإغريق السكندريين وأذواقهم ، وكان سيرابيس الإله الحارس المصنوع الذى خلقه سوتر يعبد باعتبار ذلك أمراً طبيعيًا ، وفى كانوبوس التى يبدو أنها أصبحت بالنسبة للإسكندرية مثل بريتون فى لندن ، تم بناء معبد ثان للإله سيرابيس واحتفل بالعطلات المقدسة احتفالات صاخبة فكانت السفن المحملة بالراغبين فى الاستمتاع بالعطلة يحجون إليها من الإسكندرية وهم ثملون يسعون وراء شهوتهم ، طلاب شهوة ، مع ما يصاحب ذلك من الطعام والشراب والعزف على الناى والرقص واستعراض الخيل والطيش ، والحياة فى الإسكندرية بدون الآلهة الوثنية وحفلاتها إنما تشبه الحياة فى إنجلترا بدون عيد الميلاد وعيد القيامة وعطلات البنوك المختلفة ، وربما سخر الرواقيون والأبيقوريون وكلتاهما فلسفة كانت شائعة فى الإسكندرية البطلمية – من مادية الوثنية الشعبية وفظاظتها ، ولكن لا ريب فى أنه كما أن المثقفين الإنسانيين يبدون روحًا عدائية تجاه مثيرى الشغب فى مباريات كرة القدم وينتقدون العطلات الطويلة المدفوعة الآجر ة ، فإن لهم أيضًا أسباب استمتاعهم المادية ، وهى لا تختلف اختلافًا حقيقيًا فى نوعها عن العربدات الديونيسية أو الحفلات البحرية الكانوبية .

لقد قام فيلادلفوس ، وفى بعض ذلك ولع منه وفى بعضه الآخر سياسة ، بتشجيع الذوق السكندرى فى الفخامة وحب الاستعراض ، وقد بذل قصارى جهده فى امتداح ذلك كما قام بتشييد ملعب عائلى فى جنوب شرق المدينة ، وبدأ دورة ألعاب الإيزو الأوليمبية التى تجرى كل خمس سنين تخليداً لذكرى والديه ، ولعله قام فى مناسبة افتتاحها بإعداد خيمته العظيمة (وتسمى بومب) pompe ولدينا وصف لها يكاد ـ بكل تأكيد أن يكون حافلاً بالمبالغات وسنورد هنا بعضًا من هذا الوصف ، لان السماح بالمبالغة يقدم لنا صورة لمدى ضخامة ثراء الإسكندرية وفخامتها ومباهاتها فى ذروة عظمتها المادية ، كما يبين ما كان لديونيسيس (باخوس) من شعبية ونفوذ كبيرين فى البانثيون السكندرى .

ومن المحتمل أن الجناح الذى نهتم بوصفه قد شيد فى فناء السيرابيوم وأن الموكب كان يجتاز حى راكوتيس المصرى حيث تقع ملاعب فيلادلفوس ، ومن المسلم به أن الغرض الأساسى من هذا هو إبهار السكان المصريين فى الإسكندرية بما للأسرة من سلطة وثراء .

ولكن على قبل أن أبدأ أن أورد وصفًا للخيمة التى أعدت داخل نطاق القلعة ، كان لها من الحجم ما يتسع لوضع مائة وثلاثين أريكة على هيئة دائرة ، أما أثاثها فقد كان على النحو التالى : كانت هناك أعمدة خشبية على تباعد ، خمسة أعمدة على كل جانب بطول الخيمة يبلغ ارتفاعها خمسين ذراعًا ويبلغ عرضها أقل من ذراع ، وأعلى هذه الأعمدة تاج يتمثل فى شكل مربع جرى تثبيته بدقة بحيث يتحمل كل ثقل السقف الخاص بقاعة الحفلات ونشرت فوقها فى منطقة الوسط غلالة قرمزية ذات شراشيب بيضاء تشبه المظلة ، وعلى جانبيها عوارض مغطاة بغلالات مضلعة الشكل turreted veils بيضاء فى الوسط توضع عليها مظلات تم تطريز وسطها كله بشغل الإبرة ، وفيما يتعلق بالأعمدة ، فقد صنع أربعة منها على هيئة أشجار النخيل ، وفى وسطها ما يشبه الشماريخ thyrsi, ويوجد خارج هذه الأعمدة رواق portico يزدان بوجود بهو peristyle على ثلاثة جوانب ، أما السقف فهو مقنطر ، والمقصود من هذا المكان أن تجلس فيه جماعة المحتفلين ، أما الداخل فمحاط بستائر أرجوانية ولكن علقت فى وسط المكان جلود غريبة لحيوانات ، وهى غريبة من حيث ألوانها المزركشة ومن حيث حجمها ، أما الجزء المحيط بهذا الرواق ، وهو فى الهواء الطلق ، فقد أظلته أشجار الآس والدفنة وغيرها من الحشائش والنباتات المناسبة ، وقد غطيت الأرضية كلها بالزهور من كل نوع ، وفيما يتعلق بمصر ، وبسبب الطابع المعتدل لمناخها الذى يحيط بها ، وبسبب ولع السكان بالزراعة ، فهى تنتج وبوفرة كبيرة على مدار السنة كلها هذه النباتات التى قل أن توجد فى بلدان أخرى وفى مواسم معينة فقط ، فالورود والزنابق وغيرهما من الأنواع الكثيرة من الزهور لا تنعدم أبدا فى هذه البلاد وبسبب ذلك ، ومع أن هذا الحفل أقيم فى عز الشتاء ، فقد كان هناك معرض للزهور لا يكاد الأجانب يصدقون وجوده ، فالزهور التى لا يمكن للمرء أن يجد منها ما يكفى بسهولة لصنع عقد فى أى مدينة أخرى،كانت متوافرة بكميات كبيرة هنا بحيث تصنع عقود لكل من

الضيوف المشاركين فى الحفل ، كما تنتثر بكثافة على الأرضية كلها داخل الخيمة بحيث تبدو وكأن الخيمة بستان إلهى عظيم ، ورصت إلى جانب القوائم حول الخيمة كل التماثيل لحيوانات رخامية نحتها أبرع الفنانين يبلغ عددها مائة تمثال ·· ويطول السقف فى أعلى أجزائه نصبت تماثيل من الذهب لطائر النسر يواجه بعضها البعض الآخر ويبلغ ارتفاع كل منها خمسة عشرة ذراعًا ، وهناك أيضًا أرائك ذهبية صنعت أرجلها على هيئة أبو الهول واصطفت إلى جانبى الخيمة مائة أريكة فى كل جانب ·· وبسطت تحت هذه الأرائك سجاجيد أرجوانية مصنوعة من أفخر الأصواف مزخرفة من الجانبين ، ووضع عليها طنافس مشغولة باليد بصورة ممتازة وبسطت عليه بصورة فائقة الجمال ، وإلى جانب ذلك تمت تغطية الجزء الأوسط كله بنسيج فارسى يمشى عليها الضيوف ، وقد نقشت عليها بصناعة الإبرة رسوم تمثل الحيوانات بدقة متناهية ، ووضعت إلى جوارها مائتى حامل ثلاثية القوائم خاصة بالضيوف ، حاملان منها لكل أريكة ، وهى ذات قواعد من الفضة ووراء ذلك وبعيداً عن الأنظار توجد مائة صحفة مستوية من ا لفضة وعدد مماثل من أوعية الغسيل ·· والوزن الكامل لطاقم المائدة والأشياء الثمينة المعروضة يصل إلى عشرة آلاف طالين Talent (حوالى ٢٠٠٠ جنيه إسترلينى بعملتنا) (٣) .

كما أن لدينا وصفًا مسهبًا للموكب الذى يبدو أنه استمر طوال اليوم :

بادئ ذى بدء مر موكب الزهرة procession of Lucifer لأنه بدأ فى الوقت الذى ظهر فيه هذا النجم ابتداء ، ومر بعده الموكب الذى حمل إسمى والدى الملك ، وجاء بعده المــواكب المقدسة لجميع الآلهة على التوالى ، وأخيراً جاء موكب نجمة المساء Hesperus لأن ساعة هذا النجم تزامنت مع الوقت ، أما فى الموكب الديونيسى ، فقد مر فى بادئ الأمر " سيلينى " الذى يقوم بإبعاد الجماهير ، وقد ارتدى البعض معاطف بنفسجية ، بينما ارتدى البعض الآخر معاطف قرمزية ، وجاءت فى إثر هؤلاء مجموعة الساتير " وكان كل عشرين منهم يحتلون قسمًا من الملعب ويحملون مصابيح مطلية مصنوعة من خشب اللبلاب ، وجاءت بعدهم نماذج " الفيكتورى" imag-es of Victory لديها أجنحة ذهبية وتحمل فى أيديها مباخر طولها ست اذرع مزدانة بفروع مصنوعة من خشب اللبلاب والذهب ، وكانوا يرتدون سترات عسكرية مطرزة

بأشكال حيوانات ، كما كانوا يتحلون بقدر كبير من الحلى الذهبية ، وتلاهم مذبح ارتفاعه ست أذرع ، وهو مذبح مزدوج مغطى بالكامل بفروع مطلية من شجر اللبلاب يحمل تاجًا مصنوعًا من فروع اللبلاب ، وكلها من الذهب وتحيط به من الوسط أربطة بيضاء ، وبعد ذلك جاء غلمان يرتدون سترات عسكرية بنفسجية اللون يحملون البخور والمر والزعفران على صحاف من الذهب ، وجاء بعدهم ثلاثون من " الساتير " متوجين بأكاليل من فروع اللبلاب مصنوعة من الذهب وقد لونوا أجسامهم ، فمنهم من اتخذ اللون البنفسجى ، ومنهم من اتخذ اللون القرمزى ، واتخذ بعضهم ألوانا أخرى ، وارتدى كل من هؤلاء بدورهم تيجانا ذهبية مصنوعة من ورق شبيه بورق العنب وورق اللبلاب ، وجاء بعدهم اثنان من " السلينيين " يتدثران بمعاطف قرمزية ذات شراشيب بيضاء ، وكل واحد منهما يحمل قبعة وصولجانا مذهبا ، وكان الآخر يحمل طبلة من بينهما رجل ضخم الجثة طوله أربع اذرع يرتدى ثيابا ويحمل نفير " أمالثيا Amalthe " وكان اسمه " إينياتوس وتبعته امرأة فائقة الجمال يزيد حجمها على الحجم المعتاد ، تتحلى بكميات من الذهب وترتدى ثوبا فاخرا وتحمل فى إحدى يديها فرعا من شجرة نخيل ، وقد أطلق عليها اسم " بانيتيتيريا Panteteria " جاءت فى إثرها " الفصول الأربعة " وهى ترتدى ملابس مناسبة ويحمل كل فصل منها الفواكه المناسبة ، وتلتهم مبخرتان مصنوعتان من خشب اللبلاب المغطى بالذهب ارتفاعها ست اذرع يتوسطهما مذبح ذهبى كبير مستدير ، ثم جاءت مجموعة " الساتير " مرة أخرى حاملة أكاليل من وردة اللبلاب المصنوعة من الذهب ، وكانوا يتدثرون بطيالس بنفسجية يحمل بعضهم أباريق النبيذ الذهبية فى حين يحمل بعضهم الآخر كؤوسا وسار بعدهم الشاعر " فيليسكوس " باعتباره كاهن باخوس ومعه جميع الحرفيين المعنيين بخدمة باخوس ، وبعدهم جاء انتقال الحوامل " الدلفينية Delphinian " الثلاثية القوائم باعتبارها جوائز لمدربى الرياضيين ، منها حامل خاص بمدرب الصبية ارتفاعه تسع أقدام فى حين كان ارتفاع الحامل الثانى اثنى عشرة ذراعًا ، وهو خاص بمدرب الرجال .

وسارت بعدهم خمسة أفواج من الحمير وقد امتطاها " السيلينيون" و " الساتيريون " وكانوا جميعا يلبسون تيجانا ، بعض الحمير كان يحمل عصابة على عينيه وأمتعة من الفضة ، وجاءت فى إثرها ٢٤ مركبة تجر كل منها أربعة أفيال و ٦٠ مركبة يجر كل

منها زوج من الماعز و ١٢مركبة تجرها الظباء وسبع مركبات تجرها الخيول وخمس عشرة مركبة تجرها الجواميس وثمانى مركبات تجرها أزواج من النعام وسبع تجرها التياتل وأربع تجرها الحمير الوحشية كما كانت هناك أربع مركبات تجرها أربعة من الحمير الوحشية ،وامتطى جميع هذه الحيوانات صبية يرتدون ثياب الحوذية ويضعون قبعات عريضة تعرف باسم " بتاسى " وإلى جوارهم صبية اصغر منهم مسلحون بدروع صغيرة ورماح على شكل الشماريخ ، كما كانوا يرتدون ثياباً مطرزة بالذهب ، أما الصبية الذين قاموا بدور الحوذية فقد كانوا متوجين بأكاليل مصنوعة من أوراق الصنوبر ، وكان الصبية الأصغر منهم متوجين بأكاليل من ورق اللبلاب ، وإلى جانب ذلك كانت هناك ثلاثة أزواج من الإبل ، تسير ثلاث منها فى كل جانب تتبعها عربات تجرها البغال ، وعلى ظهرها محفة بربرية تجلس فيها نساء من الهند ومن بلدان أخرى يعشن كسبايا ، وكان من بين الإبل جملا يحمل حملا زنته ٣٠٠ مينا (وهى وحدة وزن قديمة) من البخور و ٣٠٠ مينا من المر و ٢٠٠ مينا من الزعفران والسنا والقرفة والسوسن وغيرها من التوابل وإلى جوار هؤلاء جاء أثيوبيون يحملون هدايا ، وقد حمل بعضهم ٦٠٠ ناب فيل وحمل البعض الآخر ٢٠٠٠ حزمة من الأبنوس فى حين حمل غيرهم ٦٠ كأسًا من الذهب والفضة وكميات من تراب الذهب وجاء بعد هؤلاء صيادان يحملان رماح الصيد ذات الأطراف الذهبية ، واقتديت فى الموكب ٢٤٠٠ كلب بعضها كلاب هندية وبعضها الآخر كلاب " هركانية " و " مولوسيانية " وكلاب صيد من أجناس أخرى أيضًا ، وجاء بعد ذلك ١٥٠ رجلاً يحملون أشجاراً تتدلى منها طيور وحيوانات من كل ما يخطر على البال من بلدان وأنواع ، وتم بعد ذلك حمل كمية من الأقفاص تضم ببغاءات وطواويس ودجاج حبشى وطائر تزرج وغير ذلك من الطيور الاثيوبية بأعداد هائلة ... وبعد هذه الحيوانات جاء نموذج لباخوس وهو يطير متجها إلى مذبح " ربا " Rhea عندما كانت تلاحقه " جونو " حاملة التاج الذهبى ويقف إلى جواره " بريابوس " Priapus متوجًا بتاج من ورق اللبلاب مصنوع من الذهب ، كما أن تمثال " جونو "Juno كان يضع بدوره تاجًا من الذهب على رأسها ، وكانت هناك نماذج للإسكندر وبطليموس متوجة بأكاليل من ورق اللبلاب مصنوعة من الذهب ، أما تمثال الفضيلة " فيرتيو " Virtue الذى انتصب بجوار تمثال بطليموس فكان يحمل تاجاً

من ورق الزيتـون ، وكـان مع هؤلاء " بربابوس " وعلى رأسـه تاج من ورق اللبـلاب مصنوع من الذهب ، وبعد هؤلاء جميعا جاء موكب من الجنود ، من كل من الفرسان والمشـاة ، وكلهم مسلحون ويتصرفون بصـورة ممتازة ، وكان عدد المشـاة يصل إلى ٥٧٦٠٠ وعدد الفرسان يصل إلى ٢٣٢٠٠ وسار كل هؤلاء فى الموكب متدثرين بالثياب الملائمة وحاملين أسلحتهم المناسبة ، أما ما صرف من أموال على هذه المناسبة فقد بلغ ٢٢٢٩ تالنت و ٥٠ مينا (أى نحو ٥ ملايين جنيه استرلينى بعملتنا) (٤) والأرجح أن هذا الموكب نظم فى عام ٢٧٨ قبل قليل من زواج فيلادلفوس بشقيقته أرسينوى ، وهى التى كانت تعترض على الإسراف العلنى .

وقد يكون من الخطأ أن تعزى أسباب فلسفية إلى حب الاستعراض وإلى التأكيد على الماديات وطلب المتعة والمجون - وبعبارة عصرية " الإنفلات من القوانين أو التسيب " permissiveness وهى الخصـائص التى طبعت الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية وسواها من المدن الإغريقية ، ويعزى الجزء الأول منها إلى الحصول على الثروة بصورة مفاجئة وإلى الفراغ والامتيازات - أى الحصول على الوسائل والفرص ، ولكن كان هناك عنصر فلسفى متغلغل الجذور فى موقـف الإغريـق من الحـياة ، ولقـد قـيل إن " الدموع الوحيدة التى امتزجت بالمياه الإغريقية لم تكن بسبب خطايا اقترفت ، بل بسبب ما ضاع من متع " وأن تحقيق الوئام التام للطبيعة المخلوقة يحتاج إلى عنـصر " ديونيـسى " يصـاحب العنصر " الأبولونى (٥) ، كانت عناية الإغريق منصرفة إلى الإنسـان بكامله ، المادى منه والروحى ، ومع أن أفـلاطون وزينو وأبيـقـور ومـعظم الفلاسفة أعلوا العقل على الجسد ، فإن تعاليمهم خلت من أى اتجاه خفى يدعو إلى الطهرية ، ولم يكن هناك تعـارض بين المقدس والدنيـوى ، وبين ممارسـة الروحـيـات وأسباب الطرب والمتع المادية ، ومؤكد انه ينبغى أن يكون هناك اعتدال فى هذه الأمور جميعًا ، فلا يصح السماح للتأمل الفلسفى أو الاستمتاع الحسى بأن يتدخل فى واجبات المرء المدنية والعسكرية ، لقد كان سقراط جنديًا ممتازًا ، ولكن إذا كانت الآلهة قد تعاقب على التجاوز ، فليس فى التفكير الإغريقى ما يشبه الشعور بالخطيئة ، بل هناك ما يشير إلى أن الانغماس الحسى إنما يوفر عنصر توازن ضرورى فى تهيئة الإنسان تمامًا للحياة ، وإنه عنصر إثراء شأنه شأن ثمرات التأمل الفلسفى ، والآلهة

قد تعاقب واحداً من الإثنين أوكليهما ، ولكن هذا جزء من وظيفة المخاطرة بان يحيا المرء حياة كاملة .

وللحسية عند الإغريق معنى أوسع مما هو شائع اليوم ، فهى تعنى " كل ما فى العالم من شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة " وهى الأمور التى أدانها القديس يوحنا ، فالحسية تشمل الاستمتاع بالرؤية فى المناظر الجميلة والنساء والصبية ذوى الجمال ، والاستمتاع باللمس عند ملامسة الأشياء الجميلة والأجساد الشابة ، والاستمتاع المادى بحركة (الرقص) الرشيقة وبالتماثيل والمبانى الجميلة وببلاغة الكلام على المسرح أو المنبر وبالموسيقى وبإنشاء الشعر وبالطعام والنبيذ وبالبخور ومناظر الزهور ، وببريق الحلى والرخام ، وباللمعان الصادر عن الحرير أو الذهب ، والحسية تشمل المجموعة الكاملة للإبداع وللاستمتاع البشرى بكل ما يدخل ضمن المشتهيات المادية للإنسان وإذا كانت هذه الأمور لا تدوم إلى الأبد فإن ذلك ليس سببًا لاحتقارها ، بل للاستمتاع بها مادامت موجودة ، وإذا كان الانغماس فى هذه الأمور يسفر أحيانا عن جزاء ، فإن هذا يؤكد ببساطة أن هناك وجوداً شاملاً لقوة عليا تتجسد أحيانًا فى آلهة الأوليمب وتتخذ أحيانًا قالبًا أثيريًا فى عالم الفلاسفة ، وأن العودة مؤخراً إلى روحانية الأفلاطونية الجديدة **neo-platonism** وأشباهها إنما تعزى لا إلى التشبع أو الشعور بالخطيئة بل تعزى إلى أن المجموعة السابقة من المتع الحسية لم تعد متوافرة بصورة متزايدة وذلك بسبب انحسار الرخاء والامتيازات المحدودة ، وربما بسبب تناقص الفحولة مما أدى إلى إحساس شاق بالاستمتاع ، وفى مقابل الروحية الأخيرة ، نشأ إحساس بالاستمتاع الحيوانى بسباق الخيل ومسابقات المصارعين واستعراض الحيوانات المتوحشة التى حلت محل الرياضيين والموسيقى والدراما ، وقد صدر الجزاء الحقيقى للحسية الإغريقية لا عن غيرة الآلهة بل عن التطور فى التناقض بين المادى والروحى ، وعن انقسام الإنسان الكامل إلى كيانين متعارضين - هما الراهب والحيوان .

وإلى جانب المعارف المستمدة من المتحف والمكتبة ، كان للحياة السكندرية جانب أكثر جدية ، فقد كان القرن الرابع عصراً للفلاسفة الإغريق وكانت المدارس الأربعة العظيمة للأفلاطونيين والرواقيين والأبيقوريين مزدهرة فى أثينة ، وكانت كثرة من

المثقفين التى تدفقت على الإسكندرية فى عهدى سوتر وفيلادلفوس قد درست فى هذه المدرسة أو تلك ، وبعد وفاة سوتر ، لم يجد الفلاسفة تشجيعاً من البلاط ، ربما بسبب ميلهم إلى المجادلة وإحجامهم عن كيل المديح ، وترتب على هذا أن دراسة الفلسفة وتعليمها لم يعودا يزدهران فى المتحف ، على الرغم من أن الكشوفات العلمية التى تمت فيه كانت نتيجة للتوجيه والإيحاء من جانب الأساليب الأرسطية بدرجة كبيرة ، ولكن الفلسفة استمرت خارج المتحف تلقى اهتماماً جدياً من جانب الإغريق المتعلمين ذوى العقول الجادة .

وكانت فلسفات الرواقيين والأبيقوريين هى أكثر الفلسفات تأثيراً ، وإن الصور العصرية التى توحى بها هذه العبارات قليلة الشبه بحقيقة التعاليم الأصلية للرواقيين والأبيقوريين .

فالمتعلمون لم يعودوا يؤمنون بالآلهة الوثنية ، ولكنهم كانوا يمتدحونها من طرف اللسان كجزء من الأوضاع الشعائرية والثقافية للحياة ، فقد اعتنقوا العقيدة التقليدية ، وهى أن الإنسان هو معيار كل شىء ، وأن لديه اعتقاداً بأن العالم المادى أبدى وإنه محكوم بقوانين ثابتة طبقًا لنظرية ديمقريطس وهراقليطس فى أفسس ، وهما فيلسوفان إغريقيان مبكران ، أما الرواقيون والأبيقوريون فقد كانوا - على النقيض من الأفلاطونيين - عمليين (برجماتيين) أساسًا من حيث أنهم كانوا يهدفون لا إلى اكتشاف الحقيقة بل إلى الحصول على احتياجاتهم ، كما أنهم كانوا متشائمين أساسًا ، من حيث أنهم اعتبروا الإنسان محصوراً داخل القدرية الآلية للعالم كما تراءت لديمقريطس وهراقليطس ، وكان الهدف الفلسفى داخل هذه القدرية اتباع مسلك يفضى إلى السعادة ، وقد شكك كل من الرواقيين والأبيقوريين فى العاطفة والشعور لأنهما تجلبان التعاسة الناشئة عن الرغبة التى لم يتم تلبيتها ، وكانوا دعاة لقمع الذات من حيث أنهم دعوا إلى الامتناع عن المشاركة فى الشئون العامة ، وكانوا متأثرين بروح العصر ، من حيث أن العالم قد أصبح فجأة أكثر حجماً وأكثر تعقيداً فأصبح كل شىء فيه يبدو وكأنه فى حالة تقلب ، أما الرواقيون ، فقد سعوا إلى التماس سبيل يجتازون به البلبلة ، فى حين أن الأبيقوريين التمسوا سبيلاً للهرب منها ، واعتقد الأبيقوريين أن القدر اليسير من الحرية المتاحة لهم داخل قدرية العالم ينبغى استغلاله

فى اجتناب الخرافة وفى توفير المتع الفكرية لأن العقل يتفوق على الجسد والمتع الفكرية أسمى من المتع الحسية ، والذى ينبغى السعى إليه هو المتعة الإيجابية لا العملية – أى التحرر من العاطفة والرغبة والحاجة والتعالى فوق الآلام ، فهذه هى الفضائل العظمى ، وتعتبر لفظة "أتاكسيا" "ataxia" هى كلمة السر عندهم ، وهى تعنى التحرر من القلق.

كان الرواقيون يتمتعون بقوة البنية ، وقاموا – فى الأوقات العصيبة التى كانت تنتظر المثقفين – بوضع الأسس الفلسفية لمذهب التوفيق eclecticism الذى عنه نشأت الأفلاطونية الجديدة وجميع الأشكال الغريبة من الفلسفات وعلم اللاهوت والسحر التى اقترن بها صراع الوثنية مع الموت ، وقد اعتقد هراقليطس بأن كل شىء فى حالة تقلب ، وأنه لا يوجد تقدم وأن العالم بعد كل أيون – أى دهر أبدى – أو عصر عالمى Universal Age يعاد استيعابه داخل النار الإلهية العنصرية elemental Divine Fire التى تمهد لمجىء أيون – أى دهر أبدى جديد وإعادة نفس العملية فليس هناك إرادة حرة كما أن كل شىء مقدر سلفًا أما الصعوبة الأخلاقية فتتمثل فى أنه فى غياب الإرادة الحرة لا وجود للأخلاقيات ، فكان من الضرورى إذن – لأسباب عملية ذرائعية – حجب غياب الإرادة الحرة عن الشخص العادى ، ومن هنا قامت ضرورة وجود نوع من الأديان الشعبية بحوافزها وعقوباتها ، ومن هنا أيضًا صواب قيام نظام اجتماعى يشجع الناس على عدم إساءة التصرف – ولم يكن الرواقيون فى هذا الصدد ثابتين على مبدأ ، فقد اعتقدوا من الناحية النظرية بوجود دولة عالمية كل الناس فيها سواسية ، أما من الناحية العملية فلقد كانوا على استعداد لتكييف أنفسهم إزاء الظروف القائمة بأفضل ما فى استطاعتهم والشىء المهم هو التجرد العقلى ، فالعقل جزء من النار الإلهية العنصرية ، والجسد فيها هو الأداة الزمنية ، والرجل الفاضل هو الذى يستطيع بترويض عقله أن يحقق السعادة أيًا كانت حالته المادية ، " فالعبد " الذى تتملكه الحيوانية فى جسده ، يستطيع مع ذلك أن يسلك بالحكمة ، ويصبح مساويًا لجميع الناس [٦].

وفى الفلسفة الرواقية أن التناقض بين الإرادة الحرة والقدرية قد تسامت عليها فكرة الفضيلة كما تستمد من الحكمة ، والسبيل إلى تحقيق السعادة لا يتمثل فى

الهرب كما دعا إلى ذلك الأبيقوريون ، بل فى الرضا ، وهو رضا ليس سلبيًا بل إنه رضا عملى مستمد من السيطرة على الذات وهو ما يتحقق بممارسة الفضيلة . فالفضيلة هى الخير الأعظم والجائزة الكبرى، والرجل المثالى autarkas هو المرشد لنفسه ومهما فعل العالم معه فانه يستطيع أن يعود إلى روحه ليجد السكينة والسلام .

ومن الخطأ اعتبار الرواقيين طهوريين puritans لا يقرون المناخ الاجتماعى الشهوانى للإغريقية ويعترضون عليه ، بل الأحرى أن الفلسفة الرواقية كانت هى الوجه الآخر لهذه الشهوانية ، فإذا كان الإنسان معيارًا لكل شىء ، وكان أيضًا سجينًا مقيدًا فى قفص من القدرية الآلية ، فمن المتعين عليه - من ناحية - أن يطلى قفصه بالذهب ويجمله ، ومن ناحية أخرى ، يضفى على حركاته ، وهى المحدودة بحكم الضرورة داخل القفص قدراً من الرقة والهيبة والتجانس .

وعلى مستوى فكرى أدنى ، فإن العقائد التى تدين بالخرافة وهى شعائر أورفيوس وايلوسيس الواردة من بلاد الإغريق والتى كان يمارسها الدعاة فى جميع المدن الكبيرة فى العالم الهللينستى ، وقد حاولت هذه الأديان المؤمنة بالخرافة أن تتصدى لنفس المشكلة التى تواجه الفلاسفة - ألا وهى الوصول إلى سبيل لتحقيق السعادة فى عالم مضطرب متغير ، وفى خلفيته عالم مادى قدرى ، وقد دعا الأبيقوريون إلى الهرب من خلال فكرة الانعزال cultivation of detachment, فى حين دعا الرواقيون إلى القبول من خلال ممارسة الفضيلة ، هذه المفاهيم الفكرية كانت صعبة عسيرة الفهم ، أو كانت فى جميع الأحوال أبعد ما يكون عن التطبيق العملى من جانب الشخص العادى ، والأديان الآخذة بالخرافة كانت تدعوا أساسًا إلى أن الآلهة الوثنيين يعبرون تعبيراً واضحًا عن الحقيقة التى يقتصر إدراكها على القلة ، وهى الحقيقة التى تتحكم فى تصاريف القدر والتى يستطيع المرء الاتحاد معها ، وبهذا يتحرر من عجلة القدر بفضل عملية تطهر ومباداة .

وقد تأثرت أديان الخرافة الإغريقية هذه تأثرًا عميقًا بالأشكال المتباينة للسحر الشرقى - من تنجيم وسحر سرى وسحر أسود وتنويم مغناطيسى وتعاطى العقاقير -

وهو ما كان يوجد فى العالم الإغريقى وانتشر فى مصر وبلاد العرب والعراق ، واتجه إلى الهند ، وبحلول أواسط القرن الثانى قبل الميلاد كانت عقول الناس فى جميع أنحاء البحر المتوسط وفى الإسكندرية وحتى روما تحدوها الآمال وترهبها المخاوف التى تثير طائفة شتى من الخرافات المعقدة ، فالتنجيم اظهر خضوع الإنسان لسيطرة القدر ، وربما تحرره منه ، وقامت الأديان الآخذة بالخرافات والتى شملت الآن كل البانثيون الأوليمبى تقريبًا وكذلك عددًا كبيرًا آخر من الآلهة التى كان على وشك أن يتحرر منها ، وظهر السحر الأسود ليزيد من قوة الإنسان متفوقًا على غيره من الناس وكذلك لزيادة قوة الآخرين متفوقين على الذات ، وكان هرب الطيور وأحشاء حيوانات التضحية حافلة بدلالات لا نهاية لها من حيث الأمل واليأس ، وتنامى شعور الإنسان بأن ليس له حيلة غير الاعتقاد بقدرته على إعادة استرداد السيطرة من خلال الاشتراك فى أسرار الخرافات التى لا تعيها إلا القلة وقد تنامى شعور الإنسان بالخطر مع شعوره بالقدرة على شراء الأمن من خلال الأضاحى أو كتابة التعاويذ .

أما العمال والعبيد المصريون فى الإسكندرية فكانوا بمنأى عن التمتع بلذة المشاعر والتعزى بالفلسفة ولعلهم كانوا على وعى ضئيل فقط بما تثيره الخرافات من آمال ومخاوف ، ولأن العمالة بأجر كانت رخيصة إلى هذا الحد ، فقد كان الاحتفاظ بالعبيد أمرًا يكاد يكون مربحًا ، ولعله لم يكن هناك كثير منهم ، وأن حركة الاندماج البطيئة **assimilation** وفيها أصبح المصريون المتعلمون وبعض اليهود إلى حد ما إغريقًا بصورة جزئية ، وهى الحركة التى بسببها فقد الإغريق بعضًا من تفردهم ، ولكنها لم تؤثر أبدًا فى جماهير العمال المصريين ، وإذ كان كثيرون منهم يعيشون فى حى راكوتيس أو فى جزيرة فاروس حيث يعملون فى الميناء فى أحواض السفن والمستودعات والأرصفة ، وكان عليهم فيما بعد ، وليس بعد وقت طويل ، أن يسمعوا صوتهم فى المظاهرات العارمة وأن يكسبوا الإسكندرية اسمها باعتبارها أكثر المدن عصيانًا **the most unruly city** فى *البحر المتوسط* ، ولكنهم كانوا فى أثناء القرن الثانى قبل الميلاد خدامًا مطيعين - على نحو ما - لسادتهم الإغريق الذين كونوا أنفسهم واكتسبوا الرخاء ، وكانوا هم يلتقطون الفتات الساقط من موائد الأغنياء ، ويشتغلون ببناء السفن وإنزالها فى البحر ، ويحملون بالات البضائع ، ويشدون

الحجارة الجيرية والرخام فى مواقع البناء ، ويضخون المياه ، ويناولون كتل البناء لوضعها فى أماكنها ، ويشعلون نار الفاروس ، ويقومون بجميع الأعمال المتعددة والقاصمة للظهر back-breaking jobs المفروضة على طبقة البروليتاريا فى أكثر مدن العالم القديم ثراء .

Notes

(1) M, I, Rostovtsov. Social and Economic History of the Hellenisitic World.

(2) Athenaeus. The Deipnosophists, Book V, Chapters 38 and 39

(3) ibid. Book V. Chapters 25 - 26 .

(4) ibid. Book V. Chapters 27 - 35 .

(5) Oswald Mosley. My Life,

(6) Tarn & Griffith. op. cit.

٧- غاية الحب

كاد الزواج فى المجتمع الإغريقى المعقد أن يكون مؤسسة نفعية تماما ، فالمتزوجون من الرجال والنساء عاشوا حياة اجتماعية منفصلة انفصالاً تاماً ، وكان السحاق أمراً شائعًا بين النساء المتزوجات المحترمات ، كما كان الشذوذ الجنسى شائعًا بين الرجال ، ولعل هذه الانحرافات الجنسية وما إليها كانت ، وسيلة من وسائل تحديد النسل فى مجتمع كانت زيادة السكان تهدده وكان المواليد الجدد غير المرغوب فيهم يقتلون بتعريضهم عمدا لأسباب موتهم .

والأرجح على ما يبدو أن موقف الإغريق فى الإسكندرية من الزواج كان متأثراً بالمثال الذى يضربه البيت المالك ، حيث كان الذكور من أفراده يطلقون زوجاتهم بحرية وبكثرة ، وقد تبنى الإغريق لأسباب أسرية - عادة المصريين فى الزواج من شقيقاتهم ، وكانوا شأنهم شأن غيرهم من الملوك فى جميع العصور ، يحتفظون علناً بعدد كبير من المحظيات ، وقد تقلد بعضهم مناصب رفيعة فى المجتمع ، ولكن الملكات البطلميات عوضن افتقارهن إلى النشاط فى الفراش الملكى بتأثيرهن على التاج وعلى غرفة المستشاريين وحتى فى أرض المعركة إذ كثيراً ما شاركن فيها ، بل لقد اغتصبن السلطة أحيانًا من أزواجهن ، والأرجح أنهن استمتعن باستقلال مماثل فى حياتهن الخاصة ، وفى جميع الأحوال يبدو أنهن ابتدعن العرف المتبع من جانب سيدات الإسكندرية المستبعدات من المتع الاجتماعية لأزواجهن ، فاستحدثن حياة اجتماعية نشطة مستقلة خاصة بهن ، ومن الواضح أن الزوجتين اللتين صورهما ثيوكراتيوس فى " جورجياس " لم تعتبرا نفسيهما أكثر تبعية لزوجيهما مما يجرى فى أى طبقة متوسطة عليا ، فكانتا تلعبان البريدج مثل أشيك السيدات فى لندن أو نيويورك اليوم ، وبينما كان أزواجهما مشغولين بالأعمال أو المتع ، كانتا تمتعان نفسيهما بالاحتفالات الدينية ، تاركتين الأطفال فى رعاية المستأجرين من الخدم المصريين ، ويبدو أن الاحتفالات الدينية كانت هى السلوى الخاصة للنساء المتزوجات، ولاسيما احتفالات

تمجيد أدونيس المعروفة باسم ديونسيا ، وكانت المواكب فيها تحمل نماذج ضخمة للعضو الذكرى ، وكثيراً ما كان يتلو هذه الديونيسيا عربدات سحاقية شبه سرية تعرف باسم أفروديسيا Aphrodisia ، وفى غيبة الأزواج أو العشاق الذكور، كانت الشهوات التى يثيرها أدونيس يتم إشباعها دون المخاطرة بعواقب وخيمة .

ويقال إن صولون هو الذى أدخل البغاء فى أثينة باعتبار ذلك وسيلة لمنع الشباب من الاقدام على مفاسد خطيرة مثل إغواء الزوجات المهملات من جانب المواطنين المحترمين ، وفى العصورالهللينستية، كانت هناك ثلاث طبقات معترف بها من البغاء فى المدن الكبرى ، فهناك فى اسفل السلم طبقة " دكتريادس" dekteriades وهن فتيات الاستعراض ، وكن يقمن فى بيوت الدعارة التى تقع فى موانى كالإسكندرية مثلاً ، بالقرب من واجهة البحر ويتردد عليها البحارة بكثرة ، وكانت بيوت الدعارة خاضعة للإشراف من جانب الدولة ، ويبدو أنها كانت تفرض ضرائب عليها ، وكانت تتميز بوجود صورة مرسومة أو منحوتة تمثل عضو الذكر المنتصب خارج الأبواب ، وكانت هذه البيوت محمية بمعنى أنه كان يستحيل على والد أن يطارد ابنه أو يقوم كونوستابل باعتقال مجرم داخل هذه البيوت ، وبهذا تكون هذه البيوت قد شاركت المعابد فى استمتاعها بالحصانة ولم يكن يسمح " للدكترياديس" بالخروج من بيوت الدعارة إلا فى الليالى التماساً للهواء النقى أو بحثاً عن زبائن ، وذلك فى الوقت الذى لا يحتمل أن تكون فيه السيدات المحترمات خارج بيوتهن ، ثم انه كان عليهن أن يرتدين باروكة شقراء وملابس مميزة .

وعلى مرتبة أعلى فى السلم الاجتماعى - أى أعلى من الدكترياديس - تجىء طبقة "أولترايدس " auletrides أو عازفات الناى والراقصات ، وهؤلاء يستخدمن للعزف أو الرقص فى الاحتفالات العامة أو فى الحفلات الخاصة ، وكن يذهبن إلى الحفلات الخاصة بعد العشاء وبعد أن يكون الضيوف - بتعبير اثينايوس - " قد أسعدهم جداً أن يتخلوا عن رزانتهم " وكان هؤلاء الفتيات يجئن عاريات أو متدثرات بثوب واحد " ديافانوس " يعرف باسم " حمالة صدر كوان " وكن يعزفن على آلة تشبه القانون أو الناى ، أو يضربن الدفوف ، أو يغنين أو يقمن ببعض العاب الملاهى الليلية مثل قذف الكرات فى الجو والتقاطها وأعمال الشعوذة أو اللعب بالسيوف ، " وبمجرد أن يدور

النبيذ على الحاضرين ، والموسيقى تعزف بألوانها المختلفة ، يفقد الرجال السيطرة على أنفسهم ويأخذون فى القفز على الأرائك ويصرخون كما لو كانوا يشاهدون منظراً فائق الإعجاب [١] ، ومتى انتهى العزف وقنع الرجال بالإثارة فإن مصاحبة الفتيات لقضاء بقية السهرة كانت تعرض فى المزاد، وكان يستعان بفتيات " أولترايدس" أحيانا لإحياء بعض الحفلات النسائية حيث كان الترفيه يختلف نوعاً ما فى هذه المناسبات .

لقد قضينا وقتًا رائعًا فى الغناء والهزل والشرب حتى صياح الديك ، وكانت العطور وأكاليل الزهور والخمور وفيرة ، واحتفلنا فى ظلال شجر الرند ، وفى كثير من الأحيان كنا نثمل من الخمور قبل ذلك ، ولكن قلمًا استمتعنا بها إلى هذا الحد ، وأفضل شىء هو المنافسة بين " ترياليس " و" ميرهينا " لإثبات أيتهما تملك أكبر عجيزة ، [٢] وقد أصبحت قلة من فتيات " أولترايدس" محظيات للملوك ، إذ كانت " منيسى" و" بوتين" - وهما محظيتان لفيلادلفوس - من فتيات " أواترليدس " فى بادىء الأمر ، أما " لاميا" وهى أصلا عازفة ناى فى الإسكندرية ، فقد أصبحت المحظية والصديقة المقربة لديمتريوس بوليوركرتيس ، وهو الذى يقال انه فرض غرامة على مدينة أثينة قدرها ٢٥٠ تالنت من الفضة لأنها سخرت منها وتقاضى منها هذه المبلغ .

وتتمثل أعلى طبقة من البغايا فى فتيات " هتيرا" Hetaira أو الصديقة ، ولعله ليس من اللياقة اعتبارهن بغايًا إطلاقًا ، ففتيات "هتيرا " هن بالأحرى فتيات يحتجزهن أصدقاؤهن من الرجال ، وهن يتولين أمورهم مثلما ما يلبين احتياجاتهم الجنسية ، ونظراً لأن معظم الأزواج والزوجات من الإغريق المتحضرين كانوا يعيشون حياة اجتماعية منفصلة ، فإن فتيات "هتيرا" كن يقمن بدور مضيفات الإسكندرية ، ففى حين بقيت العذارى ومدبرات المنازل على غموض من حيث تدبير أمورهن الخاصة ، كانت فتيات هتيرا "يهيمن على المسارح وعلى الأسواق" [٣].

واشتهر بعض من فتيات "هتيرا" بذكائهن ، واشتهر البعض بجمالهن ، واشتهر البعض الآخر بالأمرين ، ولكن الجمال بلا ذكاء كان أعيب من الذكاء بلا جمال ، ولم

يكن الأغنياء والسكندريون المتحضرون رجال أعمال مجتهدين ، فكان الذكاء يطلب هو والاسترخاء البدنى ، وكان ينتظر من فتيات" هتيرا " توفير الأمرين .

وقد نظمت قصائد فى فتيات " هتيرا " الشهيرات وأقيمت لهن التماثيل ودار كثير من الحكايات الملفقة والوفيرة حول الحب الرومانسى الذى أسعد الحياة الاجتماعية فى الإسكندرية البطلمية حولهن وحول أكثر الشبان جاذبية الذين كانوا يترددون على " الباليسترا "، ولم يكن هناك اعتزاز رومانسى بالعذرية ، كما كان هناك احترام أقل للغيرة الجنسية التقليدية الشائعة ، وعلى الرغم من طول التواصل بين فتيات " هتيرا" وبين الرجال الموهوبين وذوى المناصب - وهو أمر لم يكن خافيًا - فإن الإخلاص المطلق سواء من جانب الرجل أو من جانب المرأة قل أن يثير تساؤلاً كبيراً ، ولم يكن هناك تساؤل كبير حول إخفاء خيانة أى من الطرفين ، وقد وبخت " مانيا " وهى من فتيات " هتيرا " المشهورات من قبل عشيقها " ليونتيسكوس " - وهو رياضى - لأنها مارست الحب مع رياضى آخر هو" أنتينور" فى نفس الليلة التى مارست فيها الحب معه ، وقد ردت عليه دون حياء قائلة " يا عزيزى لا بأس إنما أردت أن أشعر وأن أثبت مدى ما عليه هذان الرياضيان من قوة فى ليلة واحدة ، وهما اللذان انتصرا فى الألعاب الأوليمبية (٤) وفى الوقت الذى يكون فيه الرجل متورطًا فى علاقة عاطفية مع شاب من " الباليسترا " فإن صاحبته من فتيات " هتيرا"قد تكون مستمتعة بعربدة سحاقية مع واحدة من فتيات " أولترايدس" وكانت كثيرات منهن يتخذن عشيقًا من أى من الجنسين دون تفرقة ، صحيح إن فتيات "هيترا" كن يضاجعن الكثيرين ، ولكنهن لم يكن تحت تصرف أى شخص ، فقد كن ، على النقيض من فتيات " ديكترياديس " وإلى حد ما فتيات " أولتريدس" فتيات غير شائعات ، بمعنى إمكان الحصول عليهن مقابل أجر محدود أو فى مزاد ، فقد احتفظن لأنفسهن بالحق فى الانتقاء ، وكن مستعدات تمامًا لاتخاذ خطوة المبادأة متى اجتذبهن رجل ، وفى بعض الأحيان يتعايشن فى المنزل مع رجل من اختيارهن ، وكثيراً ما كن يحتفظن بأماكن خاصة بهن حيث يقمن بالترفيه عن عشاقهن وأصدقائهن ، وبعض من هذه الأماكن ضم الصالونات الأدبية والفنية للإسكندرية ، وهناك فتاة جميلة من فتيات " هتيرا" جرى تكريمها لأنها عملت " موديلاً " لنحات مشهور أو بارع ، وفى مقابل الصفقة

صارت عشيقة له فى كثير من الأوقات كما كرم المثالون بدورهم لأنهم اختاروا فتاة " هتيرا" للوقوف أمامهم كموديل .

وكانت الألواح أو شواهد القبور خارج المدينة تمثل صندوق البريد الأثير للطبقة الدنيا من فتيات " هتيرا" فإذا كانت الفتاة غير مرتبطة ، قامت باستخدام قلم الحواجب فى كتابة اسمها على شاهد قبر مع اسم شخص تميل إليه وترغب فى استدراجه ، فيقوم الرجل الذى يهوى فتاة " هتيرا" بالرد على عرضها بنفس الأسلوب ويضيف إلى ذلك اقتراحاً بالتنازل عن ممتلكات وعرضاً نقدياً ، ولكن هذا الضرب من ضروب اللقاء كان يحدث فى أدنى مراتب الحب إن صح القول - أما الطبقة الأفضل من فتيات "هتيرا" فكن يجتمعن بعشاقهن فى المناسبات الاجتماعية التى توجه الدعوة إليهن فيها أو التى كن يدعين فيها الآخرين ، ولم تكن أمثال هذه المناسبات الاجتماعية مفقودة فى مجتمع صغير نسبياً وعلى قدر من الغنى والفراغ ، وكانت فتيات " هتيرا " معروفات فى هذا المجتمع ومطلوبات شأنهن شأن نجمات السينما أو المسرح أو التلفزيون أو عارضات الأزياء ، ولم تكن هناك منافسة من جانب الزوجات أو من جانب الفتيات المحترمات الباحثات عن أزواج، فالمحترمات لزمن البيت إلى أن يعثرن على الأزواج المناسبين ، أما الزوجات فلا يبقين فى البيت ولديهن أسباب استمتاعهن المنفصلة .

ومن غرائب أسلوب الحياة أن حالات الحمل غير المرغوب فيه كانت قلة ظاهرة ، فإذا حدث هذا الحمل غير المرغوب فيه ، فالأسلوب الشائع هو قتل الطفل والإجهاض (بواسطة عقاقير) ولم يكن أيهما يعتبره جريمة ، ولكن هناك قليلاً من الشك فى أن مجتمعاً متحضراً مقبلاً على المتع الجنسية دون كابح ، ولديه قدر من الإلمام بخصائص الحشائش والعقاقير ... لابد أنه كان قادراً على ابتكار وسائل وأساليب لمنع الحمل باعتبار أن ذلك هو الخط الأول للدفاع ضد الحمل غير المرغوب فيه .

Notes

(1) Athenaeus. op. cit. Book X III chapter 68 .

(2) Schreiber .The oldest profession

(3) Ibid .

(4) Athenaeus. op. cit. Book XIII. Chapter 42 .

٨ - ظلال روما

تقلد بطليموس الرابع فيلوباتور العرش بعد وفاة أبيه فى عام ٢٢١ وكان عمره حوالى ٢٣ عامًا ، وقبله بعامين ، ورث أنتيخوس الثالث عرش سلوقيًا وأصبح فليب الخامس بعد ذلك بعام ملكا لمقدونيا .

كان فيلوباتور رجلاً ضعيفًا محبًا للمتع ، وكان يفخر بصورة خاصة بتحدره المزعوم من الإله ديونيسوس ، ووقعت مقاليد الدولة فى يد وزير مقتدر ، وإن يكن بلا ضمير ، هو سوسيبوس **Sosibius** الذى شجع الملك على فحشه ، أما الملكة الأم برنيس التى حاولت التصدى لنفوذ سوسيبوس فقد قتلت بناء على أوامره ، كما قتل ليسيماخوس عم الملك ، وحاول كليومنز **Cleomenes** ، الحاكم السابق لإسبرطة وحليف مصر – وهو الذى هرب إلى الإسكندرية بعد هزيمته على يد دوسون **DOSON** والرابطة الأخية فى عام ٢٢٢ – أن يحرض على ثورة على سوسيبوس والملك الخامل **faineant,** ولكن محاولته أخفقت وقام هو والمتآمرون معه بالانتحار .

وقد رأى أنتيخوس الثالث أن الاضطرابات فى مصر تعد فرصة سانحة لاسترداد سورية الواطئة والمدن السورية الساحلية ، فزحف جنوباً ولم يصادف إلا مقاومة قليلة من جانب الحاميات المصرية ، ورغبة فى التصدى لهذا الخطر تم حشد جيش فى مصر يضم للمرة الأولى منذ هزيمة المقدونيين ، جنوداً مصريين يزحفون جنباً إلى جنب مع الكتيبة المقدونية والمرتزقة الإغريق واستغلالاً للتأخير الناشىء عن انشغال أنتيخوس فى جبهات قتال أخرى فى بلاد فارس وآسيا الوسطى ، استطاع سوسيبوس أن يستكمل استعداداته ، وعندما حدث فى آخر الأمر أن بدأ أنتيخوس التحرك عبر فلسطين صوب مصر ، تحرك الجيش البطلمى بمصاحبة فيلوباتور شخصياً وشقيقته الصغرى أرسينوى فى الاتجاه الشرقى من بلوزيوم (واسمها العربى الفرما) عبر سيناء وهناك انتظر الجيش السلوقى عند رافيا (رفح) بالقرب من غزة .

ومن حيث إعداد القوات كان لملك مصر تفوق يسير إذ كان له ٦٥٠٠٠ من المشاة بما فى ذلك كتيبة قوتها ٢٥٠٠٠ رجل أربعة أخماسهم من المصريين تعززهم فرق عسكرية من الطراقيان والكريتان والبلوبونيز والفرس والليبيين ومن بلاد الغال و ٥٠٠٠ من المقدونيين والتسالين الراكبين وثلاثة وسبعون فيلاً إفريقيًا ، وكان عدد المشاة لدى أنتيخوس يقل بمقدار ١٠٠٠٠ رجل ، ولكن تفوقه فى الفرسان وفى الفيلة الهندية عوض قصوره ، وعلى مدى أسبوعين كان الجيشان يحملقان فى بعضهما البعض عبر حصونهما ، وكان كل منهما ينتظر أن يقوم الجيش الآخر بالكشف عن تشكيله فى المعركة ، ثم قام المصريون فى فجر٢٢ يونيو ٢١٧ بتقويض المعسكر والانتشار بالفرسان والفيلة على الجناحين والفيلق فى الوسط ، وسلاح المشاة الخفيف فى الثغرات والمؤخرة وحذا أنتيخوس حذوهم ، واتخذ مواقف تطابق مواقف العدو ، وفى الوقت نفسه ، مر فيلوباتور على طول جبهته ، وكان يتوقف هنا وهناك لمخاطبة قواته ، وإلى جواره ركبت الفتاة أرسينوى وهى صورة زاهية على جبهة القتال ، بشعرها المنسرح الذى كانت نسمة الهواء تطيره وبعينيها التى اخملتهما العاطفة ، وكانت تضيف كلامها إلى كلام شقيقها ، أما وقد تم هذا فقد اتخذ الشخصان الملكيان موضعهما على الجناح الأيسر ، وبدأت المعركة بزحف الفيلة من الجانبين ، لقد كانت معركة غير متكافئة ، فقد استدار الأفريقيون ولاذوا بالفرار بعدما أفزعتهم الهجمات الصادرة عن الفيلة الهندية ، ولم يكن هناك ما يوقف ذعرهم فتوغلوا فى صفوفهم الخاصة ، وداسوا فى طريقهم الخيل وراكبيها ، وأكمل أنتيخوس الاضطراب بأن اندفع بهجمة شرسة من الفرسان ، وإذ اندفع بفعل المطاردة الشرسة ، طارد الجيش الهارب دون تبصر ، ففقد بذلك تفوقه ، لقد كانت تلك غلطة جسيمة ، فالمطاردة كشفت منطقته الوسطى وجعلتها عرضة لهجوم مضاد ، وكان يتلهف على هذه الفرصة ايشكريتس القائد الرصين الماهر للجناح الأيمن لفيلوباتور ، فبمجرد أن اختفى أنتيخوس عن الأنظار ، حرك ايشكريتس قواته وأمر نجدة مشاته بأن تنتقل إلى الجبهة ، وقاد سلاح فرسانه إلى الجبهة اليمنى ، وقام بتغيير الجبهة دون أن يبصره العدو ، وهاجم الجناح الأيسر للعدو ، ونجحت المناورة ثم قام ايشكريتس وهو ممتط صهوة جواده بالالتفاف حول مؤخرة فيلق العدو ، و بتغيير الجبهة مرة أخرى ، وهناك توقف لكى يريح خيله ،

مهدداً خط تقهقر العدو ، لقد كان ذلك إيحاءً بارعًا وهى لحظة تبين فيها كيف أن ضربة مضادة حاذقة يمكن أن تغير وجه المعركة .

كان الصراع حتى الآن مسألة خاصة بالفرسان ، وأصبح الدور الآن على سلاح المشاة الثقيل ، وإلى هذه النقطة كان كل من الفيلقين يقف كمشاهد سلبى للصراع الذى نشب بين الأجنحة ، وكان أنتيخوس من بين الملكين قد اختفى ، وكان فيلوباتور يستظل تحت حماية فيلقه الخاص ، ومضت لحظات ثمينة بينما كان سوسيبوس وأرسينوى يتوسلان إلى فيلوباتور لكى يقود فيلقه ضد العدو ، وارتعب ايشكريتس خشية أن يكون قد وجه ضربته عبثًا ، ومن حسن الحظ أن قائد أنتيخوس تردد إذ كان معزولاً على الجناحين ، وكانت النجدات قد سلبت منه ، وأصبح فى خطر اكتشاف أن طريق التقهقر مسدود ، فتذرع بالخمول إلى أن باغتته صرخة رعب صدرت بين صفوفه الخاصة فحملته على اتخاذ قرار وكان هناك حشد صغير من الرجال يزحف فى اتجاه الفيلق السورى تحت غابة من الرماح ذات الوميض ، وإذ تداعى تحت وطأة الذعر المفاجىء ، دعا قائد العدو إلى الانسحاب وفى الوقت نفسه كان أنتيخوس - وهو على بعد أميال من المعركة - يريح خيله عندما ثار نقيع من الأتربة على رافيا (رفح) فدله ذلك على أن فيلقه يتراجع تماماً ، وآخر النهار بحث الموقف من جميع جوانبه ولم يكن يحبذ الاستمرار فى الصراع وكان عدد الضحايا كبيراً وكانت روح الذين بقوا على قيد الحياة قد تحطمت - وهكذا اتخذ أنتيخوس وجهته صوب أنطاقيا بجيش خائب يجر أذياله [١].

وإذ كان فيلوباتور تواقًا إلى حياة الترف فى مصر ، فقد عمل على النقيض من نصيحة سوسيبوس ولم يواصل النصر ، حيث عاد إلى الإسكندرية ، وإلى ذراعى عشيقته أجاثوكليا ، وقام برحلة فى مصر على البارجة الرسمية أو " ثالاميجوس " احتفالا بهذا النصر.

كانت رافيا (رفح) هى النصر الأول والوحيد الذى حققه فيلوباتور ، أما بقية فترة حكمه فكانت سجلاً تاريخيًا للهزيمة والعجز الدبلوماسى وضياع الكرامة محليًا ، وأمكن نتيجة لمعركة رافيًا (رفح) الاحتفاظ بسورية لبضع سنين أخرى ولكن أملاك المصريين ونفوذهم فى آسيا الوسطى - وهو ما اعتمد عليه رخاء مصر إلى حد كبير -

سقطت فى أيدى أنتيخوس ، وبعد زيارة قام بها إلى الإسكندرية السفيران القادمان من روما وهما أتيليوس وأسيليوس ، تم إكراه البلاط المصرى على ما يكره أو رشوته ، فتخلى عن حياده التقليدي بين روما وقرطاجة ، وسمح للسياسة الأجنبية بأن تملى عليه من جانب مجلس الشيوخ الرومانى ، وكانت الحرب البونية (القرطاجية) الثانية مشتعلة الأوار ، وكانت الرابطة الأيتولية للدول الإغريقية فى حرب مع فليب ، وكان من الواضح أن من مصلحة العالم الإغريقى وضع حد لهذه الحرب الضروس رغبة فى تقديم جبهة متحدة إلى من قد يخرج منتصراً من الحرب البونية (القرطاجية) ، وكان من المصلحة المساوية للرومان أن تظل الرابطة الأيتولية شاغلة لفليب ، أما البلاط البطلمى الذى كان يحاول عقد صلح مع فليب والرابطة الأيتولية ، فقد امتنع عن ذلك بضغط من السفراء الرومان ، كما قامت مصر بتزويد روما بحمولة سفن من القمح فى ذلك الوقت ، وكانت روما قد سلبت من مصادرها المعتادة بواسطة جيش هانيبال الغازى .

وكان العصيان داخل مصر قد أصبح مستوطناً ، وكان ضياع جزء من المصادر الخارجية للثروة فى مصر قد حتم فرض قدر أكبر من الضرائب على الفلاحين المصريين ليسددوا بذلك ما كان البلاط يقوم به من تبذير سفيه ، وكذلك نفقات الاحتفاظ بالقوات المسلحة ، وهى التى دعت إليها الحاجة اليوم ولو لصيانة الأمن الداخلى وبنفس القدر للتحوط من العدوان الخارجى ، وبسبب تجنيد المصريين فى الجيش والبراعة التى أبداها بعض الجنود المصريين ، فى رافيا (رفح) فإن الزعماء المصريين لم يتخلفوا عن تقديم المطالب المصرية وعن قيادة عمليات العصيان المصرية .

وكان التبذير السفيه من جانب البلاط يعيد إلى الذاكرة الأيام الأولى لفيلادلفوس قبل أن تستأنسه أرسينوى " فقد كان القصر يعج بأدعياء الأدب من الشعراء والنحاة والعاهرات والمهرجين والفلاسفة "[٢] وكان فيلوباتور قد تزوج شقيقته أرسينوى لأسباب عائلية ، وهى التى كانت تعد على الصعيد الشعبى بطلة رافيا (رفح) ولكن زوجته الحقيقية كانت أجاثوكليا عشيقته، وكانت أمها هى أديناث وشقيقها أجاثوكليس الذى جاء للمشاركة فى السلطة الفعلية للدولة مع سوسيبوس ، " وتلاحقت حفلات العربدة

واحدة بعد الآخرى ، وأصبحت أجاثوكليا فوق الكاهنات جميعهن ، وكان يجلس إلى جوارها الملك ، الذى صار الآن يباهى أنه من نسل ديونيسيوس ، ويحمل على جبهته الرمز الذهبى ، وهو غصن شجرة البلاب (٣) .

كانت أجاثوكليا تدين بالولاء لإيزيس ، الإلهة المصرية التى صارت زوجة لسيرابيس ، ولعلها كانت أول عضو فى البلاط البطلمى يحقق شعبية للإلهة إيزيس التى اكتسحت عالم البحر المتوسط ، وذلك بفضل رعايتها للمهرجان الدورى لإيزيس .

أصبح المهرجان عطلة عامة ، تغلق فيها المكاتب الحكومية ، ويتوجه فيها جميع أهل الإسكندرية إلى كانوبوس ليشهدوا إنزال السفينة المخصصة للإلهة ، وفى هذه المناسبة كانت أجاثوكليا تمثل الشخصية المحورية دائماً فى المهرجان ، فتقود أنشطة المرح ، وتنظم مواكب المغنين - فتيات الشرف وسيداته والملقنات - وهى كتائب حقيقية من النساء يرافقن تمثال الإلهة من المعبد إلى الشاطىء (٤) .

كانت أرسينوى -وهى الشقيقة الزوجة - تدخل ضمن التقليد البطولى للأميرات البطلميات ولم تكن تعترض على خيانة زوجها ، ولكنها اعترضت على تبذيره السفيه وعجزه ، ويقال أنها وصفت احتفال ديونيسيوس ، الذى كان الملك يقيمه بأنه " نوع قذر من الحفلات ، يضم خليطاً من الجماهير يلتهمون الطعام الفاسد بشراهة كبيرة" (٥) ، والذى زاد من جهودها لمحاربة نفوذ سوسيبيوس وأجاثوكليا أنها كانت تتمتع بشعبية كبيرة فى الإسكندرية حيث أصبح شعرها الذهبى ، وهو يطير فى الهواء فى رافيا (رفح) أسطورة تذكر المواطنين الإغريق بأيام الثراء والنبالة .

هناك شىء من الغموض حول وفاتها ووفاة الملك ، ويبدو ، - على ما يحتمل - أن يكون الملك قد مات ميتة طبيعية أثناء عامى ٢٠٣ - ٢٠٢ وكان وريثه - وهو ابن أرسينوى - طفلاً عمره ثلاث سنين أو أربع ، وكان من الطبيعى أن تصبح أرسينوى وصية على العرش وأن تعمد دون ريب - وبتأييد مواطنى الإسكندرية- إلى إعفاء أفراد عصابة القصر the palace clique التى حكمت مع زوجها ، وربما قتلتهم ، ولهذا يبدو أن سوسيبيوس وأجاثوكليا انتهزا فرصة وفاة الملك وقاما بقتل أرسينوى ، وابقيا وفاة الملك سراً لفترة من الوقت بينما كانا يهددان بالحرب سلوقيًا ، وقاما بإيفاد تليبو ليس

قائد الجيش إلى بلوزيوم (الفرما) مع أغلبية القوات المصرية ، وعندئذ قاما فى قاعة المقابلات فى القصر بإذاعة نبأ وفاة فيلوباتور وأرسينوى على زعماء الجالية الإغريقية ، وعرضا وعائين من الفضة قيل إنهما يحتويان على رفاتهما ، وقالا أن فيلوباتور ترك وصية يعين فيها سوسيبيوس وأجاثوكليًا أوصياء على وريثه الطفل ، وهو أمر ما كان ينتظر أن يصدقه أحد ، وقصارى ما كان يرجى هو قبول هذا الأمر الواقع مع غياب أى معارضة منظمة ، لم يكن هذا الأمر يخص العصاة المصريين أو اليهود ، فقد كان أمرًا محليًا يهم المواطنين الإغريق فى الإسكندرية ، وكان زعماؤهم قد استدعوا لسماع البيان المذاع ، وهم الذين كان يبدو أنهم مهتمون بالمتع أو الأعمال أكثر من اهتمامهم بالسياسة ، ولكن سوسيبيوس والمتآمرين معه كانوا قد غالوا فى تقدير سلطتهم الخاصة ومدى قابلية الإسكندريين للانقياد السهل ، كما قللوا من مدى شعبية أرسينوى التى اغتيلت .

والذى حدث بعد ذلك هو ما وصفه بوليبوس وصفًا حيًا حيث قال:

بحلول هذا الوقت كان الرجال قد قرروا الثورة بعد ما زاد على غضب النساء فى كل بيت شعور عام بالتذمر وحقد شعبى اشتعل مع العنف المتعاظم ، وبمجرد أن أرخى الليل سدوله ، أصبحت المدينة بأسرها تعج بالمشاغبين والمشاعل والأقدام المهرولة ، وكان البعض يحتشدون فى الملعب وهم يصيحون ، وكان بعض آخر يدعو الغير للانضمام إليهم وكان البعض يجرى إلى الأمام وإلى الخلف محاولين إخفاء أنفسهم فى بيوت وأماكن يقل الاشتباه فيها ، وحدث الآن أن الأماكن الخالية حول القصور والملعب والشوارع امتلأت بجمهور متنافر شغلوا حتى المساحة أمام المسرح الديونيسى ، وعندما علم أجاثوكليس بهذا الأمر ، نهض من ثباته المخمور ، واصطحب أسرته متوجهًا إلى الملك ، وبعدما خاطب الملك ببضع عبارات ندم ، أخذه من يده وتقدم إلى الممر المغطى بين حديقة مياندر والباليسترا وهو الموصل إلى المسرح ، وبعدما اجتاز أول بابين أغلقهما بإحكام وتقدم إلى الباب الثالث مع اثنين أو ثلاثة من الحرس وأفراد أسرته والملك ، إلا أن الأبواب المحكمة بقضبان مزدوجة كانت شبكية وتسمح بالتالى بالرؤية من خلالها ، وبحلول هذا الوقت كانت الغوغاء قد تجمعت من كل ناحية من نواحى المدينة بأعداد هائلة حتى أن الأمر لم يقتصر على شغل كل شبر من الأرض ،

بل امتلأت كذلك سلالم البيوت والأسقف ببني البشر ، وتعالت عاصفة مختلطة من الصياح والصراخ ، وهو ما ينتظر من جمهور اختلط فيه النساء والأطفال مع الرجال ، ذلك لأن الأطفال فى الإسكندرية شأنهم شأن الأطفال فى قرطاجة ، كانوا يقومون بدور واضح فى مثل هذه الاضطرابات كالرجال تماماً .

وقد بدأ الآن فجر النهار ينبلج ، ومازال الهياج مشتعلاً فى خليط من الأصوات ، ولكن هناك صيحة واحدة تجلت على كل ماعداها ، لقد كانت تمثل دعوة موجهة إلى الملك ، والواقع ، أن بداية الأمر صدرت عن الحرس المقدونى ، لقد غادروا أماكنهم جميعاً واستولوا على الردهة التى تتم فيها المقابلات فى القصر ، ثم انهم بعد هنيهة ، وبعدما تأكدوا من المكان الذى كان الملك الصغير يحتله فى القصر ، استداروا وجاءوا إلى الممشى المغطى ، واقتحموا الأبواب الأولى ، وعندما وصلوا إلى الأبواب التالية لها ، طالبوا فى صرخات مرتفعة بتسليم الملك الصغير لهم ، وحالما أيقن أجاثوكليس من الخطر الذى يحدق به ، توسل إلى حراسه بأن يتوجهوا باسمه إلى المقدونيين لكى يبلغوهم بأنه استقال من وصايته على الملك ومن جميع المناصب ومن جميع أسباب الشرف والمرتبات الخاصة به ، ولم يطلب إلا الإبقاء على حياته ولكن، عندما تبين أن نداءاته الكثيرة والتى تستدر الشفقة لم تسفر عن أى نتيجة ، وانتهى الأمر بأن أخرج الملك الصغير مع حراسه ، وبمجرد تسلم المقدونيين للملك ، اركبوه حصاناً وساقوه إلى الملعب وقوبل ظهوره بهتافات عالية وبتصفيق حاد ، فأوقفوا الحصان وأنزلوا الملك وصحبوه إلى مقعد الملك وأجلسوه هناك ، غير أن مشاعر الجمهور كانت منقسمة ، صحيح أنهم سعدوا بظهور الملك الصغير ، ولكنهم استاءوا لأن المجرمين لم يتم القبض عليهم والحكم عليهم بالعقوبة التى يستحقونها ، وطالبوا من ثم ، بصيحاتهم المرتفعة بإخراج المسئولين عن جميع المفاسد والتمثيل بهم ، وكان النهار يؤذن بالانقضاء دون أن يعثر الجمهور على شخص يصبون عليه جام انتقامهم ، وعندما رأى سوسيبوس أن الرغبة الغاضبة للجمهور لا سبيل إلى تهدئتها ، وأن الطفل يفزع من الوجوه غير المألوفة التى تحيط به ومن صخب الجمهور ، سأل الملك هل يود أن يستسلم للجمهور الذى أساء إليه وعلى أمه وعندما أومأ الصبى برأسه علامة الموافقة ، طلب سوسيبوس من بعض الحراس إعلان قرار الملك ، وفى أثناء ذلك رفع الملك الصغير من كرسيه

وأعاده إلى البيت القريب من المكان للعناية به والترويح عنه ، عندما أعلنت الرسالة الصادرة من الملك ، انفجر المكان كله فى عاصفة من الترحيب بالتصفيق بالأيدى وفى أثناء ذلك ، انفصل كل من أجاثوكليا وأجاثوكليس وذهب كل إلى مقر إقامته ، ولم يضع الجنود وقتًا ، فقام بعضهم من تلقاء نفسه والبعض الآخر تحت ضغط من الجمهور بالبحث عنهما.

كانت هذه هى بداية عملية سفك الدماء فعلاً ، حيث خرج إلى الملعب واحد من خدم أجاثوكليس وكان وجهه يتورد من النبيذ ، وعندما رأى صورة الغضب عند الجمهور قال لبعض الواقفين إنهم سيندمون على ذلك مرة أخرى فيما لو جاء اجاثوكليس إلى هنا ، فبدأ بعض الذين سمعوه يسيئون إليه فى حين دفعه البعض الآخر بعيداً عنهم ، وعندما حاول الدفاع عن نفسه قام البعض بتمزيق معطفه من ناحية الظهر ، فى حين قام آخرون بتسديد رماحهم إليه فأصابوه إصابة قاتلة ، ثم سحبوه إلى وسط الجمهور وهو يلفظ آخر أنفاسه ، وعندما تنوق الجمهور طعم الدماء ، بدأوا يبحثون بصبر نافد عن الضحايا التاليين ، وما كان لهم أن ينتظروا طويلاً ، فقد ظهر أولاً أجاثوكليس وهم يجرونه ويداه وقدماه مكبلة ، ولم يكد يدخل حتى اندفع نحوه بعض الجنود وأوسعوه ضرباً حتى مات – وبإقدامهم على ذلك كانوا أصدقاء وليسوا أعداء لـه ، لأنهم أنقذوه من الميتة الفظيعة التى يستحقها ، وجىء بعده بنيكون Nicon ، وبعده أجاثوكليا فجردت من ثيابها مع شقيقتيها ، وبعدهما جىء بالعائلة كلها ، وأخيراً ، جاء بعض الرجال بأويننانث OENANTHE الذى جرجروه من معبد ديميتروبرسفونا وأجلسوه على حصان بعدما جردوه من ثيابه ، وترك هؤلاء جميعاً للجمهور ، فقام البعض يعض فيهم بأسنانه و البعض يطعنهم ويفقأ أعينهم ، وبمجرد سقوط أى واحد فى أيديهم كانوا يقومون ببتر سيقانه ساقاً بعد ساق إلى أن يمزقوه إربًا إربًا ، ذلك لأن وحشية المصريين عند إثارة مشاعرهم تصير شيئًا مرعبا حقاً (٦) .

وبحلول هذا الوقت – بعد نشوء أربعة أجيال منذ تأسيس الإسكندرية – يبدو أن الاندماج بين الإغريق والمصريين قد أسفر عن وجود مواطن سكندرى ذى خصوصية ، فلا هو إغريقى ولا هو مصرى ، وإن كان يتحدث بالإغريقية ويسلك فى حياته وفقًا للأسلوب الإغريقى ، كانت هذه هى المرة الأولى الذى ذاق فيها الناس طعم العنف

الصادر عن الغوغاء بالإسكندرية، وهو الذى أصبح أمراً مشيناً ، وكانت هذه أول إشارة من جانب الإسكندريين تجاه الأسرة المالكة . كان الإغريق فى السابق يعتبرون الأسرة المالكة . حامية ، وأن المصريين عصاة ومن الآن فصاعداً اعتبر الإسكندريون أنفسهم صانعى ملوك وأن شاغلى العرش مثلهم مثل العمد فى الإسكندرية وليسوا حكام إمبراطورية ، وفى مثل هذا الوضع ، كان هناك – طول الوقت تقريبًا – حزبان متنافسان يؤيدان المرشحين المتنافسين على منصب الملك ، وهو ما كان يحتاج إلى حاكم قوى لكى يؤكد سلطانه على الجميع دون أن يسعى إلى كسب تأييد هذا الفصيل أو ذاك من المتنافسين ، أما البطالمة فقد كانوا يكفون عن إخراج حكام أقوياء .

وإلى حد ما ، بدا أن الفصيلين المتنافسين – وان كان كلاهما يتألف من المزيج العرقى السكندرى إنما يمثلان المصالح الإغريقية والمصرية على التوالى ، أما القضية الكامنة وراء الاضطرابات والفتن التالية فيبدو أنها تتمثل إما فى اندماج الإسكندرية التدريجى فى بقية مصر أو فى استمرار عزلتها عنها ، وإذا كان سوسيبوس قد افلت من مذبحة تكلفه عمره ، فقد استصوب أن ينسحب من منصبه ، وأصبح تليبوليس Tlepolemus القائد العام وصياً على العرش ، ولم يكن هذا موفقاً فى عمله، ولم يلبث أن خلفه أرستومينس، وهو جندى قام باختيار جندى آخر، وهو سكوباس Scopas ليشترك معه فى الوصاية على العرش.

انتهز أنتيوخس الثالث الاضطربات التى حدثت فى مصر بعد وفاة فيلوباتور فقام من جديد بغزو سورية الواطئة، ووصل جنوباً إلى غزة التى استولى عليها بعد حصار، وعندئذ قام سكوباس بقيادة جيش مصرى زحف إلى سورية وطرد أنتيوخس متقهقراً إلى ينابيع الأردن، ولكنه هزم هناك فى معركة بانيوم، وفقدت مصر سورية الواطئة مرة أخرى ، فعاد سكوباس إلى بلاده، ولم يلبث بعد ذلك أن اشتجر مع أرستومينس Aristomenes الذى دبر أمر اغتياله.

وفى عام ١٩٧ كان الملك الصغير قد أصبح فى ذلك الوقت فى الثانية عشر من عمره، فتم تتويجه فى احتفال رسمى باسم بطلميوس الخامس إبيفانيس Epiphanes, وهكذا آل إليه ميراث خطير ومتناقص وكان أنتيوخس قد جرد مصر من جميع ممتلكاتها الآسيوية باستثناء قبرص ، وكان الرومان قد هزموا هانيبال وأصبحوا

السادة فى غرب البحر المتوسط ، وكانوا قد بعثوا بسفارة إلى الإسكندرية برياسة ماركوس ايمليانوس لإعلان هذه الواقعة وإبلاغ شكر مجلس الشيوخ إلى مصر بسبب حيادها ولعرض مساعدة روما ضد فيليب المقدونى فى حالة انتهاك الملك للأراضى المصرية، كان هذا هو الأسلوب الرومانى فى تحذير مصر من أى تدخل فى الحملة التى شنوها بعد التخلص من هانيبال- على فيليب حليف قرطاجة، وفى عام ١٩٧ هزم الرومان فيليب فىساينوسيفالى ومنذ ذلك الوقت أصبحت روما، وليس مقدونيا هى القوة العظمى فى شبه الجزيرة الإغريقية، وأصبحت العلاقات مع روما هى العامل الطاغى - وبحكم الضرورة - فى السياسة الخارجية للبطالمة .

كان بوليكراتس Polycrates - الذى يشارك أريستومينس فى الوصاية على العرش (وهى وصاية استمرت بحكم الواقع بعد تتويج الملك الصغير) - يحبذ السعى للظفر بالحماية الرومانية ضد أنتيوخس، وهو الذى لجأ إليه هانيبال بعد هزيمته ولكن مجلس الشيوخ الرومانى - برغم هذا التحريض، وبرغم امتناع أنتيوخس عن الاستجابة لطلب الرومان بالتخلى عن محاربته للممتلكات المصرية فى آسيا الصغرى - لم يبد أى اهتمام ، وآثر السماح لسلوقيا ومصر بأن تضعف إحداهما الأخرى إلى أن يحين الوقت الذى تختاره روما لالتهامهما الواحدة بعد الأخرى.

وإزاء هذا الإحجام من جانب الرومان، تبنى أريستومينس، ولفترة قصيرة من الوقت، سياسة مقابلة تتمثل فى إنشاء جبهة إغريقية ضد روما وأبرم صلحاً مع سلوقيا مقابل ثمن هو التخلى عن جميع الممتلكات المصرية فى آسيا (باستثناء قبرص)، وتم تزويج الملك الصغير بكليوباترا ابنة أنتيوخس (بمعنى أن يكون له أب عظيم)، وتم الزواج في عام ١٩٣ ، وأجريت المراسم فى رافيا (رفح) حيث تخللتها أخبار نشوب ثورة خطيرة أخرى فى مصر أخمدها بوليكارتس.

وبعد ذلك ، لقى أريستومينس نفس المصير الذى أنزله بسكوباس، فتم اغتياله ربما بتواطؤ من بوليكارتس وربما بتحريض منه، وبعد ذلك أصبح بوليكارتس الحاكم الفعلى الوحيد لمصر أما أبيفانس، فقد ورث عن أبيه عجزه وقلة اهتمامه بعملية الإدارة ، على الرغم من أنه فى متعه كان أكثر فحولة من فيلوباتور، كما كان صياداً عظيماً وشغوفاً بالألعاب الرياضية فى الساحات وهى التى خصص لها معظم وقته.

أحسن بوليكارتس حكم مصر، واستطاع بإجراء تخفيضات فى الضرائب وغير ذلك من الإصلاحات أن يضع حداً - ولو فى الوقت الحالى - لحالة العصيان الدائم فى مصر، وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية أحرز نجاحاً أقل، حيث استمر ، بلا طائل، السعى للظفر بالحماية الرومانية ضد أنتيوخس وعندما غزا أنتيوخس اليونان، وفى حين انشغل الرومان بطرده منها، بعث بوليكارتس بسفارتين متلاحقتين إلى روما عارضاً مساعدته، ولكن تم رفض هذه العروض رفضًا مذلاً واستطاع الرومان دون مساعدة، طرد أنتيوخس من أوروبا، ولاحقوه إلى داخل آسيا، وفى عام ١٩٠ هزموه فى معركة مغنيزيا، ثم جردوه من جميع الممتلكات السلوقية غرب طوروس، وقسموها بين برجامون وكيدوكية، ولم تحصل مصر على شيء، اللهم إلا موافقة مجلس الشيوخ الكريمة على الاحتفاظ بقبرص التى لم يستول أنتيوخس عليها.

وفى عام ١٨٥ توفى أنتيوخس الثالث وخلفه ابنه سيلوقى الرابع، وتوفى بطليموس إبيفانس بعده بأربع سنين مع أنه كان مازال شاباً، أما أكبر ابنائه فيلوميتورفكان لم يزل صبيًا، وأما أرملته كليوباترا فقد أصبحت وصية على العرش ، وكان أول إجراء اتخذته عزل بوليكارتس وعلى مدى السنوات العشر الباقية من عمرها حكمت مصر بشخصها ، وتوفيت بعد بضعة شهور من تتويج ابنها بطليموس السادس فيلوميتور وزواجه من شقيقته كليوباترا التى تعرف بكليوباترا الثانية جرياً على ما أصبح اليوم تقليداً يتبع فى الأسرة .

بعد وفاة كليوباترا الأولى نشب نزاع بين البلاط المصرى الذى يسيطر عليه اثنان من الخصيان هما يوليوس وليناوس، وبين السلوقيين حول إيرادات سورية الواطئة التى كانت قد منحت لكليوباترا الأولى كمهر dowry, وكان يحكم سورية الآن أنتيوخس الرابع إبيفانس الذى خلف أخاه الراحل سلوقى الرابع فى عام ١٧٥ ، وكان إبيفانس قد نشأ فى روما حيث أرسله أبوه كرهينة، وعند وفاة سلوقى ، أجلسه الرومان على العرش فى مكان ديمتريوس وهو ابن سلوقى ووريثه الشرعى ، كما اخذوا ديمتريوس إلى روما وجعلوه رهينة فى مكانه، وكان رأى أنتيوخس أن المهر

انتهى بوفاة كليوباترا فى حين كان من رأى المصريين أن المهر منحة قائمة على الدوام ، وحاول يوليوس وليناوس احتلال سورية الواطئة، وعندئذ قام أنتيوخس بغزو مصر ، وأوفد الطرفان بعثات إلى روما طالبين التأييد من مجلس الشيوخ، إلى هذا الحد، كانت روما معترفًا بها كقوة طاغية فى العالم الإغريقى.

كانت مصر فى أيد ضعيفة، وقام أنتيوخس باحتلال بلوزيوم المدينة الواقعة على التخوم الشرقية دون أن تعرض عليه أى مساعدة وأسر فيلوميتور - وهو ابن أخيه - بينما كان الملك الصغير يحاول الهرب من مصر إلى ساموترا س ، فوضعه تحت حمايته وسعى إلى إعادته إلى العرش المصرى بوصفه تابعاً له ، ولكن الإسكندريين انفجروا فى ثورة، وخلعوا يوليوس وليناوس، وأعلنوا أن فيلوميتور الأخ الأصغر ملكاً لقبه بطليموس يورجيتس الثانى، وزحف أنتيوخس بصحبة فيلوميتور على الإسكندرية وعسكر فى نوكراتيس، وسواء كان ذلك خشية من مجلس الشيوخ الرومانى الذى كان سيعترض بالتأكيد على وضع مصر تحت حمايته أم لأى سبب آخر، فإن أنتيوخس عاد فجأة إلى سورية تاركاً الشقيقين وأنصار كل منهما ليحسما الأمر بينهما حربا.

ولفترة من الوقت حكم يورجيتس الإسكندرية وحكم فيلوميتور فى ممفيس ، ثم حدث بعد ذلك أن نسلا آخر لا يقهر من الأميرات المقدونيات سيطر على الوضع ، فنجحت كليوباترا الثانية الشقيقة الصغرى لفيلوميتور وزوجته، فى التوفيق بين الشقيقين، وعلى مدى أربع سنين، من سنة ١٦٩ إلى سنة ١٦٥ قام ثلاثتهم - فيلوميتور ويورجيتس وكليوباترا - مشتركين فى حكم الإسكندرية، واتحدوا فى حلف مشترك فيه ضد أنتيوخس الذى قام بغزو مصر مرة أخرى فى عام ١٦٨٠ ، وتم إيفاد مبعوث مصرى آخر هو تيموثاوس إلى روما ليناشدها تقديم المساعدة، ويقول المؤرخ ليفىLivy انه ظهر أمام مجلس الشيوخ مرتدياً ثياب الحداد وشعر رأسه وذقنه يفتقر إلى التشذيب ويحمل فى يده غصن زيتون، وكان الرومان فى ذلك الوقت متورطين بصورة حادة فى حرب مع بيرسيوس ملك مقدونيا، وهو واحد من آخر أبطال الاستقلال الإغريقى الباقية على قيد الحياة، ولم يتسن لمجلس الشيوخ أن يعود إلى الالتفات إلى مصر إلا بعد أن دمره فى معركة بيدنا PYDNA ؛ فى عام ١٦٨٠ وفى الوقت الذى وصل فيه بوبيليوس لاينس مبعوث مجلس الشيوخ إلى الإسكندرية، كان أنتيوخس قد

أصبح فعلاً فى إيلوسيس خارج الأسوار الشرقية مباشرة، وهناك جرى الاجتماع المشهور بين أنتيوخس وبوبيليوس ، برز بوبيليوس - وهو لا يحمل إلا صولجانًا خفيفًا - من البوابة الكانوبية للمدينة، والتقى بأنتيوخس المدجج بالسلاح حتى أسنانه والمحاط بجيش فى إيلوسيس ، وسلم أنتيوخس الأمر الصادر من مجلس الشيوخ وهو أن عليه أن ينسحب من مصر، وطلب أنتيوخس مهلة ليفكر فى الأمر قبل أن يرد عليه ، فتقدم بوبيليوس إلى الأمام ورسم بصولجانه دائرة على الرمال حول قدمى أنتيوخس وقال " قبل أن تخطو خارج هذا الخط ستعطينى ردك " وكان رد أنتيوخس سأعمل وفقًا لرغبات مجلس الشيوخ " وقبل أن يرخى الليل سدوله كان هو وجيشه فى رحلة العودة إلى سورية ، وبعد عودة المبعوث الرومانى إلى الإسكندرية وإلقاء محاضرة على الأسرة المالكة بأنه ليس من اللباقة أن تتعارك أقسام الأسرة المالكة ، أبحر إلى قبرص التى كان أنتيوخس قد استولى عليها ، وأمر قوات السلقويين بأن تخلى الجزيرة ، وهو ما قد أقدمت عليه بنفس السهولة التى أبداها أنتيوخس فى ايلوسيس ، ثم عاد بوبيلوس إلى روما بعد إنجاز مهمته الناجحة ، وتأكدت منزلة روما باعتبارها قوة طاغية فى كل من الإسكندرية وأنطاكية .

وعقب الخروج القسرى لأنتيوخس ، نشبت فى الإسكندرية حالاً المعارك العائلية من جديد وكان يورجيتس قد رقى أصلاً إلى العرش من جانب غوغاء الإسكندرية ، ومن الآن فصاعداً أصبحت اختيارات الغوغاء هى إلى حد كبير المسيرة للأحداث فى الإسكندرية، وعام ١٦٤ وعند عودة فيلوميتور من صعيد مصر حيث كان يقوم بإخماد حركة عصيان ، وجد نفسه هو وشقيقته الزوجة معزولين ووجد أن أخاه قد اعترف به بوصفه صاحب السيادة وفيما أصبح بحلول هذا الوقت أسلوبا مرعيا يكاد يكون روتينيًا فى العالم الإغريقى قام فيلوميتور بمغادرة الإسكندرية قاصداً روما لعرض قضيته على مجلس الشيوخ وكانت روما تعج بحشود متوافدة عليها من الملكين الإغريقيين بالتماساتهم ، وكان مجلس الشيوخ قد أصدر مرسوماً بأنه " ليس لأى ملك أن يضع قدمه على الأرض الإيطالية اللهم إلا إذا دعى للقيام بذلك " ومن هنا وصل فليوميتور متخفيًا ، لا يرافقه إلا واحد من االخصيان واثنان من الأرقاء وبعد انتظار استمر عدة اشهر لتحديد مقابلة مع مجلس الشيوخ ، لم يصب شيئا يعوضه عن

متاعبه، اللهم إلا نصيحة بأن يتصالح مع أخيه ووعد بإيفاد اثنين من المفوضين الرومانيين إلى الإسكندرية ، وبحلول موعد وصولهما كان الإسكندريون قد سئموا من يورجتس الذى اكتسب كنية هى " كاكيرجيتس kakergetes " وتعنى صانع الشر ، ولم تكن هناك معارضة لقيامهما بمنح مصر وقبرص لفيلوميتور وقورينا (وهى مدينة إغريقية قديمة فى برقة) إلى يورجيتس .

وجاء الآن الدور على يورجيتس لكى يوجه التماساً إلى روما ، فقد أسفرت زيارته عن قيام مجلس الشيوخ بالموافقة على منحه قبرص إلى جانب قورينا ، ولكنه أوضح بجلاء ضرورة الامتناع عن أى قتال وأعاده المجلس مصحوباً باثنين من أعضاء مجلس الشيوخ للاطمئنان إلى احترام أوامره ولعل الموقف الصلب الذى اتخذه فيلوميتور راجعاً إلى شقيقته الزوجة ، فتحدى عضوا مجلس الشيوخ ورفض التنازل عن قبرص التى كانت لها أهمية خاصة لمصر كمصدر للنحاس والخشب وكقاعدة بحرية للعمليات أمام سلوقيا ، وبعدما اخفق العضوان فى إقناعه ، ارتضيا الموقف وعادا إلى روما تاركين الأمور على ما هى عليه حيث يتولى فيلوميتور حكم قبرص ويتورط جيشه فى محاربة قورينا العاصية .

كانت السنين القليلة التالية فى مصر تتسم بهدوء ورخاء نسبيين ، ولكن يورجيتس بعدما أخضع أهل قورينا فى عام ١٥٤ وبعدما سعى مرة أخرى للظفر بمساعدة حربية من مجلس الشيوخ دون أن ينجح فى مسعاه ، توجه إلى قبرص لغزوها ، وإذ كان فيلوميتور أفضل كجندى وكرجل من بعض أسلافه ومن أى من خلفائه الذكور ، فقد بادر بالعبور بتجريده إلى قبرص وأسر يورجيتس فى لابيثوس Lapithos ، ثم قام ، بشهامة غير معهودة فى علاقات الأسرة البطلمية ، بالعفو عن شقيقه وتنصيبه على قورينا مع وعد بتزويجه ابنته كليوباترا .

وفى الوقت نفسه كان الرومان يتدخلون فى سلوقيا ، وعندما مات أنتيوخس إبيفانوس فى عام ١٦٢ ترك مملكته لابنه أنتيوخس الخامس يوباترُ Eupator ، ولكن ديمتروس ، ابن سلوقى الرابع الذى كان رهينة فى روما منذ وفاة أبيه ، هرب وعاد إلى سورية واغتال الملك الجديد وأعلن نفسه باسم ديمتريوس الأول سوتر ، أما وقد واجه

الرومان خطر إحياء سلطة السلوقيين فى ظل ديمتريوس ،فقد أيدوا فيلوميتور وأعربوا عن موافقتهم على شاب اسمه الإسكندر بالا Bala كان يقيم فى برجامون وطالب بعرش سلوقيا باعتباره ابن أنتيوخس إبيفانوس (ولعله كان ابنه فعلاً نتيجة غلطة من جانب أبيه) ، وكان فى تقدير فيلوميتور أن الحرب الأهلية التى تلت ذلك هى فرصة سانحة لاستعادة سورية الواطئة لمصر ، ومن هنا تلقى الإسكندر بالا مساعدة عسكرية وبحرية من مصر فى حملة انتهت بهزيمة ديمتريوس وموته وبتقلد الإسكندر للعرش السلوقى (١٥٠) ، وتأكيداً للحلف ، قدم له فيلوميتور ابنته كليوباترا ثيا Thea فى عقد زواج ، وانقلبت الموائد منذ عهد أنتيوخس إبيفانس إذ أصبحت مصر حامية لسلوقيا.

ولكن المستقبل كان يدخر متاعب ، ذلك أن ابن ديمتريوس ، واسمه ديمتريوس أيضًا ، ثار ضد الإسكندر بالا ، فقام فيلوميتور بنفسه بالزحف بالجيش داخل سورية لمناصرة زوج ابنته وللظفر بسورية الواطئة ، ثم حدث ولسبب ما ، أن اشتجر مع بالا وتحول إلى ديمتريوس لتأييده ليس هو فحسب بل ابنته أيضا وهى كليوباترا ثيا ، وأقصى بالا عن مملكته ولكنه لم يلبث أن عاد بجيش جنده فى أسيا الصغرى فالتقى معه الجيش المصرى فى معركة على ضفاف نهر العاصى حيث هزم وذبح ، ولكن فى لحظة النصر قتل فيلوميتور بدوره"١٤٥" وقيل إنه فقد صوابه فى لحظة الموت برؤية منظر الرأس المقطوع لزوج ابنته .

وبمجرد أن سمعت كليوباترا الثانية بوفاة زوجها نصبت فى الإسكندرية أكبر أبنائها ملكاً باسم بطليموس الثامن يوباتور وأعلنت نفسها وصية على العرش ، ولكن عندما سمع يورجيتس الأخبار وهو فى قورينا ، اعتزم الاستيلاء على المملكة لنفسه ، فجاء إلى الإسكندرية، وانتقلت كليوباترا وأبناؤها إلى ممفيس حيث حكم زوجها فترة من الوقت عندما أعلن الإسكندريون قبل خمس و عشرين عامًا بأن يورجيتس هو الملك ، وكانت الغوغاء فى الإسكندرية منقسمة بين يورجيتس وكليوباترا ، وعلى وجه العموم أيدت فصائل الإغريق واليهود كليوباترا ، وأيدت الفصائل المصرية يورجيتس – أما الجيش ، وكان ولاؤه مازال مشكوكاً فيه ، فقد كان فى طريقه عائداً من سورية وكان كل احتمال يوحى باندلاع حرب أهلية أخرى ، وكان كالمعتاد أن تكون لروما يد فيها.

وبحلول هذا الوقت كان الرومان أقوى من أى وقت مضى بعدما تم تدمير قرطاجة على يد سكبيو أفريكانوس ScipioAfricanus فى ١٤٦ فأوفد مجلس الشيوخ واحداً من أعضائه وهو مينوسيوس ، إلى الإسكندرية فنجح فى التفاوض على ترتيب جاء آية على الأسلوب المرعى فى العالم الإغريقى ، ألا وهو جعل الاعتبارات الملية والإنسانية تالية فى الأهمية للطموح السياسى ولحياة الأسرة المالكة، واتفق يورجتس وكليوباترا على ضرورة عزل يوباتور الصغير وعلى أن يتزوجا ويحكما باعتبارهما شريكين فى الملك، وهو ما حدث فعلاً، ويقول جوستان إن يوباتور البائس تم اغتياله فى ليلة العرس بيدى عمه .

ولم يلبس الشريكان فى هذه المباراة غير الرومانسية أن اختلفا، ففى خلال بضعة أشهر، قام يورجتس بإغواء كليوباترا ابنة زوجته من فيلوميتر وابنة شقيقه (الذى كان موعوداً من فيلوميتر بالزواج قبل عشر سنوات) وتزوجها بعدما طلق أمها، ونسبها إلى العرش باعتبارها "الملكة كليوباترا الزوجة" بمشاركة "الملك بطليموس والملكة كليوباترا الأخت"، ولابد أن ما بدا من موافقة الابنة على هذا الزواج إنما يرجع إلى الطموح السياسى وليس إلى أى حب ربما شعرت به تجاه عمها الذى كان قد أصبح بحلول هذا الوقت نموذجاً لجسم غير جذاب، فأطلق عليه الإسكندريون كنية "سايكون" Psychon (أى صاحب الكرش) ، ولا ريب فى أن السبب الرئيسى هو أنها ما فتئت تنعم بحصة من أسباب الشرف الملكية مع أمها، ولكن كان لكليوباترا الثانية مؤيدها فى الإسكندرية وفى مصر، أما سايكون فيبدو أنه كان غير ميال إلى إفساد الترتيب الذى أجراه مجلس الشيوخ الرومانى الذى كان يبدى اهتماماً شديداً بمصر.

وهكذا حكم هذا الثالوث الغريب عدداً من السنين بدا فى خلالها أن مصر أصبحت فى حالة ثورة وقلق مستمرين، وقد أورد بوليبيوس، الذى زار الإسكندرية فى إحدى البعثات الدبلوماسية حوالى ذلك الوقت، هذا التقرير :

إن الزيارة الشخصية التى قمت بها للإسكندرية ملأتنى بالسخط على حالة المدينة التى تقطنها ثلاثة عناصر متميزة- المصريون الوطنيون وهم عنصر حاد الذهن متحضر، وهناك ثانياً الجنود المرتزقة (إذ جرت العادة القديمة على استئجار رجال

مسلحين للمساندة) وهؤلاء قد تعلموا كيف يحكمون عوضاً عن أن يطيعوا، نظراً لضعف شخصيات الملوك، أما الطبقة الثالثة فقوامها الإسكندريون الوطنيون اللذين لم يتعوبوا لنفس السبب- على الحياة المدنية، وكانوا مع ذلك أفضل من الطبقة الثانية لأنهم - وإن كانوا يشكلون اليوم جنساً هجيناً - إلا أنهم كانوا أصلاً إغريق واحتفظوا ببعض الذكريات عن المبادىء الإغريقية ولكن هذه الطبقة أصبحت شبه منقرضة بفضل يورجيتس سايكون الذى زرت الإسكندرية فى عهده، وذلك لأن هذا الملك - وقد أزعجته الفتن والعصيان - كان كثيراً ما يعرض الناس العاديين للجند ويتسبب فى تدميرهم (٧).

وفى عام ١٣٦ زار مصر سكيبيوس أفريكانوس الذى هزم قرطاجة وبصحبته اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ والفيلسوف الرواقى بوزيدون ، وذلك فى سياق جولة رسمية إلى منطقة شرق البحر المتوسط ، وقد ترك بوزيدون وصفاً للملك كما رآه أعضاء هذه السفارة حيث يقول :

كان ضخم الجثة ، وكان كرشه على درجة من الضخامة بحيث يصعب على أي إنسان أن يحيطه بذراعيه وكان يرتدى فوقه سترة طويلة تصل إلى قدميه ، ولم يحدث أبداً أن مشى إلى الخارج اللهم إلا فى مناسبة زيارة سكيبيو، (٨).

وكان سايكون من جانبه تواقاً إلى أن يحدث انطباعاً جيداً فى نفوس السفراء الرومان ، فقام بالترفيه عنهم فى حفلات فاخرة ، وأطلعهم على جميع كنوز قصره ، ولكن السفراء الرومان ، المأثورة عن فضائلهم ، لم يأكلوا إلا قليلاً وازدروا أسباب الترف المكلفة باعتبارها مفسدة لكل من الروح والبدن ، ولم يلقوا نظرة إلا بالكاد على الكنوز التى رغب الملك فى أن يبهرهم بها ، ولكنهم ابدوا اهتماماً كبيراً بالشىء الذى يعنيهم حقيقة - وهو الموقف فى المدينة والبيانات المفصلة عن الفراعنة ، ثم أبحروا فى النيل حتى ممفيس ، ولاحظوا خصوبة التربة هبة الفيضان السنوى ، وعدد المدن والقرى والوضع الاستراتيجى للبلاد ومواردها وهى التى بدا وكأنها خلقت لضمان أمن الإمبراطورية ورخائها ، وانتهوا إلى الرأى بأن مثل هذه البلاد قد تصبح فى غاية القوة لو كان لديها السادة الذين يستحقونها (٩) .

بعدما قام الجنرال الرومانى الصارم بتدمير قرطاجة ، بدا أنه يفكر فى الحرب الرومانية التى سيخوضها بعد ذلك وفى ضوء هذا ، فإن ضعف مصر العسكرى وهزال حكومتها قد استأثرا حتما باهتمامه بنفس القوة التى تمثلت فى غناها الاقتصادى .

والذى حدث فيما بعد - والتاريخ ليس مؤكداً ولكن لابد أنه كان حوالى عام ١٣٠ - أن سكان الإسكندرية ثاروا ضد سايكون الذى هرب إلى قبرص بصحبة كليوباترا الثالثة وأبنائه، وعندئذ، نودى بكليوباترا الشقيقة، أرملة فيلوميتر بأنها الملكة الوحيدة بفضل صناع الملوك السكندريين، اللذين شرعوا يبحثون عن شخص ملائم يكون زوجاً للملكة، ووقع اختيارهم الأول على نائب الملك فى قبرص، وهو ابن غير شرعى لسايكون، ولكن سايكون الذى قام بحشد قواته فى قبرص، كان أسرع منهم حيث بادر بقتل ابنه غير الشرعى ، والذى حدث بعد ذلك حسب رواية جوستان وهو مصدر لا يعول عليه ، أنه أقدم على اقتراف جريمة ابشع، كان معه فى قبرص ابنه ممفيتس الذى أنجبه من كليوباترا ، وهو الذى بات يعرف فيما بعد باسم بطليموس التاسع، ويؤخذ من رواية جوستان أن سايكون دبر أمر قتل ابنه وإرسال جثمانه فى نعش باعتباره هدية فى عيد ميلاد أمه .

لم يدم حكم كليوباترا الثانية بمفردها إلا بضعة أشهر، فقد عاد سايكون إلى الإسكندرية من قبرص ومعه جيش ودخل المدينة دون أن يصادف قدراً كبيراً من المقاومة، فهربت كليوباترا قاصدة ابنتها وزوج ابنتها فى سلوقيا .

وفى عام ١٤٠ أسر ديمتريوس الثانى زوج كليوباترا ثيا على أيدى الفرس وخلفه على العرش شقيقه أنتيوخس سيديتس Sidetes وأما ثيا التى أصبحت - على ما يقال - جزءاً من الأثاث الملكى، فقد تزوجته وكان ثالث أزواجها وفى عام ١٢٩ قتل سيدتيس فى معركة ، وفى نفس الوقت تقريباً هرب ديمتروس من الفرس واسترد كلاً من عرشه وزوجته، وبعد ذلك بقليل وصل إلى مصر حماته كليوباترا الثانية، وقامت هى وابنتها بإقناع ديمتريوس بأن يتصدى لسايكون الذى حاول غزو مصر ، وفى حركة مقابلة ، قام سايكون بتأييد الإسكندر زابيناس - وهو ابن مدعى للاسكندر بالا Bala يعيش فى الإسكندرية - لكى يجلس على عرش سلوقيا .

ونشبت حرب أهلية مرة أخرى ، إذ هرول ديمتريوس عائداً من تخوم مصر ليجد أن زوجته قد هجرته وأن عليه أن يحارب زابيناس ليسترد عرشه ، وتلت ذلك معركة قتل فيها ديمتريوس والأرجح أن زوجته هى التى قتلته ، وخلفه سلوقى الخامس وهو الابن الأكبر له ولثيا الذى رفض أن تشاركه أمه فى العرش فقامت بقتله لهذا السبب أما شقيقه الأصغر وخليفته أنتيوخس جرايفون (صاحب الأنف الأقنى) فقد كان أسهل قياداً ، وإزاء إلحاح أمه ، عقد صلحاً مع سايكون الذى قام بناء على ذلك بالتخلى عن زابيناس المطالب بالعرش ، وزوج جرايفون لابنته ترايفيما ، وبعدما استوثق جرايفون من حياد مصر المفيد ، انقلب على زابيناس ولم يلبث أن تم أسره وقتله (١٢٣).

تبين جريفون Gryphon ، بعدما استقر فى الوقت الحالى على العرش ، أن الشركة مع والدته الجبارة ، ليست مريحة ، أما وقد قامت ثيا باغتيال ابنها الأكبر ، فقد حاولت الآن اغتيال جريفون بدوره ، يؤخذ من رواية جوستان أنها ، وهى المثابرة على توفير الرعب ، قدمت إلى جريفون كأساً مسممة ، وهى نفس الكأس التى أكرهها ابنها بعد ذلك على احتسائها بنفسها (١٢١) ، وهكذا ماتت كليوباترا ثيا ابنة فيلوميتر وهى امرأة لا تملك من الأنوثة إلا أقلها ومن الطموح أكثره بالمقارنة بمعظم النسل المرعب والجبار للأميرات المقدونيات .

وفى الوقت نفسه حدث فى عام ١٢٤ أن كليوباترا الثانية تبينت أن سعيها إلى حكم مصر بمساعدة ديمتريوس قد فشل ، قامت بالتصالح مرة أخرى مع سايكون وعادت إلى مصر ، وصدرت عن الإسكندرية مجدداً إعلانات باسم " الملك بطليموس والملكة كليوباترا الشقيقة والملكة كليوباترا الزوجة " والفارق الوحيد يتمثل فى أن الإعلانات كانت ادعى إلى الرحمة من سابقاتها " وظهر يورجيتس الثانى المتقدم فى السن فى هيئة جديدة بوصفه الإدارى اليقظ الذى يصغى طوعاً لشكاوى مواطنيه وإنه يحميهم من كل ما يفرضه عليهم موظفوه (١٠) أما الآن فإن الطاغية الذى انفجرت فى كل مصر ثورة ضده قد قام برد ما تم تحصيله من ضرائب وتخفيض الرسوم الجمركية وإنزال العقاب على الفساد وبناء المعابد وإصلاحها ، وهذا البربرى ، الذى قيل قبلاً بأنه شتت شمل علماء الإسكندرية فى جميع أنحاء البحر المتوسط ، قام بإغناء مصادر المتحف والمكتبة ، وشجع رحلات الاكتشافات الجغرافية ، بل صار هو نفسه أشبه شئ

بمؤلفى الكتب ، ولعله ، احتراماً منه للمكابين الذين قاموا بدور الحاجز المانع أمام سلوقياً والذين قد يبرهنون على انهم حلفاء ضدها ، وبناء على نصيحة من سكيبو افريكانوس ، قام من فترة بالكف عن اضطهاد الجالية اليهودية ، وهو ما اتسمت به الفترة المبكرة من عهده ، وعاد إلى الأسلوب البطلمى المعهود وهو النظر إليهم بعين العطف .

مات سايكون فى عام ١١٦ وهو فى نحو الثامنة والستين من العمر ، والأرجح أن كليوباترا الثانية سبقته إلى الوفاة ، وخلفته كليوباترا الثالثة ، وكتب فى وصيته إنه يترك مصر وقبرص لسلطتها فتختار ما تشاء من بين بنيها ليكون زوج الملكة (زوجها) ، أما قورينا ، فقد تركها لابنه غير الشرعى بطليموس أبيون Apion .

ويقول واحد من مؤرخى البطالمة عن بطليموس يورجيتس الثانى الذى يكنى أحياناً باسم كاليرجيتس (أى صانع الشر) وسايكون ما يلى :

طاغية لا يعرف التردد ولكنه يفتقر إلى الذكاء ، ويبدو انه قادر على أن يجمع شمل جميع أبناء جنسه وأن يأخذهم معه أيضاً ، ونساء الأسرة هن اللائى عرفن وحدهن كيف يحكمن من بعده (١١) .

لم يكن الرومان معنيين أساساً بالاستيلاء على أراضى ، شأنهم شأن البريطانيين فى الهند بعد ما يقرب من ٢٠٠٠ عام ، لقد كان اهتمامهم منصباً على الأمن والتجارة وإقراض الأموال ، وكان القرطاجيون منافسين هددوا الأمن الرومانى وكان لابد إذن من تدميرهم ، وكانت الولايات الإغريقية غنية وضعيفة وهدفاً للاستغلال ، وهو ما انطوى على تدخل سياسى - الانحياز إلى جانب من الجوانب فى المنازعات بين الولايات الإغريقية ، وتمثلت السياسة فى تهديدات وتحذيرات من ناحية وعروض للحماية من ناحية أخرى طبقاً للسياسة الإمبريالية التقليدية وهى فرق تسد ، وأدى هذا بدوره إلى حملات عسكرية سواء كان ذلك دعماً لطالبيها أو تأديباً لدولة عاصية ، وانطوت هذه الحملات العسكرية على إنفاق يتعين استرداده من السكان فى الدول التى تتم حمايتها أو عقابها ، وهو ما حتم استمرار الوجود العسكرى الرومانى ، ومن هنا نشأت بالتدريج سياسة "الاستعلاء" paramouncy فى أثناء عملية ضم الأراضى .

وبعد قيام سكيبو بتدمير قرطاجة فى عام ١٤٦ ، أصبحت إفريقيا إقليماً رومانياً ، وفى نفس السنة قام الجنرال موميوس الرومانى بالاستيلاء على كورينث ونهبها ، وكانت مقدونيا بعد هزيمة بيرسيوس وأسره قد أصبحت مقراً لحامية من القوات الرومانية ، وبعد بضع سنين تم ضم معظم القسم الرئيسى من اليونان وأنشئت ولاية آسيا الرومانية ، أما جمهورية رودس الغنية ، التى أبدت روح استغلال غير مرحب بها ، فقد تم تدميرها بإنشاء ميناء رومانى حر فى ديلوس ، وأما السلوقيون ، الذين كانت روما قد جردتهم من أقاليمهم غرب طوروس ، فقد تعرضوا لمزيد من الإضعاف بسبب الدعم الرومانى ليهود يهوذا فى ظل حكم خلفاء يهوذا مكابيوس ، وفى عام ١٣٢ تمت الإبادة النهائية لملكة بيرجامون التى عاشت طويلاً تحت النفوذ الرومانى ، وذلك عندما غادرها أتالوس الثالث آخر ملوكها بناء على رغبة مجلس الشيوخ الرومانى ، وتم إنشاء ولاية آسيا الرومانية فيما كان يعرف فى الأزمنة القديمة باسم أيونيا وليديا وخسرت مصر نهائياً لمصلحة روما نفوذها على مدن اليونان وآسيا الصغرى وتجارتها معها ، كما خسرت مصر سيطرتها على التجارة بين قرطاجة والمدن الفينيقية نتيجة لقيام الرومان بهزيمة قرطاجة وتقهقر مصر من سورية الواطئة ومن الساحل السورى ، ولكن بقيت مع ذلك التجارة الغنية والمتنامية مع أفريقيا وجزيرة العرب والجزر الهندية عن طريق البحر الأحمر وكذلك الثروة الطبيعية الضخمة لمصر وقورينا وقبرص ، ولكن بقيت فى أيدى الرومان جميع الأسواق الخاصة بالبحر المتوسط وكان البطالمة قد أصبحوا خاضعين لروما تجارياً بقدر ما كانوا خاضعين لها سياسياً ، يضاف إلى هذا - كما سبق أن رأينا - أن النفوذ الرومانى كان يستخدم لفصل قورينا وقبرص عن مصر كمقدمة محتملة لإخضاعها للحكم الرومانى المباشر ٠

ولعل النصوص الواردة فى وصية سايكون قد أريد بها صراحة شحذ مطامح الرومان فى النهب وتشجيع نزاعات الإسكندريين إلى صنع الملوك ، ففصلت الوصية قورينا عن مصر ، أما فى مصر نفسها ، فقد ولدت حالة من التنافس بين الأشقاء وهى التى سادت بين فيلوميتر وسايكون ، أما سلوقيا ، فلم يعد هناك إلا القليل الذى يخشى منها ، ولكن وجود اثنين يتنافسان على العرش كان لا بد أن يجعلهما يقومان بتحريض العنصر السكندرى واستدعاء التدخل الرومانى ٠

إن كليوبأترا الثالثة ، التى خانت والدتها " وعهرت " نفسها prostitutedherself لعمها كى تصبح ملكة ، يمكن الاعتماد عليها فى استخدام حرية التصرف التى أسبغت عليها بموجب شروط وصية زوجها استخداماً كاملاً وبلا ضمير ، وكان لديها ابنان هما بطليموس العاشر سوتر وهو الابن الأكبر المكنى " الحمصى " وبطليموس الحادى عشر وهو الابن الأصغر ، وقد فضلت كليوباتر الإسكندر ربما لأنه كان أكثر انصياعاً لرغباتها ، ولكن الإسكندريين سواء بسبب تفضيل شخص أو بسبب الأصول المرعية فى الأسرة المالكة ، فضلوا لاثيروس ، فاضطرت كليوباترا إلى الإذعان ، أصبح الاسكندر نائب ملك فى قبرص ، ولكنها حملت لاثيروس ، وهو يبدو - بدليل كنيته وسلوكه - أنه مخلوق ضعيف على أن يترك شقيقته وزوجته كليوبأترا الرابعة وأن يتزوج أختا أصغر منها هى كليوباترا سيلين Selene التى فضلتها أمها ، وبادرت الزوجة المهجورة بالسفر إلى قبرص حيث حشدت جيشاً وزحفت إلى سورية وهناك تزوجت أنتيوخس سيزيسينوسCyzicenus الذى كان قد استولى تواً على عرش سلوقياً من ابن عمه جريفون زوج شقيقتها ترايفايما ,Tryphaema وكانت سلوقياً فى ذلك الوقت فى حالتها المعتادة وهى الحرب المهينة نتيجة للاغتصاب الذى قام به سيزيسنوس ، وفى غضون العامين التالين استعاد جريفون عرشه وأمر بقتل كليوباترا الرابعة بناء على اقتراح من ترايفايما (١١٢) ثم عاد سيزيسنوس فى غضون سنة إلى طرد جريفون وأمر بقتل ترايفايما ثأراً لموت زوجته ، واستمرت الحرب الأهلية بين سيزيسنوس وجريفون وكان سيزيسنوس سيد الموقف بصورة مؤقتة غير مستقرة في حين أصبح يهود يهوذا مستقلين تماماً تحت حكم الإسكندر جانيوس Jannaeus .

ثم حدث فى عام ١٠٨ أن ثار أهل الاسكندرية على لاثيروس ، ربما بتحريض من كليوباترا الثالثة ، ففر لاثيروس إلى داخل مصر أولاً ثم إلى قبرص ، أما الشقيق الأصغر الإسكندر فعاد إلى الإسكندرية من قبرص وتولى تاج الملك بالاشتراك مع أمه ، ووفقاً لما قد يتوقع نظراً إلى العلاقات العائلية الوثيقة بين البيتين المالكين فى مصر وسلوقياً ، فإن الفصيلين المتعارضين فى كل دولة أصحابها متوحدين فانضمت كليوباترا الثالثة والإسكندر إلى جريفون الذى تحالف معه الإسكندر جانيوس ، وانضم لاثيروس إلى سيزيسنوس ، *وتعزيزاً للحلف السابق قامت كليوباترا سيلين وهى*

الشقيقة الثانية وزوجة لاثيروس التى بقيت عند أمها فى الإسكندرية عندما هرب لاثيروس ، بالزواج من جرايفون الذى ترمل بعد اغتيال ترايفايما قبل ذلك بثلاث سنوات .

كان جنرالان يهوديان - وهما تشلكيس وأنانياس Chikeis and Ananias - يقودان الجيش المصرى عندما زحف إلى سورية رغبة فى إعادة جرايفون إلى العرش السلوقى ، وهذا دليل على أن عملية الاندماج بين الإغريق واليهود فى مصر هى عملية لابد أنها كانت متقدمة جداً فى ذلك الوقت ، وقبل الإقدام على هذه الحملة قامت كليوباترا الثالثة بعمل حصيف يرقى إلى مرتبة التشاؤم ، وهو إرسال مخزونها من الكنوز وبعض من أحفادها إلى جزيرة كوس ، وهى تكاد تكون المخفر المصرى الوحيد الباقى فى بحر إيجة ، وذلك طلباً للسلامة .

كما هو متبع دائماً فى هذه الحروب السورية فإن الهدف المصرى كان يتمثل فى استعادة السيطرة على سورية الواطئة والموانى الفينيقية ، وأرسلت حملة إلى قبرص لانتزاع لاثيروس ولكنها لم تنجح ، وقام الجنرال المكلف بالقيادة بالفرار إلى العدو ، ثم قام لاثيروس بالعبور إلى سورية حيث شن حرباً ناجحة ضد حلفاء أمه من بلاد يهوذا ، كان جرايفون ، وهو حليفها الآخر الذى أصبح الآن زوج ابنتها للمرة الثانية قد أقام مقر قيادته فى دمشق ، ولكنه قدم إليها مساعدة قليلة ، واستولى لاثيروس على معظم المدن الساحلية وهدد بغزو مصر ، واضطرت كليوباترا الثالثة إلى نقل القسم الأكبر من جيشها بالبحر إلى بلوزيوم لمواجهة هذه التهديدات وفى خاتمة المطاف ، أقلع كل من كليوباترا ولاثيروس عن القتال وعادت كليوباترا إلى الإسكندرية ولاثيروس إلى قبرص مع جيش كل منهما (١٠٢) .

ويبدو أن بطليموس الإسكندر قام بدور سلبى فى هذه الحملة ، وأنه كان خاضعاً تماماً لسيطرة أمه إذ استبد الغضب بكليوباترا الثالثة لفشلها فى الانتقام من الابن الذى تكرهه ، وإذ استولى عليها سخط بسبب ما اعتبرته تقصير من زوج ابنتها وحلفائها من بلاد يهوذا ، لفظت أنفاسها بمجرد عودتها إلى الإسكندرية ، أما وقد تخلص ابنها الأصغر من نفوذها المشؤوم ، فقد استمر يحكم مصر على مدى السنوات العشر التالية أو نحوها مع برنيس ابنة أخيه لاثيروس باعتبارها زوجته وكذلك زوجة الملك .

وفى الوقت نفسه حدث فى سورية فى عام ٩٦ أن أُسر جرايفون وقتل على يدى سيزيسنوس الذى تزوج أرملته كليوباترا سيلين ، وفى العام التالى قام سيلوقى إبيفانيس بقتله ، وهو أكبر أبناء جرايفون الذى تولى الملك لفترة قصيرة قبل أن يقتله ابن سيزيسنوس وهو أنتيوخس فيلوباتور الذى تزوج كليوباترا سيلين زوجة أبيه ، وهكذا ، فإن كليوباترا سيلين رغبة منها فى الاحتفاظ بالعرش ، نالت زواجاً رابعًا بعدما هجرت الزوج الأول - وهو شقيقها - عندما فقد مملكته ، وتزوجت للمرة الثالثة من الزوج الذى قتل زوجها الثانى لقد كانت بحق ابنة لكليوباترا الثالثة ، كما كانت بحق أميرة مقدونية سخرت سحرها الأنثوى تسخيراً تامًا لتحقيق مطامح لا أخلاقية وإن لم تكن خسيسة تماماً ، وبعد إتمام الزواج ، استمرت الحرب الأهلية بين أنتيوخس فيلوباتور وأبناء جرايفون الباقين على قيد الحياة .

وفى عام ٩٦ توفى أبيون الابن غير الشرعى لسايكون الذى ورث قورينا وفى نفس هذه السنة أغتيل جرايفون ، أما وقد أزعجته مكائد الرومان والثورات الداخلية فقد أوصى بأن تذهب مملكته إلى مجلس الشيوخ الرومانى ، كان هذا هو الأسلوب الأثير للدبلوماسية الرومانية ، فقد جربه فى بيرجامون وجربته بعد ذلك فى مصر ، وأعطى لمجلس الشيوخ حجة قانونية مقبولة (وكان لجمهور الرومان قانونيون كباراً) لضم بلد الآن أو فيما بعد عندما تتضح وجاهة الإقدام على ذلك ، وقد تم ضم قورينا رسمياً فى عام ٧٤ بعد اثنين وعشرين عاماً عقب وفاة أبيون .

وفى عام ٩٠ تقريبًا نشبت فى الإسكندرية ثورة مضادة للإسكندر الذى فر إلى سورية وعاد فى العام التالى مع جنود مرتزقة واستولى على المدينة من جديد ، ورغبة فى تعويض ما أنفقه ، قام بعملية نهب وسلب ضريح سميه العظيم فى الصوما ، واستولى على نعشه الذهبى ووضع مكانه نعشاً زجاجياً ، وفى خلال سنة ، تم طرده وبعد ذلك بقليل غرق فى البحر ، وعندئذ عاد إلى الإسكندرية من قبرص الشقيق الأكبر لاثيروس وتولى تاج الملك ، واتخذ ابنة برنيس ، وأرملة شقيقه لتكون زوجة الملك ، واشتركا فى الحكم نحو عشر سنوات .

وفى هذه الأثناء كانت هناك أحداث مهمة تجرى فى سائر العالم الإغريقى ، ميثريداتس **Mithridates** ملك بنط فى الشمال الشرقى لآسيا الصغرى قد برز بوصفه

متحدياً خطيراً لروما ، وانتهز فرصة الحرب الأهلية الناشبة فى روما بين النبلاء وعامة الناس ، فأنزل الهزيمة بالجيش الرومانى فى آسيا الصغرى فى عام ٨٨ واجتاح الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى وغزا الأراضى اليونانية الرئيسية وجزرها ، وأثناء هذا الغزو استولى على كوس ومعها كنوز كليوباترا الثالثة وحفيدها الإسكندر ، وهو الوريث الشرعى الوحيد لبطليموس الحادى عشر ، وكان يمثل فى ذلك الوقت الوريث الشرعى الوحيد لبطليموس من الذكور ولهذا كان رهينة ثمينة .

وانتهت الحرب الأهلية الرومانية بانتصار سولا **Sulla** على ماريوس **Marius** زعيم العوام من الناس ، ثم حدث فى عام ٨٧ أن قام سولا بعبور البحر الادرياتيكى لكى يتعامل مع ميثريداتس الذى رحب به المقدونيون والإغريق باعتباره محرراً ففرض حصار على أثينة وأوفد سفارة إلى الإسكندرية برياسة لوسيوس لوكولوس **Lucius Lu-cullus** لتطلب من لاثيروس مساعدة بحرية ضد أسطول ميثريداتس ، ويبدو أن لاثيروس التواق إلى تفادى معاداة سولا وميثريداتس تصرف تصرفاً يتسم بشىء من اللباقة . كان لوكولوس رجلاً متحضراً وجندياً وفيلسوفاً ومحب لمتع الحياة ، وكانت حفلات الترفيه التى يقيمها مشهورة وانتقل اسمه جيلاً بعد جيل باعتباره مرادفاً لشىء من الطعام والشراب ، ولابد أنه استمتع بالجو الشائع فى الإسكندرية البطلمية ، وبعد زيارة قام بها لقورينا حيث " جعل السكان يخضعون للقوانين التى فرضها عليهم "حسب رواية بلوتارك – وصل إلى الإسكندرية مع سفارته بعد ما تعرض لمناوشة مع القراصنة فقد فيها معظم سفنه وقوبل بترحيب حار" .

خرج الأسطول كله ، وهى تحية لا يستحقها إلا أفراد الأسرة المالكة ، ليستقبله بكل قطعه ، وأبدى بطليموس الصغير رقة متناهية معه وأمر بإقامته فى القصر مع إعاشته ، وهو استقبال لم يلقه أى قائد أجنبى قبله ، وإلى جانب ذلك ، قدم إليه هدايا ومكرمات ليس من قبيل ما يمنح عادةً لرجال من منزلته ، بل أربعة أمثال ذلك ، إلا أنه لم يقبل منها ما يزيد على تلبية ضروراته ولم يقبل أى هدية على الرغم من أن ما قدم إليه كان يساوى ثمانين تالنت,**talants** (ولكن لاثيروس) إذ كان يخشى موضوع الحرب (رفض ما طلب إليه من تقديم مساعدة بحرية) ولكنه مع ذلك أرسل معه سفن حراسة حتى قبرص ، وعند مغادرته أقيمت له شعائر كثيرة ، مع تمنيات برحلة طيبة ، كما

قدمت إليه زمردة ثمينة جداً محاطة بالذهب ، وقد رفضها لوكولس فى بادىء الأمر ، ولكنه عندما أراه الملك صورته الخاصة محفورة عليها اعتقد أن من غير الممكن الإصرار على الرفض ، لأنه لو سافر بعد هذه الإهانة الصريحة ، فقد يعرض ذلك رحلته إلى الخطر(١٢).

كان ذلك فى عام ٨٧ قبل الميلاد ، والذى حدث بعد ذلك أن سولا استولى على أثينة وطرد ميتريداتس من أوروبا ومن الولاية الرومانية فى آسيا وعاد إلى مملكته فى بنط حيث بقى هو وحليفه تيجرانس Tigranes ريثما يتم التعامل معهما فيما بعد على يدى بومبى الذى قام أيضاً باستكمال تدمير الإمبراطورية السلوقية ، وخلال حملة سولا كان الإسكندر ابن بطليموس التاسع رهينة عند ميتريداتس ، فهرب من كوس ووضع نفسه تحت حماية سولا، فأعاده سولا إلى روما لاحتمال الاستعانة به مستقبلاً.

وفى عام ٨٠ قبل الميلاد ، توفى لاثيروس تاركًا ابنته برنيس بوصفها الحاكم الوحيد ، وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها سولا الذى أوفد الإسكندر الصغير إلى مصر ليشارك برنيس فى العرش توقعاً بأنه سيكون آمناً تحت النفوذ الرومانى ، أما الإسكندريون ، الذين احترموا برنيس ولكن كانت تقاليدهم تمنع انفراد امرأة بالحكم ، فقد ارتضوا هذا الترتيب ، وهكذا تزوج ابنة العمومة واشتركا معًا فى الجلوس على العرش ، وكان الإسكندر ، الذى يعرف باسم بطليموس الثانى عشر ، أكبر قليلاً من صبى وأصغر كثيراً من برنيس التى كانت تقرب من أوسط العمر وبعد بضعة أيام من الزواج قام الإسكندر باغتيال زوجته وشريكته فى الملك ، أما الإسكندريون اللذين اعتبروا برنيس من ممتلكاتهم وأن الإسكندر ألعوبة أجنبية مستوردة بحكم الملاءمة داخل الأسرة المالكة ، فقد سارعوا إلى الثأر ، إذ اقتحموا القصر ، وأمسكوا بالملك القاتل وحملوه إلى الجمنازيوم وهناك مزقوا أوصاله حتى الموت ، وهكذا انقرض آخر الورثة الذكور من البطالمة .

وإذا كان الإسكندريون قد تسببوا فى مشكلة وراثة العرش ، فقد قاموا هم أنفسهم بحلها أيضًا ، كان من المتعين عمل شىء على وجه السرعة للحيلولة دون احتمال الضم من جانب مجلس الشيوخ الرومانى الذى زعم أن بطليموس

الثانى عشر – شأنه فى هذا شأن أيون فى قورينا وأتالوس الثالث فى بيرجامون – قد أوصى بمملكته لمجلس الشيوخ ، ووقع اختيار الإسكندريين على ابن غير شرعى للاثيروس قام بتولى الملك باسم بطليموس الثالث عشر ، وكان لقبه الرسمى فيلوباتور فيلادلفوس، أما كنيته فتراوحت بين Neos (أى ابن ديونيسيوس) ونوثوس Nothos (أى الابن غير الشرعى) والكنية الأشيع وهى أوليتسAuletes (بمعنى عازف الفلوت) ، لقد ورث ميراثًا قلقًا – فهو ابن غير شرعى غير معترف به من جانب مجلس الشيوخ ومحتقر من جميع الإسكندريين ويفتقر إلى أى فضيلة ذاتية تعوضه عن هذه العيوب .

وفى عام ٧٨ ارتبطت به فى العرش كشقيقة وزوجة كليوباترا ترايفيما – ولعلها ابنة غير شرعية ثانية للاثيروس – وتم تتويج كليهما فى ممفيس فى عام ٧٦ .

كان الشخص الأول الذى حاول استغلال الوضع القلق لأوليتس هو قريبته كليوباترا سيلين المزواجة التى قتل زوجها أنتيوخس التاسع سنة ٨٣ واحتل مملكته تيجرانس ملك أرمنيا ، فلجأت هى وابنها من أنتيوخس إلى قليقلة Cilicia ، وبعد وفاة بطليموس الثانى عشر جمعت ما استطاعت جمعه من أموال وبعثت ببنيها إلى روما مطالبة بعرش مصر لأبنها الأكبر باعتباره الوريث الشرعى للبطالمة بتحدره منها بوصفها ابنة سايكون ، ولعلها كانت تطمع فى الحصول على مساعدة روما ضد تيجرانس وتوحيد التاجين فى مصر وسلوقيا تحت حكمها كوصية على العرش ، ولكن لم يسفر ذلك عن شيء، فقد كان مجلس الشيوخ الرومانى متورطًا مرة أخرى فى حرب مع ميثريداتس فى آسيا الصغرى وفى ثورة للأرقاء بقيادة سبارتاكوس Spartacus فى صقلية ، ولم يكن مجلس الشيوخ مستعداً لقبول دعوة كليوباترا سيلين Selene للتدخل سواء فى سورية أو فى مصر، ولكن التهديد بهذا التدخل وبعزل أوليتس علق على رأسه مثل سيف داموكليس Damocles ، وفى عام ٧٤ كان الرومان قد ضموا قورينا بناء على وصية أبيون ، وفى نفس السنة قاموا بنفس الشيء فى بيثينيا حيث قام الملك الراحل نيقوديموس Nicodemus الثالث بدوره بالتوصية بأيلولة مملكته إلى مجلس الشيوخ.

وانقسمت الآراء فى روما حول موضوع التوسع فى عمليات الضم ، فالنبلاء كانوا يعترضون على هذا ، أما عوام الناس فإذ كانوا يتشوقون إلى الحصول على حصيلة التوسع فى الجزية للتخفيف من الحاجات الماسة لمؤيديهم حبذوا الضم ، وفى عام ٦٥ قبل الميلاد عرض اقتراح قدمه فى مجلس الشيوخ ليسينيوس الرقيب Licinus Censor وأيده يوليوس قيصر وأيديلا Aedila وحزب عوام الناس يدعو إلى ضم مصر ولكن حزب النبلاء هزمه ، وأصبح مصير أوليتس واستقلال مصر رهنًا بميزان القوة بين الحزبين المتعارضين الرومانيين وإذا كان كلاهما قد اختلفا حول الضم ، فقد اتفقا كلاهما على عدم الاعتراف بلقب أوليتس وعلى استغلال مخاوفه لصالح روما ، مثال ذلك أنه عندما كان بومبى يزحف عبر سورية الواطئة بعدما هزم ميثريداتس وتيجرانس ، أصر مجلس الشيوخ على قيام أوليتس بإرسال نجدة قوامها ٨٠٠٠ من سلاح الفرسان لمساعدة بومبى فى أن يغنم لحساب روما بلداً يعد تابعاً لمصر .

أما أهل الإسكندرية ، وقد استبد بهم السخط على انصياع ملكهم لروما (وهو أمر مكلف ومذل) وإذ كانوا لا يولون شخصه إلا قليلاً من الاحترام، فقد دب فيهم التململ، ووجد أوليتس نفسه مدفوعاً لطلب حماية روما ضد شعبه الذى يبدو أنه توحد فى الزراية منه، فبعث مندوباً إلى بومبى فى سورية يحمل معه هدايا والتمس حمايته، فقبل بومبى الهدايا ولكنه رفض الحماية، " فالذى هزم ميثريداتس ليست لديه رغبة فى أن يقوم بدور الشرطة فى الإسكندرية" (١٢) .

وفى عام ٥٩ ق.م انتخب يوليوس قيصر ، وهو من دعاة الضم ، قنصلاً أول ، وبتأييد من بومبى اقترح (يوليوس قيصر) على مجلس الشيوخ ، الذى وافق بعد مناقشة غاضبة ، على أن يعترف بأوليتس " ملكاً على الإسكندرية" ويعلن أنه " صديق للشعب الرومانى وحليف له" مقابل دفع جزية قدرها ٦٠٠٠ تالنت ، ووافق أوليتس على هذه الصفقة المذلة ، ولكنه لم ينتظر طويلاً حتى يرى كم هى قيمة أمنه الذى اشتراه بعزيز المال ، ففى العام التالى قرر مجلس الشيوخ بناء على اقتراح من بوبليوس كلوديوس الجالس على المنصة ضم قبرص، التى كان شقيق أوليتس يحكمها كنائب ملك ، باعتبارها ولاية رومانية وتحويل إيرادتها إلى الخزانة الرومانية ، (وواضح أن اقتراح كلوديوس يرجع إلى نفوره الشخصى من نائب الملك فى قبرص لأنه عجز عن تقديم

المبلغ اللازم لافتدائه من القراصنة الذين وقع فى أيديهم أثناء سفره فى شرق البحر المتوسط، وكان بومبى قد أنقذه فى آخر الأمر)٠

وأوفد كاتو Cato الطاهر اليدين إلى قبرص لتنفيذ قرار مجلس الشيوخ ، ولم يصادف أى مقاومة ، وعرض على نائب الملك منصب الكاهن الأعلى لأفروديت فى بافوس تعويضًا لـه عن فقدان منصب نائب الملك ، ولكنه اختار بديلاً هو الانتحار بالسم٠

كان السلب والنهب آخر قشة بالنسبة للسكندريين ، فبعدما رفض أوليتس مطلبهم بأن يستقل عن روما ويسترد قبرص ، طردوه من البلاد ، وقبل ذهاب أوليتس إلى روما ليطالب بالصداقة التى وعد بها ، توجه إلى رودس ليناشد كاتو Cato وكان إذ ذاك فى طريقه عائداً بعد ضم قبرص ، تصرف هذا الرجل الفظ الطاهر اليدين تصرفًا مشينًا إذ استقبل ملك مصر وهو جالس على المرحاض seated on the privy ونصحه بالعودة إلى الإسكندرية ومحاولة التصالح مع مواطنيه، بل إنه عرض أن يرافقه ويساعده فى هذه المحاولة، ولكن أوليتس تجاهل نصيحته وغادر رودس إلى روما حيث كان عليه أن يمكث ثلاث سنين من عام ٥٨–٥٥ ق٠م ٠

بات أهل الإسكندرية بلا حاكم ، ولم يعرفوا ما اذا كان ملكهم سيعود ومعه جيش رومانى ، فقد اتخذوا موقفًا سلبيًا عجيبًا ، فإذ كانوا يمقتون الرومان ، ولم يعد لديهم ما يرجونه من حكمهم، وتحت إمرتهم موارد مازالت ضخمة لبلد واسع الثراء ، ومع ذلك لم يفعلوا شيئًا يصونون به الاستقلال الذى يعتزون به ، كانوا يسرعون إلى الشغب ، وغير قادرين على الإقدام على أى جهد متناسق وعاجزين عن إيجاد أى حاكم شعبى نشط ؟ ويخشون أن يتحدوا الدولة التى ناشدوا ملكهم أن يتنكر لها ، وهكذا وصفهم ديوكاسيوس قائلاً :

فيما يتعلق بأهل الإسكندرية ، فهم على استعداد كبير لإقامة جبهة قوية فى كل مكان وللمجاهرة بأى شىء قد يحدث لهم ، ولكنهم بلا جدوى اطلاقًا حين يتعلق الأمر بالحرب وأهوالها ، هذا صحيح كل الصحة على الرغم من أنهم حين تحريضهم على الفتنة ، وما أكثرها وأفدحها،كانوا ينغمسون دائمًا فى عمليات القتل غير مقيمين وزنًا

للحياة - مقارنة بمنافسيهم، في ذات اللحظة ولكنهم يواصلون التدمير في هذه المنازعات كما لو كان ذلك أفضل ما يحصلون عليه من جوائز وأعزها(١٤) .

وأيًا كان استعدادهم للسخرية من حاكمهم وتوبيخه وعزله بل واغتياله ، فواضح أنه لم يخطر ببالهم أبدًا أن يتخلصوا من الأسرة المالكة التي صاروا مرتبطين بها بعلاقة غامضة .

بعد مغادرة أوليتس ، وبعد وفاة زوجته كليوباترا ترايفايما بعد ذلك ببضعة أشهر ، قام الإسكندريون بمنح تاج الملك إلى أكبر أبنائه ، وهي برنيس الشابة البالغة من العمر نحو سبعة عشر عامًا ، ويقى عليهم حسب العرف المرعي في الأسرة المالكة أن يهتدوا إلى زوج لها ، وقد وقع اختيارهم الأول على شخص اسمه فيليب هو الحفيد الأكبر لسايكون من جدته ترايفايما زوجة جريفون ، وكان يجري في الشاب الدم الملكي البطلمي ، وبهذا استوفى ما كان يشعر به الإسكندريون من مشاعر شبه غامضة تجاه ملوكهم ، وكان الشاب يقيم في سورية ، وهي ولاية رومانية في ذلك الوقت ، وعندما فاتحه وفد سكندري ، أعرب عن استعداده ، غير أن جابينوس **Gabinius** الحاكم العسكري الروماني في الولاية منعه من مغادرة الولاية بناء على تعليمات من روما ، زاد هذا القرار من نقمة الإسكندريين على روما ، فاهتدوا إلى شاب آخر زعم أن الدم الملكي يجري فيه – ويبدو أنه شخص بليد الحس بحكم الكنية التي اطلقت عليه وهي " بائع السمك" **fishmonger** فجيء به إلى الإسكندرية وزوجوه إلى برنيس وشاطرها في الجلوس على العرش ، ولكن بعد بضعة أيام من الزواج تخلصت برنيس منه بأن أمرت بشنقه لأنها وهي تحمل صفات العناد المأثورة عن كثيرات من بنات جنسها "اكتشفت أنها لا تستطيع أن تتحمل تصرفاته الخسيسة" **ignoble manner,**(١٥) وعندئذ تم العثور على بديل هو أرخيلاوس **Archelaus** ، والأرجح أنه هو ابن غير شرعي لميثريداتس، ويبدو أن برنيس وافقت عليه فتزوجته وصار زوج الملكة (٥٥ ق. م).

وفي روما ، تفرغ أوليتس لرشوة الجميع بتوزيع أذونات على الخزانة المصرية ، بما لا يمكن صرف قيمته إلا اذا استعاد عرشه ، وأصبح لدائنيه الكثيرين مصلحة كبيرة في استرداده للعرش، وكان شيشرون قد اتهمه بأنه اشترى مجلس الشيوخ

بأسره ، وتعرض أعضاء الوفود المرسلون من الإسكندرية للاعتراض على هذا التصرف إما للاغتيال أو لشراء صمتهم برشوة، وأصبحت مسألة اعادته إلى العرش موضوع مضاربات مالية هائلة ، وجرى تداول انوناته الموقعة منه فى البنوك الرومانية بأسعار تتراءى فيها الاتجاهات المعاصرة فى مجلس الشيوخ ، وكان المجلس يضم فئات مؤيدة لأوليتس ومعارضة لـه ، وكانت عضوية هذه الفئات تتوقف أساسًا على ما اذا كان عضو الشيوخ المعنى يحتفظ بأنونات أوليتس أم لا ، والذى حدث فيما بعد ، على الرغم من الشائعات المؤسفة عن اغتيال المبعوثين ، أن مجلس الشيوخ قرر تكليف بوبليوس كورنليوس لنتولوس سبنثر وهو واحد من القناصل فى تلك السنة (٥٧) والحاكم العسكرى المرشح لولاية قليقيليا بالقيام بمهمة إعادة أوليتس إلى عرشه ، تلت ذلك سلسلة من المؤامرات بشأن تعيين بومبى ، وهو من الدائنين الرئسيين لأوليتس ، بدلاً من لنتولوس ليكون وكيلاً لأوليتس فى استرداد العرش ، فاستخدمت الخرافة بقصد مقاومة الرشوة ، حيث تم الرجوع إلى كتب سيبللين Sibylline Books التى أوضحت أن أى محاولة لإعادة أوليتس إلى العرش بالقوة إنما تعرض الجمهورية للخطر ، وجرت مناقشات غاضبة فى مجلس الشيوخ عما اذا كان ينبغى إعادة أوليتس إلى العرش ، وإن أعيد فمن الذى يقوم بهذه المهمة ، ولم يتقرر شىء فغادر أوليتس روما وهو مثبط الهمة قاصداً أفسس ، ومن هناك توجه إلى سورية ربما بناء على ترتيب مع بومبى الذى كان يشارك كراسوس فى القنصلية فى ذلك العام ، وألح على جابينيوس الحاكم العسكرى فى سورية بأن يرافقه مع جيش إلى الإسكندرية ويعيده إلى العرش بالقوة ، وفى ربيع عام ٥٥ قام جابينيوس – الذى تمت رشوته بوعد بأنه سيحصل على ١٠٠٠٠ تالنت وبذريعة أن أرخيلاوس زوج برنيس يوشك أن يهجم على سورية – بغزو مصر بجيش وصحب معه أوليتس باعتباره "جزءًا من أمتعته baggage [١٦] ، وكان مارك أنطونى من جملة فرسانه ، ودافعت حامية يهودية عن بلوزيوم ولكنها استسلمت دون مقاومة ، أما أرخيلاوس، الذى يبدو أنه كان زوجًا مناسبًا لبرنيس ، فقد حاول عبثًا حمل الإسكندريين على المقاومة ومات موت الشجعان فى محاولة يائسة للوقوف أمام الغزاة ، ويقال إنه ناشد الحامية الإسكندرية بأن تحفر استحكامات أمام المدينة، فرد عليه الجنود قائلين إن مثل هذا العمل يستخدم فيه العمال لا الجنود.

وهكذا استعيدت الإسكندرية لأوليتس ، وبقى الآن على الإسكندريين وعلى بقية السكان فى مصر أن يسددوا الديون التى تكبدها أوليتس فى روما، كما كانت هناك ديون أخرى ينبغى تسديدها، حيث أمر أوليتس بقتل ابنته برنيس وجميع مناصريها الرئيسيين .

ما كان بمستطاع أوليتس أن يبقى فى الإسكندرية طويلاً دون وجود حامية رومانية لحمايته ، كما أن جابينيوس ترك جزءًا من جيشه هناك عند عودته إلى سورية ، وعاد مارك انطونى إلى سورية مع جابينيوس ، ولعله وهو فى الإسكندرية القى نظرة أولى على كليوباترا ابنة أوليتس الثانية ، وكانت وقتها فتاة فى حوالى الرابعة عشرة من عمرها.

أثارت حملة جابينيوس وعودة أوليتس إلى العرش غضب النبلاء فى روما الذين أيقنوا أن العملية كلها كانت من تدبير بومبى وأصدقائه وذلك لتمكين أوليتس من تسديد ديونه لهم ، وفى عملية صعبة بصورة غير معتادة حتى بالنسبة للأيام الأخيرة للجمهورية ، تم إيفاد أحد رجال البنوك الرومان ، وهو كايوس رابيريوس بوسطوهيوماس Caius Rabirius Posthumus إلى الإسكندرية بالنيابة عن كبار الدائنين ومنهم بومبى وكراسوس ويوليوس قيصر للتأكد من تسديد أوليتس لديونه ، وواقع الأمر أن رابيريوس أصبح وزير مالية أوليتس ، وهو وضع يذكرنا بما حدث فى مصر بعد ذلك بألفى عام نتيجة للديون التى تكبدها الخديوى إسماعيل.

تسبب هذا كله فى فضيحة كبيرة فى روما وبرغم ما كان يتمتع به جابينيوس ورابيريوس من حماية قوية، فقد تم استدعاؤهما وتقديمهما إلى المحاكمة وحكم ببراءة جابينيوس من تهمة الخيانة ولكنه أدين بتهمة الفساد وتم تغريمه ١٠٠٠٠ تالنت ولا يعرف شىء عما تم بالنسبة لرابيريوس ونظرًا للفضيحة التى حدثت ، فالأرجح أن معظم أذونات أوليتس بقيت بدون تسديد قيمتها، وأن ما أبداه يوليوس قيصر فيما بعد من اهتمامه بمصر كان سببه الدين الذى كان مازال – فى رأيه – مستحقًا له .

وتوفى أوليتس فى عام ٥١ ق.م بالغًا من العمر نحو ٤٥ عامًا ، وأقام مجلس الشيوخ الرومانى منفذاً لوصيته حيث أوصى لأكبر أبنائه بالملكة ولأكبر بناته الباقيات

على قيد الحياة بأن تتزوج ابنه حسب العادة البطلمية وأن يشتركا فى الحكم ، وكان أكبر أبنائه ، بطليموس الرابع عشر فيلوباتور ، فى نحو العاشرة من عمره ، وكانت كبرى بناته الباقيات على قيد الحياة ، وهى كليوباترا السادسة فى حوالى السابعة عشرة من عمرها .

Notes

(1) Elgood. The Ptolemies of Egypt. Pp. 99 - 101 .

(2) Bevan. op.cit.p.229 .

(3) Elgood.op.cit.104 .

(4) ibid.p.lo5 .

(5) Athenaeus.op.cit. Book VII, Chapter 2 .

(6) Polybius. History. Book XV, Chapter 30 .

(7) ibid. Book XXXIV,Chapter l4 .

(8) Athenaeus. op. cit. Book VII, Chapter 73 .

(9) Diodorus Siculus. History Book XXXIII, Chapter28.

(10) Bouche- Leclercq. Hisroire des Lagides. Vol. II, p.83 .

(11) ibid.p.87 .

(12) Plutarch. Lucullus .

(13) Bouche- Leclercq. op. cit. Vol. II, p. l35 .

(14) Dio Cassius. Roman History to 229 AD. Book XXXV, Chapter 58 .

(15) Strabo. op. cit. Book XVII .

(16) Bouche- Leclercq. op. cit. Vol. II, p. 462 .

٩ - فتى لا مثيل له

نتيجة للانتصارات التى حققها " بومبى" فى شرق البحر المتوسط فإن مملكة سلوقيا ومعظم ممالك آسيا الصغرى والدولة اليهودية قد تقلصت وأصبحت فى وضع ولايات رومانية أو ممالك خاضعة للرومان ، كل الجزر المتوسطية وساحل المتوسط كله ، من حدود مصر الغربية مع قورينا وحتى الحدود المصرية مع سوريا فى الشرق كانت خاضعة للحكم الرومانى بطريق مباشر أو غير مباشر ، مصر فقط - بمواردها الداخلية الغنية وقوتها البحرية وتحكمها فى تجارة أفريقيا والعرب والهند بأسطولها القوى ، وعاصمتها الإسكندرية ، أروع وأغنى مدن المتوسط - هى التى احتفظت باستقلالها القلق ، هذا الاستقلال كان يرجع الفضل فيه إلى هزيمة الرومان فى الخارج وانشقاقاتهم الداخلية ، ففى عام ٥٣ ق.م تعرضت الجيوش الرومانية لكارثة مروعة فى الشرق حيث أصيب جيشهم تحت قيادة كراسوس بهزيمة قوية أمام البارثيين ، إذ أخذت أعلامهم وقتل كراسوس نفسه ، وأصبح البارثيون هم الأعداء الرئيسيين للجمهورية ، وأخذت غاراتهم تنتقل فى آسيا الصغرى وسوريا ، وفى الغرب كان هناك التنافس بين يوليوس قيصر وبومبى من أجل السيطرة على العالم الرومانى والذى تشابك مع العداء القديم بين العامة تحت قيادة قيصر وبين النبلاء تحت قيادة بومبى ، هذا التنافس الذى تفجر فى شكل حرب أهلية ، وفى النهاية ، تم تسوية الأمر بينهم فى صيف ٤٨ عندما لحقت الهزيمة ببومبى فى فرساليا ، بإليريا وظل قيصر طيلة السنوات الأربع - حتى وفاته - بالإسم لبعض الوقت ، وفى الحقيقة طوال الوقت هو ديكتاتور الجمهورية الرومانية .

لقد وقعت معركة فرساليا بعد موت أوليتس بثلاث سنوات ، فالانشغال بالحرب الأهلية ترك مصر تتمتع بحرية نسبية عن التدخل الرومانى ، عند سماعه بموت أوليتس أرسل مجلس الشيوخ ماركوس -إمليوس - ليبيدوس **Lepidus** أحد أعضاء الحكومة الثلاثية القادمة إلى الإسكندرية ليشرف على تنفيذ الوصية التى كتبها أولتيس وجعل

فيها مجلس الشيوخ هو المسئول عن تنفيذ الوصية ، ويشرف على تنصيب بطليموس الرابع عشر وكليوباترا السادسة على عرش مصر ، وبعد ذلك ترك مصر عدة سنوات قليلة لتدير أمورها بنفسها ، فكتائب جابينوس الرومانية ، التى يتكون معظمها من جنود غاليين وألمان ، بقيت فى الإسكندرية وأقامت من نفسها حرساً ملكياً خاصاً ، (ربما كان الحرس الشخصى المقدونى القديم لم يعد له وجود) ، عندما قام كالبورنيس بيبيلوس Calpurnius قنصل سوريا الذى خلف جابينيوس ، باستدعائهم للمساعدة فى الدفاع عن هذه الولاية ضد البارثيين ، فرفضوا مغادرة الإسكندرية وقتلوا اثنين من أبنائه الذين أرسلهم لإعادتهم إلى هناك .

لقد حكمت مصر باسم اثنين من الملوك الصغار بواسطة حكومة ثلاثية تتكون من بوثينوس وهو خصى يحتمل أن يكون مصرياً وثيودوتس من كيوس وهو خطيب إغريقى وأخيل إغريقى مصرى كان يتولى قيادة الجيش وتبين أصول هؤلاء الثلاثة إلى أى حد اصطبغ البلاط الملكى البطلمى ، فى الإسكندرية عموماً بالصبغة الشرقية فى غضون القرن السابق ، فوجود أحد الخصيان أو رجل مصرى فى مقاعد السلطة كان أمراً لا يتصوره أحد فى ظل البطالمة الأوائل ، لم يمض وقت طويل حتى تشاجرت كليوباترا مع مستشاريها وآخذت تؤكد استقلالها ، وكما قيل آنفاً فى إنها كانت فى السابعة عشر من عمرها حين توفى والدها وقد تربت فى بلاط يسود فيه الانحلال والفساد يلاحقها التهديد من روما من ناحية ومن أهل الإسكندرية الساخطين فى الناحية الأخرى ، ثم اعتادت على هيمنة روما على البلاط وعلى عزلتها المتزايدة عن الإسكندرية وبقية القطر المصرى ، لقد شاهدت كيف اغتيلت أختها الكبرى برنيس بأمر والدها ، وصارت تعيش فى بلاط يحيط بها الخصيان والمتآمرون من كل جانب ، لقد حصلت بطريقة ما على درجة كبيرة من التعليم .

يخبرنا بلوتارك بأن كليوباترا كانت تعرف عدة لغات ، من بينها اللغة المصرية التى لم يهتم أحد من أسلافها بتعلمها ، لقد ورثت القدرة والجرأة والقسوة ، وانعدام الضمير والطموح وهى الصفات التى تميز الكثير من الأميرات المقدونيات بدرجة أكبر زيادة على الجمال والسحر، هكذا وصفها بلوتارك فيقول :

" إن جمالها الحقيقى فى حد ذاته لم يكن ملحوظاً بدرجة لا تسمح بمقارنتها بامرأة أخرى أو أن أحداً لا يستطيع رؤيتها دون أن يصفعه جمالها ، لكن جاذبية

حضورها كان لها أثر السحر، فإذا عشت معها ، فهى قوة لا تقاوم ، بجانب قوة الشخصية وحلاوة حديثها ، والخصوصية التى تلازم ما تقول وما تفعل ، كانت امرأة آسرةً ، وكان الاستماع إلى نغمة صوتها الذى يشبه آلة موسيقية متعددة الأوتار ، وهى تنتقل من نغمة إلى أخرى متعة وأى متعة " (١) .

ويفترض بلوتارك أن أول انتصار حققته كليوباترة كان انتصارها على كنايوس بومبى Cnaeus Pompey ، ابن بومبى العظيم ، الذى جاء إلى الإسكندرية للحصول على دعم لوالده فى صراعه ضد قيصر ، كانت مصر آنذاك متحالفة مع بومبى أثناء حملاته على سورية قبل ذلك بخمسة عشر عاماً ، ولكن السياسة الواضحة لحكامها هى الوقوف على الحياد بين قيصر وبومبى إلى أن تنتهى الحرب الأهلية وتتقرر نتائجها ، وأثناء ذلك تلقى كنايوس بومبى Cnaeeus قدراً مؤكداً من المعونة ، ومن الممكن أن تكون هذه المساعدة قد جاءت من جانب كليوباترا ، ضد نصيحة وزرائها ، إرضاءً لذلك الشاب ذى الجاذبية القوية ، وكان هذا هو السبب المباشر فى القطيعة التى حدثت ، على كل حال فقد طردت كليوباترا من الإسكندرية فخرجت فى صحبة مجموعة من أتباعها المخلصين وذلك بأمر الحكومة الثلاثية التى استمرت فى إدارة أمور المملكة باسم بطليموس الرابع عشر الذى كان فى ذلك الوقت يناهز الثالثة عشر من عمره ، فذهبت كليوباترة إلى القبائل العربية على حدود مصر الشرقية التى كانت خاضعة لسلطة التاج المصرى فى فترات غير متصلة ، وكانت تتحكم فى طريق القوافل الهام بين البتراء وغزة ، وهناك عبأت كليوباترة جيشاً وشكلت تهديداً كافياً لدفع الحكومة الثلاثية إلى تحريك جيشها الذى يتكون فى أغلبه من بقايا كتائب جابينوس والحرس الملكى إلى مدينة بيلوزيوم بوابة مصر الشرقية .

وفى ذلك الوقت انتهت معركة فرساليا بانتصار قيصر وهروب بومبى الذى أصبح طريداً ، فى حين صار قيصر هو سيد العالم الرومانى ، وبدون إدراك لما آلت إليه الأمور ، اتجه بومبى إلى مصر فى أثناء بحثه عن دولة حليفة يلجأ إليها وحين وصل إلى بيلوزيوم فى خريف عام ٨٤ بلا أى جيش وليس فى صحبته سوى قلة من أتباعه ، وقعت الحكومة الثلاثية فى مأزق خطير فاستقبالها لبومبى يعنى أنها اتخذت منه سيداً وبالتالى أصبح قيصر هو العدو ورده سوف يكشف عن سلوكهم البغيض تجاه بومبى ،

الذى يمكن أن يسترد سلطته ، وتجاه قيصر الذى سوف يلومهم ، على إعطائه فرصة للهروب وتحادث تيودوتس ، الخطيب مع زملائه حول هذه المشكلة وانتهى إلى التصرف الحكيم على أن " يرسلوا فى طلبه وأن يقضوا على حياته وبهذه الطريقة يتوددون إلى أحدهم ويتقون شر الأخر لأن الميت لا يمكنه أن يعض " (٢) .

وهكذا سارت الأمور باسم الملك الشاب ، وأسند تنفيذ المهمة للجندى أخيل ، لقد أغرى بومبى لترك سفينته والنزول إلى قارب مصرى ، بحجة ضحالة عمق الماء التى لا يسمح للسفينة بالاقتراب من الشاطىء وعندما اقترب القارب من الشاطىء تلقى طعنة نجلاء قضت عليه ثم قطعت رأسه لتقدم إلى قيصر عند وصوله المتوقع بحثًا عن عدوه ·

وصل قيصر خارج الإسكندرية بعد أيام قليلة ومعه قوة من ثلاثة آلاف من المشاة ، وثمان مائة من الفرسان وقبل أن ترسوا سفائنه ، قابله ثيودوتس الذى جاء على عجل من بيلوزيوم ومعه رأس بومبى ، فقدمها لقيصر وفيما بعد أمر قيصر بدفنه فى ضريح بنى خصيصاً لــه خارج الأسوار الشرقية للإسكندرية ، وأهداه إلى نيمسيس·

بعد استقبال ثيودوتيوس هبط قيصر وجنوده وتقدموا صوب المدينة ، وقام الكثير من الموظفين بمهمتهم فى افساح الطريق أمام الحاكم ، مسلحين (بالحزيمة) وهى عبارة عن مجموعة من قضبان محزومة على فأس وقد كانت من شعارات السلطة عند الرومان – بعد ذلك اتخذ مركز اقامته ، ولأنه كان يعلم مجريات الأمور فإنه أرسل فى طلب الملك والملكة إلى الإسكندرية لكى يقوم بالتحكيم فيما بينهما من خلافات ، عاد بوثينيوس من بيلوزيوم إلى الإسكندرية ومعه الملك تاركا أخيل هناك ومعه الجيش لكى يدافع عن مصر ضد كليوباترا ، أما كليوباترا فقد استقبلت رسالة قيصر ، وأدركت أن نتيجة التحكيم سوف تعيدها حتمًا إلى العرش حسب وصية والدها فعادت إلى الإسكندرية عن طريق البحر ، فى صحبة مرافق واحد ، هو أبولودورس الذى يقال إنه أدخلها سراً إلى القصر إلى حيث يوجد قيصر وهى ملفوفة فى ملاية سرير·

هذه الدرجة من السرية كانت ضرورية ، لأن تصرفات قيصر وقواته المتعجرفة ، وابتزازهم للأموال ، جعلت أهل الإسكندرية ينقلبون ضد الرومان وضد القصر الملكى

ولأول مرة وربما لآخر مرة ، وصل الحال بأهل الإسكندرية إلى الدرجة التى أوشكوا أن يحاربوا عندها من أجل استقلالهم ، لقد صار الحى الملكى فى حالة حصار حاصرته الجماهير الغاضبة وأدرك بوثينيوس حالة الشعب المزاجية لأول مرة وتقريباً لآخر مرة كما أدرك فى نفس الوقت ضآلة القوة التى وضعها قيصر رهن اشارته فتلهف على التخلص السريع منه بقدر الإمكان قبل أن تصله أية تعزيزات عسكرية ، أيضًا ولأنه محبوس داخل القصر مع قيصر ، فإنه يتمنى أن يبتعد عن التواجد معه فى مكان واحد أمام عيون الناس من أهل الإسكندرية فشكى لهم من طلباته الملحة ، فجعل القوات الرومانية تتغذى على القمح المتعطن غير الصحى ، قائلاً لهم إنه " يجب عليهم أن يقنعوا بهذا حيث أنهم يأكلون على حساب غيرهم" وأمر أن يقدم الطعام على مائدته فى أوانى من الخشب والفخار وقال إن قيصر حمل معه كل الأطباق الذهبية والفضية بإدعاء أنها متأخرات دين كان له، وحاول أن يغرى قيصر بأن هناك أموراً ذات أهمية عظمى تنتظره خارج مصر ولم يتلق من قيصر سوى القول بأنه لا يحتاج إلى نصيحة مصرى وفقد قيصر الثقة فى بوثينيوس ، وشك فى أنه يدبر لقتله بالسم .

بعد وصول كليوباترا أخذ قيصر فى ممارسة سلطانه كعضو مجلس شيوخ فأمر بقراءة وصية أوليتس فأعلن تنصيب بطليموس الرابع عشر وكليوباترا كملكين شركاء فى السلطة تحت حماية روما ، وصالح بين الأخ وأخته وأقام وليمة احتفالاً بتصالحهم وتبعاً لنصيحة ديوكاسيوس ، وفى محاولة لتهدئة أهل الإسكندرية أعلن عودة جزيرة قبرص إلى مصر وتعيين بطليموس الأصغر وأرسينوى أخ وأخت بطليموس الرابع عشر وكليوباترا ، كنواب للملك على الجزيرة (إذا كان قد فعل هذا ، فإعادته للجزيرة لن تكون نافذة المفعول) .

وبعد ذلك بقليل أصبحت كليوباترا عشيقة لقيصر ، وفى نفس الوقت تقريباً وقع بوثينيوس فى الشرك بين مطالب قيصر الملحة وبين هجمات السكندريين ، وأدرك أن الصداقة الحميمة بين قيصر وعدوته كليوباترا سوف تؤدى إلى احتمال التخلص منه ، فقام بخطوة جريئة حاسمة فبعث رسالة إلى أخيل فى البلوزيوم ، وطلب منه أن يعود إلى الإسكندرية بجيش مكون من ألفين من الفرسان وعشرين ألفًا من جنود المشاة بهدف طرد قيصر وجيشه إلى البحر.

لقد خاطر قيصر وأوقع نفسه فى المصيدة فقواته فى الإسكندرية أقل كثيراً فى عددها من قوات أخيل ، وأن الأسطول المصرى الذى يتفوق تفوقاً كبيراً فى عدد السفن على السفن القليلة التى معه حال بينه وبين التعزيزات أو الهروب عن طريق البحر كما أن شعب الإسكندرية يعاديه عداء شديداً ، وتقدم جيش أخيل أصبح يحول بينه وبين الهروب أو تلقى المعونة عن طريق البر وأصبح قيصر محاصراً فى حى بروكيوم ، وليس لديه دفاعات كافية هناك ، لقد أدرك الخطر الذى أحاط به ، وعندما سمع باقتراب أخيل أرسل إلى معسكره مبعوثين باسم الملكين المصريين ، يطلبان منه وقف زحفه نحو الإسكندرية فقتل أخيل أحدهما ، و أساء معاملة الآخر واستمر فى زحفه ، هكذا بدأت حرب الإسكندرية .

لماذا وضع سيد العالم نفسه فى هذا الخطر عازلاً نفسه عن مصادر قوته وواضعا نفسه تحت رحمة عصابة تافهة من الثوار المصريين ؟ لماذا سمح قاهر العالم لنفسه أن يسجن فى ركن من أركان مدينة إغريقية، معزولا فى قصر يقع فوق رأس صخرى بين الماء والأرض ؟ وقد أزاغت عقله المؤامرات التى يحيكها حشد من المحظيات وأربعة مراهقين بينهم عشيقته يحاصرهم جمهور يعاديهم جميعًا ، لقد أرجع قيصر تأخره فى الخروج من الإسكندرية إلى هبوب رياح عكسية ، أما السبب الحقيقى فهو أحد أمرين إما حبه لكليوباترة أو رغبته فى إكمال مهمته الخاصة بتحصيل الديون ، عندما وصل أخيل وجيشه إلى الإسكندرية ، حاصر حى البروكيوم الذى أمر قيصر بتحصينه ووضع كتائب الجيش حوله ، كانت بداية المعركة فى البحر إذ تجمعت اثنان وسبعون سفينة للأسطول المصرى فى الميناء الشرقى بين الميناء الملكى ، حيث كانت سفن قيصر راسية وبين البحر المفتوح ، لقد نجح قيصر فى إشعال الحريق فى هذا الأسطول وفى حوالى ثلاثين سفينة على الأرصفة وفتح بذلك خطوط اتصالاته البحرية وامتدت النيران من السفن إلى البر ودمرت عدة مخازن ومستودعات وطبقاً لرواية بعض الكتاب ، فإنها دمرت المكتبة الشهيرة التى كانت تقع فى مواجهة تلك المستودعات.

أقام قيصر مركز قيادته فى المسرح الواقع على مرتفع صغير فى وسط حى البروكيوم المطل على المدينة والبحر ومتصلاً بالقصر عن طريق نفق أرضى ، وكانت

خطوته التالية بعد كسر الحصار البحرى هى وضع حامية فى جزيرة فاروس للتحكم فى مدخل الميناء الشرقى ، أما الميناء الغربى والمعبر الذى يفصل بين الميناءين فكانا لا يزالان تحت سيطرة المصريين .

بعد أن استعاد قيصر اتصالاته البحرية ، بعث رسائل إلى جنرالاته فى سورية وآسيا الصغرى يطلب تعزيزات لقواته ربما كانت هذه اللحظة من أجمل اللحظات بالنسبة لشعب الإسكندرية ، وأنها المناسبة الوحيدة التى ظهروا فيها مستعدين لكى يحاربوا من أجل مدينتهم .

لقد نشروا فى مصر كلها وكلاء للتجنيد عادوا إليهم بمتطوعين ، وأسلحة وذخيرة للحرب ، تحولت المدينة كلها إلى مصنع ذخيرة ومعسكر مسلح وتركت حراسة الضواحى لميليشيا من العبيد يتم إطعامهم وتجنيدهم بواسطة سادتهم ، احتلت القوات النظامية قلب المدينة استعداداً لرد أى محاولة يقوم بها الرومان للخروج من حى البروكيوم ، وأغلقت كل طرق الخروج من البروكيوم بالحواجز والمتاريس بارتفاع أربعين قدماً[٢] .

ولكن فى ضوء شعور أهل الإسكندرية الباطنى تجاه البطالمة ، فإنهم كانوا يحسون أن هناك شيئاً ينقصهم ، وهو وجود عضو من هذه الأسرة ، وريثاً للدم الملكى ، يحفز جهودهم وسرعان ما وجدوا حاجتهم تتحقق لقد كان جو القصر المحاصر يعج بالمؤامرات ، فقد كان قيصر محاطاً بحرسه الخاص ، يشك أن بوثينيوس على اتصال بأعدائه وأنه يحاول أن يدس له السم وأصبحت كليوباترا تتفاخر بعلاقتها بقيصر فتشاجرت مع قرينها الذى احتج بقوة عندما اعادها قيصر إلى العرش لكى تشاركه الحكم وساءت علاقتها بأختها الصغرى ، أرسينوى ، ولكى يكسب قيصر المعركة فلابد من التخلص من زوجها وأختها أرسينوى ، أما أرسينوى فكانت جديرة بهذا الاسم مثل جدتيها حاملى هذا الإسم ، كانت فى السابعة عشر من عمرها وتتمتع بهمة جعلتها تضيق بهذا الوضع ولهذا تسللت ذات ليلة إلى خارج القصر ومعها حارسها الرئيسى ، الخصى جانيميد ، وانضمت لقوات الحصار وفى نفس الوقت تقريباً اكتشف قيصر أن بوثينيوس يتصل سراً بأخيل فأمر بقتله .

كان وصول أرسينوى إلى معسكر المصريين سببًا للشقاق والفرح فى آن واحد ، وبعد الإعلان عنها كوصية على العرش ، أخذت فى ممارسة سلطاتها وكان أول قرار اتخذته هو إقصاء أخيل من قيادة الجيش واختارت جانيميد مكانه ، ثم أمرت بقتل أخيل ، هكذا دفع اثنان من أعضاء الحكومة الثلاثية حياتهم ثمنًا لمعركة الإسكندرية رغم أن تعيين جانيميد لم يكن إجراء سليما ، فإنه كان عاملاً عظيمًا ، فقد أثبت جانيميد أنه أكثر حذقاً ونشاطاً من أخيل ، فكان أول عمل نفذه هو قطع إمدادات المياه العذبة عن حى البروكيوم ، ثم ملأ صهاريج المياه بمياه مالحة ضخت من البحر وكان رد فعل قيصر غاضباً كالمعتاد فأمر جنوده بحفر الأبار وسرعان ما حصل على الماء وتغلب على هذه الأزمة ، بعد ذلك بقليل وصل الفوج الأول من التعزيزات إلى قيصر عن طريق البحر ، وصلت الكتيبة السابعة والثلاثون من آسيا بقيادة اجناسيوس دومينتيوس كالفينوس حاملة معها كميات من القمح والذخيرة ، ونتيجة لعدم وجود رياح تساعد السفن على دخول الميناء ، أرسل قيصر سفنا تسير بالمجاديف لسحبها ورافق هذه السفن بنفسه وهنا تحركت بقايا الأسطول المصرى الراسية فى الميناء الغربى لاعتراضها ، فنشبت معركة بينها وبين سفن قيصر لكن الرومان نجحوا فى إدخال التعزيزات إلى الميناء .

استعاد جانيميد السيطرة على جزيرة فاروس وفى الحال سيطر على الميناءين وأخذ فى تقوية الأسطول فى الميناء (الغربى) باحضار سفن من النيل ، وسريعًا تمكن من مهاجمة سفن قيصر فى الميناء الشرقى بارسال سفن حربية عبر البحر ، عندئذ قرر قيصر أن يهاجم الأسطول المصرى فى ايونوسطوس فأرسل سفنه الحربية الأربع والثلاثين خارج الميناء الشرقى حول جزيرة فاروس وحتى ايونوسطوس وبدأت المعركة داخل الميناء وكان أهل الإسكندرية يراقبونها بقلق شديد من فوق الأسطح والشرفات ، فى البداية سارت الأمور على عكس مصلحة الرومان فقد أجبرهم الركام الرملى فى مدخل الميناء على أن تدخل سفنهم الواحدة تلو الأخرى ، وهذا مكن المصريين من الإجهاز على هذه السفن واحدة بعد الأخرى عند ذلك قام الأميرال ايوفرانور الذى استطاع أن يحقق نصراً للرومان خارج الميناء الشرقى قبل ذلك بأيام قليلة ، تمكن من استدراج السفن المصرية بعيداً عن مدخل الميناء مما مكن الأسطول

الرومـانى من الدخـول دون مـزيد من الخـسـائر لكى تشـتبك مع الأعـداء بالجـرى فى محـازاتهم وأن تقاتل الأعداء جنبًا إلى جنب ومن فوق ظهور السفن ، وكان الرومان متفوقين فى هذا النوع من الحروب وإن كان المصريون يتفوقون عليهم كبحارة ، وتم إغراق عدد كبير من السفن المصرية أو الاستيلاء عليها وانسحبت البقية إلى جانب الأرصفة أو إلى الميناء الداخلى (كيبيتوس) حيث لا تستطيع السفن الرومانية أن تتعقبهم ·

أما الأسطول المصرى فقد أصابه الضعف بدرجة تتيح لقيصر أن يستولى على الهيبتاستاديون ولكن كان عليه أولاً أن يستولى على جزيرة فاروس وتم إنزال عشر وحدات من المشاة وعدد قليل من الفرسان فى مركبات قليلة ثم صدرت الأوامر بالهجوم على الجزيرة من البر ، وفى نفس الوقت أبحر عدد من السفن الكبيرة خارج الميناء للقيام بعمليات تضليل لشد انتباه المصريين جهة البحر ، تم الدفاع بقوة عن الجزيرة بواسطة الحامية العسكرية والسكان الذين أمطروا المهاجمين بالصخور من فوق أسطح منازلهم ولكن فى النهاية توقفت المقاومة وبدأ الناجون سواء من جنود الحامية أو أفراد الشعب يتركون الجزيرة فراراً على المعبر أو سباحة الثمانمائة ياردة عبر ابونوسطوس (الميناء الغربى) وقام الجنود الرومان بسلب ونهب ما بقى وأمر قيصر بهدم كل البيوت المقامة على الجزيرة وبقيت الجزيرة بعد ذلك غير مأهولة بالسكان فيما عدا عمال الفنار ، وقليل من البحارة والصيادين الذين كانوا يعيشون بالقرب من الفنار، وذلك طبقا لرواية استرابو·

وكانت الخطوة التالية هى الهجوم على الجسر الصاعد من جزيرة فاروس بهدف إغلاق الممرين البحريين عن طرق المعبر الذى يربط الميناءين والذى مكن المصريين من الهجوم على السفن الرومانية فى الميناء الشرقى وهناك وقع قتال من أشد وأقسى أنواع القتال فى هذه الحرب كلها فحين احتل الرومان الجسر رد المصريون بهجوم مضاد براً وبحراً وطرد الرومان خارج المعبر وكان قيصر يقود العمليات بنفسه ، واضطر إلى القفز من فوق المعبر والسباحة فى الماء تاركاً عباءته كغنيمة فى يد الأعداء المصريين وكانت هذه نكسة خطيرة للرومان ، الذين تعرضوا لاصابات خطيرة وبقى المصريون يحكمون السيطرة على الممر·

كان واضحًا أن أحدا من الجانبين لم يحقق نصراً حاسمًا على الأخر وفتح باب المفاوضات بينهما ، طالب أهل الإسكندرية بتسليم ملكهم إليهم ووعدوا أن ينفذوا أوامره حتى لو كان الاستسلام للرومان ، لم يستطع قيصر أن يصدق ذلك فأطلق لهم سراح بطليموس الرابع عشر ربما لأنه تعب من مشاجراته مع كليوباترا أو لأنه قدر أن وجوده فى معسكر الأعداء مع أرسينوى سوف يحدث شقاقًا بينهم ، وقد صح تقديره ، فأول إجراء قام به هذا الصبى ذى الخمسة عشر ربيعاً هو طرد جانيميد وإعلان نفسه قائدا للجيش .

وبعد قليل حصل قيصر على تعزيزات أخرى عن طريق البحر ، واستولى على الإسكندرية لكن بعد معركة مريرة عند مدخل الميناء الشرقى ، قتل فى أثنائها يوفرنور أدميرال قيصر الروديسى.

لكن الدعم العسكرى الذى كان ينتظره قيصر كان جيشا بقيادة ميثريديتس من برجامون حليف قيصر وهو الحفيد غير الشرعى لميثرديتس البونطى ، حليف قيصر وكان يجرى تعبئة هذا الجيش فى قليقيليا ، و سوريا واليهودية ، وهو قادم براً عن طريق سيناء ، وقد استولى فعلاً على البلوزيوم ، وهو يزحف الآن على الإسكندرية عن طريق الفرع الشرقى للنيل إلى نهاية الدلتا نزولاً إلى فرع الكانوب (الغربى) وكان هذا هو الطريق الوحيد لتجنب المتاهة فى مجارى مياه الدلتا وكان مصير هذه الحرب يتوقف على وصول هذا الدعم إلى قيصر بالإسكندرية أو عدم وصوله ، وتحرك الجيش المصرى ، تحت قيادة الملك الشاب باتجاه الشرق على طول خط القناة لكى يعترض طريق ميثرديتس ، قاد قيصر جيشه فى عدة مسيرات حول الطرف الغربى لبحيرة مريوط ونجح فى ملاقاة قوات ميثرديتس على الضفة الغربية لفرع الكانوب وعندما أتحد الجيشان تحقق لهما التفوق العددى على الجيش المصرى الذى كان يعترض الآن طريقهم إلى الإسكندرية ، أما بطليموس الذى يتكون جيشه بدرجة كبيرة من جنود جابينيوس المحنكين القدامى ، فإنه اتخذ موقفاً عظيمًا للدفاع ، جناحه الأيسر يتكىء على النيل وجناحه الأيمن فوق مستنقع ، وأغلق الطريق إلى الإسكندرية وبعد أن فشل الهجوم الرومانى على مقدمة الجيش المصرى التف قيصر حول أجنحته وهاجمه من الخلف وانتهت المعركة بمذبحة للمصريين وبين الذين قتلوا الملك الشاب ، الذى تعرفوا

على جثته عن طريق الدرع،الذهبى الذى كان يضعه على صدره والذى أعيد بعد المعركة ، عندئذ تحرك قيصر وجيشه المنتصر نحو الإسكندرية بنفس الطريق الذى أتخذه بطليموس فى مسيرته لملاقاة ميثرديتس.

فى ذلك الوقت (مارس ٤٧) بلغت معاناة المصريين أقصى درجاتها فأعلنوا استسلامهم الذليل للفاتح الذى عاد إلى القصر ، ليتلقى التهنئة من كليوباترا عشيقته و سجينته .

ليس من المؤكد إن كانت علاقة قيصر بكليوباترا قد أثرت فى سياسته نحو مصر أم لا : ربما لأمكن ، أو كان فى الاحتمال أن تبقى مصر دولة تابعة وأن تصبح إقليمًا رومانيًا : فقد كانت فكرة ضمها تجد معارضة شديدة فى روما ، وهى معارضة حتى قيصر نفسه لم يكن على استعداد لتحويلها ، فعلاوة على مسألة الكرامة فإن المعاهدة بين أوليتس ومجلس الشيوخ – التى مازلت الجمهورية تعطيها قدرًا من الاهتمام ، فان فرص الفساد الكامنة فى هذا الإقليم سوف تثير الغيرة والشقاقات ومن الأفضل تركها نائمة .

الآن وبعد موت بطليموس الرابع عشر ، وتطبيقًا صارمًا لروح وصية أوليتس ، أعلن قيصر أن الأخ الأصغر للملك المتوفى – والمعروف باسم بطليموس الخامس عشر – قد أصبح زوجًا رسميًا لكليوباترا وشريكًا لها فى الحكم ، وتم القبض على أرسينوى أخت كليوباترا ووضعها فى السجن ثم إرسالها إلى روما ، وشرع قيصر بنفسه فى ترتيب أمور مصر وتنظيمها ، وكان من بين القرارات التى اتخذها هو تأكيد امتيازات الطائفة اليهودية فى مصر ، لقد أسهم يهود مصر بفرقة عسكرية ضمن قوات مثريديتس التى قامت برفع الحصار وأن الطائفة اليهودية المحلية بالإسكندرية ، قد قدمت على ما يبدو دعماً أثناء الحصار .

لقد صارت كليوباترا أكثر من أبيها خضوعًا لروما ، ومن المحتمل أنها كانت أقل شعبية ، لكن قيصر وكليوباترا أدركا أنه طالما بقيت الوحدات العسكرية ، وطالما ظلت روما تحت حكم سيد واحد ، فان أهل الإسكندرية سوف يتصرفون بطريقتهم المعهودة فيقبلون بالوضع كما هو ثم يحولوه إلى صالحهم إذا سنحت الفرصة بذلك ، ليس

لديهم النية لجر أنفسهم إلى مذابح أو تعريضها السلب والنهب أو الغرامات الجماعية ، التى عانت منها كثير من المدن الهللينستية على أيدى الرومان ، والواقع أن العدد الأكبر من دول العالم الهللينستى قد ضربت مادياً بفعل الحروب التى اجتاحتها ، والابتزاز المالى من قبل جامعى الضرائب وان ثراء الإسكندرية ورفاهيتها يرجع فى الأساس إلى افلات مصر من هذه المصائب ، كانت رشاوى أوليتس والديون التى يجمعها قيصر ثمنًا قليلاً لهذه الحصانة النسبية ، كان الرومان اجلافا غير متمدنين ، أفضل قليلاً من البرابرة لكنهم كانوا موجودين هناك وكان من الضرورى أن تتم محاولة التعايش معهم ، فمن الأفضل تحملهم ومحاولة تمدينهم لأن نجاح هذه المحاولة خير من طردهم ، وفى اللحظة الراهنة فإن كليوباترا التى تنتمى إلى الأسرة البطلمية ، هى التى تحول بينهم وبين الحكم الرومانى المباشر، حاجز ضعيف فعلاً ، لكن يجب المحافظة عليه ، قد يكون هناك عنصراً خفيًا فى العلاقة التى تربط بين الأسرة البطلمية وبين أهل الإسكندرية ، لكن هناك أيضاً رابطة مشتركة هى المصلحة الشخصية لأنه ليس فى نية أو قدرة أى طرف منهما أن يحارب الرومان ، فكل منهما يريد اتقاء شرهم ، الخلاف الوحيد هو أن كليوباترا كانت تدفع نصيبها من الثمن عن طيب خاطر ، لكن كل منهما كان لديه الكثير مما يعطيه دون ارهاق شديد لمصادر رخائه.

لقد أصبحت كليوباترا عشيقة لقيصر ، وبمنطق حياة الأميرات المقدونيات كان هذا هو الطريق العملى الذى تفرضه الطموحات الشخصية والضرورات السياسية ورفاهية رعاياها بالدرجة التى تعنيها ، فإذا كان قلبها فى وفاق مع عقلها ، فإنها لن تعجز عن القيام بمهمتها ، ومن جانب قيصر فالأمر أقل وضوحاً ، فان العمل والمتعة لا ٧ أتباع بومبى لابد من التصدى لهم، هناك الغيورون والمنافسون فى روما لابد من قهرهم والتغلب عليهم ، من الأفضل أن تبقى مصر دولة تابعة لروما بدلاً من ولاية ثائرة ، إن وجود كليوباتراعلى العرش مع قليل من الوحدات العسكرية للحراسة الشخصية ، يبدو ضمانًا كافيًا لخضوع مصر خضوعًا وديًا ، ليس لمجلس الشيوخ ، وإنما لقيصر نفسه .

بعد أسابيع قليلة من بدء إدارته للأمور بالإسكندرية ، وفى أبريل ٤٧ تقريبًا خرج قيصر وكليوباترا فى نزهة نيلية فى قصر عائم ربما من النوع الذى جرى وصفه فى

فصل سابق ، لقد ساروا جنوباً حتى الشلال الأول ، في حراسة مكثفة من الوحدات الرومانية .

بعد قليل من عودته إلى الإسكندرية ، تلقى قيصر تقاريراً تفيد وقوع اضطرابات في سورية ، وآسيا الصغرى وأسبانيا وأماكن أخرى كما تلقى أخباراً عن مؤامرات وتحالفات في روما ، فغادر مصر إلى سوريا ومعه الفيلق السادس ، تاركا خلفه ثلاث فيالق لحراسة كليوباترا وكان من نتيجة اقامته في مصر تقديمه اللاحق لما عرف فيما بعد بتقويم جوليان - والخاص بإضافة يوم لأيام السنة كل أربع سنوات ليتمشى التقويم مع ظاهرة تسابق الفصول ، لقد عرف قيصر هذا في مصر من أحد علماء الفلك واسمه سوسيجينيز في الإسكندرية ، الذي أصبح معلما للملك الصغير والذي ربما اصطحبه معه حين ذهب إلى روما فيما بعد مع كليوباترا .

عندما غادر قيصر الإسكندرية كانت كليوباترا حامل منه بولد أسموه قيصرون تصغيراً لاسم قيصر ، ولدته كليوباترا في خريف عام ٤٧ في ذلك الوقت كانت كليوباترا شابة لا يزيد عمرها عن إحدى و عشرين سنة وكان قيصر في السادسة والخمسين من عمره .

وبعد حملته الناجحة في آسيا الصغرى ضد فارناسيس ابن مثريديتس ، ملك بونط عاد قيصر إلى روما حيث اختاره مجلس الشيوخ دكتاتوراً للمرة الثانية وقنصلاً للعام القادم ، ثم أبحر بعد ذلك إلى أفريقيا حيث هزم جيشاً كان في جنده بعض أتباع بومبي ، وفي ربيع ٤٦ عاد إلى روما ثانياً حيث احتفل بذكرى انتصاراته الثلاثة في مصر وآسيا الصغرى وأفريقيا ، وفي موكب الاحتفال المصري ، سارت أرسينوي أخت كليوباترا مكبلة بالسلاسل ، وكان في العرض أيضاً تماثيل صغيرة لبوثينوس وأخيل بقصد الاستهزاء بهما بالإضافة إلى موديل لفنار الإسكندرية وفي نهاية حفل الانتصار وعلى عكس الإجراء المعتاد صدر العفو عن أرسينوي ، فذهبت إلى أفسس لتعيش في حماية معبد ديانا، بعد الاحتفال تم انتخاب قيصر قنصلاً للمرة الرابعة فعبر الحدود إلى أسبانيا لمقاتلة جيش أخر جهزه أبناء بومبي الأحياء وبعد أن هزم هذا الجيش عاد إلى روما مرة أخرى .

لا نعرف بصورة مؤكدة متى وصلت كليوباترا إلى روما لكن الشيء المؤكد أنها كانت هناك حين عاد قيصر من أسبانيا ، كانت فى صحبة أخيها وزوجها بطليموس الخامس عشر ، ومعها ابن قيصر الرضيع قيصرون ، وقد أقامت مع قيصر فى فيلا فى تراستاثيرا والظاهر أنها أتت إلى روما لتطلب من مجلس الشيوخ تأكيداً لمعاهدة الصداقة التى عقدت مع والدها ، أتت من تلقاء نفسها دون أن تتلقى دعوة من قيصر ، ربما كانت ترغب فى اللحاق بحبيبها لكن لابد أنه كان لديها أسباباً سياسية أيضا ، كانت تعى جيداً الوضع السياسى فى روما عن الغيرة والمنافسة التى تثيرها طموحات قيصر المتصاعدة ، وربما أرادت أن تؤكد وجودها وعرشها ضد احتمال تخلى قيصر عنها ، أو إمكانية سقوطه وفى أثناء وجودها فى روما ، سارت على خطى والدها أوليتس إذ أقامت علاقات مع الرومان من جميع الأحزاب .

ربما كانت ترغب بحضورها وهى واثقة جداً من جمالها وسحرها ، أن تشدد الرباط حول قيصر ، لقد كانت واثقة بطموحها للزواج من قيصر أنها ستحكم معه كملك وملكة العالم الرومانى كله ، لقد كانت هذه الملكة الجميلة الطموحة الذكية المقتدرة التى لا تعرف الرحمة تشعر بالألفة التامة فى جو روما المعاصر الملىء بالدسائس والمؤامرات ، ووسائل المتعة الوفيرة ، لقد تركت باب بيتها مفتوحا فى فيلا تراستاثير ، وعرف معظم أعضاء مجلس الشيوخ طريقهم إلى هناك فى وقت أو فى أخر ، يجذبهم حب الفضول والشهوة وفكرة البقاء مع قيصر وعشيقته ، لأن قيصر لم يجعل علاقته سراً بكليوباترا فقد اعترف بأبوته لابنه قيصرون ، بل وكان عنده صورة بعضهم يقول إنها لوحة مرسومة وبعضهم يقول إنها تمثال من الذهب لكليوباترا موضوعاً فى معبد الربة فينوس الذى أقيم تذكاراً لانتصاره على بومبى فى فرساليا ، فى ذلك الوقت أسكره مديح اتباعه وأدار رأسه وأصابه بالعمى والصم فلم يشعر بتراجع شعبيته المتزايد ، ويرجع انحسار شعبيته فى جزء منه إلى كليوباترا فكثير من أعضاء مجلس الشيوخ خاصة الشباب منهم وجدوا أنه من اللياقة أن يتوددوا أليها لكن معظمهم لا يقبلون بها ولا بعلاقتها مع قيصر ، وبالطبع كبار سيدات الرومان الذين كانوا يمارسون تأثيرا كبيراً فى المجتمع والسياسة كانوا يرفضونها رفضا قوياً ، كانت روما فى ذلك الوقت ، تعيش جوا مشبعا بالشك فى تلك العادات والأساليب الشرقية

الغريبة التى كانت تزحف على الجمهورية عن طريق غزوات روما للعالم الهللينستى ، وكان هذا الشك مصحوبا بمشاعر الغيرة المستحوذة على الرومان تجاه أى مدينة شرقية ، يمكن اعتبارها منافسا لروما ، وكان هذا جزءًا من الأسباب التى أدت إلى تدمير قرطاجة وتسويتها بالأرض بعد غزوها ، وهكذا اجتمع الشك فى الشرق عموما ، مع الغيرة من الإسكندرية بصفة خاصة ، لإثارة الرأى العام الرومانى ضد كليوباترا ، وضد قيصر وانتشرت الإشاعات بأن قيصر يطمح فى إعلان نفسه ملكا وأن يتزوج كليوباترا وأن يؤسس أسرة ملكية عاصمتها ليست روما بل الإسكندرية .

كان قيصر يخطط لحملة ضد البارثيين أعداء روما الرئيسيين ، وبعد غزوهم ربما يذهب إلى الهند من باب المحاكاة لبطله ومنافسه بمعنى ما ، الإسكندر الأكبر ، الرجل الوحيد بين الفاتحين الذى كان أعظم من قيصر ، كان عقله مثل عقل الإسكندر يدور بعيدا عن الغرب ويتجه نحو الشرق حيث الأجواء المليئة بالسحر والجمال والفخامة الخرافية ، وحيث يمكن التعامل مع الخصوم السياسين بسهولة إذ لا يطلب من الحاكم استشارة الشعب ، فالاستبداد فى الحكم أمر مفهوم ، يواجه بالاحترام ، مع هذه الأفكار تصبح الإسكندرية كعاصمة وكليوباترا كملكة شديدتا الجاذبية ، ألم يتزوج الإسكندر بروكسانا وهى أميرة فارسية ويؤسس عاصمته فى بابل ؟ .

أغتيل قيصر فى ١٥ مارس عام ٤٤ ق. م وأغلب الظن أن كليوباترا كانت فى روما فى وقت اغتياله ورأت الارتباك والدسائس التى أعقبت ذلك ، لكنها غادرت روما بأسرع ما يمكن، وفى يونية عام ٤٤ رجعت كليوباترا إلى الإسكندرية انتظارا لما تسفر عنه الأحداث من حرب أهلية توشك على الاندلاع فى عالم الرومان ، فى ذلك الوقت تقريبا اختفى أخوها وشريكها بطليموس الخامس عشر من التاريخ ولايبدو أن أحداً قد عرف أو اهتم بما حدث له ، كان فى الخامسة عشر من عمره ، ويبدو أنه أغتيل بأمر كليوباترا .

كليوباترا الآن تعرف وهى فى الإسكندرية أحوال العالم فى روما، ومما لاشك فيه أن أعوانها كانوا موجودين فى روما وفى غيرها من الأماكن، يراقبون سير الأحداث مراقبة دقيقة، بعد اغتيال قيصر .

إن مارك أنطونيو ضابط الفرسان الشاب الذى أتى إلى الإسكندرية مع جابينوس سنة ٥٥ والذى أصبح فيما بعد أحد الأتباع المقربين لقيصر ، يلعب دوراً رئيسياً فى هذه الأحداث الآن ، فعند وفاة قيصر كان أنطونيو قنصلاً ، تم انتخابه بتأثير قيصر ، كان فى حوالى السادسة والثلاثين من عمره ، وكان مشهوراً كضابط عظيم متميز ، وهو الذى قاد فرسان قيصر فى فرساليا وكانسان فإنه عربيد مغرور ، زير نساء coureur des femmes مغرم بحياة الرفاهية ومدمن للخمر وكسياسى فهو حاذق جداً طالما استطاع أن يتغلب على مغريات السفاهة والمجون ، فقد استطاع بعد مقتل قيصر مباشرة أن يستخدم نفوذه فى السيطرة على مجلس الشيوخ الذى انقسم على ذاته وأصابته الحيرة والبلبلة ٠

لقد تمكن بتوجيهه لدفة الأمور أن يخرج المتآمرين الثلاثة ، بروتوس وكاسيوس وتربونيوس من روما ويعينهم قناصل Proconsuls فى كل من سوريا وايليريا وقليقيليا بالترتيب ، ثم أرسل كورنيليوس دولابيلا Cornelius Dolabella ، وهو أحد أصدقائه من أتباع قيصر المقربين ، إلى إقليم خارج سوريا لإبعاده من الطريق كمنافس لـه ولكى يحافظ على التوازن بين القوات المعارضة فى الشرق ، وبعد قتال مع أوكتافيوس ابن أخ قيصر ووريثه الذى تبناه ، ومع لبيدوس قائد الجيوش الرومانية فى بلاد الغال (فرنسا حاليًا) استطاع هؤلاء الثلاثة أن يقيموا سلطة ذات نفوذ مؤثر فى روما وفى كل إيطاليا فقتلوا خصومهم الأساسيين أو نفوهم وأخمدوا حركات الشقاق والتذمر بمساعدة قوات لبيدوس ، وبقى أمامه بروتوس وكاسيوس اللذان ابتدأ زحفهم من ناحية الشرق ، وتعلق مستقبل الجمهورية مرة ثانية على نتائج معركة واحدة٠

والذى حدث هو الأتى ، كان دولابيلا فى طريقه لغزو إقليم جديد ، وتقدم منتصراً فى طراقيا Thrace وآسيا الصغرى ، وانضمت كتائب الحراسة الرومانية التى جاءت تحت قيادة قيصر هناك إلى قواته أما كاسيوس تريبونيوس Caius Trebonius ، فقد تخلت عنه قواته ، وكان يحاول ملاقاة دولابيلا الذى قام بتعذيبه وإعدامه باعتباره أحد قتلة قيصر ، عندئذ تحول إلى كاسيوس فى سوريا ، وفى فترة الإعداد للصراع القادم أرسل مبعوثاً يسمى أليانوس Alienus إلى الإسكندرية يطلب المساعدة العسكرية والبحرية من كليوباترا ٠

لم يكن فى مقدور كليوباترا التأثير على مشاعر العطف التى تجتاح جنود الفرق الأربعة التى تعسكر فى الإسكندرية وحولها والتى تركها قيصر هناك ومن ثم ، سارت هذه القوات مع أليانوس للانضمام لدولابيلا فى آسيا الصغرى لكن وهى فى طريقها إلى هناك طرأت عليهم فكرة النتائج المحتملة للصراع بين دولابيلا وكاسيوس ، فتركوا دولابيلا وانضموا إلى كاسيوس .

كان السلاح الفعال فى يد كليوباترا هو أسطول مصر القوى الذى طلب معونته كل من كاسيوس ودولابيلا ، لقد كان نفوذ البطالمة فى البحر المتوسط يعتمد بصفة أساسية على أسطولهم وترجع أهمية مصر الحالية كحليف رئيسى إلى مكانة هذا الأسطول ، وفى السنوات القادمة من الحرب الأهلية ، سوف تثبت سفن مصر وثروتها أهميتها كعنصر رابح فى عمليات المساومة السياسية المتبادلة .

كانت مشاعر كليوباترا وتعاطفها تميل نحو دولابيلا ، صديق قيصر أكثر من كاسيوس ، أحد قاتليه ، ولكنها لم تكن تملك ترف المفاضلة الشخصية ، إذ كان عليها أن تقف على الحياد حتى ترى أى الطرفين سوف يفوز بالنصر ، ليس فقط بالنسبة للصراع المحلى بين كاسيوس ودولابيلا ، وإنما بالنسبة للصراع الأكبر بين ورثة قيصر وبين قاتليه ، ولذلك ماطلت فى الأمر ، وادعت انتشار الطاعون والمجاعة فى مصر كأسباب تجعلها غير قادرة على مساعدة أى من الطرفين ، لذلك بقى أسطول مصر رابضاً فى ميناء الإسكندرية فى الوقت الذى تلقى فيه دولابيلا هزيمته على يد كاسيوس فى اللاذقية **Laodicia** .

بعد هذا الانتصار ، اتجه كاسيوس غرباً عبر آسيا الصغرى لينضم بقواته إلى بروتس **Brutus** فى ايلليريا وفى هذه الأثناء سمع أن كليوباترا تنوى إرسال الأسطول المصرى للانضمام إلى أسطول أنطونيو وأوكتافيوس فى الادرياتيك ، فأرسل أسطوله من رودس ليحاصر الأسطول المصرى فى الإسكندرية ، بهذا التصرف قدم لكليوباترا خدمة كبيرة كانت تنتظرها ، ففى انتظار أنطونيو وأكتافيوس فإنها ستجد الأسباب التى منعتها من تقديم المساعدة لهم ، ولكى تضمن حسن النية من جانب بروتس وكاسيوس إذا تأكد لهم النصر ، وما عليها إلا أن تمتنع عن مهاجمة أسطول كاسيوس الذى يفرض الحصار .

هكذا للمرة الثانية سواء لحسن الحظ أو لحسن التقدير ، خرج أسطول مصر سالمًا من الحرب ، وهو الموضوع الذى تقرر مصيره فى فيلبى ، وفى إلليريا فى نوفمبر ٤٢ حين تمت هزيمة جيوش بروتس وكاسيوس أمام جيوش أوكتافيوس وأنطونيو ولبيدوس ، التى قامت بذبح بروتس وكاسيوس فى النهاية .

أصبح هذا الثلاثى هم سادة العالم الرومانى ، لكن الخزينة الرومانية كانت خاوية ، والجنود المنتصرون يتصايحون لقبض مرتباتهم ، عاد أوكتافيوس إلى روما ليحافظ على النظام ، واتجه أنطونيو فى جولة لجمع الضرائب من الأقاليم الشرقية ، فى خلال العام السابق تعرضت مدن اليونان وآسيا الصغرى لعبور فرق دولابيلا ثم كاسيوس وهم الآن على وشك معاناة تجربة تعذيب ثالثة ، وكعادة أنطونيو فإنه ربط عملية جمع الضرائب بمتعة التسلية .

وقد عرفنا أن أنطونيو حينما نزل أثينة " قد أشبع حبه للهو والتسلية بالاستماع إلى مجادلات العلماء ، ومشاهدة الألعاب الرياضية ، والاشتراك فى طقوس الأسرار (الراجح أنها أسرار عقيدة إليوسيس) "(٤) .

وهذا فى ظاهره ليس ضاراً ، ولكن عند عبور أنطونيو إلى آسيا ، فإنه " وضع يده على ثروات هذه البلاد المتراكمة واغترفها ، بينما كان الملوك يقفون على بابه ، وكانت الملكات يتسابقن على تقديم أعظم الهدايا إليه وكانت تحاول كل منهن أن تبدو هى الأجمل والأكثر فتنة.وعندما دخل مدينة أفسس استقبلته النساء فى ملابس عذارى باكوس ، فى حين أرتدى الرجال أقنعة الساتير وآلهة الغابات ، وأخذ الناس يطوفون بالشوارع وقد طوقوا أجسامهم بأوراق اللبلاب وآلات الهارب والناى ، وصار أنطونيو فى أغانيهم هو الإله باخوس مانح البهجة والحنان(٥).

هكذا حاولت مدن آسيا أن تهدئ من غضب هذا الفاتح الجديد وتخفف من حدة قسوته وابتزازه ، فقد كان أنطونيو يتصرف بدافع نزواته الجامحة كفاتح.

" كان يجرد الأشخاص من ثرواتهم ويحرمهم من قيمة هذه الثروات ليشبع جشع الأوغاد والمنافقين الذين يتوسلون إليه أن يمنحهم بعض الضياع زاعمين موت أصحابها

وبمجرد أن يحصلوا على الموافقة يستحوزون عليها ، لقد منح طباخه بيت مواطن ماغنيسى Magnesean مكافأة له لقاء عشاء واحد فائق الجودة [٦] .

يقال إنه جمع مائتى ألف تالنت Talants (تساوى ٤٠,٠٠٠,٠٠٠) فى رحلته خلال آسيا .

إن استمرار هذا النوع من السلب والنهب ، بالإضافة إلى ما خلفته الحروب من مصائب وويلات قد دمر العالم الهللينستى ، لقد تجنبت مصر هذه الويلات ومن الجدير بها لأن تفعل أى شىء فى سبيل استمرار أمنها وسلامتها وفى ضوء هذا يمكن الحكم على تصرفات كليوباترا التالية .

بعد أن انتهى أنطونيو من جمع الضرائب ، بات من الضرورى أن يقوم ببعض الاستعدادات ، لتوجيه حملة ضد البارثيين ، لولا موت قيصر الذى قطع عليه الطريق ، وصار الأمر يحتاج إلى مزيد من المال فإن دول آسيا قد تم عصرها حتى جفت مواردها أما مصر فإن مواردها لم تمس بعد ، وقد سبق لأنطونيو أن بعث رسائل إلى كليوباترا يدعوها للقائه ، لكنه لم يتلق أى أجابة ولا شك أنه كان ينوى أن يفرض عليها مساهمة مالية ثقيلة ، وربما كان لديه أفكار أخرى خصوصاً وأنه قابل كليوباترا فى روما وأعجب بها .

لقد ارسل من مركز قيادته فى طرسوس ، مسقط رأس القديس بولس ، وتقع هذه المدينة على نهر كيدنوس Cnidus فى جنوب غرب آسيا الصغرى ، ارسل أنطونيو مبعوثاً يثق به ، هو كوينتوس ديليوس إلى الإسكندرية يطلب من كليوباترا أن تحضر للمثول أمامه لكى ترد على الاتهام الموجه إليها بأنها قدمت معونة لكاسيوس ، فى أثناء الحرب الأخيرة بينهما ، ولابد من أن كليوباترا قد أحسنت تقدير التهديد المبطن فى هذا الاتهام غير الصحيح ، لقد كانت تعرف شهرة أنطونيو وكانت واثقة من قوة جاذبيته وقوة ذكائه.

فقررت أن تحارب أنطونيو بالأسلحة التى برعت فى استخدامها من أجل إنقاذ نفسها وإنقاذ الإسكندرية ، بل ومصر كلها من المصير الذى حاق بحكام ومدن وممالك

آسيا ، اليكم الوصف المعروف الذى كتبه بلوتارك يصف فيه ما حدث عند وصولها إلى طرسوس :

لقد أتت مبحرة أعلى نهر كيدنوس ، فى بارجة كبيرة طليت مؤخرتها بالذهب ولها أشرعة مفرودة من الأرجوان بينما تضرب المجاديف الفضية فتتناغم أصواتها مع أنغام موسيقى الناى والمزمار والهارب ، وهى راقدة على سرير يظللها غطاء شفاف من الذهب كأنها فينوس فى صورة وحولها ولدان فى جمال كيوبيد يقفان على جانبيها يهويان لها بالمراوح ، أما وصيفاتها فكن يلبسن ثياب الحوريات وآلهة الجمال يقوم بعضهن بتوجيه الدفة وبعضهن يمسكن الحبال ، لقد انتشرت الروائح من السفينة حتى الشاطىء الذى كان يزدحم بالجماهير ، وقف البعض على الضفاف يتابع السفينة فى صعودها النهر ، وجاء البعض الآخر خارج المدينة لكى يرى المشهد ،كان السوق خاليا ، وتركوا أنطونيو جالسا بمفرده فوق المنصة ، بينما انتشرت الكلمة بين الجماهير الحاشدة بأن فينوس قد أتت لتحتفل مع باخوس من أجل مصلحة آسيا ، وعند وصولها دعاها أنطونيو للعشاء معه ، لكنها رأت أنه من الأليق أن يأتى هو إليها ولكى يظهر مودته وظرفه انصاع وذهب ، (٧) ويعطينا أثانايوس وصفًا للاحتفال الذى أقامته كليوباترا لأنطونيو .

لكن كليوباترا ، بعد أن التقت بأنطونيو أعدت لـه احتفالاً ملكيًا فالأطباق من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة ومزينة بنقوش محفورة ونقوش بارزة فى غاية الروعة والجدران مغطاة بستائر من القماش المطرز بالذهب والأرجوان ، هناك اثنى عشر أريكة حول المائدة ، ودعت أنطونيو أن يصطحب معه من يشاء من رفاقه ، أما هو وقد أصابته الدهشة من روعة المشهد فقد عبر عن إحساسه بالمفاجئة ، أما هى فابتسمت قائلة إنها أعدت لـه هدية من كل شىء يراه أمامه ودعته للعشاء معها فى اليوم التالى ، ومعه أصدقائه وقواده ، ثم أعدت وليمة ثانية تفوق فى روعتها وفخامتها الوليمة الأولى التى بدت متواضعة ، وقدمت له للمرة الثانية هدية من كل شىء رآه فوق المائدة ، وطلبت من قواده أن يأخذ كل منهم الأريكة التى يجلس عليها وعند مغادرتهم المكان أعطت لكل واحد من أصحاب الرتب العالية محفة وعدد من العبيد لكى يحملوها ، وأعطت للباقين خيولاً مزينة بكسوة من الذهب ، وأعطت لكل واحد عدداً من الصبية

الأثيوبيين ليحملوا لـه المشاعل وفى اليوم الرابع اهتمت كليوباترا كثيرا بالورود ففرشت غرف الرجال بالورود بارتفاع ذراع ثم غطت الشبابيك بالزهور[٨] .

كانت كليوباترا تعرف كيف تجعل من نفسها الكل فى الكل بالنسبة للرجال ، لقد تحدثت فى الأدب مع شيشرون فى روما ، ودون ريب تناقشت مع قيصر بشأن فن قيادة الدولة والاستراتيجية ، أما أنطونيو فقد أحست معه بأن مزاجه شنيع ونكاته فاضحة ، تنم عن ذوق جندى من الجنود الأجلاف لا رجل من رجال القصور ، لكنها ابتهجت بهذا اللون من اللهو وهبطت إليه دون تمنع أو تحفظ [٩] ، وبعد بضعة أيام رجعت كليوباترا إلى الإسكندرية وقد أنجزت مهمتها بنجاح ، وصار بإمكانها لأن تقول ما قاله حبيبها قيصر venei / vidi / vici بمعنى لقد اتيت ورأيت وانتصرت .

لقد أجل أنطونيو استعدادات حملته ضد البارثيين ، وقام سريعًا برد الزيارة إلى كليوباترا فى الإسكندرية ، حيث قضى عدة شهور ، فى اللعب واللهو [١٠] بددها فى المتعة التى كلفته أثمن شىء وهو الوقت ، وهكذا سريعاً أصبحت كليوباترا عشيقة لأنطونيو.

إذا جد أنطونيو أو مال إلى المرح فإن لديها من المتعة الجديدة أو السحر ما يشبع رغبته انها تفاجئه عند كل التفاته بحيث لا تتركه ليلاً أو نهاراً ، فهى تلعب معه الزهر ، تشرب معه ، وتذهب للصيد معه ، وعندما يمرن ذراعيه فإنها هناك لترى ، وفى الليل تذهب معه فى تجواله لإزعاج الناس وتعذيبهم على الأبواب والنوافذ ، متخفية فى ملابس خادمة وكذلك أنطونيو فى ملابس خادم وكان يتعرض فى هذه الجولات للمعاملة المهينة وفى كثير من الأحيان يعود بعد أن يتعرض للضرب المبرح ، رغم أن معظم الناس كانوا يعرفونه بالتخمين لكن أهل الإسكندرية كانوا يحبون كل ذلك بدرجة كبيرة ، وكانوا يشاركونه مرحه ولعبه بمزاج رائق ومشاعر رقيقة ، ويقولون إنهم ممتنون كثيراً لأنطونيو لأنه أدى أدواره المأساوية فى روما واحتفظ لهم بأدوار الكوميديا [١١] ، (كان يتمتع هو وكليوباترا) بنوع من الصحبة ، اطلق عليه أهل الإسكندرية اسماً خاصاً Inimitable livers أى من يعيشون حياتهم بطريقة تستعصى على المحاكاة هذان الشخصان اللذان يستضيفان أحدهما الأخر كل فى دوره يوميًا ، ويسرفان فى الانفاق بدرجة لا تقاس أو تصدق [١٢] .

بعد أن اتخذت كليوباترا أنطونيو بطلاً لها ، أدركت أنه سوف يضطر بعد قليل للحرب دفاعاً عن مكانته ، ليس فقط ضد البارثيين ، ولكن ضد حلفائه الحاليين أيضاً ، وضد منافسيه الأقوياء فى روما ، وكما توحى الحدوتة التالية ، فإنها ربما تكون انزعجت من استسلامه الكامل للمتعة واللهو فنسى عمله .

ذهب يومًا للصيد مع كليوباترا وساء حظه فى حضور عشيقته فلم ينجح فى أن يصطاد شيئًا فأمر الصيادون سرًا أن يغوصوا تحت الماء ويعلقوا سمكًا مما سبق صيده على سنارته ، وسحب هو هذه الأسماك بسرعة كبيرة مما جعل كليوباترا تراها لكنها أظهرت إعجابا عظيمًا ، فحدثت الجميع عن مهارة أنطونيو وبراعته ، ودعت الجميع للحضور فى اليوم التالى لكى يروه مرة ثانية ، هكذا عندما جاء عدد منهم وصعدوا على ظهر قارب الصيد ، وبمجرد أن أنزل سنارته فى الماء سبقه أحد خدمه مع الغواصين ووضع على السنارة سمكة مملحة من سمك بلاد بنط، وشعر أنطونيو بثقل العصى فجذب فريسته وحسبما نتخيل انفجر أصحابه فى الضحك بضحكات عالية فصاحت كليوباترا قائلة : "لا أيها القائد أترك قضيب الصيد لنا نحن السادة المساكين من أهل فاروس وكانوبس إن لعبتك أنت هى المدن والأقاليم والممالك (١٣) ".

تحول اهتمام أنطونيو أخيراً نحو" المدن والأقاليم والممالك " بفعل رسائل مختلفة نبهته إلى الأخطار القادمة ، إن زوجته ذات الطموح السياسى فولڤيا **fulvia** وأخاه لوشيوس **locius** أخذ يتقاتلان مع أوكتافيوس ، لقد أشعلا حرباً ضده ، لكنهما منى بالهزيمة وتم طردهما من إيطاليا ، والبارثيون بقيادة لابينوس **labienus** القائد الرومانى الذى انضم إليها ، قد بدأو فى اجتياح آسيا الصغرى ، لذلك فإن أنطونيو ، لم يكد يستيقظ أخيرا من نومه ، ويتخلص من رائحة الخمر " حتى عاد إلى العمل ، لقد غادر الإسكندرية ، وترك عشيقته التى لن يراها لمدة أربع سنوات ، واتجه إلى روما ليعقد صلحاً مع أوكتافيوس تاركاً البارثيين حتى وقت أخر ، وفى أثينة التقى بزوجته فولڤيا ، وكان اللقاء كما لاحظ بوشيه ليكليرك **Bouche-leclerc** لقاءًا عاصفًا (١٤) وقد أحس أنطونيو بالراحة حين ماتت فولڤيا وهى عائدة معه فى الطريق إلى إيطاليا .

أدى موت فولڤيا إلى تهدئة المفاوضات مع أوكتافيوس ، الذى كان منزعجًا من ثورة فولڤيا وأراد أيضاً أن يعرف ما الذى فعله أنطونيو بالأموال التى جمعها فى

آسيا ، لكن داهمه سيكتوس بومبى ، الابن الباقى لبومبى الأكبر ، وكان يخشى قيام تحالف بينه وبين أنطونيو ، فتم التوصل إلى إتفاق فى برينديزى Brindisi فى سبتمبر سنة ٤٠ تم بمقتضاه تقسيم الممتلكات الرومانية بين أعضاء الحكومة الثلاثية ، فأخذ أوكتافيوس الجزء الغربى وأخذ لبيدوس أفريقيا ، أما أنطونيو فكان من نصيبه ولايات الشرق ، لذلك اشترطوا سكوت بومبى بإعطائه صقلية ، وساردينيا ، والبيلوبنيز ، والآن وقد أصبح أنطونيو – رسمياً أرملاً فقد ختم الاتفاق بين أنطونيو وأوكتافيوس بزواجه من أخت أوكتافيوس الأرملة ، أوكتافيا .

عاد أنطونيو مع عروسه الجديدة متظاهراً بانه سوف يحارب البارثيين ، لكن كسل منتصف العمر وحبه للمتعة كانا يفتان فى عضده ويضعفان روحه القتالية ، فاستقر فى أثينة ، تاركاً قيادة الحملة ضد البارثيين إلى قائده فنتيديوس .

أخذ أنطونيو يرتدى ثياباً يونانيةً ويرتاد الجمنيزيوم وصالونات المبارزة ، وسمح لنفسه بإن يسمى جمنازيارك Gymnasiarch أى مدير الجمنازيوم ويقيم الولائم الفاخرة والعروض التى تسدد أثمانها من الأموال المبتزة من أجزاء أخرى من اليونان وكان أنطونيو سعيداً جداً بالإسم الذى أطلقوه عليه " ديونيسيوس الجديد The New Dionysius" وتقبل المديح المسرف والمبتذل الذى كانوا يغمرون به ديمتريوس بوليو سيتز Polior cetes من قبل [١٥] .

لكنه لم ينس جشعه ، فعندما تمادى الأثينيون فى الاحتفال بزواج " ديونيسيوس الجديد " إلى عذراء الأكروبوليس The Virgin of the Acropolis أوقع عليهم غرامة قدرها مليون دراخماً هدية لعذرائهم .

لحسن حظ أنطونيو أن فنتديوس قد أثبت أنه قائد عظيم فهزم البارثيين وحلفائهم فى حملات متلاحقة وطردهم خارج سوريا وآسيا الصغرى ، لم يقم أنطونيو بإى دور فى هذه الحملات ، باستثناء تدخله فى مسألة صغيرة هى تخفيض الفدية المقدمة لفينتديوس من ألف تالنت إلى ثلاثمائة مقابل إطلاق سراح أحد حلفاء البارثيين ، حدث هذا سنة ٣٨ ق ، م وبعد ذلك لم يتدخل فى أى شىء وعاد إلى أثينة ، وظل هناك حتى ربيع ٣٧ ، ويبدو أنه أدرك آنذاك عدم كفاءته وعليه أن يستعيد شيئاً من نشاطه السابق

فقرر أن يقود حملة أخرى ضد البارثيين الذين برغم انتصارات فينتديوس فانهم لا يزالون يهددون حدوده ٠من أجل هذا فإنه كان يحتاج إلى عدد كبير من قوات أوكتافيوس و كان يريد أن يجدد الاتفاق الذى عقده فى برنديزى قبل ثلاث سنوات وانتهى أجله فى نهاية عام ٣٨ ، فى ذلك الوقت كان أوكتاڤيوس مشتبكًا فى حرب مع سيكتوس بومبى ويريد سفنًا من أنطونيو ، هذا هو أساس المساومة ، والتقى الاثنان فى صحبة أوكتافيا Octavia ، زوجة أحدهما وأخت الآخر ، لم يكن اللقاء وديًا ، لأن أوكتافيوس طلب سفنًا قبل عام من أنطونيو ورفض طلبه ، وهو لا يزال يعتبر أنطونيو مدينًا له بجزء من الأموال التى جمعها فى آسيا ، وفى النهاية تم التوصل إلى اتفاق بوساطة أوكتاڤيا ، وتم تجديد اتفاق برنديزى لمدة خمس سنوات أخرى ، وافق أنطونيو على تزويد أوكتاڤيوس بمائة وعشرين سفينة ووافق أوكتاڤيوس على ارسال ألف جندى من المحاربين لأنطونيو وقدم أنطونيو السفن لكن أوكتاڤيوس فشل فى إمداده بالجنود ٠

من هذا الوقت فصاعدًا فإن أوكتاڤيوس ، الذى ظهر بعد موت قيصر كغلام مريض لا أهمية له ، (كان فى حوال العشرين من عمره فى ذلك الوقت) والذى ترك المعركة فى فيلبى لأنطونيو مدعياً أنه مريض ، صار هو الشخصية المهيمنة فى الحكومة الثلاثية فتخلص من لبيدوس فى أفريقيا واستولى على الأقاليم التى كان يحكمها ، ثم طرد سيكتوس بومبى من صقلية ، وساردينيا والبيلوبنيز وكذلك عزز مكانته فى روما وتفوق بدهائه على أنطونيو فى كل مرة "فقد كان نقيضــاً لأنطونيو جشع لا يعرف الكلام ، جندى وضيع ، بارد الأعصاب لا تعرف الرحمة سبيلاً إلى قلبه، جشع لا يعرف طبعه الجود أو الكرم ، يفتقد الحس المرهف والجاذبية ومثل غيره من هذا الصنف فإنه مجتهد فى عمله لكنه لا يحس ولا يتأثر بجاذبية الآخرين، لكنه بالنسبة لأنطونيو الذى يسيطر على أسطول مصر ومواردها ويتحكم فى ولايات الشرق ، وله كثير من المؤيدين داخل روما ذاتها فلن يستطيع أوكتاڤيوس التغلب عليه إن لم يتحول أنطونيو الى تدمير نفسه٠

وللمرة الثانية مضى أنطونيو من روما باتجاه الشرق لمحاربة البارثيين تاركًا أوكتاڤيا فى روما ومعها أطفاله ، و وصل إلى أنطاكيًا ومن هناك أرسل مبعوثًا يدعو كليوباترا للذهاب إلى مقابلته لأنه يريد مساعدة مصر فى الحملة ضد البارثيين ٠

لقد ولدت كليوباترا توأمين – ولد سمى الإسكندر هليوس Helios وبنت سميت كليوباترا سيلين Selene من أنطونيو بعد رحيله مباشرة من الإسكندرية قبل أربع سنوات ، وقد ظلت على علم بتحركاته – وبموت فولفيا والراجح أن حزنها لهذا الحادث كانت دوافعه سياسية وليست شخصية فقد أدركت بحكم حسها السياسى الحاد أن الأيام القادمة سوف تشهد صراعاً على السلطة بين أنطونيو وأوكتافيوس ، وأن زواج أنطونيو من أوكتافيا قد أفقده بعض مميزاته وربما خشيت إلى حد ما أن تحتل أوكتافيا مكانها فى قلب أنطونيو ·

عاجلاً أو آجلاً سوف يحتاجها أنطونيو – يحتاج إلى سفنها أو إلى ذهبها وربما يحتاجها هى شخصياً فحين وصلتها الدعوة للذهاب لمقابلة أنطونيو وجدناها على أهبة الاستعداد وقررت ألا يكون هناك لوم أو توبيخ على هجره لها الذى طال أربع سنوات ، إنها أميرة مقدونية وملكة مصرية ، وليست فتاة غريرة مريضة بالحب وعند وصولها إلى أنطاكيا ، ثانى مدن الشرق ، فى خريف عام ٣٦ ، أخذت تضغط على نقاط الضعف عند أنطونيو ، وتجرى مساومة عنيفة باللعب على حاجته لها وحاجته للموارد الكبيرة التى تملكها وتتحكم فيها ·

وحصلت كليوباترا بمقتضى شروط معاهدة رسمية عقدت فى ربيع ذلك العام فى أنطاكيا مقابل وعد بإعادة تقديم معونة مصر من الذهب وكذلك معونة عسكرية وبحرية ، حصلت كليوباترا من أنطونيو على اعتراف بطفليه التوأمين – الإسكندر هليوس وكليوباترا سيلين Selene- وكذلك أعاد لمصر – قبرص وأجزاء سوريا الواطئة – وهما من أفدح الخسائر التى تعرض لها حكم البطالمة فى المائة عام السابقة ، فخسارة قبرص حرمتهم من نحاس وخشب هذه الجزيرة كما حرمتهم من قاعدة بحرية هامة للأسطول ، أما خسارة سوريا الواطئة فقد حرمتهم من التحكم فى منافذ طرق القوافل البرية التى تمر بمدينتى تدمر Palmyra والبتراء لكن تساهل أنطونيو بالنسبة لسوريا كان محدوداً بسبب أسبقية مطالب هيرودس الذى يتمتع بحماية أنطونيو ، والذى نصبه ملكاً على اليهودية فى مكان أنتيجونوس الهاسامونى The Hasamonean والتى كانت مناطق نفوذه تتكون مما يعرف الآن بفلسطين ، ولم يبقى لكليوباترا سوى كالكس Chalcis (تعرف الآن بالبقاع) الذى اتهم ملكها كليوباترا بالتجسس لصالح

البارثيين ، فأعدمه أنطونيو نتيجة لذلك ، والمنطقة الساحلية بين صيدا ونهر أورونتس Orontes ثم حزام من الأرض بين البتراء وبين البحر عند غزة ، وهو يتكون الآن من نجيف Negev ، إضافة إلى ذلك فقد تم التنازل عن غابات البلسم فى أريحا إلى مصر ، وهى تقع فى وسط مملكة هيرودس ، ومعها أجزاء من قليقيليا التى تشتهر بانتاج الخشب .

نجحت كليوباترا فى إقناع أنطونيو أن يأمر باقتحام الملاذ الذى احتمت به أختها أرسينوى فى معبد ديانا بأفسس حتى يمكن إخراجها منه وقتلها ، وفى هذا أثبتت كليوباترا أنها أقل رحمة من قيصر الذى أصدر عفوه عن أرسينوى بعد عرضها مكبلة بالقيود فى احتفال النصر ، لقد لعب الخوف والرغبة فى الانتقام دوراً هاماً فى جريمة قتل أرسينوى باعتبارها وريثة الدم الملكى البطلمى ، ولها من المؤكد أتباع مخلصون فى الإسكندرية نتيجة لما أظهرته من روح عالية وشجاعة فائقة أثناء الحرب ، وطالما بقيت على قيد الحياة فهى منافس قوى لكليوباترا على العرش .

الأراضى التى حصلت عليها كليوباترا تعد من المكاسب الهامة مادياً ، وكذلك بالنسبة لسمعة البطالمة ، ولابد أنها تركت تأثيراً كبيراً لدى أهل الإسكندرية يساعدها على كسب رضائهم بشأن علاقتها مع روما ، لكن الأهم من مكاسب الأرض هو الإمبراطورية التى كسبتها كليوباترا عبر أنطونيو ، والتى تتضح فى اعترافه ببنوة طفليها التوأمين بل وتصل إلى حد الاعتراف بوضعه كزوج لكليوباترا أو فى نظرها هى على الأقل ، ومن هذه اللحظة ، أخذت صورتا كليوباترا وأنطونيو تظهران على العملة المصرية كشريكين فى الملك ، ومن تلك اللحظة كانت كليوباترا وليس أنطونيو هى التى تتحكم فى سياستهما المشتركة ، وظلت مصر كما كانت إسميا ، مملكة مستقلة وليست ولاية رومانية، تتفاوض كند مع أحد أعضاء الحكومة الثلاثية لروما ، لقد ضمنت كليوباترا التنازل لها عن أجزاء من ولايات رومانية ، وبدلاً من أن تحيلها روما إلى التقاعد صارت حليفاً لروما ، وفى الأغلب مستشاراً رومانياً ، ويبدو مرجحاً أنها كانت تفكر مسبقاً أن وجود أنطونيو معها كشريك فى الملك سوف يجعلها تفكر وتحلم بإمبراطورية مصرية ، أقوى كثيراً عما كانت عليه فى أى وقت مضى ، إمبراطورية تتكون من الجزء الشرقى ، بل ويمكن أن تضم كل أراضى الجمهورية الرومانية وكان

هذا هو حلم شبابها ، أثناء إقامتها فى روما كعشيقة لقيصر ، وخلال الأشهر القليلة التى انقضت بين عودته من أسبانيا وبين حادث اغتياله .

والآن قد صار هذا الحلم فى سنى نضجها ، أكثر واقعية ، غير أنه يحتوى على نقطة ضعف قاتلة ، هى أن مارك أنطونيو ليس يوليوس قيصر ، وأن الضعف الذى جعله يسلم نفسه لكليوباترا سوف يمنعه حتماً من الحفاظ على مكانته أمام عدوه أوكتاڤيوس .

غير أن هذا الحلم ليس حلمًا خياليًا تمامًا ، لأن ولايات الشرق كانت ولا تزال برغم ما نهبه أنطونيو وأسلافه ، أكثر ثراء من ولايات الغرب ، لقد وفر التحالف مع مصر موارد كبيرة ، ليس فقط من الثروة ، بل أيضًا من القوة البحرية ، ومازال لأنطونيو أنصاراً فى الغرب أكثر من أنصار أوكتافيوس فى الشرق بل ومع الأخذ فى الاعتبار تخلص أوكتاڤيوس من ليبدوس فإن توازن القوى يدل على أن أنطونيو مازال يحتل موقعاً يمكنه على الأقل من فرض تقسيم الجمهورية بينه وبين أوكتاڤيوس على أساس الخطوط التى تم الاتفاق عليها سابقاً فى معاهدة ترانتوم Tarentum, وحصل أنطونيو بمقتضاها على ولايات الشرق وأخذ أوكتاڤيوس الغرب وإفريقيا .

لقد حافظ أنطونيو وأوكتاڤيوس على علاقات مودة ظاهرية ، فالرسائل بينهما لا تزال ودية تقريباً ، رغم ما يتخللها أحيانًا من اللوم والتقريع من جانب أنطونيو ، وفى خشونة بذيئة حول المغامرات الجنسية لكل منهما ، بعد أن تم لأوكتافيوس طرد سيكتوس بومبى من صقلية وسردينيا ، أعاد السفن التى استعارها من أنطونيو كاملة .

كان اتفاق ترنتوم لايزال سارى المفعول وسوف يعد أوكتاڤيوس نفسه عن طريق وساطة أخته لتقديم تنازلات كبيرة من أجل الحفاظ على السلام ولكى يتجنب فقدان شعبيته فى إيطاليا إذا حارب أنطونيو واضطر بسبب ذلك إلى زيادة الأموال المطلوبة منهم ، بفضل تدخل أوكتافيا ، والذى تعتبره كليوباترا خطراً يهدد بإضعاف تأثيرها على أنطونيو اتجهت كليوباترا أكثر فأكثر فى اتجاه القطيعة مع أوكتاڤيوس ، وفى روما كانت هناك تيارات من الرأى العام تعمل فى نفس الاتجاه فالرأى العام الرومانى

لا يعارض ارتباط أنطونيو بكليوباترا كعشيقة لـه ، لكن الرومان بدافع مشاعر الغيرة والشك المتـأصلة لديهم تجاه الشـرق ، كـانوا يعـارضـون عـمليـة التنازل عن الأرض الرومـانية إلى مصـر ، ويرفضـون الاعتراف بشرعية أطفال أنطونيو من كليوباترا كما يرفضون قبول الأدلة التى يجمعها الثرثارون ورجال الحاشية فى الشرق عن استسلام أنطونيو المتزايد لكليوباترا، لهذا كله يعتبر اتفاق أنطاكيا مجرد بداية.

بعد توقيع الاتفاق الذى اختتم بحمل كليوباترا بطفل ثالث من أنطونيو انفصل المحبـون والشـركـاء ، ذهب أنطونيـو إلى حـرب البـارثيين ، وعـادت كليـوباترا إلى الإسكندرية ، وفى طريق عودتها ذهبت لزيارة هيرودس ملك اليهودية ولكى تتفقد غابات البلسم التى حصلت عليها حديثًا بمدينة أريحا وعلى الرغم من انتصار كليوباترا فى أنطاكيا فقد أثار غضبها أنها لم تتمكن من إقناع أنطونيو بالتخلص من هيرودس وأعطائها كل مملكته حتى تعيد إلى مصر وحدتها بضم كل الأراضى البطلمية فى كويل سـوريا ، ومنذ ذلك الحين أخذت تفكر فى هيـرودس كمنافس ، وواصلت التـآمر ضـده وبادلها هيرودس الكراهية وحبك الدسائس وأثبت أنه ندًا لها فى هذه الأمور و فى هذه المناسبة ، حاولت كليوباترا ، طبقاً لما يقول جوزيفوس إغراء هيرودس باللعب معها لكى تفضحه عند أنطونيو بتهمة اغتصابها، وقد فكر هيرودس فى قتل كليوباترا للتخلص من منافستها ، لكن ما هى حقيقة هذا ، فالذى حدث فعلاً كان شيئًا تافهًا ومبتذلاً ، فبعد تبادل الهدايا بصورة طقسية ، اتفقت كليوباترا مع هيرودس أن يقوم بزراعة غابات البلسم مقابل مبلغ يدفع لــه سنويًا ، ثم قام هيرودس بتوصيل ضيفته حتى الحدود المصرية .

فى تلك الأثناء ، وبعد أن أضاع أنطونيو موسم الحملة فى الغـزل والمداعبات فى أنطاكيا خرج بحملته ضد فراعاتيس Phraates ملك بارثيا وحليفه أرتافا سـديز Artavasdes ملك مـيديا فى خـريف عـام ٣٦ ، وكـان حليف أنطونيـو الرئيـسى هو أرتافـاسـديز آخـر ملك أرمـينيـا ، وكان عدوًا تاريخيًا لدولة ميديا ، وانتـهت الحملة بكارثة مروعة ، لأنها بدأت متـأخرة جدًا عن مـوعدها فى ذلك العـام وتحول هـدفها الرئيسى وهو هزيمة البارثيين نتيجة تأثير ملك أرمينيا الذى كان أنطونيو يعتمد عليه لتزويده بمرشدين فى محـاولة الاستيلاء على فرازا Phrasa عاصمة ميديا ، فشلت

الحملة بفعل المتربصين لها من البارثيين والذين قاموا بتدمير الحصار المفروض حول المدينة ، فى النهاية شرع أنطونيو فى الانسحاب ، تداهمه فرسان البارثيين على طول خط العودة ، وحين عاد إلى سوريا فى مطلع عام ٣٥ كان البارثيون وثلوج الشتاء قد قتلوا من رجاله ٢٠٠٠٠ من المشاة ، ٤٠٠٠ من الفرسان ، تمثل ربع جيشه ، وبدون أن يحقق شيئاً، لقد فشل فى الانتقام لكراسوس Crassus ، ثم ترك سوريا وآسيا الصغرى عرضة للتهديد من جانب البارثيين ، وفقد قدراً عظيماً من قواته المسلحة ، ودمر سمعته كقائد بصورة لا يمكن إصلاحها لكنه ألقى بمسئولية كل هذا على ملك أرمينياً واعتبره خائناً أفشى سره للأعداء ، ومن المؤكد أن ملك أرمينيا لم يكن حليفاً نافعاً ، وقد وصل الأمر بأنطونيو حداً جعله يعتقد أن عدم قيامه بتقديم المساعدة والعون كان بسب تآمر سرى بينه وبين أوكتافيوس ، لكن السبب الحقيقى يرجع إلى تدهور قوة أنطونيو فتأخره فى بدء الحملة وعودته المفاجئة ، وهو يجر جيشه المهزوم عبر الجبال ، بدلاً من إيوائهم فى معسكرات شتوية ، كذلك يرجعه المؤرخون إلى رفضه أن يفارق كليوباترا التى منى بحبها ، والتى كانت ليس فقط عشيقته بل حليفته ، والسيد الذى يدفع له ، بل ومستشاره الأول .

عند عودته من الحملة البارثية ، بجيشه الذى انكمش حجمه التقى أنطونيو بكليوباترا فى مكان يسمى " القرية البيضاء White village " على ساحل البحر بين بيروت وصيدا ، وعدته كليوباترا بالمال والعتاد ، لكنها تركته ينتظر فى القرية البيضاء ، هذا ما يرويه بلوتارك حيث يقول ، بعد أن نفذ صبره من تأخرها ، فكر أنطونيو فى قضاء الوقت فى الشرب والنبيذ والسكر ، ولكنه لم ينتظر حتى ينتهى من تناول وجبته ، بل وكان يقفز من على المائدة ليرى إذا كانت كليوباترا آتية ، أخيراً جاءت إلى الميناء ومعها ملابس ونقود للجنود ، عاد أنطونيو مع كليوباترا إلى الإسكندرية ، ففى الوقت الذى كان يقوم فيه بحملته كانت الأحداث تتحرك فى عالم الرومان ، فقد تخلص أوكتافيوس من لبيدوس فى أفريقيا وطرد سيكتوس بومبى من ممتلكاته ، وتجمع هذا كله فى هزيمة أنطونيو أمام البارثيين ، والتى وصلت أخبارها سريعاً إلى روما فقلبت ميزان القوى فى غير صالحه ، لكن أنطونيو أو الأصح كليوباترا ، التى تسيطر تماما الآن على عشيقها ، غنية بالمال وبالسفن ، وغنية جداً فى حلفائها التابعين ، لو استطاع

أنطونيو فقط حمايتهم من البارثيين ، وإلا فقد ضاع كل شيء ، إن فشله فى إلحاق الهزيمة بالبارثيين ترك أخطارا باتت تهدد الممالك التابعة فى سوريا وآسيا الصغرى والتى سوف يحتاج إليها أنطونيو فى صراعه على السلطة مع أوكتاڤيوس ، لقد أصبحت سيادة أنطونيو على الشرق تتوقف على قدرته على الدفاع عن حدوده ، وهنا قد واتاه الحظ بفرصة عظيمة غير متوقعة ، إذ تشاجر ملك بارثيا مع حليفه أرتاڤا سديز ملك ميديا ، على تقسيم الغنائم التى حصلوا عليها من الحملة الرومانية ، فأرسل الأخير سفراءه إلى أنطونيو يعرض مساعدته فى الحرب ضد البارثيين ، هناك أيضًا إمكانية وضع ترتيبات مفيدة مع سيكتوس بومبى الذى طرده أوكتاڤيوس من ممتلكاته ، وذهب إلى آسيا الصغرى حيث بدأ مفاوضات مع أنطونيو .

أضاع أنطونيو وكليوباترا هذه الفرص فلم يستفيدوا منها فى تقوية وضعهما ، وإذا كان لهم كل الحق فى إساءة الظن بسيكتوس بومبى ، لكنه كان لا يزال يملك أسطولاً قوياً تحت سيطرته ، وكان يمكن توجيهه لمصلحتهما ، و بدلاً من ذلك شك فيه أنطونيو ، وربما كان شكه صحيحاً ، بأنه يتبادل الرسائل مع بارثيا ، فأمر بقتله ، هكذا أراح أوكتاڤيوس من أحد أعدائه وأعطاه فرصة لنبذه هو ورفضه كقاتل ، كذلك الفرصة التى قدمها ملك ميديا لهزيمة البارثيين لم تتم الاستفادة منها ، لأن كليوباترا سواء بدافع حرصها على سلامة أنطونيو ، أو لأنها تريد منه أن يجمع قواته ضد أوكتاڤيوس ، فإنها حذرته من أى حملة ضد البارثيين ، وشجعته بدلاً من ذلك على ترك الميديين والبارثيين يتقاتلون فيما بينهم وأن يجنى هو مجداً سهلاً بتجريد حملة تأديب ضد ملك أرمينيا .

لذلك انطلق أنطونيو إلى سوريا بصحبة كليوباترا ، متظاهراً بقيادة حملة ضد البارثيين وفى نفس الوقت تحركت زوجته أوكتاڤيا بتحريض من أخيها للانضمام إلى زوجها وتزويده بالمؤن والتعزيزات للحرب البارثية ، وربما جاء هذا كمحاولة من جانب أوكتافيوس للتصالح مع أنطونيو ، وإبعاده عن كليوباترا تجنباً لوقوع صراع بينهما فى النهاية على السلطة ، عارضت كليوباترا هذه المحاولات بشدة لأسباب سياسية وأسباب شخصية ، لقد قبلت مساعدة أوكتاڤيا ورفضت حضورها فأرسل أنطونيو إلى أوكتاڤيا فى أثينة يطلب منها أن تعود إلى روما بحجة أنه يزمع القيام بحملة شاقة ، واعتبر هذا

الرد إهانة شديدة جعلت الحرب بين الاثنين في النهاية أمراً محتوماً ، وفي نفس الوقت أقام أنطونيو تحالفًا مع ملك ميديا ضد ملك أرمينيا بدلاً من التحالف ضد البارثيين وبعد أن أنفق معظم وقت الحملة في مفاوضات ، وعلى الرغم من إبلاغه أوكتافيا بهذا ، فإنه عاد إلى الإسكندرية حيث قضى ربيع ٣٥ - ٣٤ مع كليوباترا .

وفي الإسكندرية حاولت كليوباترا للمرة الثانية أن تغرى أنطونيو بالتخلى عن حمايته لهيرودس وأن يعيد إلى مصر حكم كل ولاية سوريا الواطئة التي كانت خاضعة للبطالمة ، لكن هيرودس ، الذي نجح في التودد والتزلف إلى كل من يحكم الشرق من سادة الرومان المتعاقبين ، كان أكثر من ند لكليوباترا واحتفظ برضاء أنطونيو رغم معارضتها، وأثبت انه ند لها بل أكثر .

ففي ربيع ٣٤ عاد أنطونيو إلى سوريا ، وبعد استقباله لهيرودس وانضمامه له ، شرع في حملته ضد أرمينيا ، لم يواجه آلا مقاومة ضعيفة وحقق فتحاً سهلاً لهذه المملكة التي سوف تبقى رهن إشارته على أي حال ، عندئذ عاد إلى الإسكندرية ، ومعه ملك أرمينيا وعائلته مكبلين بالسلاسل ، ومعه كمية هائلة من الغنائم .

وفي سنتي ٣٤-٣٣ شهدت الإسكندرية وصول أنطونيو وكليوباترا إلى قمة النشوة والسرور وإلى نقطة اللاعودة في طريق انحدارهما نحو الدمار ، ففي منتصف هذه الشهور الرائعة القليلة ، كان يبدو أنه بالإمكان أن تتحرك قوة الهيمنة على العالم شرقًا من روما إلى الإسكندرية ، وأن إمبراطورية البطالمة المنهارة قد يتحقق لها البعث والتألق من جديد بطريق لا يتخيله أحد وعن طريق احتواء القوة الرومانية التي ظلت تحت سيطرتها زمانًا طويلاً ، كل هذا كان مجرد حلم لا أساس لـــه في الواقع ، لكن جو الإسكندرية في ذلك الحين كان مشحوناً بالأحلام ، وبلغت فاعلية السحر التي تشعه الإسكندرية حداً أضفى على الحلم بعض مظاهر الحقيقة ، ليست في نظر الشركاء الرئيسيين فقط ، بل أيضًا في نظر كثير من الزائرين الوقورين الجادين القادمين من روما الذين أزاغت أعينهم مفاتن الشرق ، وأقنعهم جزئيًا ما يحيط بأنطونيو وكليوباترا من بريق وعظمة .

كان هناك أولاً، احتفال النصر الذي أقامه أنطونيو في الإسكندرية للاحتفال بانتصاره على أرمينيا، يخبرنا ديوكاسيوس أن أنطونيو دخل المدينة في عربة وقدم

لكليوباترا ليس فقط الغنائم الثمينة ، بل وأحضر لها أيضًا ملك أرمينيًا وعائلته مكبلين فى قيود من الذهب ، كانت هى جالسة وسط الجماهير الشعبية على منصة خشبية مطلية بطبقة من الفضة وفوق كرسى من الذهب ، وبعد أيام أقيم احتفال آخر ، ففى حفل الاستقبال حضر أنطونيو وكليوباترا جالسين على عرش توأمين ، وتحتهما جلس على عرش آخر بطليموس قيصرون ، ابن كليوباترا من يوليوس قيصر ، وأدنى منه مباشرة ، جلس أطفال كليوباترا وأنطونيو الإسكندر هيليوس الابن الأكبر فى زى شرقى ، وبطليموس فيلادلفوس الابن الثانى ، فى زى مقدونى ، وكليوباترا سيلين ، توأم الإسكندر ، وفى خطاب إلى الشعب ، أعلن أنطونيو أن كليوباترا أصبحت ملكة مصر ، وقبرص وسوريا الواطئة ، وسماها " ملكة الملكات " وأن ابنها بطليموس قيصرون هو شريكها ، وسماه " الملك العظيم " على أرمينيا وكل الأراضى التى (لا تزال تحت سيطرة البارثيين) بين الفرات والهند Indus وأعلن أن بطليموس فيلادلفوس ملكاً على سوريا وعلى كل الأراضى الواقعة بين الفرات وتلال بونط ، أطلق على كليوباترا سيلين لقب ملكة قورينا وليبيا .

من أجل ذلك قسم أنطونيو بلاد الشرق ، ووضع على رأس الإمبراطورية البطلمية التى ردت إلى الحياة فيما يشبه الحلم آلهتها التوأم الحراس ، أنطونيو - ديونيسيوس وكليوباترا - إيزيس ، الإله الإغريقى والإلهة المصرية إذ توحد معهما كل من أنطونيو وكليوباترا ، توحدت الإسكندرية باتحاد ديونسيوس مع سيرابيس وباتحاد إيزيس زوجة لسيرابيس ، وأقيمت التماثيل، أنطونيو فى قناع ديونيسيوس و وكليوباترا فى قناع إيزيس ووضعت هذه التماثيل فى مدخل معبد الربة سيريز وبيرسفونا خارج أسوار المدينة (١٦) .

كل هذا مع معاملة أنطونيو لأوكتافيا بطريقة مهينة ، خلق نوعًا من الحساسية الكبيرة فى روما ، فلم يقم أحد من الرومان قط باحتفال للانتصار فى أى مكان خارج روما ، وقد أيقظ أنطونيو بفعلته هذه مشاعر الغيرة القديمة ضد الشرق عمومًا وضد الإسكندرية على وجه الخصوص ، امتزجت هذه الغيرة بالازدراء لأنطونيو بسبب فشله العسكرى ضد أعداء روما الحقيقيين ، وهم البارثيين وجعل من عملية سلبه ونهبه لمملكة حليفة لروما مناسبة للاحتفال بالنصر ، كما أن تقسيمه للأراضى الرومانية وتوزيعها

بين كليوباترا وأطفالها قد أثار غضب شديد فى روما ، وكان هناك أيضًا إدراك شديد بأن مؤلف هذه الخطط كلها ليس هو أنطونيو ، الذى تخلى عن كل طموحاته ، بل هى كليوباترا ٠

رغم هذا فإن أنطونيو كان لا يزال يمتلك موارد ضخمة تحت يده ، ويجد بعض التأييد القوى فى روما ،لأن بعض أعضاء مجلس الشيوخ لم ينساقوا مع مشاعر التحيز ضد أنطونيو وضد الشرق أملاً فى ركوب الموجة والوقوف فى جانب المنتصر بعد أن بات واضحًا أن الصراع على السلطة بين أنطونيو وأوكتافيوس كان قدراً محتوماً ، ففى الوقت الذى استعد فيه أوكتافيوس وأصدقاؤه للاستفادة على خير وجه بالأخبار الواردة من الشرق لضرب ثقة الناس فى أنطونيو ، فان كثير من الشخصيات العامة فى روما كانوا لا يزالون حريصين على بقاء الاتصالات مفتوحه مع أنطونيو ليعلموا بأنفسهم حقيقة ما كان يجرى فى الشرق ، لذلك استمرت رحلات الذهاب والعودة بين روما والإسكندرية التى قام بها شخصيات رومانية بارزة ، كل أنواع القصص عادت ثانية إلى روما ، قيل أن الإسكندرية صارت مدينة أولمبية جديدة a new Olympus ، حيث أصبح أنطونيو مديراً للجمنازيوم ، أو عمدة من نوع ما للمدينة اقتداء بمثال بطليموس فيلوباتور فى القيام بدور ديونيسيوس فى الاحتفالات العامة ، فقد اعتاد أن يراه الناس فى زى ديونيسيوس ، فى يده عصا ديونيسيوس وعلى رأسه تاج من الذهب مجدولاً بورق البلاب ، جالسًا فى عربة النصر ، يجره فى الشوارع جمهوراً من الباخيين (أتباع الإله باخوس Bacchantes) ، وبدأت قصص الفضائح تروى عن بعض أعضاء مجلس الشيوخ الرومان الذين كانوا يتزينون بذيول الأسماك وأشياء أخرى وملابس تنكرية و يقدمون رقصات السكارى فى احتفالات ديونيسيوس الماجنة ، هناك قصة مشهورة عن كليوباترا أنها فى إحدى الولائم أذابت حلقاً من اللؤلؤ لا يقدر بثمن فى كأس من النبيذ ممزوج بالخل ، وقيل إنها لكى تحمى نفسها من إدمان السكر الذى ابتلى به أنطونيو ، رغم أنها تشرب معه كأسًا بكأس ، اشترت خاتماً من الجشمت البنفسجى تلبسه فى يدها ، قيل أيضًا إن أنطونيو يظهر فى الأماكن العامة مرتديًا زى ملك شرقى وممسكًا فى يده بصولجان الملك وإلى جانبه سيف مقوس ويرتدى أرواباً مغطاة بالأحجار الكريمة ، أخذت القصص تروى عن

استسلامه لكليوباترا وافتتانه بها ، قيل إنها تعامله كخادم فى الأماكن العامة ، وقيل أيضًا إنها ترتمى فى أحضانه الحنونه علنًا ، وأشاعت عنها سيدات المجتمع الرومانى فضائح مثيرة ، منها أنه قد حملها على يديه فى أثناء أحد المآدب وعاد بعد وقت قصير وجوههما محمرة وشعرهما مشعث وهما يضحكان ، وقيل إن كليوباترا كانت تتباهى بأنها خلال عام، سوف تبدأ فى إصدار المراسيم من العاصمة روما ·

ترك هذا كله انطباعًا غير مستحب فى روما لكن مازال لأنطونيو أصدقاؤه ، ولأوكتافيوس أعداؤه الكثيرون ، وأى محاولة لمحاربة أنطونيو سوف تزيد من أعدائه بسبب الضرائب التى سوف تتطلبها الحرب ولو اتخذ أنطونيو المبادرة ووجه ضربته الحاسمة إلى إيطاليا ، ربما لتحققت طموحات كليوباترا ، فكراهية كليوباترا والغيرة من الإسكندرية قد تهدأن بقليل من الانتصارات العسكرية ·

لكن أنطونيو كان قد فقد عزيمته ، فقد عاد إلى سوريا بعد قضاء شتاء ٣٤-٣٣ فى الإسكندرية ، وكان رأى كليوباترا قد استقر على عدم محاربة البارثيين ، وبدلاً من ذلك صممت على أن يجمع حلفائه ويزحف نحو الغرب ضد أوكتافيوس ، وكانت هذه نصيحة مفيدة فى ذلك الوقت ، لكن السرعة كانت ضرورية ، وأنطونيو تلكأ طويلاً إلى حد الملل ، فتفاوض من جديد مع ملك ميديا ، ووعد بأن يساعده فى المستقبل ضد البارثيين وطالب فى الحال بتعزيزات ضد أوكتافيوس ، وحصل على هذه التعزيزات مقابل التنازل عن جزء من أرمينيا إلى اتراڤا سيديز ملك ميديا ، وعقد زواج ايوتابا Iotapa بنت اتراڤا سيديز على الإسكندر هليوس الذى سماه أنطونيو " الملك العظيم " وبعد أن منح أنطونيو بقية أرمينيا لملك بونط ، ذهب إلى أفسس حيث لحقت به كليوباترا بالأسطول المصرى ومعها مبلغ كبير من المال ·

أنفق أنطونيو موسم الشتاء فى أفسس ، لتجنيد جيش بمساعدة حلفائه ، وكما حدث فى الشتاء السابق ، توافد الزوار القادمون من روما ، لتفقد حقائق الواقع بغرض وضع ترتيباتهم للمستقبل ، وخرجوا من أفسس بنفس الانطباع غير المرضى الذى خرجوا به من الإسكندرية ، فقد رأوا باستياء أن كليوباترا قد زودت بحرس من الجنود الرومان يرتدون شارات مصرية ، ولاحظوا أن كليوباترا تحضر جميع المؤتمرات

التى يعقدها أنطونيو وأنها رافقته فى استعراض قواته ، وحيث أن اهتمامهم الأساسى كان يتعلق بالتوقعات المنتظرة لنجاح أنطونيو أو فشله أمام أوكتافيوس ، فكان الانطباع الذى تكون لديهم هو افتقاد أنطونيو للعزيمة والتصميم وأن تناقص شعبية كليوباترا قد أبعده عن حلفائه بدرجة كبيرة لأن كليوباترا اعتبرت آسيا قطراً مهزوماً يحق سلبه ونهبه لصالح مصر، لقد تم نهب الكنوز الفنية من مدن آسيا وأرسلت إلى الإسكندرية ، وأن مكتبة برجامون العظيمة ، والتى تحتوى على مائتى ألف من لفائف المخطوطات قد شحنت فى السفن إلى الإسكندرية لتعوض كليوباترا عن الخسائر التى نتجت عن حرق المكتبة أثناء حرب الإسكندرية ، وبالنسبة إلى مصالح أنطونيو ، فإن أسوأ ما حدث هو إهانة كليوباترا لزواره خصوصاً هؤلاء الذين كانوا يحذرونه من تأثير كليوباترا عليه ويحثونه على إرجاعها إلى الإسكندرية ، تحرك أنطونيو وكليوباترا من أفسس فى صحبة الجيش والأسطول ، اتجه إلى ساموس أولاً ، ثم إلى أثينة ، وفى كل موقع من هذه المواقع واصل أنطونيو حياة الولائم والحفلات الماجنة التى أصبحت ضرورية بالنسبة له والتى فعلت فعلها فى تدمير ثقة حلفائه وتابعيه الباقين ، وبتحركه فى أثينة بصحبة كليوباترا ، فإنه قضى على أخر إمكانية باقية للتفاهم مع أوكتافيوس ، فطلق أوكتافيا وأرسل إليها رسالة يطلب منها أن تترك بيته فى روما الذى كانت تعيش فيه مع أبناء أنطونيو منها ومن فولفيا .

عند استقبال هذه الأخبار أعلن أوكتافيوس تحديه لأنطونيو ، فاستولى على وصيته التى كانت مودعه عند الكاهنة بمعبد فستا بروما **Vestal Virgins** وكشف لهم عن قيام أنطونيو بتقسيم ولايات روما الشرقية ووزعها بين أطفاله وبين كليوباترا ثم أعلن الفضيحة الكبرى وهى ماعبر عنه أنطونيو من رغبته فى أن يدفن فى الإسكندرية لا فى روما ، وهذا يعنى بالنسبة لمواطنى روما ، أنه فى حالة انتصار أنطونيو على أوكتافيوس ، فان الإسكندرية سوف تحتل مكان روما كعاصمة للعالم الرومانى.

كان لا يزال لأنطونيو أصدقاء فى مجلس الشيوخ ، حيث بدأ أوكتافيوس وأصدقائه فى الهجوم عليه علناً ، ولأول مرة وفى أثناء النقاش كشف الكثير من قصص الفضائح التى كان يتبادلها الناس سراً فى السابق حول أنطونيو ، واستشهد بتعليق

كليوباترا عن اصدار مراسيم من الكابيتول ، وأخيراً ، وبناء على اقتراح من أوكتافيوس ، أعلن مجلس الشيوخ حرمان أنطونيو من وضعه ضمن أعضاء الحكومة الثلاثية وفقدانه الأهلية لتولى منصبه كقنصل ، هذا المنصب كان سيحصل عليه بالانتخاب حسب اتفاقه مع أوكتافيوس فى ترانتوم ، ثم تمت دعوة كل التابعين لأنطونيو للعودة إلى روما ، وأعلنت الحرب رسمياً ضد كليوباترا ، وقاد أوكتافيوس بنفسه احتفال رمى الرمح خارج معبد بيلونا The Temple Of Bellona وهى الطريقة المتبعة فى حالة إعلان الحرب على عدو من أعداء روما ، وفى خطبة عامة أعلن أوكتافيوس أن أنطونيو قد فقد وعيه بسبب المشروبات السحرية التى تقدمها له كليوباترا ، وأن الرومان لا يحاربون فى الواقع أنطونيو ، بل ماردیون Mardion خصى كليوباترا ، وأيراس Iras مصفف شعرها ، وشرميان وصيفتها ، هذه الأشياء قد تم تقديرها جيداً كى تتوافق مع ميول العداء ضد الشرق لدى المواطنين فى روما .

لكن أوكتافيوس كان يلزمه أن يجمع جيشًا ، ومن أجل هذا فإنه يحتاج إلى المال الذى يمكن أن يحصل عليه من الأغنياء ، الذين لا يتأثرون بنوازع العداء للشرق بالدرجة التى تتحرك بها أغلبية الشعب من الفقراء، أما أنطونيو ، فرغم أن أصدقائه أخذوا يتخلون عنه ، فإنه يملك جيشاً وأسطولا حاضراً فى الواقع ، وبمقدوره حتى الآن أن يهزم أوكتافيوس ، لو انه أمسك بزمام المبادرة ، لكن حالة من الخمول القاتل أقعدته عن الحركة ، فقد نقل قواته من أثينة إلى شواطىء الادرياتيك ، لكنه لم يعبر البحر إلى إيطاليا حيث كان يمكنه أن يفاجىء أوكتافيوس قبل أن يستعد ، بدلاً من ذلك ركز قواته البرية والبحرية فى الخليج وحوله ، بين بلدة باتراس Patras وبين كورسيرا Corcyra وانتظر حتى يفاجئه أوكتافيوس .

وبرغم احتجاجات كل أتباعه الباقيين ، وربما رغم إرادته ، فإن كليوباترا أصرت على البقاء معه ، فقد كانت تساهم فى الحملة بالمال والسفن ، وربما كانت تخشى لو ترك أنطونيو لنفسه ، فربما يتوصل إلى اتفاق مع أوكتافيوس ، يتض من حتمًا تخليه عنها ، ومن أجل هذا بقيت معه ، وبهذا حددت مصيره ومصيرها .

لقد كان هروب كليوباترا من معركة اكتيوم ومعها الأسطول المصرى كله موضع جدال ، هل كان بسبب الخوف ؟ أم كانت محاولة لإنقاذ الأسطول المصرى من الدمار

فى معركة تدرك هى مقدماً أنها خاسرة ؟ أم أنها أدركت أن الخسارة لم تلحق بالمعركة فقط بل حاقت بالحملة كلها ، وأن أنطونيو قد استنفد قواته ، وأصبح أوكتافيوس هو السيد الوحيد فى عالم الرومان ؟ هل كان قرارها عملاً متعمداً من أعمال الخيانة ، أم إرهاصا غامضًا بما سوف تسفر عنه الأحداث ؟ أى خطة مقررة للتخلى عن قضية خاسرة ، و إشارة لأوكتافيوس بأنها مستعدة للتفاوض معه من أجل سلام منفرد ؟

أيًا كان السبب ، فإن قرارها ، جر وراءها أنطونيو بقوة أشبه بالمغناطيس فتخلى عن قواته فى منتصف المعركة ، وكانت النتيجة الطبيعية أن تتخلى عنه قواته ، إن فرار كليوباترا من أكتيوم قد أنهى المعركة بينه وبين أوكتافيوس نهائيًا ، فالإسكندرية كانت مسرحًا لانتصار أنطونيو ، ومكانًا لمجونه الديونيسية الصاخبة ، الإسكندرية عاصمة الإمبراطورية ، التى كان هو وكليوباترا ينويان إقامتها ، صارت هى مسرح النهاية ، نهاية كليوباترا ونهاية أنطونيو ، وفى غضون بضعة شهور ، فإن المدينة التى رأتها كليوباترا تحتل مكان روما أصبحت محتلة الآن بقوات روما المنتصرة ، وأن أنطونيو ديونيزيوس وكليوباترا إيزيس الملك الإله والزوجة الإلهة والإمبراطورية الوليدة الممتدة من الإسكندرية هاهم الآن فى عداد الأموات إذ انتحرت كليوباترا وانتحر أنطونيو.

عند عودته من أكتيوم إلى الإسكندرية حبس أنطونيو نفسه فى برج صغير كان قد شيده فوق طرف الرأس الممتد فى الميناء الشرقى ، قرب جزيرة انترهود **Antirrodos** ولكونه رجل ذو ثقافة إغريقيــة وعاشق للآداب الإغريقية ، فإنه سمى نفسه تيمونى ، وهنا ، محاكاة لتيمونى ، عاش عيشــة الناسك المتوحد ، لكن دون تواصل كما كان دائمًا ، فإنه لم يستطع الاستمرار فى هذا الدور لوقت طويل ، وقبل مضى أسابيع كثيرة لحق بعشيقته فى القصر حيث استأنفا دورة السكر والاستمتاع والمجون .

كأنه كان سعيداً بالتخلى عن كل أمل ، والخلود إلى اليأس بدرجة يستطيع معها أن يتخلى عن الحرص تماماً، فوضع المدينة كلها فى سلسلة من الولائم والسكر وتقديم الهدايا ، وتم تسجيل ابن كليوباترا بين الشباب (أى أنه أصبح مشهوراً بين الأغلبية) أما انتليوس إبنه من فولفيا فقد تسلم الروب بدون الإشارة الأرجوانية **Purpleborder** التى تعطى لأولئك الذين بلغوا سن الرشد ، وتكريماً له لم يقدم شعب الإسكندرية شيئًا واكتفوا بالاحتفال والمجون الصاخب لأيام كثيرة بل تجاوزوا هم أنفسهم حدود

العائشين حياتهم بطريقة تستعصى على المحاكاة The Order of Inimitable livers وأنشأوا مكانه تقليداً آخر ، لا يقل عنه فخامة وترفًا ، وسموه الموت معًا Diers together لأن كل الذين قالوا انهم يموتون مع أنطونيو وكليوباترا قدموا أسماءهم من أجل الاستمتاع فى الوقت الراهن بكل وسائل المتعة فى عالم الولائم المتلاحقة بانتظام (١٧) .

يخبرنا بلوتارك أن كليوباترا كانت مشغولة بتحضير مجموعة من جميع أنواع العقاقير السامة قامت بتجريبها على المساجين المحكوم عليهم بالإعدام لكى تعرف أيها أخف ألمًا ، لكنها حين وجدت أن أسرع السموم دائمًا تسبب آلاما حادة وأن السموم الأقل ألمًا تعمل ببطء ، فإنها بدأت تجرى تجاربها على الحشرات السامة واقتنعت أخيراً اقتناعًا قويًا بأنه لا يوجد مثيل لعضة ثعبان الأصلة "(١٨) ، لكن علاوة على الاحتفالات والاستعداد لعملية الانتحار ، كانت كليوباترا مشغولة بنواحى أخرى ، فبعد تخليها عن خطة كانت تزمع تنفيذها بسحب جزء من أسطولها عبر برزخ السويس إلى البحر الأحمر ، لكى تهرب إلى الجزيرة العربية أو الهند ، فتحت باب المفاوضات مع أوكتافيوس ، فى الوقت الذى كان فيه أوكتافيوس يزحف من آسيا باتجاه مصر ، وفى الطريق يقدم له حكام ولايات أنطونيو وملوكها آيات الخضوع والاستسلام .

تصرف أنطونيو الفاضح المشين فى اكتيوم قد أضاع قضيته إلى الأبد ، فقد تخلى عنه كل المسئولين فى الجزء الذى كان يخصه فى جهاز الهيمنة الرومانية ، كما أن تقدم أوكتافيوس عبر بلاد آسيا كان تقدمًا سليمًا ومنتصراً ، وأصبح أنطونيو مواطنًا خاصًا ، لا يملك جنديًا واحداً تحت تصرفه ، ويعيش تحت حماية كليوباترا ، لكنها ما تزال قوة يشار إليها ، فالأسطول المصرى الذى انسحب من اكتيوم مازال سليماً لم يصبه ضرر ، ومازلت مصر دولة مستقلة تتعرض لحرب تشنها الجمهورية الرومانية.

لقد طلب سفراؤها من أوكتاڤيوس أن يترك مصر لها ولأطفالها وأن يمنح أنطونيو حق الحياة كمواطن خاص فى الإسكندرية أو أثينة ، وأصر أوكتافيوس على أن تقوم هى بقتل أنطونيو أو بطرده من مصر ، لقد بعث بهذه الرسالة مع رجل اعتق من الأسر يسمى ثيرسوس Thyrsus يصفه بلوتارك بأنه ، رجل على سعة من الفهم

ولا تنقصه الأهلية لحمل رسالة قائد شاب لإمراة تتباهى بسحر جمالها وممسوسة بفكرة أن جمالها لا يقاوم.

من المستبعد أن يكون لدى أوكتافيوس أية نية لترك كليوباترا وأبناءها لكى تهنأ بالراحة أو الهدوء على عرش مصر ، حتى لو وافقت رغباته فيما يخص أنطونيو ، وكانت كليوباترا تدرك هذا عن طريق مصادر المعلومات التى تملكها فى روما، ومهما كان تفكيرها بالنسبة لاكتيوم فإنها لن تستطيع أن تنقذ عرشها بالتخلى عن أنطونيو ، فأكتافيوس يعلم أنها القوة المحركة لعداوة أنطونيوله ولا يمكن أن تتوقع أى رحمة من جانبه ، بالنظر لكل ما مضى ، وبالنظر لشخصية أوكتافيوس ، ولشخصيتها هى فى سنوات النضج لابد أنها أدركت بأنها لن تستطيع أن تغرى أوكتافيوس كما أغرت يوليوس قيصر وأنطونيو ، لقد بدأت المباراة ، ولأنها لا تجد شيئا يمكن أن تكسبه بالخيانة .

" فإنها ترفض كل مقترحات أوكتافيوس بخصوص قتل أنطونيو أو طرده وبدلاً من ذلك فإنها أولته كل اهتمام يمكن تخيله ، وحين حانت مناسبة عيد ميلادها ، احتفلت به بما يناسب حظهما العاثر ، لكن فى عيد ميلاده هو كان الاحتفال على أرقى مستويات البذخ والفخامة ، حتى أن كثيراً من ضيوف الحفل الذين حضروا وهم فى حالة واضحة من الفقر والعوز قد رجعوا إلى بيوتهم وهم فى عداد الأثرياء[١٩] ".

فى خلال أسابيع قليلة ، جرى غزو مصر من ناحيتين ، من الشرق عن طريق بيلوزيوم بواسطة أوكتافيوس شخصياً ، ومن الغرب بواسطة القوات الرومانية عن طريق قورينا ، وفيما كان أوكتافيوس يعسكر بقواته فى إستاد سباق العربات Hippo-drome فاجأت أنطونيو نوبة أخيرة من القوة ، فقام على رأس عدد قليل من القوات وخرج من بوابة المدينة وشن هجوماً عنيفاً على الرومان ، أخرج الخيل وقام بضربها حتى عادت إلى الخنادق ، ثم عاد إلى القصر يملأه شعور بالرضا ، حيث التقى بكليوباترا وهو مسلح كما كان ، فقبلها ثم راح يزكى أحد رجاله الذى تميز و تفرد فى القتال ، فأهدته درعاً وخوذة من ذهب ، وبعد أن أخذ الهدية ذهب فى تلك الليلة ذاتها إلى أوكتافيوس وتركهما [٢٠].

وعلى مائدة العشاء فى تلك الليلة طلب أنطونيو من خدمه أن يساعدوه وأن يصبوا له النبيذ بسخاء ، لأنهم فى الغد لن يفعلوا نفس الشىء ، بل سيخدمون سيداً جديداً ، فبكى أصدقاؤه المحيطين به عندما سمعوه يتكلم هكذا .

يروى بلوتارك إنه فى تلك الليلة ، وفى منتصف الليل تقريبًا ، والمدينة فى صمت عميق وحزن عام ، والناس يفكرون فى أحداث الغد ، فإذا بهم فجأة يسمعون صوت جميع آلات الموسيقى وهى تعزف ومعها أصوات تغنى ، وصيحة جمهور من الناس يتصايحون ويرقصون فى طريقهم كفريق من اتباع باخوس ، هذا الموكب الصاخب يسير مباشرة فى وسط المدينة نحو اقرب بوابة إلى العدو ، وهنا ارتفع الصوت ارتفاعاً شديداً ثم تلاشى فجأة، أما الناس الذين يتفكرون فى هذه الأمور فقد رأوا فى هذا علامة على أن باخوس الإله ، الذى جعله أنطونيو موضوع دراسته وتقليده ، قد هجره الآن .

من عادة أهل الإسكندرية أن يقتفوا خطوات ربتهم الحارسة ففى اليوم التالى تحول الجيش والأسطول إلى جانب أوكتافيوس ، أما أنطونيو ، وقد تخلى عنه الجميع ماعدا حارسه الخاص ، فقد ارتمى فوق سيفه مقتفياً الأسلوب الرومانى الراقى فى الإنتحار، ولكن نتيجة افتقاده قوة العزيمة فى أيامه الأخيرة ، فإنه فشل فى قتل نفسه ، وعاش وقتاً طويلا يكفى لإنجاب ذرية فى أكثر مشاهد التاريخ رومانسية .

وعندما اقتربت فرق الجيش الرومانى من الإسكندرية ، انتقلت كليوباترا من القصر ، أقامت مع قلة قليلة من خدمها فى واحدة من أروع المقابر والآثار التى تشتهر بروعة إنشائها وكانت قد بنتها كليوباترا بجوار معبد إيزيس ، على حافة رأس لوكياس ، فى منطقة القصر ، وأخذت معها كنوزها من الذهب والفضة والزمرد ، واللؤلؤ ، والأبنوس ، والعاج ، وأدوات الصينى بالإضافة إلى كمية كبيرة من خشب المشاعل والحبال [٢١] كان فى نيتها أن ترغم أوكتاڤيوس على التفاوض تحت التهديد بتدمير نفسها وكنوزها .

لقد احضروا أنطونيو وهو يحتضر إلى هذا الأثر ، كان الدور الأول مغلقًا بالحواجز فى وجه الجنود الرومان ، وكانت كليوباترا وخدمها فى الدور الأعلى ، وعند

رؤية أنطونيو من الشباك ، أمرت كليوباترا بإنزال الحبال وربط أنطونيو بها ، وبدأت تشدها هى والمرأتان الوحيدتان اللتان سمحت لهما بالدخول إلى هذا المبنى الأثرى ، قال الذين حضروا هذه اللحظة ، ليس هناك شيء يدعو للحزن أكثر من رؤية هذا المشهد ، أن ترى أنطونيو وجسمه غارق فى الدماء لا يكاد يتنفس ، هكذا سحبته إلى أعلى حتى أمسك بيدها وهو يجاهد بكل ما بقى له من قوة هزيلة أن يرفع جسمه ، والواقع أن هذا لم يكن عملاً سهلاً على النساء ، كانت كليوباترا تمسك الحبال بكل قوتها وتجهد نفسها فى رفعه إلى أعلى ورأسها منحنية نحو الأرض ، وحين أخذته عندها ، أجلسته على سرير ، وراحت تبكى حتى أغرقت جميع ملابسها بالدموع ، وهى تضرب على صدرها بيدها ، وأنطونيو يحاول بقدر الإمكان أن يجعلها تكف عن البكاء والنحيب ، ثم طلب نبيذاً ليشرب ، وعندما سكر ، أخذ يقدم لها نصائحه ، عليها ألا تتأسى لما آل إليه مصيره ، بل أن تفرح مع ذكريات ماضيه السعيد حين كان هو أقوى الرجال وأكثرهم مهابة وجلالاً (٢٢) .

أما ختام هذه الرواية فجاء سريعًا ، بعد أن استسلمت المدينة ، دخل أوكتافيوس على قدميه فى أمان ، بصحبة الفيلسوف آريوس ، أحد علماء المتحف ، والذى يبدو أنه قام بالتفاوض لإتمام عملية تسليم المدينة ، وفى خطابه إلى المواطنين قال أوكتافيوس إنه يعفيهم من كل لوم فيما يخص سوء تصرف حكامهم ، أولاً من أجل الإسكندر الذى بنى الإسكندرية ، ثم من أجل المدينة الفسيحة والجميلة ذاتها ، ثالثاً لكى يرضى ويسعد صديقه آريوس .

ربما كان شيئًا ملائمًا أن تنجو الإسكندرية من الدمار عن طريق فيلسوف لأن الإسكندرية سوف تتميز منذ تلك اللحظة بفضل فلاسفتها .

لقد فشلت محاولة كليوباترا فى أن تضحى بنفسها وبثروتها، أو ربما لم تحاول هى أن تفعل ذلك، ربما صدقت لبرهة قصيرة أن أوكتافيوس سوف يسمح لها بالاحتفاظ بعرشها لكنها سرعان ما أدركت أن مقصده هو أن يأخذها أسيرة إلى روما كى تعرض فى موكب النصر واستفادة بما حصلته مسبقًا من معرفة لفن السموم فإنها قتلت نفسها وتركت كنوزها ومملكتها تحت رحمة أوكتافيوس، كانت كليوباترا السادسة

آخر وأعظم تلك الأميرات المقدونيات اللاتى حكمن مصر فى فترات مختلفة، وكانت أيضاً آخر ملكة فى عائلة ملوك البطالمة التى حكمت مملكة مستقلة ، ومنذ ذلك الحين قضى على مصر أن تكون ولاية رومانية ٠

Notes

(1) Plutarch. Anyony.

(2) Plutarch. Pompey.

(3) Bouche-Leclercq.op. cit. Vol. II. p. 200

(4) Plutarch. Anyony.

(5) ibid.

(6) ibid.

(7) ibid.

(8) Athenaeus. op. cit. Book IV. Chapter29.

(9) Plutarch. Anyony.

(10) ibid.

(11) ibid.

(12) ibid.

(13) ibid.

(14) Bouche -Leclercq. op. cit. Vol. II. P. 241 .

(15) ibid. pp. 246 - 7 .

(16) Josephus. Antiquities of the Jews. Chapter IV.

(17) Plutarch. Anyony.

(18) ibid.

(19) ibid.

(20) ibid.

(21) ibid.

(22) ibid.

١٠- حكم روما الإمبريالية

قضى أوكتاڤيوس أسابيع قليلة فى الإسكندرية قبل عودته إلى روما للاحتفال بالنصر ، انصرف وقته فى تنظيم ممتلكاته الجديدة ، لأغنى وأعظم إقليم فيما أوشك أن يكون هو الأمبراطورية الرومانية ، هكذا كانت مصر غنية جداً وفى غاية الأهمية حتى أن أوكتافيوس صمم على أن تكون تحت إدارته مباشرة وإدارة خلفائه وعدم السماح لمجلس الشيوخ بالتدخل فى أمورها ، وعين دون الرجوع لمجلس الشيوخ ، ممثلاً شخصياً له Prefect ، حاكمًا ورئيساً لهيئة أركانه على مصر كلها بصورة مباشرة ، وكان أعضاء مجلس الشيوخ ممنوعين حتى من زيارة مصر دون إذنه ، وترك أقدم التنظيمات الإدارية الفعالة دون تغيير واستمرت اللغة اليونانية كلغة رسمية وظلت معظم الإدارات العليا بأسمائها اليونانية يديرها موظفون من اليونان أو المصريين الذين يتكلمون اللغة اليونانية .

لكن تغيراً طرأ على وضع الموظفين اليونانيين بالإسكندرية ، فتم التأكيد على امتيازاتهم التى حصلوا عليها هم والمصريون واليهود الذين منحوا حق المواطنة واصطبغوا بطابع الهللينستية ، مع حرمانهم من الحكم الذاتى عن طريق مجلس شيوخهم ، وهو الإمتياز الذى حصلوا عليه فى ظل البطالمة ، والأرجح أن هذا كان عقاباً لهم ، بسبب مقاومتهم لقيصر أكثر من تأييدهم الفاتر لأنطونيو. وكأنه أراد أن يكشف عن شخصيته ، فأكد أوكتافيوس للمستعمرة اليهودية بالإسكندرية على امتيازاتهم (التى تمتعوا بها نظرياً فى كل الأحوال ، تحت حكم البطالمة) ، وانعم عليهم بحق إدارة أمورهم من خلال مجلس شيوخ ,Council of Elders كان أوكتافيوس معترفاً حافظاً لجميل اليهود بسبب المساعدة التى تلقاها هو ويوليوس قيصر من اليهودية ، لقد تخلى هيرودس بدهائه عن أنطونيو ، فى الوقت المناسب ، أقام علاقة طيبة تحظى برضاء أوكتافيوس ، فزار أوكتافيوس فى الإسكندرية وتسلم منه تلك الأجزاء من فلسطين التى كان أنطونيو قد أعطاها لكليوباترا ، ومنذ ذلك الحين

اعتبر هيرودس نفسه وذريته رعاة وحماة ليهود الإسكندرية طالما استمر حكمهم لفلسطين وفى المقابل سوف يستندون إلى دعم هؤلاء اليهود ماليًا .

فى البداية كان أوكتافيوس مدركًا لمشاعر الغيرة التى تعتمل فى نفوس سكان روما تجاه الإسكندرية ، ففكر فى بناء مدينة جديدة إلى الشرق قليلاً لتكون عاصمة جديدة لمصر ، وأصبحت نيكو بوليس Nicopolis المدينة التى بدأ فى تشيدها على شاطىء البحر فى المكان الذى يحتله حى الرمل الآن ، وفى نيكوبوليس سار على خطى الفاتحين الرومان ، فبنى مدرجاً وإستادا وأسس سلسلة من دورات الألعاب التى تقام كل خمس سنوات تخليداً لفتحه الإسكندرية، وأثناء إقامته بالإسكندرية زار قبر الإسكندر وأدى الشعائر فى الصوما Soma أو الضريح ، ووضع تاجًا من الذهب وإكليلاً من الزهور فوق تابوته الزجاجى ، وسئل إن كان يجب عليه أن يزور قبور البطالمة فى نفس المبنى ، أجاب إنه جاء ليحى بطلاً وليس من أجل رؤية الأموات.

لقد حاول أوكتافيوس، دون نجاح أن يدخل إلى مصر تقويم جوليان Julian Calendar الذى أخذ به الرومان الذى أقيم على أساس بحوث الفلكيين المصريين لكنه هزم أمام الاتجاه المحافظ للكهنة المصريين .

ترك أوكتافيوس حامية فى الإسكندرية ، تتكون من ثلاث فيالق (*) Legions واحدة فى الإسكندرية والأخريتان تتوزعان فى أنحاء القطر - بالإضافة إلى تسع وحدات عسكرية Cohorts ثلاثة فى الإسكندرية ، وثلاثة فى سين Syene (أسوان حاليًا) على الحدود الجنوبية لمصر ، والثلاثة الأخرى فى بقية القطر .

وحين غادر الإسكندرية ، أخذ أوكتافيوس معه الذهب وجميع الكنوز التى يمكن حملها ، بما فيها الكنوز الملكية التى جمعتها كليوباترا ووضعتها فى المبنى الأثرى The monument والتى فشلت فى تدميرها ثم عرضت هذه الكنوز فى شوارع روما ضمن موكب النصر الذى سار فيه أوكتافيوس ، ومعه اثنان من أطفال أنطونيو وكليوباترا - هما الإسكندر هيليوس

(*) Legion : يعنى فرقة أو فيلق فى الجيش الرومانى أما Cohort فهى تتكون من ٣٠٠- ٦٠٠ جندى من المشاة أى واحد على عشرة من الفيلق .(المترجم)

وكليوباترا سيلين – وتمثال لكليوباترا ، (لقد تم قتل قيصرون ويرجح أن الابن الآخر لكليوباترا من أنطونيو قتل أيضاً) وفى موكب انتصاره بروما جرى عرض التماسيح المصرية التى أخذها معه وذلك من أجل تسلية الرومان وامتاعهم .

ظلت الإسكندرية بل ومصر أيضًا فى المائة سنة الأولى للاحتلال الرومانى تنعم بالسلام والرخاء وكان صفو هذا السلام يتعكر من وقت لآخر نتيجة محاولات الغزو التى تأتى من الجنوب أو بسبب الثورات التى كان يقوم بها المزارعون المصريون وأيضاً من جراء الحرب الأهلية الموسمية بين اليونانيين واليهود ، استطاع الحاكم الرومانى Prefect أن يصد بقواته الغزو الجنوبى وأن يخمد ثورات المصريين ، لكن الصراعات بين اليونانيين واليهود لم تنته إلا حين تشتت المجتمع اليهودى باليهودية وسقطت مملكة هيرودس فحرم يهود الإسكندرية من الحماية ووقعوا تحت رحمة اليونانيين.

نقرأ تفاصيل الاشتباك الأول الذى وقع بين الطائفتين فى عهد كاليجولا عام ٣٨م، فيما كتبه فيلو ، الفيلسوف اليهودى وأحد زعماء الطائفة اليهودية بالإسكندرية فى ذلك الوقت ، لقد اشتد التوتر بين أفراد الطائفة اليونانية بسبب زيارة هيرودس أجريبا لهذه المدينة ، وكان هيرودس يعتبر نفسه حامياً لطائفة اليهود بالإسكندرية ، لقد صارت مصر ولاية تابعة لروما وحرم أهل الإسكندرية تبعًا لهذا من الامتيازات التى كانوا ينعمون بها كمواطنى عاصمة مملكة مستقلة وصاروا رعايا إمبراطورية أجنبية ، فى أول مراحل التمرد ضد هذا الوضع الجديد ، وأخذت تظهر لديهم ميولاً لإثارة الصخب الهازل غير المؤثر والذى سوف ينتهى بدمارهم وهو " التظاهر " على طريق طلاب الجامعات الحديثة ضد سلطة أجنبية غير مقبولة ، فأهانوا أجريبا فى الشوارع وسخروا منه بالأغانى والمواويل الهجائية الفاحشة ، وكذلك برسم شخص عبيط أبله وتاج من ورق تشنيعًا به كملك محدث نعمة ، وغادر أجريبا الإسكندرية وبعدها ابتدأ اليونانيون يتوجسون من رد فعل الإمبراطور كاليجولا، ولكى يتجنبوا أذاه فكروا فى أن يشوهوا سمعة الطائفة اليهودية فى نظره ، ووجدوا الفرصة سانحة أمامهم فقد أصدر أباطرة روما – تمشياً مع التقاليد الشرقية – مرسوما ينص على أن توضع تماثيل الإمبراطور فى دور العبادة بالولايات الرومانية فى الشرق ، وكل ما هو مطلوب هو وضع شارة الشرف الملكى **Royal Coat of Arms** فى دور العبادة ، دون إصرار على فرض ما يتبع ذلك من تقديم شعائر الخشوع والطاعة ، لكن اليهود

رفضوا وضع تماثيل الإمبراطور فى معابدهم ، وكان يمكن للحاكم الرومانى فلوكس أن يتغافل عن هذا الأمر لو ترك لشأنه، لكن إصرار الطائفة اليونانية على تشويه سمعة اليهود دفعهم لاتخاذ هذا التصرف موضوعاً للشكوى ، ووجد فلوكس أنه لو سمح بتجاهل هذه المراسيم الإمبراطورية دون قصاص فسوف يضع نفسه فى الوضع الذى كان فيه بيلاطس البنطى حين صوره مروجوا الإشاعات فى روما بأنه ليس " صديقًا لقيصر " ونتيجة لهذا قام بسحب امتيازات المواطنة من اليهود وسمح لليونانيين بنهب ثرواتهم بل وبذبحهم، واشتكى أجريبا الذى كان فى طريقه إلى روما حين زار الإسكندرية ، اشتكى إلى الإمبراطور وضمن صدور قرار بطرد فلوكس ، أرسل كل من اليونانيين واليهود رسلاً إلى روما ، وكان الفريق الأول يرأسه آبيون **Apion** المؤرخ اليونانى المصرى ويرأس الفريق الآخر فيلو ، ولم يتلق أحد منهم شيئًا يطمئنه من جانب كاليجولا الذى مات بعد ذلك بقليل، وخلفه كلوديوس ، الذى أعاد ليهود الإسكندرية حقوقهم فى المواطنة، وقد أثار هذا القرار غضب اليونانيين ، الذين أرسلوا بعثة أخرى إلى روما للشكوى من زيارة أجريبا الأصغر الذى أقامه كلوديوس ملكًا على كالكس **Clalcis** (البقاع حاليًا) إلى الإسكندرية ولكن دون جدوى.

تفجرت الصراعات بين الطائفتين مرة ثانية عام ٥٥ فى عهد نيرون وكان اليهود هم المعتدون فى هذه المرة ، إذ هاجموا اجتماعاً لليونانيين كان منعقداً فى المدرج الرياضى ، وتم استدعاء الحامية الرومانية لحماية اليهود أثناء القتال الذى أعقب ذلك.

وبعد دمار أورشليم عام ٧٠ م ، تغيرت السياسة الرومانية إزاء اليهود ، وأخذ اليهود فى جميع أنحاء الإمبراطورية يشعرون بسياط الرومان، وفى عام ١١٥ م قامت فى مصر ثورة يهودية ضد الحكم الرومانى وضد اليونانيين فى الإسكندرية ، وقد تمت هزيمة اليهود وذبح الكثير منهم ، وفقدوا حقوق المواطنة بالإسكندرية ، ومنذ ذلك الحين كفوا كمجتمع عن ممارسة أى نفوذ سياسى وخضعت حياة الإسكندرية لخصومات أخرى .

حتى موت نيرون فإن ثياب الإمبراطورية الأرجوانية ، التى انحدرت إلى عائلتى جوليان وكلوديوس كانت تعتبر ميراثًا خاصًا لهم ، ومن ثم نشأت النزاعات على الخلافة بين عدد كبير من المتنافسين ، وكانت الإسكندرية دائماً ، واحياناً بصورة مأساوية

مشتبكة فى هذه الصراعات التى تنشأ بينهم على السلطة ، واستمر التوتر العرقى بين المصريين واليونانيين ، الذين حاولوا فى مواجهة الذوبان بين المصريين الذين اصطبغوا بالثقافة الهلليستنية ، ولمواجهة تدهورهم السياسى المضطرد فى عالم لم يعد فيه اليونانيون هم السادة، فراحوا يحاولون باستماتة الاحتفاظ بطابع حياتهم وعادات تفكيرهم المتميزة ، ثم تشابك الصراع الدينى بين قوى الوثنية وقوى المسيحية الناهضة مع هذا الصراع العرقى أو العنصرى .

وحتى بداية تمزق الإمبراطورية الرومانية بصراعات الخلافة ظلت فاعلية الحكم الرومانى فى مصر وحاجة روما للحبوب المصرية، والضريبة المصرية، والتجارة المصرية تساهم فى استمرار بل وزيادة رخاء الإسكندرية ، كانت التأثيرات الأولى للاحتلال الرومانى – قيام أوكتافيوس بنهب ثروة البلاد ، والتشديد فى جمع الضرائب – عوامل إفقار للقطر ، لكن سرعان ما تحسنت الأحوال فى ظل نظام مسالم كفء بدرجة مقبولة، فجرى تطهير وصيانة قنوات الرى ،(رغم أن بلينى يخبرنا بأن قنوات الرى فى نوم أرسينوى – الفيوم الحديثة التى شقها فيلادلفوس ، قد انهارت) وتحسنت الإنتاجية الزراعية ، وظلت مصر وجارتها قورينا هى المصدر الرئيسى لتوريد الحبوب إلى مدينة روما ، وشكلت حيازات حيوية للإمبراطورية الرومانية ، وكذلك تطورت التجارة مع الشرق عبر البحر الأحمر وصارت مربحة جداً .

كان التجار يتوغلون جنوبًا فى أعالى النيل حتى قفط **Coptos** ، ومنها يقطعون ٢٦٠ ميلاً عبر الصحراء حتى ميناء برينيس على البحر الأحمر، ثم يبحرون من برينيس حوالى منتصف يولية، عندما يشرق نجم اليمانى الشعرى **Dog-star** مع الشمس ، وفى غضون ثلاثين يوماً يصلون إلى أوكليس **Oclis** وهى مدينة على الساحل الجنوبى للجزيرة العربية، أو كانيس **Canes** فى بلد اللبان والبخور **The Frankincense country** على الساحل الشرقى لأفريقيا ليس ببعيد عن خط الاستواء ، ومن هناك يسلمون أنفسهم للرياح التجارية التى كانت قد اكتشفت حديثاً بواسطة مرشد بحرى يسمى هيبا لوس **Hippalus** ، فيعبرون بحر العرب بجسارة ويصلون إلى موزريس **Musiris** وهى ميناء على ساحل مالابار **Malabar** بالهند فى مدة أربعين يوماً أو فى منتصف ديسمبر وفى نهاية ديسمبر يغادرون الهند ، عند عودتهم كانت رحلة الذهاب والعودة

إلى الإسكندرية تستغرق أقل من عام ، كانت منتجات تجارة الهند هى أساساً الحرير ، والماس والأحجار الكريمة ، والزنجبيل ، والبهارات ، وبعض أنواع الروائح [١] .

بالقرب من برنيس اقيم ميناء جديد هى ميوس هرموس MyosHarmos وتحولت إليها معظم تجارة البحر الأحمر وإليها جاءت منتجات وسط أفريقيا – العاج ، وسن الخرتيت ، وجلود عجول البحر ، ومحار الزواحف والعبيد السود وجرى تطوير الطريق بين النيل والبحر الأحمر بواسطة الرومان وفى التلال الغربية من ساحل البحر الأحمر – المسمى جبل كلوديانوس على اسم الإمبراطور كلوديوس – والذى يمتد خلاله الطريق هناك أنشئت محاجر المرمر – مصدر البرفيرى الإمبراطورى – ومناجم الزمرد وتطورت .

كذلك تطورت الصناعة المصرية فى ظل حكم الرومان ، فاشتد الطلب على ورق البردى كمادة ضرورية للكتابة فى كل أنحاء الإمبراطورية ، وكان أرخص كثيراً من ورق البرشام الأكثر احتمالاً ، كانت غابات البردى تنمو فى الماء الراكد الذى يتبقى بعد تصريف مياه الفيضان ، وكانت تستخدم لأغراض عديدة ، وكانت جذورها الكثيفة ذات العقود تستخدم كخشب فى صناعة الأثاث وكوقود أيضاً وكانت قوارب الخيزران المجدول تصنع من السيقان ، وكان اللحاء يستخدم لعمل الأشرعة والحبال والملابس وكطعام ، كانت تمص مثل قصب السكر ، لكن أهم فوائده ، والخاص بالتصدير ، هى استخدامه فى صناعة الورق ، كان الورق يصنع بتشريح عيدان البردى إلى رقائق ، ووضع رقاقتين فوق بعضهما البعض على هيئة صليب ولصقهما معاً بالعصارة الطبيعية للنبات .

يخبرنا بلينى Pliny أنه كان هناك ثمانية أنواع من ورق البردى – الهيراتيكى Hieretic ، أفضل هذه الأنواع ، ومخصص للكتابات المقدسة وهناك الآوغسطى Augustan ، واللڤيان Livian والأمفيذياتريك Amphitheatric والسايتك Saitic، والليونوتيك Leonotic وكان يباع فى الاسواق بالوزن وليس بالقطعة وفى عهد الإمبراطور كلوديوس ابتكر نوع عاشر يتميز بكثافة سمكه وسمى باسم الإمبراطور بحيث تتحمل الورقة الكتابة على الوجهين .

تطورت أيضًا صناعة الكتان وصباغة الملابس وكانت المنسوجات تؤخذ من نبات الكتان الذى ينمو فى الدلتا ، أما الصباغة فقد أخذت عن طريق أحد المصريين ولم يكشف سرها لليونانيين أو للرومان ، فكانت تغمس القماشة فى سائل به لون معين لإعدادها ، ثم تغمس فى سائل آخر له لون ثان لتخرج منه مصبوغة بلون ثالث (٢) .

كانت معظم الواردات الآتية من وسط أفريقيا ، والشرق ، ومعظم المعادن والمصنوعات المصرية ، تجد سوقاً مفتوحة فى روما ، أدت التجارة فى هذه السلع ، إلى جانب شحنات الحبوب ، إلى تنشيط حركة السفن بين الإسكندرية وميناء بيتولى **Puteoli** ميناء روما الرئيسى بعدد من السفن يفوق أى عدد آخر يتحرك بين أى مدينتين أخريتين فى العالم ، وكان معظم هذه السفن يبنى فى الإسكندرية ، التى استمرت تلعب دروها كأهم مركز بحرى لصناعة السفن ، وكانت السفينة الإسكندرانية لها شراعان ، صارى رئيسى وصارى أمامى ، وكان الصارى الرئيسى يحمل شراعًا كبيراً مربعًا وأحيانًا شراعًا أعلى ، أما الصارى الأمامى فكان يحمل شراعًا أماميًا صغيراً مربعًا ، وتوجد عملات لذلك العصر تحمل صوراً لهذه السفن وهى تقترب من فنار الإسكندرية أو وهى تغادره ، لم يكن لدى البحارة إلا قليل من المعرفة عن كيفية الإبحار عند اشتداد الرياح ، فإذا كانت الرياح مواتية فان الرحلة من الإسكندرية إلى ميناء بتيولى تتم مباشرة عبر البحر وتستغرق أسبوعًا أو أقل من أسبوع ، وإذا عاكست الرياح فان الرحلة كانت تأخذ شهراً والسفن تحبو بحذاء ساحل أفريقيا ، وآسيا الصغرى ، أو صقلية .

هذه التجارة كلها التى تمر من الإسكندرية تؤكد ثراء تجارها وطبقتها المتوسطة ، إذ كانت لا تزال أكبر المدن وربما أغنى المدن لكنها كانت تعتمد على روما ليس فقط سياسيًا بل واقتصاديًا أيضًا ، وفى ظل ظروف التبعية والخضوع فإن فنون المتعة المهذية التى كانت إحدى سمات الإسكندرية البطلمية قد اعترتها الخشونة واشتدت تفاهتها ، فالرغبة فى متابعة عروض سباق العربات ومباريات المبارزة حلت محل عشقهم لمتابعة مباريات الرياضة ، لقد تبلد شعور أهل الإسكندرية وأصابهم الفتور بدرجة تعجزهم عن الثورة على الرومان ، لكن كبريائهم الشديد يمنعهم فى نفس الوقت من الخضوع لحاكم أجنبى مستبد فلجأوا إلى المظاهرات والتهكم أحيانا كانوا يتمادون

ويتعرضون للعقاب ، تبعًا لهـذا اعتادوا عـلى الاحتجاجات الكلامية الصاخبة ، وتنظيم الوفود الغاضبة وإرسالها إلى الحاكم الرومانى أو إلى الإمبراطور، أما الرومان ، الذين يرون للإسكندرية أن تبـقى فى سـلام ، ووجـدوا فى المواهب التـجـارية لأهل الإسكندرية منفعة لهم ، فإنهم عالجوا معظم هذه الحالات بالتسامح المصحوب بالازدراء ، مما سمح للأغنياء أن يحتفظوا بثرواتهم ، وأتاح للفقراء الخبز وارتياد حلبات المصارعة واللعب . وأكدوا للجميع امتيازاتهم القديمة ماعدا حقهم فى الحكم الذاتى .

وفى روما اشتد الرواج لكل شىء آت من الإسكندرية ، اشتد الإعجاب بشعراء الإسكندرية الراحلين ، وتبارى الناس فى تقليدهم ، وصار الأحياء من أساتذة المتحف بالإسكندرية من علماء النحو والفلاسفة ، يلقون الترحيب وحسن الاستقبال فى روما ، كانت الإسكندرية بالنسبة لكبار رجال روما مثل لندن وباريس بالنسبة لأقطاب الصناعة والتجارة الأمريكيين الآن – زاهية متحضرة حافلة بالدهاء والعلم لكنها فى الأساس منحلة خلقيًا و محتقرة ، فأحدث موضات الأزياء ، التى يرتديها الرومان ، وأحدث الألعاب التى يلعبونها كانت مستوردة من الإسكندرية ، ومن هذه الألعاب هناك لعبة غبية جداً من نتاج المرحلة المتأخرة اسمها لعبة لبازليندا **Basilinda** التى كان الناس يتسلون بها فى الأمسيات ، فيقوم أفراد الفريق بسحب قرعة لمعرفة الملك أو الملكة التى ينبغى أن تتولى الحكم وكان الرومان مغرمين بالمطربين الشبان يتمتعون بالأنغام الإسكندرانية فى الشوارع الرومانية ويحظى الممثلون من السكندريون بالترحيب والتقدير فى مسارح روما ، وأصبحت رياضة صراع الديكة **Cock-fighting** وهى رياضة إسكندرانية مفضلة أصبحت هى الموضة الشائعة عند الشباب الرومانى المدلل **Jeunesse doree** وفى مجال المصارعة انتصر مصارع **Retiarus** إسكندرانى فى خمسة وعشرون معركة ضد مصارعين مسلحين فى حلبة المصارعة بروما ، واكتسب شهرة عظيمة كبطل لدى الرومان ، كانت وسائل المتعة والترف السكندرى موضع إعجاب ممزوج بالاحتقار .

يعطينا چوفنال **Juvenal** ، (**Sat,1-26**) صـورة واضـحـة لواحـد من أهل الإسكندرية الأثرياء وهو يتجول فى روما مرتدياً ثوباً قرمزياً اللون ، ممسكًا بمروحة ذهبية يُهـوى بها لنفسه ، ومظهراً لخواتم أصابعه التى تلائم هذا الفصل من السنة لأن يديه رقيقة بحيث لا تسمح له بحمل مزيد من الجواهر فى الطقس الحار .

زار الإمبراطور ڤاسباسيان **Vespasian** الإسكندرية عام ٦٩ م ، وهى أول زيارة يقوم بها إمبراطور رومانى منذ أن غادرها أوكتافيوس ، قبل مائة عام تقريبًا ، استقبل فاسباسيان بمظاهر إسكندرانية يختلط فيها التزلف والسخرية ، فكانوا من ناحية يعاملونه كإله قادر على شفاء أحد العميان بالبصق فى عينيه ، ثم شفاء رجل ضامر الذراع بالسير فوق ذراعه ، وعلى الناحية الآخرى ، كانت هناك مظاهر الاستهزاء والتهكم من وضاعته حتى أطلقوا عليه من باب التشنيع لقب **Scullion-Kybiosaktes** أى مرمطون الذى أطلقوه فيما مضى على أحد البطالمة الذى قام بسرقه تابوت الإسكندر المصنوع من الذهب واستبدله بتابوت من الزجاج .

يصف ديوكاسيوس ما حدث على النحو التالى :[٣]

كان أهل الإسكندرية أبعد من أن يكونوا سعداء بحضوره ، فانهم كانوا يكرهونه لدرجة أنهم كانوا يسخرون منه ويشتمونه ، لأنهم كانوا ينتظرون منه مكافأة كبيرة ، على اعتبار أنهم كانوا أول من نصبوه إمبراطوراً ،(صدر إعلان تنصيبه إمبراطوراً فى الإسكندرية) لكن بدلاً من الحصول على أى شىء فقد فرض عليهم مساهمات إضافية ومن ثم غضب أهل الإسكندرية وبدأوا يعايرونه بمعايرات كثيرة منها " أتطلب منا ست أوبلات **Obals** (بإشارة واضحة إلى الضريبة القليلة التى كانت مفروضة عليهم) ورغم أن ڤسباسيان كان على أعلى درجة من حسن الطباع إلا إنه استشاط غضباً وأمر بتحصيل ست أوبلات من كل رجل لأن الكلمات ذاتها كانت جارحة ، وكان فى إيقاعها المكسور شيئًا ما آثار غيظه ، على أى حال ، فإن تيتوس **Titus** ابن ڤسباسيان وولى عهده توسل من أجل الإعفاء عنهم ، وسامحهم فسباسيان ، ولكنهم لم يتركوه لشأنه وإنما تجمع حشد منهم وصاحوا فى كورس يرددون هذه الكلمات " نحن نعفو عنه ، لأنه لا يعرف كيف يلعب دور القيصر " هكذا اندفع أهل الإسكندرية فى مظاهراتهم الطائشة إلى أبعد الحدود دون تحكم فى هذا الانحلال الوقح الذى يجلب عليهم الكوارث والذى يجرح مشاعر الإمبراطور ذى الطباع الحسنة، لكن سرعان ما تنبه فسباسيان لهم واستعاد النظام وأرسل شحنة كبيرة من القمح إلى روما .

كان الزائر الثاني للإسكندرية من أباطرة الرومان هو الإمبراطور هادريان عام ١٢٢ م وصل مباشرة في أعقاب الثورة اليهودية التي أحدثت دماراً كبيراً في المدينة ، وكان أكثر كرماً وإحساناً من فسباسيان إذ ساهم في ترميم المعابد والمباني العامة الآخرى التي لحقت بها أضرار ، واهتم اهتماماً واضحاً بالمتحف ، الذي لم ينل حقه من التقدير ، لأن هذا الاهتمام أخذ شكلاً رسمياً بتعيين نوعيات مختلفة من المتطفلين الذين لا يجيدون شيئاً في مناصب الأستاذية.

لقد أعفى أهل الإسكندرية هادريان من صفات التأليه والسخرية التي اطلقوها على فسباسيان واكتفوا بالمديح ، فأهداه أحد شعراء الإسكندرية زهرة من زهار اللوتس وردية اللون وهي زهرة نادرة في مصر إذا قورنت بالأزهار العادية ذات اللون الأزرق أو الأبيض ، وأكد الإمبراطور أن هذه الزهرة قد ارتوت من دماء أسد ذبحه الإمبراطور **Javelin** في الصحراء الغربية أثناء رحلة صيد ، ومقابل هذا المديح وأيضاً من أجل تسمية الزهرة باسم أنطونين **Antoininus** صديق هادريان المفضل ، الذي غرق أثناء عملية زحف استعماري على صعيد مصر ، منح هذا الشاعر وظيفة بلا عمل داخل المتحف .

وبعد سبع سنوات قام هادريان بزيارة ثانية لمصر ، وفي صحبته الإمبراطورة سابينا ، لقد كتب هادريان خطاباً إلى صديق له خلال هذه الزيارة الثانية ووصل الخطاب إلينا ليخبرنا عن رأيه في أهل الإسكندرية : انهم جنس من البشر ميالون إلى إثارة الفتن ، تنطوي نفوسهم على الحقد والضغينة والغرور ، وكمجتمع فإنهم أثرياء ومترفون ، ليس بينهم أحد الكسالى ، بعضهم يصنع الزجاج ، والبعض يصنع الورق ، والبعض الآخر ينسج الكتان ، هناك عمل للأعرج والأعمى ، حتى الذين فقدوا أذرعهم لا يعيشون عاطلين ، واتمنى لهؤلاء الناس أن يحسنوا التصرف ، لقد منحتهم كل شيء ، أعدت لهم كل امتيازاتهم القديمة وجعلتهم يشكرون بإضافة امتيازات جديدة .

كان هادريان محباً للثقافة الإغريقية **philhellene** ، والراجح أن زيارته لمصر ، واستئصال الطائفة اليهودية نتيجة للثورة التي قاموا بها قبل ذلك بضعة سنين ، قد فعلت فعلها في استرداد اليونانيين بالإسكندرية لحظهم الخائب ، مع ذلك فقد حدثت حركة إحياء لأسلوب الحياة الإغريقية تخليداً لذكرى صديقه العزيز انطونين ،

أسس هادريان مستعمرة إغريقية جديدة فى صعيد مصر اسماها أنطونينوس ، بناها على الطراز الإغريقى ومنحها حكم ذاتى دستورى على غرار النظام الإغريقى، والدليل الذى تقدمه العملات المصرية التى سكت فى ذلك العصر يبين حركة الإرتداد من الطراز المصرى فى الفن إلى الطراز الإغريقى وهذه الحركة توحى بأن رعاية هادريان قد أدت إلى عملية إحياء للفن الإغريقى .

ففى عهد الإمبراطور أنطونينوس **Antoninus** (١٣٨- ١٦١) وقعت أحداث شغب بالإسكندرية قتل فيها الحاكم الرومانى ، وفى ذلك العام جرى الاحتفال بنهاية الفترة "**Sothic period**" القديمة وبداية الفترة الجديدة فترة ١٤٦٠ سنة فهى الفترة التى انقضت منذ أن حدث اللقاء الأخير الذى توافق فيه ظهور الشمس مع ظهور النجم الشعرى(*) **Sirius** اليمانية أسطع النجوم وقد أصبح لهذه الفترة مغزى غامض فى مصر ، أشبه بفكرة العصر الألفى الشائعة فى غرب أوربا ، لكن بدلاً من استعجال نهاية العالم ، فإن الاحتفال بنهاية الفترة السوثية القديمة وبداية الفترة الجديدة كان يعتبر تجديداً وبعثاً للعصر الذهبى .

وفيما يختص بمصر ، فإن واقع الحياة فيها كان أقل جمالاً ، ففى الفترة التالية فى عهد أوريليوس (١٦١- ١٨٠) حدثت ثورة خطيرة بين المزارعين المصريين ، وكانت هى الأولى فى سلسلة طويلة من الثورات العسكرية ، عندما قام القائد الرومانى أڤيديوس كاسيوس **Avidius Cassius** الذى أخمد هذه الثورة ، بإعلان نفسه إمبراطوراً ، فشلت هذه المحاولة وتم إعدام أڤيديوس كاسيوس وابنه ميسيانوس **Maecianus** ، ورأى أهل الإسكندرية والمصريون عموماً التشققات الكامنة تحت السطح فى بنية الإمبراطورية الرومانية العظيمة .

تركت الثورة المصرية التى استمرت سنوات عديدة تأثيراً خطيراً على أوضاع الزراعة المصرية وخلال حكم الإمبراطور كومودوس (١٨٠ - ١٩٢) الذى خلف ماركوس أوريليوس نجد إشارة عند ديوكاسيوس على أن كميات القمح المصرى

(*) سنة شعراوية (وهى سنة قدماء المصريين وطولها ٣٦٥ يوماً وست ساعات وتبدأ بظهور نجم الشعرى على الأفق من الشرق فى الفجر إيذاناً بفيضان النيل) (المترجم) .

المصدرة إلى روما لم تكن كافية وكان يجب أن تستكمل حاجتها من قمح من افريقيا ومن هذا الوقت قل اعتماد روما أكثر فأكثر على القمح المصرى ، ولهذا السبب تقلصت أهمية مصر بالنسبة لروما على مدى فترة أدت فيها الثورات العسكرية والصراعات على الخلافة الإمبراطورية إلى إحياء الأمل لدى أهل الإسكندرية فى الحصول على استقلالهم بالاستفادة من هذه الانشقاقات .

ورغم التدهور المستمر للزراعة المصرية ، الذى ازداد حدة فى وقت متأخر نتيجة تجدد الغزوات من الجنوب ، فإن رخاء الإسكندرية استمر دون أن يلحق به ضرر ، نتيجة تطور التجارة المستمر مع الشرق ، وخلال حكم الإمبراطور تراجان (٩٨-١١٧) فإن الطريق الصحراوى بصعيد مصر ، تم ربطه بقناة بين النيل والبحر الأحمر والتى كان قد أتم حفرها داريوس الفارسى ، أعاد بطليموس فيلادلفوس فتحها ، نحن نعرف المدة التى استمر فيها فتح القناة واستعمالها ، لكن حقيقة أنها فتحت فهذا فى حد ذاته إنما يشير إلى تزايد أهمية وحجم التجارة مع الشرق ، فى عهد هادريان أيضاً ، افتتح طريق ثان من النيل إلى البحر الأحمر - بين أنطونوبوليس وميوس هورموس - ليلحق بطريق قفط الذى كان موجوداً من قبل .

بعد وفاة الإمبراطور بيرتيناكس **Pertinax** عام (١٩٣ - ٩٤) ، حدث صراع آخر على خلافته ، أحد المتنافسين ، هو بيسكونيوس نيجر **Pesconnius Niger** الذى كان قائداً لفرق الجيش الرومانى فى سورية اعترف به إمبراطوراً فى مصر ضد ديكيوس جوليانوس الذى أعلن إمبراطوراً فى روما ، ولكن رجلاً قوياً ، هو سبتيموس سويرس **Severus** استطاع أن يعيد الأوضاع إلى حالة الهدوء وان يعلن نفسه إمبراطوراً على كل أنحاء الجمهورية ، فزار الإسكندرية عام ١٩٦ وأعاد للإغريق الحكم الذاتى عن طريق مجلس شيوخ الذى كان ألفه أوكتافيوس ، وليس من المؤكد أن يكون هذا العمل قد تم بسبب أهمية الإغريق أو لعدم أهميتهم.

كانت زيارة ابن سويرس ، كاراكيلا **Caracalla,** الذى تسلم لحكم فى عام ٢١٢ إلى الإسكندرية لا تبشر بخير فقد رحب أهل الإسكندرية بالإمبراطور الجديد ترحيباً حاراً ، وطبقاً لإحدى الروايات ، فإنه دخل المدينة على أنغام الموسيقى بين صفين من حملة المشاعل ، كان الجو معطراً بالروائح الغالية ، والشوارع مفروشة بالزهور ،

وتقديراً لهذه المجاملة ، قام كاراكيلا بتقديم أضحية طبقًا للشعائر فى معبد سيرابيس، وحج إلى قبر الإسكندرية فى الصوما Soma ، حيث خلع معطفه القرمزى ، وخواتمه وحزامه المرصع بالجواهر ، ووضعها فوق تابوت الإسكندر كتقدمة .

لكن أهــل الإســكندرية لم يترددوا فى إظهار سخريتهم وهجائهم للإمبراطور ، كان كاراكيلا شاباً فاسداً غير جدير بالتقدير وقد جعله هذا هدفًا للسخرية والهجاء ، فقد اغتال أخاه جايتا gaeta لكى يضمن العرش الإمبراطورى لنفسه ، كان متلافًا متقلب الأطوار متصلف مزهــو بالأمجاد ، مغرم بتشبيه نفسه بأخيل وبالإسكندر، ولابد أن بعض السخرية والهجاء قد وصل إلى سمعه لأنه تعامل مع أهل الإسكندرية بقسوة شديدة وضرب مثلاً على همجية نزواته ، وتحت زعم تكريم المدينة بتجنيد كتيبة من زهرة شباب الإسكندرية ، أمر الشباب بأن يتجمعوا خارج أسوار المدينة ، ثم أمر قواته بذبحهم ، وأثناء المذبحة أخذ كاراكيلا مكانه من موقع أمن فى معبد سيرابيس ، يشهد المذبحة ويوجهها لذبح آلاف كثيرة من المواطنين ، ومن الأجانب دون تمييز بين عدد الضحايا أو جرائمهم ، لأنه أخطر مجلس الشيوخ ، أن أهل الإسكندرية جميعًا الذين هلكوا والذين أفلتوا من الهلاك ، كانوا جميعاً مذنبين لا فرق بينهم (٤).

بعد المذبحة أوقف كاراكيلا المباريات العامة وألغى الإعانة Syssitia (الإعانة العامة التى تعطى لإعاشة الباحثين بالمتحف) ثم نقل الحامية الرومانية من نيكوبوليس ، الحى الرومانى الذى أنشأه أوكتافيوس إلى حى البروكيوم فى المدينة ، حيث يقع مقر الحاكم والمكاتب العمومية ، ثم أمر ببناء حائط يفصل حى البروكيوم عن بقية المدينة ، ومن الممكن أن نعتبر تصرف كاراكيلا على انه مجرد نزوة ، ومن الممكن أيضاً أن نعتبره دليل تغيير فى السياسة الرومانية إزاء مصر فحتى ذلك الوقت ، كان الرومان ينظرون للإغريق المصريين على انهم جنس أرقى وإلى المصريين على أنهم جنس أدنى، ومن ثم كانوا يميلون إلى اعتبار الإغريق متمردين والمصريين حلفاء ، وفى خلال سنوات قليلة ، فان المصريين الذين لم يكونوا مؤهلين فى السابق للحصول على حق المواطنة الرومانية ما لم يحصلوا على المواطنة بالإسكندرية أولاً ، صاروا يحتلون مقاعدهم بمجلس الشيوخ فى روما .

بعد اغتيال كاراكيلا فى عام ٢١٨ ، بدأت فترة انتشرت فيها الثورات فى أنحاء الإمبراطورية ، التى كانت تحدث أثناء تنصيب المتنافسين على عرش الإمبراطورية أو خلعهم ، أو اغتيالهم أو طردهم، وفى إحدى المراحل، استطاع قادة الفرق الرومانية بالإسكندرية إقناع الحاكم الرومانى، ماركس جوليوس إمليانوس **Marcus Gulius Aemilianus** بقبول السلطة، يصف أحد المؤرخين الملابسات (٥) التى تمت فيها ترقيته، فيقول لقد بدأ كل شىء ، بمشاجرة بين خادم وأحد الجنود من أجل زوج من الأحذية ، وتجمع جمهور من المشاغبين خارج مقر الحاكم **Prefecture** يقذفون المقر بالحجارة ويصرخون باللعنات ، فاستعدى إمليانوس قواته لتفرقتهم ، وقام الجنود بعد أن أعادوا الهدوء إلى المدينة ، ومدفوعين بكراهيتم لجالينوس **Gallienus** الذى أعلن عنه إمبراطوراً فى روما ، والذى سبق لبعضهم أن عمل معه ، قام هؤلاء الجنود بتحية إمليانوس وتلقيبه بلقب الإمبراطور، وبعد تردد قبل ترشيحهم له ، وحكم إمليانوس فى مصر لمدة عامين (٢٦٢ - ٢٦٤)، فبعث جالينوس قائده ثيودوتس إلى مصر لوضع حد لهذا الاغتصاب .

وفى أعقاب هذا تفجرت الحرب الأهلية فى الإسكندرية التى استمرت لمدة عامين ، حوصر فى أثنائها إمليانوس فى حى البروكيوم ، الذى حوله كاراكيلا إلى قلعة ، وترك القدر الأعظم من المدينة للضياع ، ثم انتشر الطاعون الذى قيل إنه قضى على ثلث سكان المدينة ، وفى النهاية هزم إمليانوس ، وتم أسره ثم خنقه .

وفى أثناء هذه الفترة المليئة بالاضطرابات ، أخذت أوضاع الرومان على الحدود الشرقية تتآكل، فالإمبراطور فاليريان سلف جالينوس قد تمت هزيمته وأسره فى أيدى الفرس، الذين تجددت قواتهم وتعززت فى ظل أسرة ملوك الساسانين **Sassanid Line of Kings** ، ففى عام ٢٦٨ ، بعد موت جالينوس ، قامت الملكة الجبارة زنوبيا ملكة تدمر القوية التابعة للحكم الرومانى ، والمتحكمة فى الطريق التجارى العظيم بين الفرات والبحر الأبيض المتوسط وفى الممرات بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية ، بإعلان استقلال دولتها ثم قامت بغزو مصر وقد ساعدها المصريون كما ساعدها وقوع غزو متزامن قامت به قبائل البليميز **Blemmyes** من السودان وبهذا نجح جيش تدمر فى احتلال مصر وجزءاً من الإسكندرية بعض الوقت وحوصر الرومان فى حى البروكيوم خلف حائط كاراكيلا ، وأصبحت الإسكندرية مرة أخرى ميداناً للمعركة .

فى عام ٢٧٠ تم طرد جيش تدمر من مصر ، بفضل الإمبراطور أوريليان Aurelian الذى أعلن توليه السلطة فى روما ، فى أعقاب فترة حكم الإمبراطور كلوديوس الوجيزة لكن ، ما إن تم طرد هؤلاء الغزاة ، حتى أصبح أوريليان يواجه ثورة مصرية خطيرة بقيادة فيرموس Firmus الذى كان كما يقول جيبون Gibbon تاجراً ثرياً وصديقاً وحليفاً لزنوبيا Zenobia ، التى كان أوريليان قد هزمها قبل ذلك بقليل .

وفى مجال تجارته مع الهند ، تمكن من إقامة علاقات صداقة مع الصراستة Saracens والبلميز Blemunyes وهما يحتلان موقعاً على جانبى البحر الأحمر يمكنهما من التدخل فى صعيد مصر ، وأشعل الأمل فى قلوب المصريين ، ثم تقدم على رأس حشد كبير من الجماهير الغاضبة واقتحم الإسكندرية ، حيث ارتدى ثوب الإمبراطورية القرمزى ، وسك العملة ، ونشر القرارات ، وحشد جيشاً ، أعلن إنه قادر على الاحتفاظ به والإنفاق عليه من أرباح تجارته فى الورق ، وكانت قوة هذا الجيش على الدفاع ضد أوريليان ضعيفة ، وليس هناك ضرورة تدعونا إلى القول إن فيرموس قد هزم وتم أسره وتعذيبه وقتله (٦) .

وعند عودته إلى روما ، حيث احتفل بالنصر ، ترك أوريليان كبير قواده بروبس Probus ليتولى أمر مصر واستعاد بروبس النظام إلى حد ما ، طرد البلميز من الجنود والبرابرة الآخرين الذين كانوا يهددون مصر من الشرق والغرب ، وبعد الاضطرابات التى حدثت فى السنوات السابقة ، استطاع أن يعيد للزراعة المصرية وضعها ونجح فى زيادة الجزية السنوية التى تحصل عليها روما ، والتى كانت تدفع عينية فى صورة قمح ، وزجاج ، وورق وكتان وقنب (توقفت مصر منذ وقت طويل عن إنتاج الذهب بعد استنفاد مناجم النوبة) .

بعد موت أوريليان فى عام ٢٧٥ ، أعلن تنصيب بروبس إمبراطوراً ، فترك مصر تحت حكم القائد الرومانى ساتورنين Saturninus، وقامت قوات سارتورنين بتنصيبه إمبراطوراً اعتراضاً على اختيار بروبس ، وأيدهم فى ذلك أهل الإسكندرية ، الذين يصفهم (فلورس ڤوسبيكوس Florus Vospicus مؤرخ ساتورنين بأنهم " يتصفون بالتفاخر والغرور والحقد والانحلال ، بارعون فى تأليف الأغانى والإبيجراما للسخرية من الحكام ، مولعون أيضاً بالإشاعات والتنبؤات ، " لقد عادوا أيضاً إلى لعبتهم القديمة فى صناعة الملوك ، لكن محاولتهم فشلت ، وتم أسر ساتورنين وخنقه" .

بعد موت بروبس عام ٢٨٢ عمت الفوضى لفترة قصيرة ، ثم أعلن عن اختيار دقلديانوس **Diocletion** إمبراطوراً .

إن المائة سنة التى مرت بين وفاة سويرس وتنصيب دقلديانوس ، إمبراطوراً قد شهدت نوعًا من الاضمحلال فى ثروة الإسكندرية ورخائها ، لقد قتل الطاعون عدداً كبيراً من سكانها ، وخربتها الحروب الأهلية المتلاحقة ، وأدت الغزوات من الشرق والغرب ، فضلاً عن حالة مصر المضطربة عمومًا ، إلى تقليص قيمة وحجم تجارة الشرق ، فالقناة التى حفرها تراجان سدت بالطمى ، والطائفة الإغريقية المثقفة من مواطنى الإسكندرية ذوى الامتيازات ، لم يعد لها وجود ، ورغم أن السكندريين المتحدثين باليونانية ، قد نشروا الثقافة وعادات التقاليد اليونانية إلا أنهم لم يعد يعترف بهم كإغريق .

وفى داخل عملية الدمج بين الإغريق والمصريين واليهود ، فإن العامل الغالب فى النزاع الآن بعد تنصيب دقلديانوس ، لم يعد يتركز كما كان فى الأسباب العرقية للمصريين والإغريق واليهود ، بل أصبح عاملاً دينيًا وأصبح النزاع بين المسيحيين وبين الوثنيين ، إلى هذا الحد بلغت قوة الديانة المسيحية وأهميتها فى الإسكندرية وفى غيرها من الأماكن ، فى العام ٢٥٠ منذ وفاة مؤسسها ، إن قصة ظهور المسيحية فى الإسكندرية سوف نرويها بالتفصيل فى فصل قادم ، إذ كان لها أصداؤها العرقية فإن عملية تحويل الناس إلى المسيحية كانت تتجه إلى اليهود أو المصريين أكثر من توجهها لذوى الأصل الإغريقى ، وطالما كانت الإمبراطورية وثنية من الناحية الرسمية ، فإن أصداء ذلك تنعكس فى اعتبار المسيحيين متمردين وأما الوثنيين فمخلصين ، لأن المسيحيين شأنهم شأن اليهود ، بحكم عقائدهم الخاصة الهدامة ، وسلوكهم البعيد عن التسامح ، قد وضعوا أنفسهم خارج الحدود الرومانية الشاسعة التى تتسم بالتسامح الدينى ، شأنهم شأن الشيوعيين فى مجتمع ديمقراطى ، يرفضون أن يتسامحوا فى الأشياء التى يرى المجتمع أن التسامح مقبولاً فيها ، وهكذا صاروا غير متسامحين .

فبعد تنصيب دقلديانوس مباشرة ، تكررت محاولة تنصيب الأباطرة فى مصر فالقائد الرومانى ، لوسيوس دوميتيانوس المعروف عند المصريين بأخيل **Achilleus** ، قام بثورة وأعلنت قواته تنصيبه إمبراطوراً ورحب المصريون والسكندريون به ،

وبعد أربع سنوات من القتال قام دقلديانوس فأخمد الثورة بنفسه ، وصل إلى الإسكندرية ومعه جيش جرار حاصر به المدينة لمدة ثمانية أشهر، وأخيراً استولى عليها فى هجوم عاصف ،" وقتل فى المذبحة آلافاً كثيرة من المواطنين" ، (٧) حسب ما يقول جيبون ، وبعد أن أشفى غليله ، وأعاد بقية المصريين إلى الطاعة ، سار دقلديانوس فى سياسة التصالح ، فألغى حصته من القمح السنوى الذى كان يدفع للجزية من أجل غذاء سكان الإسكندرية ، ومن أجل هذا بنوا عموداً تكريماً له فى سط معبد السيرابيوم ، واثبت هذا العمود قدرته على الاستمرار أكثر من أى آثر آخر بنى فى الإسكندرية القديمة ، وهو الوحيد الذى يقف منتصباً .

كان دقلديانوس واحداً من أعظم أباطرة الرومان فبعد أن غرق صولجان الإمبراطورية فى العار نتيجة للصراعات ، والانقلابات والاغتيالات ، والتصريحات فى الماضى ، فقد أصر على أن يستعيد سمعته ، كما صمم على أن يصلح ويقوى الإدارة فى ربوع الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء فقسمها إلى أربعة أقسام ، اثنين باسم أوغسطس واثنين باسم قيصر ، الذين يشاطرهما العزة الإمبريالية كعظيم بين عظيمين ، **as primus inter pares** فانسحب من روما ، التى كانت تغار دائماً من الأباطرة ، ولازلت تحن إلى نظام الجمهورية القائم على أسس أوليجاركية ، وأقام بلاطه فى نيقوديميا ، على بحر مرمرة **Marmara** وأحيا تقليداً شرقياً كان يتمسك به بعض الأباطرة المصابين بجنون العظمة ، وهو التقليد الخاص بتأليه الحاكم ، وكان هذا التقليد قد سقط فى بحر النسيان فتخلى هو عن مظاهر البساطة التى كان يتصف بها الأباطرة الأوائل غير المهتمين بتقاليد النظام الجمهورى وابتدأ تقليداً لاحتفالات البلاط يتميز بالفخامة والصلابة قصد به إشاعة العظمة والمحافظة على حصانة التاج الإمبراطورى .

سواء حدث هذا بالصدفة أم نتيجة تدبير ، فإن سياسة دقلديانوس وزوجاته قد دفعته فى ذلك الوقت إلى الصدام مع المسيحين ، الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير فى كل أنحاء الإمبراطورية ، أما درجة ذلك النفوذ فقد كانت ولا تزال غير معروفة ، كانت هناك مؤسسة "مسيحية مفتوحة " فى شكل أساقفة ، كنائس ومحافل وما شابه ذلك ، كان هناك أدب مسيحى معلن ودعاية واضحة عن طريق الكتب المقدسة والكتابات

الأخرى المختلفة فى مجال التكريس وفى مجال الجدل ، لكن كان هناك أيضاً الاعتقاد بوجود مؤسسة "مسيحية سرية مؤثرة بين المتعاطفين " و الأخوة السواح الذين يتغلغلون فى جزء من المجتمع حتى داخل البلاط ذاته وإلى واجهات الموانى ، وفى محلات الخمور وبيوت الدعارة ، وكذلك كان هناك اعتقاد بوجود شبكة سرية واسعة الانتشار لنشر الكتابات الهدامة ، وشعائر الشركة فى الأسرار وممارسات صامتة لا يفصح عنها ، والراجح أن معظم الإشاعات كان مبالغ فيها ، وأن المسيحيين أنفسهم قد شجعوا بغير شك على انتشارها ·

تعددت الآراء داخل البلاط الإمبراطورى وتباينت حول الموقف الذى ينبغى اتباعه حيال المسيحيين ـ هل ينبغى تجاهلهم ، أو استرضائهم أو سحقهم ، كان بين المستشارين " حمائم " و"صقور" كما نقول فى قاموسنا المعاصر ، فهيئة المجلس تتكون من أربعة أعضاء ، دقلديانوس وكونستانتيوس يمثلان الحمائم أما مكسميليان وجاليريوس فيمثلان الصقور، وفى النهاية انتصر الصقور كالعادة ، وفى عام ٣٠٢ فى عهد دقلديانوس صدر مرسوم نيقوديميا الذى يقضى بهدم جميع الكنائس ومصادرة ممتلكاتها ومعاقبة كل من يشارك فى العبادة المسيحية بالإعدام ·

وتم تنفيذ هذا المرسوم بدرجات متفاوتة حسب أراء مساعدى الإمبراطورية ، ففى مصر ، التى كان يحكمها مكسميليان ، لابد أن تتوقع أخذ الناس بالشدة ، لكن الظاهر عموماً أن هذا لم يحدث ، فى الإسكندرية ، طلب من المسيحين المعروفين أو المشكوك فى أنهم مسيحيون ، أن يقوموا تحت التهديد بالموت ، بإقامة الشعائر وتقديم أضحية فى معبد وثنى – وهو فعل علنى لإظهار " خضوع مؤقت " **Occasional Conformity** لكن سواء كان ذلك بدافع العناد أم بدافع البطولة أو الإيمان الحقيقى ـ اختار المئات منهم ، بما فيهم الأسقف والشيوخ طريق الاستشهاد ، وكان أبرز هؤلاء الشهداء فيلومورورس **Philomorus** وهو موظف رومانى رفيع المستوى كان يتولى منصب المحصل العام للضرائب فى الإسكندرية وهو أعلى منصب رومانى فى مصر بعد الحاكم ، وبرغم الجهود التى بذلها قضاته ، والذين كانوا ربما من أصدقائه ، لكى يقنعوه بتقديم الشعائر والأضحية لإنقاذ نفسه وبرغم تهكم وتوبيخ أولئك الذين ظنوا بغير شك ، أنه مخرف عنيد ، فإن محصل الضرائب هذا قد ارتقى بنفسه وبمهنته إلى مقام نبيل واختار الموت عوضاً عن كل شىء ·

الشوق الجنونى إلى الاستشهاد هو السمة الغالبة على سلوك كثير من المسيحيين، وهذا ما يفسر كثرة عدد الشهداء فى الإسكندرية وفى غيرها من المدن فى عهد دقلديانوس ، وليست القسوة المفرطة التى تعامل بها مضطهدوهم .

لا يوجد أى دليل عن أثر الاضطهاد على السكندريين عمومًا ، فالظاهر أنهم لم يحتجوا ولم يتعاطفوا ، ولم يعارضوا الاضطهاد بحركات الشغب ، وهذا يدفعنا إلى استنتاج ، إنه حين يكون الاضطهاد شائعًا ، يقل انتشار الاضطهاد وتقل حدة القلاقل عما كانت تزعمه الدعاية المسيحية التى أعقبت ذلك ، ويبدو من المجادلات التى أعقبت هذا فى الكنيسة، أن " الخضوع المؤقت " كان منتشراً وكان الشهداء أقلية قليلة لكنهم عجلوا بانتصار المسيحية ، لأن تأثير الاضطهاد لم يضعف المسيحية أو يقضى عليها ، بل زادها قوة ، ففى عام ٣١٣ بعد صدور مرسوم نيقوديميا بعشر سنوات ، أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلانو الذى يقرر أن تكون المسيحية هى الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية .

Notes

(1) S. Sharpe. The History of Egypt from the Earliest Times to the Conquest by the Arabs. Vol. II. p. II5.

(2) Pliny. Book XXXV. Chapt 42.

(3) Dio Cassius. op cit. Book LXV. Chapter 8.

(4) Gibbon. Decline and Fall of the Roman Empire. Chapter 6.

(5) Tribonius Pollio. Vita Aemilionus.

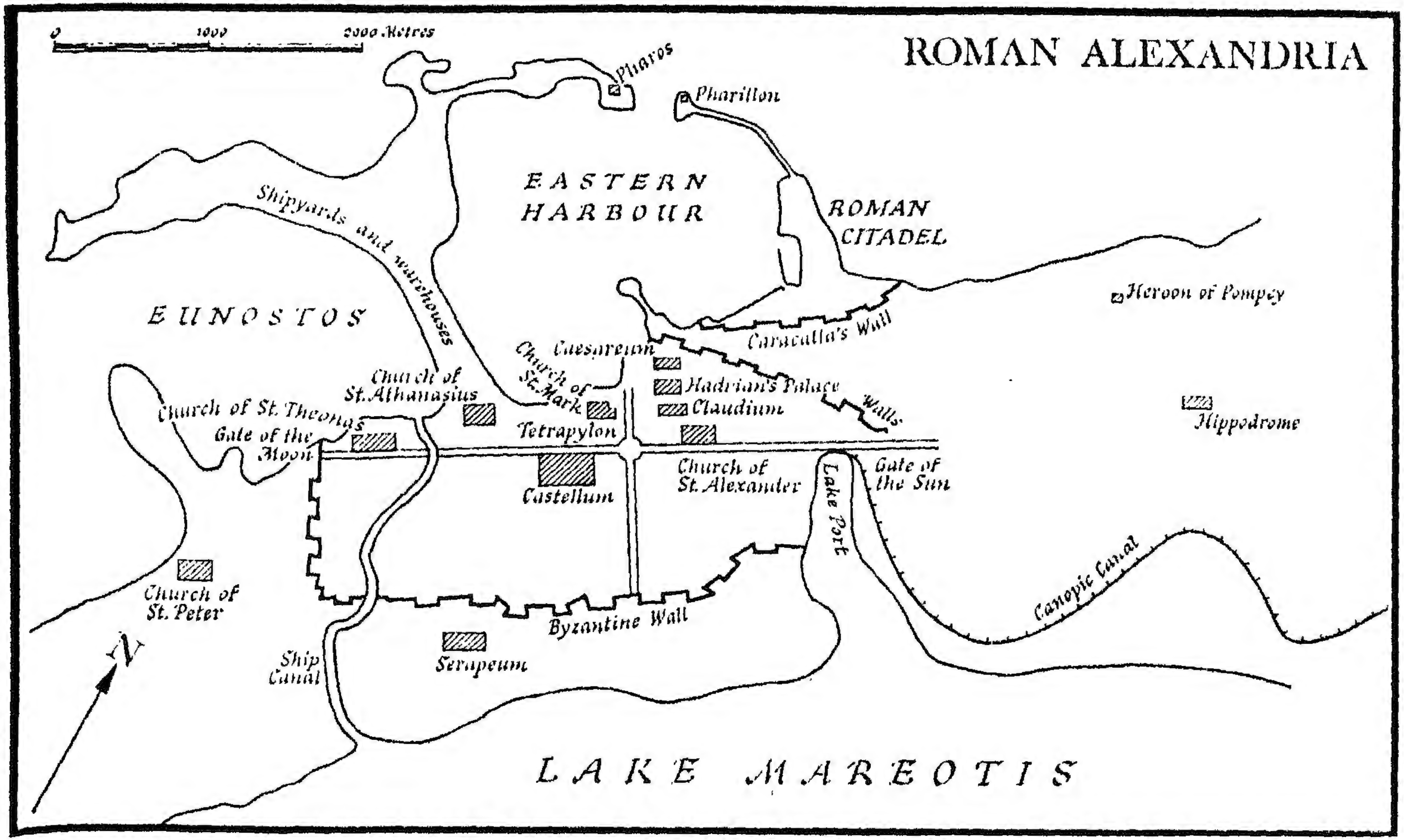
(6) Gibbon. op cit. Chapter II.

(7) Ibid. Chapter I3.

١١- المدينة الرومانية

تعرض تاريخ العمارة بالإسكندرية إلى عملية تغير مستمرة طوال الست مائة عام للحكم الرومانى بدرجة تتفوق كثيراً عن فترة الثلاثمائة عام التى عاشتها الإسكندرية تحت حكم البطالمة حيث أقيمت مبانى جديدة ، وتركت المبانى القديمة عرضة للتلف والإنهيار ، وتحول جزء من حى البروكيوم إلى قلعة رومانية ، وتركزت معظم مبانى الإدارة الرومانية ، بما فيها مبنى الحاكم ، والحامية خلف حائط كاراكيلا ، وبعد أن صارت المسيحية ديانة رسمية ، تحولت كثير من المعابد الوثنية إلى كنائس ، وتم بناء عدد جديد من الكنائس ، وكما يحدث فى المدن الحديثة ، فقد حدث على ما يبدو نزوح للسكان من وسط المدينة – حدث هذا بلا شك نتيجة الاضطرابات الأهلية ، وانتشار الطاعون فى النصف الأول من القرن الثالث الميلادى – توجهت حركة الهجرة الخارجية إلى ضواحى المدينة وخصوصاً إلى نيكوبوليس **Nicopolis** التى أقامها الرومان على الشاطىء بمسافة تبعد أميال قليلة إلى الشرق من المدينة .

وفى أثناء العصر البيزنطى ـ فى بداية القرن الخامس تقريبًا ، بعد هدم السيرابيوم ـ تأكد انكماش المدينة ببناء حائط جديد لسور محيطه قصير جداً استبعد منه حى الدلتا القديم ، كذلك الجزء الأكبر من حى البروكيوم ، بما فيه مجمع القصر القديم حول رأس لوكياس ، كان قد استبعد منذ بناء حائط كاراكيلا ، وأصبحت البوابة الشرقية للحائط الجديد على طريق كانوب شرق الجمنازيوم مباشرة ، فى الموقع التى أقيمت عليه فيما بعد بوابة رشيد التركية ، على بعد ١٦٠٠ متراً إلى الغرب من بوابة كانوب ، أما موقع البوابة الغربية ، قرب ايونستوس **Eunostos** والتى توصل إلى نيكروبوليس **Nicroplis** الغربية ، ظل كما هو دون أى تغيير ، وتحرك مركز الجاذبية فى المدينة البيزنطية باتجاه الغرب ، حول ايونستوس ، التى كانت ما تزال متصلة ببحيرة مريوط عن طريق قناة وكذلك الأمر مع المدن الداخلية بمصر .


ROMAN ALEXANDRIA
0
1000
2000 Metres
Pharos
Pharillon
EASTERN HARBOUR
ROMAN CITADEL
Shipyards and warehouses
EUNOSTOS
Heroon of Pompey
Caesareum
Caracalla's Wall
Church of St. Mark
Hadrian's Palace
Church of St. Athanasius
Church of St. Theonas
Claudium
Walls
Hippodrome
Gate of the Moon
Tetrapylon
Church of St. Alexander
Gate of the Sun
Castellum
Lake Port
Canopic Canal
Church of St. Peter
Byzantine Wall
N
Ship Canal
Serapeum
LAKE MAREOTIS

أول المبانى الكبرى الذى اكتمل فى عهد الرومان هو معبد قيصرية **Caesareum** على واجهة البحر بين السوق **Emporium** والرأس البحرى الصغير الذى أقام عليه أنطونيومعبد التيمونيوم **Temoneum** ، لقد بدأت كليوباترا بناء معبداً فخماً تكريماً ليوليوس قيصر ، ولكنها لم تعش حتى تكمله ، واكمله أوكتاڤيوس وسمى القيصرية **Caesareum** ، وفى المدخل المواجه للبحر ، هناك مسلتان مجلوبتان من صعيد مصر ، وبعد إكمال القيصرية أصبحت تستخدم مقراً للحاكم الرومانى ، وقد استخدمت مؤخراً كجامعة رومانية ، وفيما بعد صارت كنيسة مسيحية ، وهى أجمل المبانى التى أقيمت فى الإسكندرية ، وهنا نجد وصفاً لها ، كتبه فيلوجودايوس **Philo Judaeus** بعد أن اكتمل بسنوات قليلة .

"يحتل موقعه فى مواجهة ميناء من أكثر الموانى سعة ورحابة ، يتميز بالتناسب فى حجمه وارتفاعه بصورة رائعة ، أحد المعالم البحرية البارزة الحافلة باللوحات والتماثيل ، تصور هبات وذبائح بكميات وافرة ، ومزين كله بالذهب والفضة ، ومنتظم الأجزاء بطريقة مدهشة ، معارض ، ومكتبات ، وفرندات ، وأفنية ، وقاعات ومشايات ، وأشجار فى مشهد رائع بقدر ما يستطيع المال والفن أن يوفرا من أجل راحة راكب البحر فى الذهاب والإياب" .

هناك مبانى عمومية عديدة بناها خلفاء أوكتاڤيوس ، فعلى الجانب الشمالى لطريق كانوب بالقرب من الصوما، شيد الإمبراطور كلوديوس مبنى الكلوديوم كجامعة رومانية ، تنافس المتحف ، وكانت الأوامر أن تتم قراءة عامة لبعض مقطوعات من أعمال كلوديوس فى المناسبات الرسمية ، ويبدو أن تأثيرها كان ضعيفاً فى الحياة الفكرية بالإسكندرية ، وأمر ڤسباسيان بإقامة مبنى التيترابيليون **Tetrapylon** ، عند ملتقى الطريقين الكبيرين فى وسط المدينة ، حيث ضريح الإسكندر بالصوما ــ وهو عبارة عن جناح يشمل أربعة بواكى يمتد كل مخرج من مخارجه الأربعة من الميدان الأوسط .

وأمر هادريان بإقامة قصر سمى باسمه ، بين معبد قيصر المسمى قيصرية وطريق كانوب ، ويبدو أن مقر الحاكم الرومانى قد نقل من قيصرية إلى هذا الموقع ، أقام هادريان أيضاً بوابات على كل طرف من أطراف الطريق المستعرض ،

والمسمى بشارع الصوما(ضريح الإسكندر) والذى يمتد فى وسط المدينة شمالاً ـ جنوباً وإلى الغرب قليلاً من الصوما ، وإلى الجنوب من طريق كانوب ، اقيم الكاستيليوم Castellum والراجح أنه مركز بوليس ، يقام عادة فى وسط المدينة ، كما بنى عدد من المعابد : لإيزيس بلوزيا Isis Plusia أو إيزيس ربة العطاء Isis of Abundance ـ مباشرة إلى الشمال من الصوما ، ديانة إيزيس وحورس أصلاً ديانة مصرية ، ثم جرى تطعيم البانثيون الهللينستى بها لأن إيزيس بعد أن زوجت لسيرابيس حظيت بشعبية كبيرة فى العالم الرومانى ، هناك معبد ساتيرن ، بعد الباليسترا على طريق كانوب ، ومعبد أبوللو بالقرب من معبد إيزيس بلوزيا .

حين صارت المسيحية هى ديانة الإمبراطورية ، أعقبت فترة التسامح الوثنى فترة اضطهاد تعرضت فيها المعابد الوثنية إما للهدم أو مثلما حدث لقيصرية ومعبد ساتيرن إذ تم تحويلهما إلى كنائس مسيحية وبنى كثير من الكنائس المسيحية الجديدة ، وكان أعظم هذه الكنائس كنيسة القديس ثيوناس Theonas بالقرب من البوابة الغربية للمدينة، وصارت هى كاتدرائية الإسكندرية حتى حدث الانشقاق حول الطبيعة الواحدة وعندما حولها العرب إلى جامع أسموه الجامع ذو ألف عمود ، ولابد أنه كان بناء عظيماً .

هناك ثلاث مبانى تظهر تطور المعمار خلال العصر الرومانى هى الحمام العمومى ، والمدرج وإستاد سباق العربات ، وربما كانت نظرية الحمام الرومانى من ابتكار هيرو السكندرى فى القرن الثانى ق.م وقد عرفت الحمامات الساخنة فى العصر البطلمى ، وقد حدثت عمليات موت فجائى نسبت إلى عملية الاستحمام بالماء الساخن ، لكن من غير المحتمل أن تكون الحمامات العامة كمنتجعات نظامية قد عاشت حتى العصر الرومانى .

عند الفتح العربى أرسل عمرو بن العاص يخبر الخليفة عمر بن الخطاب أن المدينة تضم ٤٠٠٠ حمام ، وهذه بالتأكيد مبالغة كبيرة مثل ٤٠٠٠ قصر وال ٤٠٠٠ مسرح التى ذكرها ، لكن من الراجح انه كان هناك الكثير منها ، فالأسطورة التى تقول بأن مخطوطات المكتبة قد استخدمت وقوداً لتسخين الحمامات العامة يوحى فى كل الحالات ، بوجود عدد كبير من الحمامات التى كان يجب تسخينها ، لقد كشفت الحفريات فى السنوات الأخيرة عن بقايا حمام رومانى كبير ، واتخذ الشكل نفسه للحمامات الموجودة فى روما والمدن الأخرى فى الإمبراطورية (١) .

فى عصـــور البطالمة كانت العروض العامة الأساسيـــة هى عـــروض دراميـة فى المسـرح ، ومنها العديد ، والمباريات الرياضية فى الإستاد stadia ، ومنهـا على الأقل اثنان ، كذلك كان سباق العربات فى عصر البطالمة ، وكان هناك إستاد العربات خارج الأسوار الشرقية للمدينة ، وفى العصور الرومانية ، وبالأخص البيزنطية أصبح سباق العربات ولعًا شديداً عند الناس فى الإسكندرية ، كما فى القسطنطينية ، واقترن بالجماعات الدينية والسياسية المشهورة مثل ـ جماعات الخضر وجماعات الزرق The greens and the blues ـ التى انقسمت بينهما المدينة ، وربما أقيم عدد من مبانى الهيبودروم لسباق العـربات أثناء القـرون الستة للحكم الرومانى والبيزنطى أما المصارعة وعروض الحيوانات المتوحشة فقد كانت دورات رومانيـــة ، لم تعـرف فى عصر البطالمة ، لقد أقام أوكتافيوس مدرجًا فى نيكوبوليس ومدرجًا آخر على الأقل بنى داخل أسوار المدينة ، وربما تحولت بعض المسارح الأولى والملاعب إلى مدرجات حين ازدادت أنواق الناس غلظة وخشونة ، لقد ماتت عقيدة الإغريق الخاصة باللياقة البدنية والمتعة فى الألعاب الرياضية ، واستبدلت بالاستعراضات فى إستاد العربات أو فى المدرج ، وبأعمال البلطجة والشغب إلى جانب المشاحنات وقتال الشـــوارع بين العصابات المتنافسة ، والمظاهـــرات المتنوعة ضـــد أعمال الطغيان المفترضة ، أو بعض الأفكار اللاهوتية الغامضة ، أو نتيجة للتنازع حول أحد القرارات فى الحلبة.

إن الحجم الذى وصل إليه التدمير البدنى فى فترات الحروب الأهلية لابد أن يكون هائلاً ، فى ذلك الوقت ، فإن حى القصر القديم حول رأس لوكياس ، التى كانت مسرحًا لمعظم عمليات القتال فى مختلف الحروب الأهلية ، بين هجوم القائمين بالحصار، ودفاع المحاصرين عن المنطقة المحصورة بحائط كاراكيلا ، قد أصبح خرابًا، لقد أهملت قصور البطالمة منذ وقت طويل ، ولم يبق شىء يذكر من الحدائق أو مسرح ديونيزيوس ، ونحن لا نعرف ماذا حدث للمبانى التى كانت فى الأصل تضم المتحف والمكتبة ، واذا كانت المكتبة لا تزال باقية فى هذا الوقت ككيان مفرد ، فإنها على الأرجح موجودة داخل السيرابيوم ، ولا يمكن افتراض بقاء المبانى الأصلية للمتحف ، وقد يكون موضعها قد تحول إلى السيرابيوم .

وبعد قرن من الزمان ، حدث تخريب ونهب معبد سيرابيس العظيم فى الجنوب الشرقى للمدينة ، ومعه عدد من المعابد الأخرى القليلة الذكر ، واختفى ضريح

الإسكندر والبطالمة ولم يبق من آثارهم شيئ سليمًا سوى الفنار عند مدخل الميناء الشرقى ، أما الميناء المزدوج الكبير والجسر الذى يفصل بينهما واسمه الهيبتاستديون، وهما من إبداعات الإغريق ، لا يزالان موجودين ، ولكن عملية ترسيب الطمى على جانبى الهيبتاستديون تقدمت كثيراً ، ولم يعد هناك اتصال بين الميناءين .

لكن العمارة المسيحية قامت لكى تعطى الإسكندرية بديلاً عن مفاخر الوثنية ، وقد تحولت بعض المبانى الوثنية مثل ـ معبد قيصرية ومعبد ساتيرن **The Temple of Saturn** إلى كنائس مسيحية ، وفوق بقايا معبد سيرابيس أقيمت ثلاث كنائس هى ـ كنيسة القديس يوحنا المعمدان ، وكنيسة القديس قوزمان **Cosmas** ودميان ، والثالثة كنيسة الإنجيليون **Angelion** .

علاوة على كنائس أخرى عديدة مثل كاتدرائية ثيوناس **Theonas** بالقرب من البوابة الغربية ، وكنيسة القديس مرقس بالقرب من قصر هادريان ، وهى تضم عظام هذا البشير المعروف الذى أدخل المسيحية إلى الإسكندرية ، وكنيسة القديس بطرس خارج الأسوار الغربية ، هذه وغيرها من الكنائس الكثيرة الأخرى التى تنافس المعابد القديمة إن لم يكن فى تميزها المعمارى فبأعمدة الرخام والفرفير الأرجوانية اللون ، وكذلك الموزايك الثمين ، والمذابح المزدانة بالجواهر ومزاراتها الفخمة ، لأن المؤسسة الدينية المسيحية امتلكت الثراء العريض وأكثر من ذلك حب الاستعراض ، الذى ورثته من الوثنين الذين قامت بإزاحتهم من هذه الأماكن .

كانت الكنيسة تتمتع برعاية وحماية التاج الإمبراطورى إلى أن وقع الانشقاق الكبير بينهما ، لقد استخدم البطاركة ، سلطتهم الواسعة ، فى الاستفادة بثرواتهم والرعاية التى يتمتعون بها ليس فقط فى اضطهاد خصومهم ، ولكن من أجل إعلاء شأن مدينتهم وتمجيد فخامتها ، التى يتفاخرون بشهرتها وتقدمها فى كل شيء ، يريدون أن يحافظوا عليه ضد مزاعم القسطنطينية ، حديثة النعمة ، لأنه كما أن زوال الإمبراطورية عن روما أدى إلى وضع أساقفة روما فى هذه المدينة فى موقع الصدارة ، كذلك فإن قيام القسطنطينية دفع الكنيسة المسيحية ، بفضل سلسلة من البطاركة ذوى القدرة والطموح ، والذين صاروا مثالاً لعظمة المجتمع المدنى فى الإسكندرية ،

إلى أن تنافس مدينة القسطنطينية بعظمتها الإمبريالية ، ووضع الانشقاق نهاية لكل هذا ، لكن الإسكندرية احتفظت برونقها وفخامتها حتى مجيء الاحتلال العربى **occpation Arab** الذى ساعد الانشقاق على حدوثه.

عند مجيء الغزو العربى **Arab invasion** كانت الإسكندرية من الناحية المعمارية وكذلك الاجتماعية والسياسية من إبداع المسيحية ، فالقدر الأكبر من الثروة المتدفقة على المدينة من تجارة شرق ووسط إفريقيا ، ومن الموارد الزراعية الغنية فى مصر كانت كلها فى حوزة الكنيسة التى استخدمتها من أجل مجد الله ومن أجل تحقيق عظمة الإسكندرية وروعتها .

لم يكن هناك شيء يمكن أن يعد (العرب الغزاة) ويهيئهم لهذه الفخامة الفذة التى تتجلى فى هذه المدينة التى تنهض الآن أمامهم أثناء سيرهم ، بين أديرة ومزارع الكروم الذى تفيض بالثمار من حولهم ، كانت الإسكندرية ، حتى القرن السابع هى أجمل المدن وإذا أمكن استثناء روما القديمة وقرطاجة ، فإن فن المعمار فيها لم يعرف له مثيل فى الروعة والجمال من قبل أو منذ ذلك الحين ، حيث يمتد خط الحوائط والأبراج الذى لا مثيل له لأبعد مسافة يمكن أن تراها العين ، وهو الذى أثار خيال وحماس الرحالة على مدى قرون فيما بعد حيث كانت ورائهم وفوقهم تتلألآ القباب وواجهات المبانى المزينة بقطع الحلى المثلثة ، ثم الأعمدة والمسلات ، والتماثيل والمعابد والقصور ، وفى الخلفية يطل عليهم من البحر فنار الإسكندرية ، ومن هناك يمكن أن نرى التيترابيليون **Tetrapylon** ذلك الفناء المفتوح الذى تحيط به صفوف أربعة من الأجنحة ، وبالقرب من التيترابلون توجد كنيسة القديسة مارى **St Mary Dorothea** التى بناها إيولوجيوس **Eulogius** وبعدها إلى الشرق ، توجد كنيسة القديس مرقس والتى ما تزال قائمة ، وفى داخلها يوجد قبر البشير المصنوع من الرخام والأكثر شهرة من كنيسة القديس مرقس هذه الكنيسة المسماة بالقيصرية **Caesareun** عند المنعطف الأوسط للميناء الكبير ولعل أبرز شيء فيها هو مبناها والمسلتان القائمتان فى الفناء الامامى فقط لأن الأكروبوليس والسيرابيوم المهدم وعمود دقلديانوس صارت كلها فى خلفية الصورة (٢) .

في داخل هذه الكنائس كانت توجد كنوز ثمينة جداً مثل الكنوز التي نهبها أوكتافيوس من المعابد الوثنية ، أواني محلاة بالذهب والفضة ، ومصابيح فضية وبرونزية ، مباخر ، شمعدانات ، بوابات من الحديد المطاوع مزينة بنقوش فضية ، أثواب ومفارش المذبح المطرزة بمنتهى الدقة ، ثم الموازيك من الزجاج والرخام الملون ، والأرصفة الرخامية ، ومجموعة الألواح المزينة بالحفر في الخشب والعاج .

لقد فاز العرب الغزاة بجائزة ثمينة.

Notes

(1) A. J. Butler. The Arab Conquest of Egypt.

(2) Ibid.

١٢- البحث عن الله

استمر المتحف فى أداء دوره كمركز للتعليم وللحياة الفكرية بصورة حسنة حتى أيام الرومان ، وبعد أن خرب نتيجة لاضطهادات سايكون Psychon استرد مكانه بسرعة ورغم محاولتهم إقامة مراكز تعليمية أخرى منافسة بالإسكندرية فإن الحكام الرومان كانوا فخورين بسمعة المتحف وشهرته واستمروا فى تشجيعه.

وفى ظل الحكم الرومانى ظل نمط الدراسات بالمتحف هو نفسه لم يطرأ عليه أى تغيير ـ الخطابة ، وفقه اللغة ، والنقد ، ومن الباحثين كان يضم مؤرخين كانوا جغرافيين أيضاً ، علماء فى الرياضيات يجمعون بينها وبين الفلك والميكانيكا ، ثم علماء فى الطبيعة يدرسون علم النبات والتشريح[١] .

كان المتحف لا يزال يعتبر أعظم مركز للتعليم فى العالم ، وعلى الرغم من استمرار عملية " نزيف العقول braindrain عن طريق جذب العلماء إلى روما بالاغراءات المادية ، والفرص الواسعة ورعاية البلاط ، ولكنه كمركز للعلوم الإغريقية يكاد يكون هو الوحيد الذى بقى قبل أن يقوم الإمبراطور هادريان بإحياء مدارس الفلسفة فى أثينة ـ فقد كانت له جاذبية خاصة فى عالم كانت فيه الثقافة الإغريقية هى علامة الرجل المتحضر ، وبسبب هذه الجاذبية ، فإن الدراسات الأساسية والتى كانت تقدم بأفضل مستوى هى الأدب اليونانى ، وفقه اللغة والنحو ، هذا ما كان يقدمه المتحف بدرجة أعظم من أى مركز آخر ، وهذا ما كان يريده الرومان المتحضرون .

استمرت الدراسات الأخرى خاصة علم الفلك والرياضيات والطب وعلم النبات ـ وواصلت عطاءها فى اكتشافات عظيمة وأسماء عظيمة تقريباً حتى زمن الغزو العربى، فبرز ميناﻻس Menelas فى علم المثلثات فى القرن الأول الميلادى ، وجالين فى الطب وكلوديوس بطليموس فى الفلك فى القرن الثانى الميلادى وبابوس Pappus فى الهندسة فى القرن الخامس الميلادى وكان هؤلاء جميعاً أعضاء فى المتحف وقاموا بأعمالهم هناك .

وعند زيارة الأباطرة الرومان الأوائل للإسكندرية فإنهم كانوا يزورون المتحف طبعًا ، ويقال أن نيرون **Nero** طلب نصيحة " فلاسفة الإسكندرية" حيث أراد أن يشق قناة فى برزخ كورينث ، وكان للإمبراطور هادريان مناقشات طويلة مع علماء المتحف **Savants** ولكن الرعاية الإمبراطورية كان لها مساوئها ، فقد قام كل من قسباسيان وهادريان بتعيين الطفيليين ورجالهم المفضلين فى المتحف فى وظائف شرفية بلا عمل أو مسئولية، وعين هادريان معلمه الخاص فى منصب الكاهن الأعظم " **High Priest**" (وهى تعادل مستشار **Chancellor**) وعبر كاراكيلا عن عدم رضائه بأن ألغى الإعانة " **Syssitia**" ، (إعانة إعاشة) كانت تدفع للباحثين والعلماء ٠

كانت الفلسفة دائمًا دراسة محبوبة فى أى معهد إغريقى حقيقى ، فإن المؤسس الأول للمتحف ، بطليموس سوتر كان يشجع الفلاسفة ، وكان يعتبر المتحف بالدرجة الأولى مدرسة لدراسة الفلسفة ، لكن خلفائه وجدوا أن تشجيع الفلسفة لا يتفق مع ممارسة الاستبداد ومن ثم كان تشجيع الفلسفة مرهونًا بفائدة الفلسفة أو خطرها على البلاط ، وصار فلاسفة المتحف الآن يميلون إلى العمل كسوفسطائيين أو رجال بلاط ، أصحاب أعمال أو باحثين عن المنصب ، إن محنة الفيلسوف ديمتريوس **Demetrius** فى عهد بطليموس سايكون تصور تمامًا ما كان يريده البطالمة المتأخرين من الفلاسفة، كان ديمتريوس معروفًا بتشدده فاعتبره سايكون توبيخًا دائمًا للانحلال الأخلاقى بين رجال البلاط ، وهكذا عندما ظهر ديمتريوس فى أحد أعياد ديونيزيوس فى ملابس عادية فى وقت كان فيه الآخرون جميعًا يرتدون أقنعة الباخوسيين ، أجبره الملك تحت تهديد بالقتل ، أن يسكر أمام ضيوفه جميعًا ، ويرقص فى القاعة عاريًا إلا من ثوب حريرى شفاف ، عمومًا فإن الفلاسفة كانوا يوظفون كثيرًا فى الشئون العامة ، فكان ديون عضوًا فى وفد الإسكندرية الذى وصل إلى روما أثناء وجود أوليتس هناك فى زيارة لكى يقدموا لمجلس الشيوخ احتجاجهم على الإجراءات التى اتخذها الملك ، وبالصدفة قتل ديون أثناء وجوده فى روما ، ربما بأمر أوليتس ، وتفاوض الفيلسوف أريوس مع أوكتاڤيوس بشأن تسليم مدينة الإسكندرية ، وقام بدور العميل المالىء " **Quisiling**" للعدو بعد التسليم وأخذ يظهر فى الأماكن العامة ويده فى يد الفاتح الذى كان يحدثه بلغة يونانية ركيكة ويعزى تصرفه الرحيم مع المواطنين إلى تدخل أريوس ٠

وهكذا لعب فلاسفة المتحف دوراً صغيراً نسبياً فى تخمر الفكر الدينى الذى انبثق فى العالم الهللينستى تقريباً فى زمن الاحتلال الرومانى لمصر والذى كان يتمحور حول الإسكندرية، إن المدينة بسكانها الكوزموبوليتان **Cosmopolitan** وبموقعها الجغرافى الفريد كانت مصفاة للأفكار **Clearing house of ideas**، والتجارة ، وكانت شديدة الحساسية لحركات الفكر فى جميع أنحاء العالم وكذلك للأسعار.

الذوبان التدريجى لطوائف الإسكندرية الثلاثة ـ الإغريق ، واليهود والمصريين ساعد هـذه العملية ، هكذا ساهمت قنوات الاتصال مع المدن الداخلية فى مصر ، ومع الهند والجزيرة العربية وسوريا والعراق الواقعة على طول طرق التجارة القديمة والجديدة ، وهكذا كان دور العلاقات الثقافية والتجارية الأقدم مع اليونان ، وآيونيا ، والجزر اليونانية .

وبينما ظل المتحف على وجه الخصوص ، وبروح العناد الشديد إغريقيًا ، فإن النشاط الفكرى خارج المتحف والذى كان يحركه اليهود صار كوزموبوليتانيا بدرجة متزايدة ، منفتح باستمرار على تيارات الفكر والمفاهيم الوافدة على الإسكندرية من كل بقاع العالم ، من معابد مصر ، حيث كانت الديانة الهيراطيقية للفراعنة تخلى مكانها لمزيد من المفاهيم الأخلاقية عن مصير الإنسان ، ومن معابد كاليديا **Chaldea**، حيث كانوا يعتقدون أن تحكم النجوم فى حياة الناس يمكن تفسيره بل وإبطال مفعوله عن طريق السحر ، ومن حكماء الهند ، الذين كانوا يعتبرون الوجـود المادى عبارة عن سقوط من حالة روحانية أرقى ويعتبرون المادة أساساً هى الشر وأن الروح أساساً هى الخير ، من ديانات الأسرار الإغريقية التى كانت تعلم أن الهروب من عجلة الأقدار يمكن تحقيقه بالاتحاد مع المبدأ الإلهى فى صورة إله أو إلهة ، ومن تلاميذ فيثاغورس الذين كانوا يعلمون نكران الذات **Self- abnegation** كما يعلمون أن للأرقام قوة سرية غامضة ، ومن تلاميذ أفلاطون الذين يؤمنون بوجود عالم الحقيقة المثالى ، غير المنظور، القابل أن نعرفه لكن ليست معرفة كاملة وإن عالم الصور المنظور والملموس ما هو إلا صورة ناقصة منعكسة على سطح مرآة ، ومن الرواقيين الذين يؤمنون بوجود عالم آلى محدد المصير مسبقًا بطريقة قدرية ويصرون على ضرورة التكيف معه ، من القبالة اليهودية التى مدت وطورت الميول الغامضة لأدب الرؤيا **Apocalyptic Literature**

من " أدب الحكمة " الذى انتجه اليهود ؛ كثمرة لاتحاد الهللينستية واليهودية ، والذى أدى إلى نشوء مفهوم التصوف اللاهوتى **Hypostatic Sophia** أو الحكمة على اعتبار أنها انبثاق من الله لأجل تنوير الإنسان .

لقد اختمرت هذه الأفكار كلها حول علاقة الإنسان بالعالم غير المنظور وغير المعروف ، وكانت دليلاً على الإنشغال الحاد المسبق بهذا العالم ، وبدرجة الاعتماد عليه كما كانت مظهراً لتلاشى الاهتمام والمتعة والثقة فى العالم المادى المنظور ، الذى كان أحد خصائص الحضارة الهللينستية ، وهذه الخاصية صاغها فكرياً تلاميذ أرسطو ، بتأكيدهم على كفاية المشاهدة والاستدلال كوسيلة للمعرفة ، وانتقدها تلاميذ أفلاطون الذين افترضوا وجود عالم المثل الحقيقى وراء هذا العالم الظاهر الأشكال ، غير أن الرواقين رفضوا هذا دون أى تفسير ، رغم أنهم لم يروا بديلاً غيره ، لكن الانهيار حدث ليس نتيجة للنقد الفكرى، ولكن نتيجة لضغط الأحداث مثل : الغزو والطغيان الأجنبى والأوبئة الفتاكة كالطاعون بالإضافة إلى المذابح وعملية الإفقار التدريجى واختلال الأمن بصورة متزايدة ، فنما داخل الإنسان وبالأخص الإنسان الهللينستى إحساس متزايد بأنه قد فقد الإتجاه ، فآلهة الأوليمب الممثلين لقوى الطبيعة النافعة ، وصفات البطولة التى تنسب للإنسان فى كبريائه ونجاحه ، لم تعد كافية للأوقات العصيبة التى سقط فيها الإنسان ، وهكذا تحولت خيالاتهم بعيداً عن مفاتن هذا العالم المرئى الزائل ، وانجذبوا بقوة متزايدة نحو الأفكار التى تدور حول العالم غير المرئى ، وغير المنظور الذى شغل اهتمام الشعوب التى غزوها فى الماضى ، وصاروا يتشبهون بهم ، وقد وجدت هذه الأفكار فى ديانات الأسرار، وفى تأملات فيثاغورس وأفلاطون عنصراً يتخفى خلف فكرة الإنسانية ومظاهر المجتمع الهللينستى ، ففى الوقت الذى كانت فيه الهللينستية تفرض ثقافتها على غزاتها الرومان كانت هى ذاتها مغمورة فى طوايا ثقافات الشعوب الأخرى التى خضعت لاحتلالها .

فى لقاء الأفكار وامتزاجها الذى فرضته الحاجة لسد الفراغ الناتج عن استهلاك أفكار الحركة الإنسانية الهللينستية ، يمكن تمييز موضوع رئيسى ، ونقطتان متعارضتان ، بالإضافة إلى عدد من الملاحظات فى أوقات مختلفة خلال القرون الأربعة الأولى للمسيحية منسقة فى فلسفات متجانسة بدرجة أو بأخرى ، كان الموضوع

الرئيسى يتعلق بسبب أوحد غير مخلوق ، أو مبدأ إلهى ، أو بالخير الأسمى المتجاوز للزمان والمكان و الذى هو البداية والنهاية لكل شىء ووراء وخلف وفوق ، الشامل والسابق الوجود على ، والخالق الأسمى ، للثالوث المصرى ، والبانثيون الأوليمبى ، والحكمة والمنطق ، ونحن ، وكل الآلهة التى لا تحصى الذى آمن بها الإنسان ، وعبدها ، وكان يسترضيها ويسترحمها ويفكر فيها .

أما النقطتان المتعارضتان والمصاحبتان لهذا الموضوع الرئيسى فهى التناقضات الكامنة فى :

١- وجود الشر فى الكون الذى خلقه إله خير وكلى القدرة .

٢- عمل الإرادة البشرية فى عالم محكوم بإرادة كلية شاملة ومقدرمصيره سلفًا ، أما الملاحظات المختلفة التى استخدمت للتنسيق بين الموضوع الرئيسى والنقطتين المتعارضتين يمكن اعتبارها كثنائيات ، أحيانًا متعارضة وأحيانًا آخرى متكاملة ، ولكنها دائمًا مترابطة .

١- الاعتقاد فى أن الشر صفة سلبية ناتج عن الانحدار من مستوى الخير بطريق الانبثاق ، إنما يتعارض مع عقيدة أن الشر قوة أولية إيجابية فى حرب مع الخير.

٢- الاعتقاد بأن المادة تتعارض مع الروح ومقترنة بالشر ، مقارنة بعقيدة أن المادة بعيدة عن الكمال ويشوبها النقص ، ولكنها صورة للروح قابلة للكمال .

٣- الاعتقاد بأن التحرر من عجلة الأقدار والصعود إلى الله (باستخدام لفظ مختزل ملائم) يمكن تحقيقه بالتعليم الموصل إلى المعرفة ، مقارنة بالاعتقاد فى أن هذا التحرر يمكن تحقيقه عن طريق ممارسة الفضيلة.

٤- الاعتقاد بأن الغنوصية **Gnosis** أو المعرفة الموصلة إلى الله ، يمكن تحقيقها فقط عن طريق عملية تعليم طويلة المدى مقارنة بالاعتقاد فى أن ذلك يمكن تحقيقه بنوع من الإلهام الفورى ، **by some instant revelation**.

٥- اعتقاد الأفلاطونية بأن العالم المنظور ما هو إلا صورة ناقصة لعالم المثل الحقيقية ، وارتباط هذا باعتقاد آخر مؤداه أن المعنى الحقيقى للكتابات المقدسة هو معنى شديد الخصوصية ، لا يفهمه إلا القلة المختارة .

٦- الاعتقاد بأن المعرفة الغنوصية ، اذا لم تكن مستندة على الفضيلة فهى متناغمة مع ممارسة الفضيلة ومتعارضة مع الاعتقاد بأن حيازة المعرفة تعفى الإنسان من ممارسة الفضيلة ، antinomianism.

٧- الاعتقاد بأن أرواح البشر تحوى عنصراً إلهيًا يمنحهم القدرة التى تمكنهم من العودة إلى الله ، فى تعارض مع الاعتقاد بأن العنصر الإلهى موجود فقط فى القلة المختارة.

هؤلاء المؤلفون جميعًا على اختلاف مشاربهم الذين كانوا يحاولون تنسيق جوانب هذا الموضوع الرئيسى كان اهتمامهم الأكبر ينصب على مسألة المعرفة ، كيفما كانت تكتسب ، أكثر من السلوك ، وكانوا منشغلين كلية بالفرد أكثر من الجموع ، وفى هذين الأمرين كانوا معارضين للفلسفة الرواقية ، فهذه الخميرة الدينية كلها ، فى بعض جوانبها ، يمكن رؤيتها كرد فعل للفلسفة الرواقية ، التى أصبحت موضة فكرية فى الوقت الذى تلاشت فيه حيوية الحضارة الهللينستية ، فالرواقية هى رد فعل إنسانى محدد للأزمنة الرديئة ، فلسفة قبول ، أى فلسفة احتمال وصبر وجلد ، إنها فلسفة تهذيب الأشرعة فى وجه الرياح المعاكسة ، لم تكن مهتمة بالبحث عن الحقيقة ، بل بتأكيد إنسانية الإنسان ، ليس كما (رآها الرواقيون كعملية وهمية) للخلاص من عجلة القدر ، بل بتكيف الإنسان مع الأقدار ، وقد غاصت الرواقية بعد ذلك وانغمرت فى الفلسفة الانتقائية الأفلاطونية الزائفة التى حاربت بها الوثنية آخر معاركها الخاسرة مع المسيحية ، لكن ، قبل أن تشكل المسيحية أى تهديد لهذه الفلسفات ، كانت الرواقية تجسيداً للهللينستية المحافظة ، فى فترة انهيار الحضارة الهللينستية ، وكانت تستخدم علاجات اتباع الإنسانية الكلاسيكية ، وهى أدوية وهمية لعلاج أمراض الإنسانية فى مقابل (ما اعتبروه دون شك) بأنه الرعاع الكوزموبوليتان للفلاسفة المزيفين أشباه السحرة وأشباه المحتالين الذين كانوا يسعون لاستكشاف العالم غير المنظور لعلاج اختلال التوازن الناتج عن نواقص العالم المنظور .

كان هناك اتفاق عام بين جميع المتعلمين حول كوزموجرافية الكون المادية والروحية ، فالأرض هى مركز الكون المادى والشمس والقمر كواكب سيارة تدور حولها فى عملية منتظمة ، والنجوم الثابتة والرياح والأبراج جزء من آلية منظمة تتحكم فى الأوقات والفصول والأحداث بل وفى حياة الناس ، هناك اعتقاد عام فى دورة كونية تتكرر بلا نهاية ، لم يكن هناك أى معرفة للقانون الثانى للثيرموديناميك .

كان معظم المتعلمين على استعداد أن يسلموا تسليماً جدلياً باحتمال وجود عالم الروح الذى تنبأ به أفلاطـون ، والذى تسـكنه إنبثاقات روحانية لها ترتيب تنازلى ، إن وجود الملائكة والشياطين كان مقبولاً بشكل عام مثل وجود الفيتامينات والفيروسات الآن ، كـان الفرق بين ذوى النزعـة الإنسـانيـة وبين البـاحـثين عن الله يكمن فى درجـة الأهميـة التى تنسب إلى عـالم الروح ، فذوو النزعـة الإنسانيـة يعتقـدون فيه باعتبـاره مفهوم نظرى لا علاقة له بحقائق الوجود إلا بقدر استفادتهم به فى تشجيع الجهلاء على ممارسـة الفضيلة ، لكن البـاحـثين عن الله يرون أن هذا هو المثل الأعلى ، العـالم الحـقـيـقى، وسـيلة الاتصــال مع الله ، الطريق الهـابط من أعلى الذى نزلت عليـه الانبثـاقات الصـادرة عن اللـه ، والطريق إلى أعلى الذى تصـعد عليـه روح الإنسـان من أجل إعادة الاتحاد مع الله .

إن أقدم ألوان الأدب السكندرى البـاقى لدينا والمتـصل بهـذه الخـمـيـرة الدينيـة الكوزمويوليتانية نجدها فى كتابات فيلو المعروف باسم فيلو جواديوس **Philo Judaeus** ، ولد فى الإسكندرية حوالى ٢٥ق.م لعائلة يهودية من أصحاب النفوذ ومات حوالى ٥٠م، كان أحد زعماء الطائفة اليهــودية ، وفى عـهد كاليجولا ، كان عضــواً فى الوفـد الذى ذهب إلى روما للاحتجاج على الإجراءات التى اتخذها الحاكم الرومانى فلاكيوس **Flaccus**، شأنه شأن جميع اليهود بالإسكندرية، فإنه كان من المتعلمين باللغة اليونانية، وشواهد كتاباته تبين أنه لم يكن يعرف العبرية ، لكنه كان متعمقًا جداً فى دراسة الكتب المقدسة اليهودية **Jewish Scriptures** وفى كتابات فلاسفة اليونان ، وبالأخص أفلاطون ، وقد وصف بأنه " آخر وأعظم ممثل لتراث اليهودية الهللينستية بالإسكندرية" الذى يتـجـسـد فى الأدب المعروف باسـم " أدب الحكمـة " وأفضل نماذجه هى" حكم سليمان " فى الأبوكريفا **Apocrypha** (*) ، التى تنسب احياناً إلى فيلو .

لقد توقف هذا التراث نتيجة لخراب المجتمع اليهودى فى اليهودية و فى مصر على السواء خلال الثورات التى وقعت فى القطرين بين سنتى ٧٠ ، ١٢٠ ، وبعد ذلك ، انعزل اليهود فى جيتو **Ghetto** فكرى روحانى حتى أيام نهضتهم المجيدة ، بعد حوالى ألف عام ، فى ظل الحكم الإسلامى فى أسبانيا .

(*) Apocrypha كتب دينية مشكوك فى صحتها وأصالتها . (المترجم)

إن خاصية " أدب الحكمة " والسبب وراء التسمية **nomen clature** هو مفهوم الحكمة **Sophia** – كقوة إيجابية ، كأقنوم حقيقى، منبثق من الله لتنوير الإنسان ، خذ مثلاً الفصل السابع من الحكمة (**wisdom ch,7,v,24**) والأشعار التى تليه مباشرة (ترجمة **NEB**) .

"لأن الحكمة تنتقل بسهولة أسرع من الحركة ذاتها فى كل الأشياء لأنها شديدة النقاء ، مثل سحابة شفافة تشرق من قوة الله ، إنها انبثاق نقى من مجد القدير ، فلا يدخل إليها خلسة شىء من الدنس ، إنها البريق الذى يتدفق من النور الدائم ، المرآة الصافية لقوة الله الفعالة وصورة لإحسانه ، إنها شىء واحد وحيد ، ولكنها تستطيع أن تفعل كل شىء ، دون أن تتغير وهى تجدد كل الأشياء ، عصراً بعد عصراً، تدخل إلى كل الأرواح ، وتجعل منها أصدقاء وأنبياء لله ، لأن الله لا يقبل سوى الرجل الذى يبنى بيته بالحكمة ، إنها تشع بقوة أقوى من الشمس ، وتتفوق على كل المجرات والكواكب ، وإذا قورنت بنور النهار فإنها تتفوق ، لأن النهار يخلى مكانه لليل ، لكن فى وجه الحكمة لا يسود أى شر ، فهى تضم العالم من أطرافه جميعاً بكل قوة وتأمر كل الأشياء لكن بلطف" .

وهذا يذكرنا بالفقرات الأولى من إنجيل القديس يوحنا ، التى كتبت ربما بعد ذلك بثلاثين أو أربعين عاماً ، (الكلمات اليونانية – **Sophia and logos - word**) كان اليونانيون يتبادلونها بالتناوب لكى تشير إلى عملية الانبثاق من الله كعمل من أعمال الإبداع التنويرى .

من المؤكد إلى حد ما أن حكمة سليمان كتبت فى الإسكندرية خلال القرن الأول الميلادى وإن لم يكن كتبها فيلو ، فإن كاتبها هو واحد من معاصريه كانت له مثل فيلو معرفة باليونانية وبفلسفة افلاطون على وجه الخصوص ، إن المفهوم القائل بان الحكمة قانون منبثق من الله ، كما عبرت عنه أبيات الشعر التى قرأناها ، هى فكرة يونانية تماماً ولا نظير لها فى لاهوت الآرثوذكسية اليهودية ، **Orthodox Jewish Theology**[٢]

لقد حاول فيلو فى كتاباته أن يعقد صلحاً بين مفهوم الانبثاق من إله غير مشخص غير مخلوق ، وبين المفهوم اليهودى الخاص بالله المشخص " الراعى **Caring**" عن طريق

تفسير مجازى للعهد القديم ، ففى حديثه عن إبراهيم Abraham نجد انه حرف قصة إبراهيم من كونه أحد الحكماء المؤسسين للجنس اليهودى إلى أسطورة عن بطل متصوف ومنقذ (٣) فقد فسر قصة *الرجال الثلاثة* الذين جاءوا لإبراهيم فى مامر Mamre مجازياً إلى قصة حدثت عن طريق العناية الإلهية لإنقاذ الإنسانية ، وكسر الحواجز التى تفصل بين المادى وغير المادى بقوة الله ، (٤) فساره زوجة إبراهيم ، صارت مساوية لكلمة صوفيا Sophia – أى الحكمة الإلهية ، والزواج بين اسحق ورفقة Rebecca تناوله بطريق مجازية على أنه اتحاد سرى صوفى – هو صرخة الروح لتكون فى وحدة مع الشيء الأعظم التى أتت من عنده .

فى كتاب فيلو "عن الوصايا العشر" يظهر موسى على أنه اقترب أكثر من أى انسان آخر فى رؤيته لله فى جوهره ، ففى الوصايا العشر ، إنه أعطى البسطاء مرشداً يفكر ويشرح ويقنن لهم الواقع غير المادى، فقد كشف للمتصوفة ، الطريق الواصل من المادى إلى اللامادى ، ووقف على أهبة الاستعداد لكى يقودهم للصعود عبر هذا الممر (٥).

" كان لديه إيمان لاشك فيه بأن دراسة الرياضيات والفلك سوف تؤدى إلى إدراك للحقائق الروحية – ووجد فيلو هذا السبيل فى نطاق المعرفة الخاصة التى تتكشف عن طريق التأويل المجازى للكتب المقدسة والتى توصلنا إلى تجربة صوفية بالتركيز على الحياة الروحية ، بهذا المعنى، يمكن اعتبار فيلو هو المبشر بالفلسفة الغنوصية ، الخاصة بالأفلاطونية الجديدة وبالتصوف المسيحى ، على أساس إنه رأى الغاية الرئيسية للدين ، كعلاقة لروح الإنسان ، واتحاده النهائى مع الله الذى انحدر منه منذ البدء ، يمكن بمعنى آخر اعتباره أحد المساهمين فى موجة الرواج الخاصة بالمذاهب السرية والمبادرات الغامضة ، والنظريات المفصلة حول خطوط الاتصال بين الله والإنسان و التى تم التعبير عنها فى إحياء ديانات الأسرار اليونانية وفى تكاثر الجمعيات شبه السرية التى تعتنق عقائد معينة وتتراوح طقوسها بين ممارسة أبشع صور السحر وأرق وأجمل أشكال التأمل .

لقد كتب الكثير حول الغنوصية، لكن ما يعرف عنها بصورة مؤكدة فهو قليل وعن طريق كتابات المعارضين لها أساساً، فأحيانا يعتبرونها أول أشكال الهرطقة المسيحية، وعقائدها رغم أنها تتعارض بقوة فهي تجاهر بإدعاء أصلها اليهودي ومعرفتها بالمسيحية أيضاً ، كما أنها تأثرت تأثراً عميقاً بالمفاهيم اليونانية والشرقية ، الغنوصية لا تشبه أي حركة متماسكة ، فلا يوجد شخص غنوصي بصورة واعية ، كما يعي إنه مسيحياً أو أفلاطونياً أو رواقياً ، فالغنوصية ببساطة تعني المعرفة ، الغنوصية Gnosticism اسم جنس أطلق بأثر رجعي على بعض المظاهر الخفية الخاصة بالمسيحية في القرن الأول والثاني الميلادي، والتي ظهرت في شكل جمعيات شبه سرية، في بعض أجزاء العالم الهللينستي ، وعلى الأخص في مصر وسوريا .

من الناحية اللاهوتية ، اهتمت الغنوصية بالمشكلة الأساسية الخاصة بالتوفيق بين وجود الله ووجود الشر ، كانت معنية في الأساس بإعادة اتحاد الإنسان مع الله ، واشتبكت مع هذه المشاكل في نطاق المصطلحات المعاصرة – أي في نطاق ما سمي بنظرية الانبثاق ، أو الفيض Theory of Emanation وبالمفهوم الأفلاطوني عن عالم المثل الحقيقي ومعرفة ما وراء هذا العالم المادي فيما يختص بالمشاهدة والرؤية .

تؤمن الغنوصية بأن عملية خلق العالم جاءت كنتيجة لسلسلة من الانبثاقات الصادرة عن الله وكانت صورة غير كاملة لعالم الروح أو البليروما Pleroma التي يشرف عليها خالق الكون Demiurge ، ثم قسمت الإنسانية إلى ثلاث طبقات ، الروحانيون Pneumatics, النفسيون Psychics والماديون Hylics، الروحانيون وهم الصفوة ، الذين يستطعون بفضل المعرفة الباطنية أن يعيدوا اتحادهم مع عالم الروح ، أما النفسيون فهم أولئك الذين يستطيعون الحصول على حالة متوسطة من الخلاص في نطاق عملية الخلق ، أما الماديون Hylics فهم ماديون بصفة أساسية ، ومن ثم فهم عاجزون عن التطور ، هناك تناقض كامل بين الروحي والمادي ، المسيح روح مرسل من الله لمنح المعرفة الروحية للروحانيين ، هذه المعرفة الروحية موجودة في كثير من أقوال المسيح السرية ، وكان الوصول إليها وتفسيرها هو جزء من عملية الدخول في المعرفة والاشتراك في أسرارها process of initiation فهم يؤمنون أن روحانية المسيح قد منحت له عند العماد وتخلت عنه قبل الصليب .

طبقًا للغنوصيين ، فإن الله فى قصة التكوين الخاصة بالخلق ليس هو الكائن الأعظم Supreme Being لكنه Demiurge الذى تدخل بنجاح لمنع الإنسان من الحصول على المعرفة الخاصة Gnosis (شجرة المعرفة) وكل أفعال الشر فى العالم ترتبت على هذا الفعل ، هذه العقيدة توحد ضمنياً بين الحية والمعرفة الروحية وكذلك توحد بينها وبين الحكمة والمنطق Sophia Logos, وهكذا توحدت بوساطة الاوفيتس Ophites وهم إحدى طوائف الغنوصيين ، الذين رأت أن يسوع المسيح هو إعادة تجسيد لمنطق الحية فى محاولة تحقيق ما فشلت الحية فى تحقيقه أى فى توصيل المعرفة للإنسان ، لكن المسيح بعكس الحية ، فإنه نجح ، أو بالأحرى ترك خلفه معرفة باطنية esoteric Knowledge أتاحت وصول المعرفة لأولئك الذين لهم عيون روحية لكى ترى وآذان روحية لكى تسمع ، طبقًا لهذه العقيدة ، فإنهم نظروا إلى يهوه الموجود فى العهد القديم على إنه الخالق Demiurge ، ليس كله شر لكنه جاهل بعالم الروح ويتصرف تبعاً للنور المادى .

طبقًا لنظرية الانبثاق فإن العقيدة الغنوصية عموماً ترى بأن الخير والشر يتساويان مع الروح والمادة ، وهى أشياء تقاس بالنسبة لقربها من الله أو بعدها عنه ، وإن الغنوصية هى وسيلة للاقتراب من الله ، وبالتالى من الخير، إن اكتساب المعرفة الغنوصية بالاطلاع على المقولات والشعائر السرية كان هو العامل المشترك بين مختلف طوائف الغنوصية .

كانت المعتقدات الغنوصية سائدة بالإسكندرية فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، كان زعيم أول طائفة غنوصية هو بازليدز Basilides ومعرفتنا بمعتقداته مأخوذة كلها تقريباً من كتابات خصومه المسيحيين عنه – وبالأخص كليمندس السكندرى Clement وايرانوس Iraenus ، ولم يتبق من كتابات بازليدز شيىء ، لقد صرح بأنه يستخلص مذهبه من التعاليم السرية التى نقلها يسوع المسيح إلى القديس متى، ومثل أغلب الطوائف الغنوصية ، كون اتباعه جمعية شبه سرية ، وكان أعضاؤها يعتبرون هذا أمراً مشروعًا ، لفائدة السرية فى إخفاء المعتقدات ، وإنكارها فى أوقات الاضطهاد ، (مثل ممارسة التقية فى المذهب الشيعى) كانت تعاليمه تتضمن محتوى أخلاقياً فى أن الحياة النقية وكذلك الدخول إلى المعرفة الغنوصية ، يعد شرطًا لازمًا لإعادة الوحدة مع الله .

وفى أواخـر القـرن الثـانى الميـلادى ، بعـد مـوت بازيليـدز ، وتحت قـيـادة فالنتين **Valantinus** نجد أن الغنوصية قد اكتسبت على ما يبدو شعبية واسعة فى مصر كما اكتسبت نضجًا لاهوتيًا مؤكدًا ، كانوا فى سلوكهم أشبه بجماعة سرية ، وكان الوثنيون يعتبرونهم مرادف للمسيحية ، كان تأسيس ديداسكاليون **Didascaleon** مدرسة تبشيرية (**Catechetical School**) ونشرتعاليمها فى منتصف القرن الثانى الميلادى ربما كان محاولة من جانب رجال الكهنوت المسيحى بالإسكندرية لتقديم صيغة رسمية **official** صحيحة للمسيحية بدلاً من الإسراف الغريب فى الغنوصية .

منذ البداية تقريبًا ، اهتمت المسيحية " الرسمية " فى الإسكندرية وفى غيرها من البلاد بالسمة الثورية الشديدة الخصوصية للرؤية المسيحية ، وعارضت الاتجاه التلفيقى أو الانتقائى للمساواة بين المسيحية وبين تيار الفكر الدينى الجارى ، أو كما يقال لدمج المسيح ضمن الكوزموجرافية الروحية الأفلاطونية الرائجة ، وإلى حد ما ، تأثرت المسيحية " الرسمية " حقيقة ، فى تعاليم كليمندس وأوريجينوس **Origin** بعبادات الأفلاطونية المنتشرة فى الفكر والتأمل ، لكنها أظهرت وجهًا صارمًا ضد مصادر الفساد الأشد خبثًا النابعة من المؤثرات الشرقية للسحر ومن عقيدة التناقض بين الروح والمادة ، فالغنوصية بكل أشكالها تشربت هذا الفساد الشرقى للأفلاطونية ، التى حولت مفهوم أفلاطون الخاص بالصور والأشكال باعتبارها انعكاس للأفكار أو المثل إلى أن الروح مساوية للخير وأن المادة مساوية للشر ، هذا الفساد أدى بطريقة حتمية إلى الهروب الأخلاقى الذى نظر إلى الإثم لا على أنه تجاوز إرادي للحدود ، بل كشىء ملازم للإنسان ، ليس فى سقوطه ، لكن فى خلق العالم فلا جدوى من عمل شىء غير الهروب من حدود هذا الخلق ، و يشمل هذا الهروب من المجتمع كله ومسئولياته عن طريق الغنوصية ، وهذا كما هو معروف عند معظم طوائف الغنوصية ، ليس مساويًا للتعليم واكتساب المعرفة بالمعنى الافلاطونى، بل يعنى الوصول إلى المعرفة عن طريق وصفات سحرية وتفسيرات مجازية للكتب المقدسة - هذا المفهوم المتعلق بنوع المعرفة الباطنية التى لا يعرفها إلا الخاصة كان شيئًا شديد الجاذبية .

وكان يعاصر الغنوصية فى الإسكندرية ، ويرتبط بها عن طريق وشائج حميمة ، تلك الفلسفة التى تتجسد فى كتب الهرامسة **Hermetic books** ، إذا جاز لنا تسميتها

بفلسفة والتى وضعها كتاب مختلفون بين القرنين الثانى والرابع الميلادى ، رغم إنها تأثرت عموماً بالمناخ الدينى فى ذلك الوقت ، فإن فلسفة الهرامسة بأصدائها اليهودية والشرقية ، هى أساساً ثمرة الاتحاد بين ديانة مصر المستنيرة وفلسفة اليونان المنحطة .

من خلال التبادل الثقافى العظيم فى الإسكندرية، انجذبت الديانة المصرية القديمة تدريجياً إلى حلبة الجدال اللاهوتية العالمية العظيمة وأثرت فيها وتأثرت بها ، على المستوى الرسمى فإن إيزيس ، الأخت والزوجة لأوزيريس وابنهما حورس ، استطاعت من خلال الاتحاد بين سيرابيس وإيزيس بالإسكندرية البطلمية أن تتجسد بل وتتحكم فى معبد البانثيون الوثنى ، كما تمكنت فى وقت متأخر ، أن تتجسد فى الباثنيون المسيحى وأن تهيمن عليه ، وعلى مستوى فكرى خاص ، فإن شخصية الإله الحارس ابو منجل **Thoth or Ibis-god** الذى ينسب إليه اختراع الخطابات **Letters** ، ارتبط أولاً بالإله اليونانى **Hermes** ، ثم بالمفهوم اليونانى للحكمة **Sophia** أى تجسيد الحكمة الروحية ، من خلال هذا التعريف ،يبدو أن شيئاً ما أشبه بالفلسفة الإغريقية المصرية الدينية ، الذى عبرت عنه كتب الهرامسة ، قد تطور .

تتكون كتب الهرامسة **The Hermetic books** من حوارات بين هرمس **Hermes** (الذى يبدو كابن هرمس وذاته الآخرى **alter ego**) وبين هرمس واسكلبيوس **Asclepius** إله الشفاء اليونانى ، الذى ارتبط مع سيرابيس واتحد معه أحيانا ، هناك إشارات مختلفة لإيزيس باعتبارها "عذراء العالم " وكتصوير مسبق لدور " العذراء مريم " فى المسيحية فيما بعد ، هناك أيضاً إشارات إلى الثالوث الإلهى **Triad of God** والإنسان والعالم ، الذى يعتبر تصويراً عقلانياً **intellectualization** للثالوث الاوزيريسى **Triad of Osiris**، إيزيس وأوزيريس وحورس وربما كانت تصويراً مسبقاً لعقيدة الثالوث المسيحى ، ولكن لا يوجد إشارة مباشرة إلى هذا ، أو علامة تدل على أن للمسيحية أى تأثير فى كتب الهرامسة .

موضوع كتب الهرامسة " هو موضوع عقلانى راقى **Sophisticated** ومتحذلق ، فهو يفترض مسبقاً الكوزموجرافية الروحية التى تنطوى عليها نظرية الانبثاق كما سميناها ، فهذه الكتب تعتنق مفهوم أفلاطون من أن العالم الأرضى ما هو إلا صورة ناقصة لعالم المثل أو الأفكار ، وهى تميز بين العقل والذكاء ، وبين الخلود **immorlality**

والأبدية eternity، الله أبدى ، الخلق خالد ، والإنسان فان ، العقل هو شأن من شئون الحواس وعن طريقه يتم الاتصال مع الخالق، الذكاء هو عمل الروح الذى يتصل الإنسان عن طريقه بالله ، المعرفة هى تأمل ، بسكون ، تغييب لكل الحواس والحركات ، الإنسان الطبيعى خاضع لتصاريف القدر لكن بوسع الغنوصية أن تتحكم فى الأقدار ، الجلادون الاثنى عشرة العميان الذين لابد أن يختفوا أمام الغنوصية هم الجهل ، الحزن ، الإدمان ، الشهوة ، الظلم ، الجشع ، الخطأ ، الحسد ، الكسل ، الغضب ، التهور ، و سوء الحظ .

الإنسان ثنائى الهوية فيه جزء مادى وجزء روحى، الجزء المادى ليس شراً وهو جزء خالد على المستوى المادى، غير أنه يحمل فى طياته بذرة الشر لأنه يجعل الإنسان خاضعاً لرغباته ، وهكذا يكون عرضة لعبث الإثنى عشرة جلاداً العميان الذين يحولون بينه وبين المعرفة الغنوصية ، فالإنسان يتحرك على المستوى المادى بقوة غريزية ، وتتحكم فى مساره النجوم ، والقدر أشبه شىء بحقل وضعت فيه البذور وتهيأ للإنبات فأصبح يحتوى المستقبل فى داخله ، وهنا نجد أن للآلهة وظيفة فى هذا الشأن ، فعن طريقهم يمكن استشراف المستقبل والتنبؤ به ، ومن خلال معونتهم التى يتم الحصول عليها عن طريق العبادة وتقديم الأضاحى، يمكن تحويل اتجاه الأقدار وتخفيف أثرها على العابد الفرد أو تجنبها ، يتخلل كتب الهرمسية إيحاء بوجود نخبة روحية ، هيئة حرة قائمة على نوى الثياب المختارة a fremasonry chosen vessels والصلة بين هذه التعاليم وبين الغنوصية واضحة ، ولكن فى تعاليم الهرمسية هناك تأكيد كبير جداً على الجانب الأخلاقى، وأقل منه على الجانب السحرى للغنوصية ، أكثر مما هو موجود عند الطوائف الأخرى التى تعرف عموماً بأنها طوائف غنوصية ، وتعرض الكتب معرفة عقلانية ليست مسيحية و قائمة على التقاليد الدينية المشتركة فى ذلك الوقت ، وتتجنب الأفكار الشرقية المبتذلة التى تسوى الخير والشر بالروحى والمادى ، والتى تعتبر أن السحر هو أقصر طريق للغنوصية ، وبانعكاسها الصادق لمفهوم أفلوطين عن المثل والوجود ، إنما تعطينا دليلاً على انتشار تلك الدراسات الأفلاطونية فى الإسكندرية ، والتى أنتجت فى القرن الثالث الميلادى ، ازدهاراً جديداً لتعاليم أفلوطين Plotinus وتلاميذه ، الذين عرفتهم الأجيال التالية باسم الأفلاطونية الجديدة Neo-Platonism .

كان افلوطين مصرى يونانى، ولد فى مدينة ليكوبوليس Lycopolis (أسيوط الحديثة) حوالى ٢٠٥م ، لقد درس الفلسفة الأفلاطونية فى الإسكندرية على أستاذه أمونيوس ساكسوس Amonius Saccus معتنق جديد للمسيحية وارتد إلى الوثنية ، ذهب إلى روما فى منتصف حياته ومات هناك عام ٢٧٠ م ، وأن كتاباته التى عدها البعض ، تجسيداً لأجمل زهور الفلسفة الدينية الوثنية بالإسكندرية، تمثل تطوراً وبياناً متماسكًا لعقيدة قائمة على الصوفية التى بشرت بها بعض كتابات أفلاطون .

بينما كان الأساتذة المسيحيون فى الديداسكاليون Didascaleon يطورون مذهباً "رسمياً" للأفلاطونية المسيحية تم إلغائه فيما بعد ، كان هو يضع صياغة لنظامٍ وثنىٍ لعقيدة دينية ، مبنيًا على فلسفة أفلاطون ، ومعارضًا سواء بوعى أو بغير وعى للمسيحية .

وشأن جميع الفلاسفة المتدينين فى عصره سلم افلوطين بوجود كوزموجرافية روحية كامنة فيما سمى بنظرية الانبثاق Theory of Emanation وتضمنت فلسفته بنية منظمة تبدأ من مبدأ أولى أعلى وتنحدر فى سلسلة متصلة الحلقات من الأفكار المثالية حتى تصل إلى الأشكال أو الصور وتهبط معها روح الإنسان متخذة فى كل مرحلة دوراً حتى تتمكن عن طريق عملية تطهير متقدمة ، من الصعود من حالة الصور إلى حالة الأفكار عائدة إلى المبدأ الأول الذى نزلت من عنده فى سبيل إعادة الاتحاد مع الغاية العظمى للحياة الروحية .

كانت الأفلاطونية المسيحية ثمرة لمدرسة التعليم الدينى التى أنشأها كهنة الكنيسة المسيحية بالإسكندرية لتعليم من تحولوا إلى المسيحية من المثقفين ، ولتدريب القسوس المسيحين ، ومن أجل نشر المسيحية والدفاع عنها ، كانت مؤسسة اسكندرانية الطابع لا مثيل لها فى أى مكان آخر ، وفى عالم كانت فيه المسيحية لا تزال مرتبطة شعبياً بالجمعيات السرية والممارسات السحرية ، ومقبولة لأسباب شعورية أكثر منها فكرية ، فإن مدرسة الإسكندرية اللاهوتية Didascaleon قد أعطت المسيحية مضموناً فكرياً، أخذت تهاجم معتقدات الغنوصية الخاصة بالسحر التى اقترنت بها المسيحية وبدأت فى تلويثها ، من ناحية أخرى ، فإنها واجهت علماء المتحف الوثنى على أسس متساوية ، وعلى أرضهم ودفعتهم إلى موقف الدفاع بأسلحة الجدال الفكرى اليونانية المحترمة .

كانت المناهج الدراسية للديداسكاليون تشمل الفلسفة ، والتاريخ ، والجغرافية ، والرياضيات ، وكذلك الكتاب المقدس ، وكان التعليم يسير حسب الطرق المعترف بها فى الفلسفة الوثنية ، وتأثرت بالفلسفة الانتقائية ثم العصرية **fashionable** فى المتحف، حيث كانت المدارس الفلسفية، تتجه إلى الاتحاد فى نظام فلسفى يهيمن عليه أفلاطون، فإن بنتانيوس **Pantaneus**، مؤسس الديدابسكاليون **Didascaleon** كان رواقيًا من اتباع يوسابيوس **Eusebius**، الذى كان من اتباع فيثاغورس ، أما خليفته كليمندس ، الذى حدد اتجاه المدرسة عند نهاية القرن الثانى، كان أشبه كثيرًا بفيلسوف انتقائى أو توفيقى **Ecletic** إذ يقول :

"إن ما أسميه فلسفة ، ليس هو ما يقوله الرواقيون أو الأفلاطونيون أو الأبيقوريون أو الأرسطيون ، فعند كل طائفة من هذه الطوائف بعض الخير إنما ما أسميه أنا فلسفة فهو ذلك الجانب الذى يدعو إلى الحق والعدالة فى كل منها" .

وكما كان كليمندس فيلسوفًا يونانيًا ، فإنه كان أعظم عالم مسيحى فى عصره ، ربما كان أول عالم مسيحى عظيم ، والجمع بين مسيحيته وفلسفته انتج ما نسميه الأفلاطونية ، وفى ضوء الكتابات الأرثوذكسية المتأخرة فإن بعض مقولاته تبدو مصطبغة بالصبغة الأفلاطونية أكثر من المسيحية .

ومن الواضح أنه نظر إلى المسيحية على اعتبار أنها توليفة من الهللينستية ومن اليهودية أكثر من أنها الوحى الذى غير جميع المفاهيم السابقة عن العلاقة بين الله والإنسان ، إنه يصف الفلسفة بأنها "منحة ليست من الشيطان بل من الله عن طريق الكلمة **Logos**، الذى يسطع نوره على عقل الإنسان دائمًا" ، لقد تشبع بالفكرة اليونانية التى تفرق بين الشخص العادى والشخص المتعلم .

فالمسيحية تعنى للشخص العادى مجال نظام ، لكثير من الشهوات ولبذل الجهد المضنى وهو ما يوحى به الإيمان عن طريق الخوف والرجاء ، وتاجه القداسة التى يصل إليها عن طريق ضبط النفس ، وبالنسبة للرجل المتعلم الذى كان يهتم به كليمندس أساسًا ، فإن المسيحية تعنى تدعيم فكرة الجمع بين الحرية التى هى ثمرة المعرفة وبين الحب الذى هو ثمرة الاتحاد بين روح الإنسان وروح الله الذى يصير بمقتضاه "السلوك المستقيم ضرورة مباركة" وقبول تلقائى للتوافق المبنى على المعرفة والتفكير الصحيح .

وبتعبير أحد الكتاب فإن كليمندس (٦) حاول أن يقبض على عقيدة بولس في النعمة بدون عقيدة بولس في الإيمان ، وفي رأى كاتب آخر (٧) «لو خير كليمندس بين البحث عن الحقيقة وبين البحث عن الخلاص الأبدى ، فإنه لابد أن يختار البحث عن الحقيقة" ، إن إيمانه قائم على عقيدة هللينستية طبق الأصل مفتاحها ليس الوحى وإنما التعليم ، ربما كانت رد فعل للتعاليم الغنوصية الغريبة المسرفة ، التى اختلطت بها المسيحية في الإسكندرية، كانت هذه مرحلة مبكرة في تلك المعركة التى دارت داخل المسيحية بين الإنسانية الهللينستية والسحر الشرقى واستمرت بعد ذلك لمئات السنين .

هرب كليمندس من الإسكندرية عام ٢٠٢ أثناء اضطهاد المسيحيين في عهد الإمبراطور سويرس Severus وخلفه أوريجينوس كرئيس لمدرسة الديداسكاليون ، الذى كان عمره في ذلك الوقت حوالى ثمانية عشر عاما ، أنكر أوريجينوس القداسة إما بسبب عقيدته غير الأورثوذكسية ، (قد يوصف بأنه أريوس غير ناضج) أو بسبب تصرفه الأهوج بإخصاء نفسه في سن الشباب ، ولكنه يحتل مكانه بين أبرز آباء المسيحية الأوائل ، لقد ولد في حوالى ١٨٥ ، من أصل مصرى ، وكان مثل كليمندس متعمقًا في الفلسفة اليونانية ومحافظا على تقليد الفكر الهللينستى الذى وضعه كليمندس ، وأكد أوريجينوس على المعرفة بالمعنى العقلانى أكثر من سلفه ، ومثل كليمندس ، ميز بين ظاهر المسيحية المتاح للشخص العادى والخاص بالإيمان والرجاء والطاعة ، وبين نور المعرفة الإلهية والحرية المتوفرة للشخص المتعلم .

وفيما يختص بكليمندس وأوريجينوس فإن الاعتقاد في المسيح كفادى هى نغمة الحياة السفلى، ونحن يجب أن نرتفع فوق المحسوس إلى مستوى المعقول **intelligible**، من مستوى الطاعة إلى مستوى الحب والمعرفة ، من يسوع إلى الكلمة ، الفداء هو نظام الشفاء والغفران ، والمسيحى الحقيقى قد كف عن طلب هذه الأشياء (٨) .

يؤمن أوريجينوس أن :

يسوع المسيح مولود من الآب قبل كل الدهور ، وبه خلقت كل الأشياء ، وأنه إله وإنسان ، ولد من الروح القدس ومن العذراء مريم ، وأنه بالحقيقة قام ثانية وصعد إلى السماء ، وأن الروح القدس اتحد في كرامة مع الآب والابن وأنه هو الذى أوحى

للقديسين فى القديم وفى العهد الجديد ، بقيامة الأموات ، وأن الجسد الذى زرع فى الفساد سوف يقوم بغير فساد ، وفى العالم الآتى سوف ترث أرواح الناس حياة أبدية أو تعانى عقاباً أبدياً بحسب أعمالها ، لأن كل روح عاقلة هى أداة حرة تتآمر عليها الأرواح الشريرة ، التى تخفف من حدتها الملائكة ، ولكنها لا تقيد مطلقاً ، وأن الكتب المقدسة كتبت بمعونة الروح القدس ، وأن لهذه الكتب معنيين ، معنى ظاهر ومعنى خفى ، حيث أن المعنى الأخير لا يمكن أن يعرفه إلا أولئك الذين أعطيت لهم النعمة من قبل الروح القدس عن طريق كلمة الحكمة والمعرفة .

هذه هى عقيدة أوريجينوس ، بمعنى أوسع ، عقيدة الافلاطونيين المسيحيين ، أى المسيحية العقلانية فى القرن الثانى والثالث بالإسكندرية : التبرير بالمعرفة بدلاً من الإيمان : اعتقاد فى التفسير المجازى للكتب المقدسة الذى نتج فى جزء منه بفعل مذهب الشك اليونانى، وفى جزئه الآخر ، نتيجة لمناخ الإدراك السائد والالتزام بنظرية الانبثاق ، التى تتضمن اعتقاد مشترك بين كل الناس فى ذلك العصر ، فى وجود الملائكة والشياطين ، هى أرثوذكسية بولس مخففة بمذاهب الشك اليونانى، والمفاهيم الباطنية الشرقية وكبرياء الفكر السكندرى .

لا يوجد فى كتابات أوريجينوس أدنى أثر لإصرار المسيحين فيما بعد على النظام وعلى الأرثوذكسية وسلطة الكهنوت ، لا أثر يدعو لاتخاذ النص القائل "حتى أنت يا بطرس" مآخذ الجد **Te es Petrus** لا يوجد أى تعبير عن سلطة الكهنة فى الربط والحل ، فى منح الغفران أو منعه ، ربما كان هذا هو السبب الذى منع الكنيسة من تنصيبه قديساً، كانت تعاليمه ، لا تشير إلى مسألة الخلاص " الفورى" ولكن إلى تقدم تدريجى ، يتم ليس عن طريق رؤية سمائية من الخارج وإنما بروح الله فى داخل الإنسان التى تدفعه نحو الشبع الكامل لحب الحقيقة الذى لا يهدأ والذى غرسه الله فى روحه ، وقد رأى العقاب فى نطاق الحرمان والشر فى نطاق الجهل ، المسيح هو إعلان ظهور الله للإنسان وليس وجود الله الدائم بين البشر .

معظم كتابات أوريجينوس المعروفة لنا تختص بالمناقشة التى دارت بينه وبين سيلسوس **Celsus** الوثنى، وقد دارت المناقشة بروح مرحه من الواضح أنها مفقودة فى كل مجادلات المدافعين المسيحين المتأخرين ، كان الخلاف بين الرجلين أضيق كثيراً جداً من الخلاف بين المسيحين الأرثوذكس والهراطقة .

كان سيلسوس مفكراً توفيقياً يريد أن يُضَمِنْ المسيحية فى داخل عقيدة فلسفية عالمية رحبة ، وقد تعاطف أوريجينوس والافلاطونيون المسيحيون قليلاً مع آرائه ، لكن الإيمان بالتجسد كظهور فريد لله على الأرض يبطل صحة مفهوم الفلسفية الانتقائية الدينية ، وفى جداله ضد سيلسوس أكد أوريجينوس أن الاعتقاد فى التجسد هو نقطة البداية الضرورية فى البحث عن المعرفة الإلهية ، التى هى أيضًا البحث عن الحق ، لكن الإنسان يحس فى عقيدته أن التجسد كان إضعاف وتعتيم لمجد الله ، وليس الظهور الأعلى للحب الإلهى وهو تنازل غير ضرورى ويؤسف له بسبب جهل الانسان ، والذى يمكن للمسيحى الصادق أن يسير بدونه .

الافلاطونيون المسيحيون ، الذى كان فى طليعتهم كليمندس وأوريجينوس ، كانوا يؤمنون بأن الحقيقة المسيحية متاحة لجميع البشر ، بقدر استطاعتهم على تحصيل المعرفة ،" ففى مساكن أبى منازل كثيرة " ، متناسبة مع القدرات العقلية لسكانها المحترمين ، ولكن هذه المساكن ليست ممنوعة كلية عن أى إنسان بحكم قضاء مسبق ، وليست متاحة فوراً لأى إنسان بفعل نعمة الخلاص ، لا يوجد إنسان داخل أبواب السماء أو خارجها ، كل شخص موجود على مسافة مختلفة منها ، الكاهن المسيحى هو مرشد للكل فى رحلة الصعود إلى أعلى، وليس حارسًا لحراسة الموجودين فى الداخل وليس ذراعًا للقانون يصد الموجودين فى الخارج ليمنعهم من الدخول ، هناك كبرياء فكرية وليست خصوصية بين الافلاطونيين المسيحيين ، إن مملكة الله ، بكل عظمتها ، مثل مملكة الديانة الأثينية **Athenaeum** مفتوحة لكل من يملك المؤهلات العقلية الضرورية على عكس جماعة نادى راند **Rand Club** المغلقة فى وجه الكل بجبرية محتومة ولايسمح بالدخول فيها إلا للقلة القليلة المختارة من قبل العناية الإلهية .

ليس من الراجح أن يكون للإنسانية الليبرالية التى يعتنقها الافلاطونيون أو السرية التآمرية للغنوصيين جاذبية شعبية كبيرة فى عصر حاد التدين ، وقابل للتصديق بلا حدود ، فإن الفلسفات الدينية التى وصفناها سابقًا يمكن فقط أن تشد الاهتمام وتضمن إلتزام أقلية صغيرة بها ، أما ديانة الأغلبية فهى تقوم على إيمان بالقضاء والقدر الذى يمكن تلطيفه بالثقة فى فاعلية السحر فكانوا يستخدمون التنبؤات وقراءة الطالع والرجم بالغيب والسحرة لقراءة المستقبل ، وكانت الأحجية السحرية

والتعاويذ ، والصلوات والأضاحى التكفيرية تستخدم للتأثير فى القضاء والقدر ، ومثلما يمكن استعطاف الآلهة بالذبائح هكذا يمكن التأثير على الأفراد عن طريق اللعنات أو السحر العاطفى ، كانت الحكمة بالمعنى الشعبى، مرادفة للقدرة المفترضة على التنبؤ بالمستقبل والتأثير فيه.

وكما استحوذت فكرة منابع السلوك الإنسانى على المحدثين ، هكذا شجعت الوسوسة بهواجس المستقبل كل أنواع الدجل النفعى والشعوذة ، وأن المحتالين فى ذلك العصر ، شأنهم شأن المحتالين اليوم ، قد نجحوا فى خداع أنفسهم وخداع زبائنهم أيضاً.

لم يكن مجال الخرافات مقصوراً أبداً على الجهلاء وغير المتعلمين ، بل كان يلجأ إليه الكثيرون ، فقادة الجيوش كانوا قبل أن يدخلوا معركة يذهبون إلى العرافين ويستشيرونهم بنفس الجدية التى يتصرف بها قادة اليوم حين يطلبون من هيئة الأركان دراسة الموقف وإعداد التقديرات ، وكان يقوم بقراءة الطالع رجال أعمال يتصرفون بنفس الجدية التى يتصرف بها أحد الموظفين عند تزويده الكمبيوتر بالمعلومات ، كان المثقفون رجالاً ونساء يرتدون أحجية ويقدمون الآضاحى للتكفير عن ذنوبهم كما يفعل المحدثون عندما يشترون بوالص التأمين ،غير أن هذا كله كان نتيجة الإحساس بالتشاؤم أكثر من كونه ممارسة لحسن التدبير ، و بدافع الخوف أكثر من الرجاء وبالرغبة فى تحاشى سطوة الأقدار بدلاً من الإصرار على التحكم فيها.

إن جاذبية المسيحية الشعبية و فيما بعد ،المسيحية الأرثوذكسية ، فى داخل هذا العالم المظلم الذى يسوده التوجس والخوف من المجهول وسرعة التصديق بلا حدود ، تكمن فى قدرتها على تقديم منهج سحرى مشترك قريب المنال عموماً ومفهوم ، لقد وضعت أمور الحياة الدنيا المخيفة فى مرتبة أدنى من الأهمية عن طريق تأكيد قوى بحياة أخرى سعيدة تزيغ الأبصار ، يمكن لأى إنسان الوصول إليها إذا دخل فى شركة الأسرار المقدسة وقبل الإيمان والطاعة ، هذه الحياة السعيدة صارت مضمونة عن طريق تجسد المسيح وقيامته ، واتضحت صورتها بتأكيد اللعنة على كل شخص غير مؤمن ، فى عصر انتشرت فيه الخرافات كانت المغالاة فى دعاوى المسيحية شىء له جاذبية خاصة دون أن يضعف من مصداقيتها ، ومن خلال تصوير عجائب

المسيحية الأرثوذكسية بقوة وتناول أفكارها بأسلوب بارع من جانب مؤسسة زمنية متفانية فى الخدمة ، استطاعت هذه التعاليم أن تطبع صورة حية وقريبة للحياة الأخرى فى أذهان الناس بحيث تطمس الواقع السيء للحياة على الأرض ، وعن طريق الإحساس بالمشاركة الاجتماعية المغروسة فى نفوس المؤمنين ، فإن توقع اللعنة للآخرين كان لــــه جاذبية مماثلة لتوقع النعمة الأبدية للمؤمنين أنفسهم ،إن إعلان المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية اعتبره المسيحيون تأكيدا لحصانة عقيدتهم ، وليس مجرد دليل على صلاحيتها العملية كأداة فى إدارة شئون الحكم ، لكن كانت المسيحية فى ذلك الوقت تتعرض للمتاعب من داخلها وقد ألقت هذه المتاعب بظلال الشك على حصانة المسيحية الظاهرية وقللت من أهميتها كوسيلة سياسية ، هذه المشاكل كانت تستمد أصولها من واقع الحياة فى الإسكندرية.

Notes

(1) Matter. Ecole d. Alexandrie. Vol. I. p.261.

(2) Bentwich. Philo Judaeus of Alexandria.

(3) Goodenough. An Introduction to Philo Judaeus.

(4) ibid.

(5) ibid.

(6) Bigg. Christian Platonism of Alexandria. P. 18.

(7) W. R. Inge. Essay on Origen.

(8) Bigg. op.cit. p. 211.

١٣ - الصدام بين الكنيسة والدولة

من المعلوم تقليدياً أن المسيحية جاءت إلى الإسكندرية عن طريق القديس مرقس الإنجيلى حوالى عام ٤٠م ، وحسب هذا التقليد فإنه استشهد هناك فى حوالى عام ٦٢م وقد حظى موقع مقبرته المفترضة بالتكريم الصادق هناك على مدى قرون عديدة حتى قام بعض التجار من فينسيا بـ"خطف" رفاته ونقلها إلى البندقية وأصبح هذا القديس هو الراعى لتلك المدينة واهتموا بتخليد ذكراه ودفنوا رفاته فى الكاتدرائية الكبرى التى سميت باسمه .

نحن لا نعرف إلا القليل عن نمو الكنيسة المسيحية فى الإسكندرية حتى اعتلى كرسى البطريركية البابا ديمتريوس بصفته البطريرك الثانى عشر عام ١٨٩م، يقال إن القديس مرقس قد عين اثنى عشر شيخًا فى الإسكندرية انتخبوا واحداً منهم أسقفا ، وليس من المؤكد إن كان الأساقفة الذين يتم انتخابهم على هذا النحو يكرسون بواسطة الأساقفة الآخرين أم لا ، وبمرور الزمن ، ومع انتشار المسيحية فى ربوع مصر ، تم تقسيم القطر إلى أسقفيات **dioceses** وكان أسقف **Bishop** الإسكندرية يعرف باسم المطران **Metropolitan**، أو البطريرك **Patriarch** أى رئيس الكهنة لكل إقليم مصر وقورينا ، وعلى هذا ، فهو شخص عظيم الأهمية فى الكنيسة المسيحية التى كان لها منذ أقدم العصور روابط قوية مع مختلف المجتمعات المسيحية فى كل أنحاء البحر الأبيض المتوسط .

والراجح أن معظم الذين تحولوا إلى المسيحية فى سنواتها الأولى بالإسكندرية وغيرها من الأماكن كانوا من اليهود، وذلك بسبب الروابط التجارية والاجتماعية بين مختلف الطوائف اليهودية ، وهذا الأمر قد ساعد الكنيسة المنظمة على المستوى الدولى ، وكان من مساوئ هذا الأمر أن المسيحيين تعرضوا للبلبلة والمعاناة مع اليهود فى أزمنة الاضطهاد التى كانت تحدث فى أنحاء مختلفة من الإمبراطورية الرومانية فى القرنين

الأولين للمسيحية ، فالمسيحيون شأنهم شأن اليهود كان ينظر إليهم نظرة شك باعتبارهم دولة داخل دولة ، وإذا استخدمنا مصطلحاً (مفارقا زمنياً) **anachronistic** نقول إنهم يشكلون مؤامرة عالمية وقد قام تنظيم الكنيسة بطريقة شبه سرية، إلى حد ما اضطراراً فى ظل هذا الشك الذى كان يزيد الأمر سوءاً ، فلا يعرف الناس قوتها الحقيقية ، ويتم تضخيم نشاطاتها ، ونشر الشائعات الخيالية حولها ، وقد شجع على رواج هذه الشائعات جو الغرابة والسرية **esotericism** السائد فصار شكلاً عادياً لمؤسسة ترمى إلى أن يكون لها نظاماً " خارجياً " عاماً من العقائد والطقوس ويتربص خلفها نظام داخلى سرى مختلف تماماً تجرى ممارسته فى نطاق دائرة ضيقة شديدة الترابط من العارفين ، ونتيجة لكل ذلك ، وبصرف النظر عن الشائعات البذيئة حول الذبائح البشرية وحفلات المجون **Sexual orgies** فقد سرت هناك همسات تشير الى وجود نفوذ مسيحى خبيث فى مواقع السلطة العليا .

والواقع ، أن الكنيسة المسيحية فى الإسكندرية وفى الأماكن الأخرى ، حين تطورها فى القرون الثلاثة الأولى للمسيحية ، كانت تتكون من هيئة صغيرة نسبياً من المؤمنين منظمة على أعلى مستوى من التنظيم يرافقها هيئة غير متجانسة من "الأخوة السياح " **travellers Fellow** تتزايد باستمرار ، شأن الحزب الشيوعى فى غرب أوربا اليوم ، وبنفس طريقة الحزب الشيوعى فإن اتجاهات التكاثر عن طريق الانغلاق حول العقيدة – وهى تعكس فروقاً فكرية أصيلة أحياناً ، وأحياناً تعكس أعراضاً لصراعات داخلية حول السلطة والمناصب وقد أصبح هذا واضحاً ، وهو ما أدى إلى إصرار متزايد على النظام ، وبعملية طبيعية إلى عدد متزايد من المنازعات .

وفى منتصف القرن الثانى نجحت كنيسة الإسكندرية فى تجاوز أصولها اليهودية زمنياً وجذبت إلى أحضانها قطاعاً عرضياً كبيراً من خليط من اليونانيين والمصريين واليهود المكون لسكان المدينة ، وقد سبقت الإشارة إلى الديداسكاليون **Didascaleon**، وهى المدرسة المسيحية التى أقيمت فى الإسكندرية لتحويل الوثنيين للمسيحية و لتعليم مبادىء الإيمان المسيحى ، ربما تكون قد بدأت مبكراً فى القرن الأول الميلادى ، ولكنها حققت شهرتها فى القرن الثانى والنصف الأول من القرن الثالث ، عندما كان كليمندس وأوريجينوس يتوليان بالتتابع رئاسة هذه المدرسة ، كانت تعاليمها تنتشر بعمق

الفلسفة الأفلاطونية التى كانت موضة حديثة فى دوائر المثقفين بالإسكندرية ، فى فترة قبل أن تفرض ضرورات النظام التحجر والجمود الأرثوذكسى وقبل أن تفرض ضرورات السلطة التطابق فى المواقف والأفكار ، وقبل أن يفرض الصراع على السيادة ضرورة الحصول على تأييد شعبى منظم ، فإن تعاليم الديداسكاليون ، رغم إصابتها بعدوى الخرافات السائدة ، ورغم تأثرها بالمعتقدات الفكرية للعصر ، كانت تعكس معنى التسامح والحماس الشديد لمعرفة الحقيقة التى غابت بدرجة ملحوظة من المسيحية السكندرية فيما بعد .

لم تكن العلاقات بين الديداسكاليون ورئاسة الكنيسة المسيحية تسير سيراً هينا إنها نفس حكاية التوتر بين هيئة من أصحاب الفكر الحر مثل كليمندس الذين يرون أن البحث عن الحقيقة أهم من أى شىء آخر ، وبين" رجال المنظمة " المهتمين بـ "الخط السياسى للحزب "كان أور يجينوس فى حالة اضطراب دائم مع البطريرك ديمتريوس ، وفى أوقات مختلفة ، عانى قسوة النفى والحرمان الكنسى **excommunication** ولكن نظراً لنجاحه الفكرى فى مكافحة الوثنية ، وتنصير الوثنيين ، وبسبب شهرته المتزايدة وطهارة حياته ، فإن الكنيسة لم تستطع الاستغناء عنه .

كانت كنيسة الإسكندرية فى ذلك الوقت تمثل حركة يقودها أقلية تتعرض بين وقت وآخر للاضطهاد وهى تكافح من أجل البقاء ، كانت هذه الكنيسة تهتم أساسًا بمواجهة المعارضة الفكرية المتمثلة فى حركة إحياء الوثنية الأفلاطونية من ناحية ومن ناحية أخرى فى بدع الهرطقة الغريبة التى تنشرها طوائف الغنوصية والتى ارتبطت بها المسيحية على المستوى الشعبى وكان عليها لكى تخوض هذه المعارك بنجاح أن تتسلح بأسلحة الفكر ، لتحصين المؤمنين ، وارباك الهراطقة ، وإبطال حجة المتشككين ، وتحويلهم إلى المسيحية إن أمكن ، وقد قامت الديداسكاليون بتقديم هذه الأسلحة الفكرية ، فالمنازعات الأخيرة حول العلاقة بين أقانيم الثالوث المقدس ، رغم أنها كامنة وملازمة بوجه خاص لكنيسة الإسكندرية نتيجة لتيارات الفكر العقلانى اليونانى ، والتصوف المصرى والوحدانية اليهودية التى تدخل فى تكوينها ، فإنها قد أصبحت على قدر كبير من الأهمية بعد أن تأسست الهوية المسيحية بصفة مؤكدة .

بعـد تولى ديونيـزيوس منصب البطريرك ٢٤٧ م ، وكـان رئيسًـا لمدرسـة الديداسكاليـون فى السـابق ، يبدو أن المدرسـة قد فـقـدت مـعظم نفـوذها ، لم يعد للغنوصيين أهمية ، فقد أسست الكنيسة ، كيانها وحققت هويتها وركزت على الجوانب التنظيمية بدرجة أكبر من اهتمامها بالبحث عن الحقيقة .

فى ذلك الوقت كانت الكنيسة المسيحية قد أصبحت أداة قوية للتأثير فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، وبسبب طبيعتها كتنظيم شبه سرى ، فإن عدد الذين تعمدوا من المسيحيين كان يقدر عن طريق التخمين ، وكان هناك اعتقاد بوجـود عـدد كبير من المسيحيين ومن المتعاطفين مع المسيحية بين فرق الجيش الرومانى .

كانت هناك جمـاعـات مـسـيـحـيـة فى كل مـدينة وفى كل قـرية تقـريبًـا من قـرى الإمبراطورية ، وكان هناك أسقفية **Bishopric** فى كل مدينة كبيرة ، وكـان الأساقفة الأربع – فى روما ، والإسكندرية ، وأنطاكية ، وقرطاجة – يتمتعـون بسلطة رسمية على الباقين ، مثل الدعوة إلى المجالس وتسـوية الخـلافات ، وتقرير مسائل العقيدة – أو التنازع حولها ، وإصدار قرارات الحرمـان بالنسبة للهراطقـة والتشاور فيما بينهم من أجل مصلحة الكنيسة ، إن اضطهاد دقلديانوس وهو أخطرموجات الاضطهاد وأول سيـاسة عـامـة طبقت ضد المسيـحيين فى كل أنحاء الإمـبـراطورية كـخطة إمبرياليـة مقصودة انما يدل على الأهمية التى اكتسبتها المسيحية فى ذلك الوقت .

كـان هـذا الاضـطهـاد جزءًا من مـحـاولة دقلديانـوس لاسـتـعـادة الاحـتـرام للدولة وإعادة تأهيل السلطة الإمبراطورية بعد عمليات الاغتصاب والاغتيالات والانقلابات العسكرية وأيضًا الهزائم العسكرية التى كانت السمة السائدة فى المائة سنة السابقة ، لكن المحـاولة فشلت وانتهت بقيـام سـت أباطـرة منافسـين له جـالاريوس **Galerius** – ومـاكسميـان **Maximian** – ، وليسـينيوس **Licinius** – ، وقسطنطين **Constantine** – ومـاكسـينتـيـوس **Maxentius** – يتـقـاتلون بعـضـهـم مـع بعض من أجل الوصـول إلى السلطة العليا .

فى عـام ٣١٣ وبعـد فـتـرة من الاضطرابات ظـهر قـسطنطين كإمـبـراطور للغـرب وليسـينيوس كإمبـراطور للشرق ، وفـى ٣١٢ حـين كـان قسطنطين مـشتبكًا فـى قـتـال

ماكسينتيوس **Maxemtius**، آخر المنافسين له فى الغرب ، أعلن قسطنطين قبوله للإيمان المسيحى ، وبعد أن نجح قسطنطين فى هزيمة ماكسينتيوس ونجح ليسينيوس فى هزيمة خصمه ماكسمين **Maximin**، اقتسم الاثنان الإمبراطورية إلى شرق و إلى غرب فيما بينهما ، وبصدور مرسوم ميلانو (٣١٣) انتهت الاضطهادات ضد المسيحيين فى كل أنحاء الإمبراطورية ، وبعد عشر سنوات أخرى ، أى فى عام ٣٢٣ انتصر قسطنطين وهزم ليسينيوس فى معركة ادريانوبل **Adrianople** وأصبح سيدا لا ينازع لإمبراطورية غير مقسمة.بعد انتصاره كان عمله الأول تقريبًا هو تأسيس عاصمة جديدة على مضيق البسفور سماها القسطنطينية ، وهنا أنشأ قصره الإمبراطورى .

نتيجة لانتصارات قسطنطين ، لم تتخلص المسيحية من الاضطهادات فقط بل صارت هى الديانة الرسمية للإمبراطورية ، لا شك فى أن تحول قسطنطين للمسيحية كان حسب خطة سياسية لتحقيق أهدافه أولاً ، ليحصل على تأييد المسيحيين فى صراعه ضد منافسيه ، وثانيًا لاستخدام المسيحية ، التى كانت أكبر وأهم مؤسسة متحدة فى الإمبراطورية ، كوسيلة لمارسة سلطته فى كل مناطق نفوذه غير المستقرة .

كانت وحدة المسيحية الظاهرة أكبر من حقيقتها ، فلم تكد تتحرر من ضغوط الاضطهاد ، وبمجرد أن تمكن قادتها من التفرغ للتفكير والتأمل فى أمور السلطة ، حتى انفجرت الخلافات الكامنة ، وتفاقمت خطورتها بسبب المنافسات الشخصية ، والإقليمية والعرقية ، وكادت أن تمزقها إربًا ، وفى هذه العملية ، انجرف عالم البحر المتوسط كله فى المجادلات وفى حمامات الدم .

ظاهريًا كانت هرطقة أريوس **Arian heresy** والمنازعات السياسية والدينية التى نتجت عنها ، تتعلق بالأراء المختلفة حول الأقنومين الأولين للثالوث الأرثوذكسى ، لقد طرحت هذه الأسئلة من قبل فى كتابات الأباء وفى المجامع وفى أصول يهودية ويونانية وشرقية ومن تقاليد الكنسية ، طبقًا لوجهة النظر اليونانية ، فإن المسيح كان يأحد المعانى انبثاقًا من الله ، ولكنه أدنى من الله بمعنى أنه مخلوق من الله وأن الله كان موجوداً منذ البدء قبل أن يوجد المسيح ، طبقًا لرأى اليهودية ، فإنه يوجد إله واحد فقط كائن له تنسب صفة الإله الرئيسى ، ولذلك فإن المسيح إما كائن بشرى ، أو إله ،

أما وجهة النظر الشرقية فترى أن الله هو روح خالص وأن المسيح هو أحد الجوانب الروحية لله وليس شخصًا منفصلاً عنه ، وجهة النظر الشرقية المتفقة مع وجهة النظر اليهودية سبق التعبير عنها ، فى مناسبة جميلة inter alia بمناسبة بدعة Sabel lian heresy سابيلا التى ظهرت فى مصر فى منتصف القرن الثالث ، وقد أدينت بعض كتابات اوريجينوس من وجهة النظر اليونانية وعندما أخذ يعلمها بولس الساموسطراتى Paul of Samostrata ، فإنه ادين بواسطة المجلس الذى عقد فى أنطاكية ٢٦٤ .

الصعوبة التى واجهت الأرثوذكسية حينذاك ، وأدت فيما بعد إلى صياغة محاولة تحقق الإقناع بوحدانية الوحى المسيحى على أنه ظهور الله ظهوراً مباشراً للإنسان ، كما تحقق الإقناع بمغزى التجسد وحقيقته باعتباره تأكيد على أن الله صار إنسانا ، فقد مالت وجهة النظر اليونانية إلى التقريب بين المسيحية والوثنية ، فى حين أنكرت اليهودية الشرقية حقيقة التجسد، لأن فكرة أن المسيح هو فى ذات الوقت إله وإنسان – إله كامل وإنسان كامل – يكاد يستحيل التعبير عنها بلغة معقولة أو شرحها بمنطق العقل فى أى مجادلة فكرية ، إنها حقيقة شعرية يصعب إثباتها أو شرحها ، لكن يمكن أن نعيشها كتجربة ونقبلها كإيمان ، وكان على الأرثوذكسية أن تفرض بقوة المبدأ ، عقيدة – يستحيل شرحها أو الدفاع عنها فى ضوء العقل أو التقاليد الدينية ، ولم يكن من الصعب إثبات أن الحقيقة المسيحية تتطلب أن تكون كذلك والصعوبة هى إيضاح كيف يمكن ذلك ، من الناحية اللاهوتية ، كان الأريوسين هم الذين أخذوا عن التراث اليونانى ما كانت تعتبره الأرثوذكسية هرطقة عقلية ، وهم الذين لا يشعرون شعوراً غريزيًا بهذه الحقيقة ، وليسوا مستعدين لقبولها كإيمان ، وهو افتراض لا يمكن شرحه أو الدفاع عنه .

ورغم أن ذلك الجدال سار فى نطاق المصطلحات اللاهوتية ورغم أنه كان يدور فى الحقيقة والظاهر حول المسائل اللاهوتية ، إلا أنه كانت هناك عوامل أخرى ساعدت على إثارة الصراع ، فليس من قبيل الصدفة أن تظهر هذه العوامل فى وقت اعتناق المسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية ، وليس صدفة أيضًا أن يتطور هذا الجدال فى وقت متزامن مع المنافسة بين الشرق والغرب – بين الإغريق والرومان –

والتى تولدت نتيجة لنقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية أو روما الجديدة على مضيق البسفور ، وليس صدفة أن يثور هذا الجدال ويتزامن مع غضب المطارنة الكبار والتنافس بين المدن الأربع الكبرى روما والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية ، فى الوقت الذى تراجعت فيه مكانة روما إلى مستوى مدينة إقليمية ، وفى وقت اشتدت فيه غيرة الإسكندرية وأنطاكية من تزايد وأهمية نفوذ العاصمة الجديدة . لم يكن مجرد صدفة أيضاً أن يثور ذلك الجدال مع يقظة الآمال لدى اليونانيين بالإسكندرية الذين اعتبروا أن تغيير العاصمة يؤدى إلى هيمنة الطابع الهللينستى على الإمبراطورية وسوف يكون بمثابة إرهاص بتجديد التأييد الإمبراطورى لأسلوب الحياة اليونانى المعارض لأسلوب الحياة المصرية ، ففى هذه المدينة وفى جميع الأماكن الأخرى حول حوض البحر المتوسط ، رفعت أعلام تحمل شعارات دينية وتحتها اشتد الصراع من أجل السلطة فى أكبر مدن الإمبراطورية المنتصرة حديثاً – بين اليونانيين ، والرومان ، والسوريين ، والمصريين ، بين القسطنطينية ، وروما ، وأنطاكية ، والإسكندرية ، بين الأساقفة الأرسطيين Erastian bishops الذين كانت أعينهم مصوبة على مقاعد السلطة الزمنية وبين الأساقفة الثيوقراطيين الذين يرمون إلى الاستقلال عن السلطة الزمنية .

لقد ابتدأ كل شىء هادئاً فى الإسكندرية ، ففى ٣١٣ صدر مرسوم ميلانو ، ومات البطريرك أخيل Achillas، وكان المرشحان لشغل كرسى البطريرك الشاغر اثنان من الشيوخ هما الإسكندر وأريوس ، وتم انتخاب الإسكندر وتكريسه بطريركاً ، وبعد ست سنوات ، أى فى عام ٣١٩ ، قام آريوس المهزوم فى مجرى اتهامه للبطريرك الإسكندر بالسابيلية Sabellianism بطرح الفكرة التى عرفت فيما بعد ببدعة آريوس ، خلال تلك العبارات التى اقتبسها سقراط فى تاريخه الكنسى Ecclesiastical History:

" إذا كان الأب ولد الإبن ، فإن المولود له أصل فى الوجود ، ولأن الإبن ليس له هذا ، فهو مخلوق من لا شىء " هذه الكلمات نطقها شيخ طيب السيرة ، محترم خلال عظة ألقاها فى كنيسة صغيرة فى بوكلى Baucalis على شاطىء البحر، بميناء الإسكندرية ، فأحدثت ضجة قلبت العالم رأساً على عقب .

في البداية لم يحدث أكثر من هذا ، واستمر آريوس في شرح عقيدته وظهر أن عدداً من شيوخ الإسكندرية وشمامستها يتفقون معه ، وإن كان من غير المؤكد إذا كان اتفاقهم معه حدث لأسباب لاهوتية ، أو لأسباب داخلية خاصة بسياسة الكنيسة ، وبدا الأمر كله "كمشكلة محلية صغيرة " - كنوع من تحدى سلطة ومنصب البطريرك وفي النهاية بعد أن حاول عبثًا أن يدعو آريوس للطاعة ، دعا لعقد مجمع **Synod** من كهنة الإسكندرية وأسقفية مريوط المجاورة للإسكندرية واصدروا قراراً بحرمان آريوس **excommunicated** الذى احتفظ رغم هذا بتأييد بعض زملائه .

عندئذ شن آريوس حملة لتأييد اقتراحه ، نجحت في غضون ست سنوات في "إصابة الكنيسة كلها بالتشنج من بريطانيا حتى الهند واضطرت الإمبراطور للتدخل من أجل إعادة الهدوء والسلام [(١)] في البداية ، حصر آريوس دعايته في الإسكندرية مما دفع البطريرك اسكندر إلى عقد مجمع من أساقفة الأقاليم ، الذين التقوا في الإسكندرية واصدروا تحريماً لآريوس واتباعه **anathematised**، حينئذ غادر آريوس مصر ، إما مرغمًا لأنه مطرود أو طواعية لكي يتمكن من الدعاية لعقيدته ، وفي خارج مصر ، وجد أريوس راعيًا له هو يوسابيوس أسقف نيقوديمية ، وهو أسقف كان له نفوذ عند ليسينيوس أولاً ثم عند قسطنطين ، أعقب ذلك حرب عنيفة من الكلمات اشترك فيها جميع أساقفة الشرق تقريبًا ووجد موقف آريوس تأييداً من معظم الأساقفة الذين كانوا يشعرون بالغيرة تجاه ما تتمتع به بطريركية الإسكندرية من تفوق وسيادة غير رسمية على أسقفيات الشرق .

وانتهز يوسابيوس الماكر الفرصة لكي يتودد إلى قسطنطين عشية إعلان انتصاره النهائي على ليسينيوس ، ولأنه كان يعرف أن قسطنطين يريد أن يجعل من المسيحية مبدأ توحيد لكل شعوب الإمبراطورية ، فقام بدوره كوسيط ، وحاول أن يعيد السلام بين اسكندر وبين آريوس دون جدوى .

بعد انتصار قسطنطين على ليسينيوس ، وبعد أن نجح يوسابيوس في أن يجعل نفسه مستشاراً كنسيًا للإمبراطور الأوحد ، أرسل قسطنطين خطاباً بإيحاء من يوسابيوس ، إلى كل من اسكندر وآريوس داعيًا إياهم لتسوية ما بينهما من خلافات يرى الإمبراطور أنها خلافات لا أهمية لها ولكنها تهدد بتقسيم العالم المسيحى كله ، إن هذا

الخطاب الذى أرسله قسطنطين وتعددت حوله الآراء فى ذلك الوقت كما تتعدد حوله الآراء الآن بحيث يعتبره البعض مثلاً للإدراك السمح والبعض الآخر يعتبره برهانًا على الجهل المطلق ، هذا الخطاب جدير بأن نقتبس بعض فقراته هنا حيث يقول :

" لم يكن من الحكمة أو حسن الإدراك إثارة هذا السؤال أو الإجابة عليه إذا طرح ، لأن المطالبة ببحث هذه الأمور لا يستند إلى قانون ، وإنما المجادلات الاعتراضية التى طرحته تنتج عن سوء استغلال وقت الفراغ ، فما أقل القادرين على تفسير مضمون أمور بهذا الحجم وبهذا العمق تفسيراً مقنعًا أو فهم مضمونها بدقة ، ومن ثم فقد أصبح من المناسب لنا أن نكبح جماح الثرثرة الكلامية فى مثل هذه الأمور حتى لا يؤدى عجزنا الطبيعى عن شرح هذه الأمور المطروحة أو يؤدى الفهم المظلم للمستمعين إلى عجزهم عن التوصل إلى فهم واضح للأمور التى يجب عليهم أن يتعلموها ، فانتم لم تحددوا سببًا للخلاف يستند على أى قاعدة هامة من القانون ، ولم تقدموا أى بدعة جديدة فيما يتعلق بعبادة الله ، علاوة على ذلك ، فبينما تتشاجرون هكذا ضد بعضكم البعض حول أمور قليلة بل وعديمة الأهمية ، وبمثل هذه المشاعر الخبيثة على وجه الخصوص ، فإنه ليس من المناسب لكم أن تتهموا الكثيرين من شعب الله ، فانتم تعلمون أن الفلاسفة أنفسهم وهم متحالفون جميعًا ضمن طائفة واحدة ، فإنهم يختلفون بعضهم مع بعض حول أجزاء من نظرياتهم، ورغم أنهم قد يختلفون فى آرائهم حول أرقى فروع العلوم ، فإنهم مستعدين دائماً للإئتلاف لكى يصونوا كرامة هيئتهم ، والآن ، إذا كان هذا ما يجرى بينهم ، فما أعدل أن يكون هذا حالكم أنتم ، الذين دشنهم القانون كهنة لله ، أن تتفقوا بعضكم مع بعض فى هذه الوظيفة الدينية ، لأننا لا نريد جميعًا نفس الشيء من كل نواحيه ، وليس بيننا أحد يخلو من الاختلاف فى طبيعته أو فى حكمه ، لذلك فإنه يجب علينا فيما يتعلق بالعناية الإلهية ، أن يكون لنا إيمان واحد وعاطفة واحدة وعهد واحد للألوهية ، أما ما يخص هذه الأبحاث الدقيقة التى تدخلونها فيما بينكم فليكن ذلك فى رقة شديدة ، وحتى إذا لم تتفقوا على حكم واحد ، فمن الملائم لكم أن تحصروها فى تأملاتكم وتحفظوها داخل سراديب عقولكم سراً(٢) ، من أجل هذا ، عودوا إلى حالة الوئام " .

هذا التوبيخ لم يكن له تأثير على أى من الطرفين ومن أجل تسوية هذه المسألة التى كانت تثير الغضب فى جميع أنحاء الإمبراطورية الشرقية - آنذاك ،

دعا الإمبراطور قسطنطين ، فى صيف ٣٢٥ إلى عقد مجمع مسكونى للكنيسة بمدينة نيقية فى بيثينيا على الساحل الآسيوى لبحر مرمرة **Marmora**

كان هذا أول مجمع عام تعقده الكنيسة المسيحية ، وقد حضره الإمبراطور، إشارة إلى أنه حين جعل المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية ، فإنه وضع نفسه على رأس الكنيسة ، مـــع شيء من الاختــلاف ، إذ كانت الكنيسة لا تزال مستقلة ، فلا يستطيع الإمبراطور أن يفرض إرادته عليها ، إنه يستطيع فقط أن يسن قوانين لتنفيذ قراراتها ، وإذا لزم الأمر ، فإنه يفرض هذه القوانين ، بالنسبة للأساقفة المهتمين بالسلطة الزمنية ، كان لديهم دافع قوى للوحدة بأى ثمن ٠

حضر الاجتماع حوالى ٣٠٠ أسقفًا كانوا أساسًا من الأقاليم الشرقية وبرفقتهم عدد كبير من الشيوخ والشمامسة ، ولم يحضر الاجتماع سلفستر **Sylvester**، أسقف روما ، وأرسل اثنين من المندوبين ، وكان وفد مصر وقورينا واحدًا من أقوى الوفود ، كان يتكون من عشرين أسقفا يقودهم البطريرك اسكندر ، ويرافقه عدد ضخم من الشيوخ والشمامسة وكان بين الشمامسة شاب اسمه أثناسيوس ، كان سكرتيرًا للبطريرك اسكندر وموضع رعايته ، و القصة تروى لنا الأتى :

حدث قبل اعتلاء البطريرك اسكندر لكرسى البطريركية ببضعة بسنين ، أن كان جالسًا ذات يوم ينظر من شباك بيته فشاهد بعض الصبية يقلدون الطقوس المسيحية فى ألعابهم وفكر فى أن يوبخهـم لأنهـم يستخفون بهذه المقدسات ، فدعاهم إليه ، وأخذ يختبرهم ومعه بعض القسوس ، وكان مما أدهشه أن وجد بينهم صبيًا إسمه أثناسيوس كان يعمد زملائه من الصبيـة الذين لم يعمدوا بماء البحـر طبقًا للطرق الصحـيحـة لطقس العمـاد ، وتأثر اسكندر وزملاؤه بمـدى معـرفة الغلام وحماسه حتى أنهم رتبوا له برنامج تدريب لإعداده كاهنًا ، ومهما كانت حقيقة هذه الأسطورة ، فـإن أثناسـيوس ، الذى خلف البطريرك اسكندر ، صـار هو أكـبر أبطال المذهب الأرثوذكسى فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، كان أثناسيوس موضع ثقة البطريرك اسكندر ومعاونه الرئيسى فى وقت انعقاد مجمع نيقية **Nicaea**٠

تمت إجراءات الاجتماع باحترام نسبى ، أعاد أريوس عرض العقائد الذى يدعو إليها ، دون تقديم أى تراض أو حل وسط ، وأعلن أمام الجميع أن ابن الله كان مخلوقًا

من العدم ، وأنه قادر على القداسة وقادر على ارتكاب الإثم ، لكنه اختار بمحض إرادته الحرة طريق القداسة ، وأنه مخلوق من الله وأنه من عمل الآب ، لكن غالبية الأساقفة ، بما فيهم يوسابيوس كانوا يتطلعون إلى حل وسط يحفظ وحدة الكنيسة ، ووجدوا مبدأ الوحدة فى شعار " هومووُسيوس" **Homoosios** ومعناها واحد مع الآب فى الجوهر **Consubtantial**، وتمت صياغة قانون الإيمان على النحو الآتى :

" نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب ، نور من نور ، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق ، مساوى للآب فى الجوهر (واحد مع الآب فى الجوهر) " .

واقتنع جميع الأساقفة الحاضرون ماعدا اثنين ، الذين مع آريوس وصدر قرار بتجريمهم وحرمانهم ، أما يوسابيوس أسقف نيقوديمية الذى يرجح أنه المؤلف الرئيسى لوثيقة المصالحة ، حاول دون جدوى أن ينقذ آريوس من الحرمان الكنسى .

فى سنة ٣٢٥ انفض اجتماع المجمع الذى استمرت جلساته شهرين ، وحضر بعضها الإمبراطور شخصياً ، بعد اتخاذ قراراته التى كان أهمها إدانة آريوس وإقرار قانون الإيمان الذى سمى فيما بعد بمرسوم نيقية **Nicene creed**، على أن يتم تبليغه رسمياً لكل الابرشيات فى العالم المسيحى ، وذهب آريوس وبعض اتباعه إلى المنفى فى إلليريا **Illyria**.

وبدا أن السلام قد عاد ، وكان من الممكن أن يكون الأمر كذلك لو أن موضوع النزاع كان لاهوتياً فقط ، لكن النقاط الجوهرية فى الموضوع كانت سياسية وليست لاهوتية – وهى السيادة المستمرة التى تمتعت بها بطريركية الإسكندرية فى السابق بين كنائس الشرق ، والعلاقة بين البطريركية والسلطة الزمنية للدولة .

وبعد اجتماع نيقية بشهور قليلة ، توفى البطريرك اسكندر وخلفه أثناسيوس على كرسى البطريركية ، وكان البطريرك الجديد ، رجلاً قديراً ، وطموحاً يتمتع بالكياسة واللباقة ، وسرعان ما أوجد لنفسه أعداءً كثيرين فى مصر وفى جميع أنحاء الشرق ، وكان خصمه الرئيسى خارج مصر هو يوسابيوس أسقف نيقوديمية ، الذى عاد مرة أخرى ، بعد فترة من إهماله ، يتودد ويتزلف للإمبراطور بعبارته التى تقول إنه يريد أن يرى كنيسة متحدة تعمل فى توافق تام مع الدولة ، وبعد أن عقد العزم

على إضعاف دعاوى أثناسيوس ، الذى اعتبر ما أثاره آريوس من جدال تحدياً لسلطة بطريركية الإسكندرية ، أمر آريوس أن يوافق على مرسوم نيقية أولاً وأن يكتب إلى قسطنطين أن يأمر أثناسيوس باستقبال أريوس وإعادته إلى الكنيسة ، استدعى أريوس من منفاه إلى القسطنطينية ، واستقبله الإمبراطور بمشاعر العطف ، وأرسله إلى الإسكندرية مع رسالة خاصة تعبر عن إرادة الإمبراطور بعودته إلى الكنيسة ، لكن اثناثيوس رفض ، وهذا تحدى صريح ، فخاطبه الإمبراطور هكذا :

حيث أنك قد أبلغت بما أريد ، ووضعت العراقيل لتمنع كل أولئك الراغبين فى دخول الكنيسة ، فإذا بلغنى أنك حرمت أحداً من هؤلاء المطالبين من عودتهم للاتحاد مع الكنيسة ، وعرقلت دخولهم ، فإننى سوف أرسل واحداً من الناس الذين يخضعون لأمرى لكى يعزلوك من وظيفتك ويطردوك إلى المنفى ٠

حدث هذا سنة ٣٣٢ ، وهكذا انفتحت فى الإسكندرية ، قبل مضى عشرين عاماً على مرسوم ميلانو ، أول تلك المصادمات بين الكنيسة والدولة والتى صارت أحد ملامح تاريخ المسيحية ٠

حينئذ استدعى أثناسيوس ليمثل أمام مجمع الأساقفة فى مدينة صور Tyre لمواجهة التهم التى رفعها ضده مختلف القسوس بممارسة القمع فى إقليمه ورغم أن التهم كان ينقصها قدر كبير من الصحة فقد حكم المجمع بإدانته وأعلن عزله من البطريركية ، ومضى أثناسيوس من صور إلى القسطنطينية ليتظلم لدى الإمبراطور من القرارات التى صدرت ضده ، لكن بعد أن استمع قسطنطين إلى أحد أعضاء المجمع الذى استدعاه إلى القسطنطينية ، أيد الحكم وأرسل أثناسيوس إلى المنفى ٠

وحيث أنه لم يعد هناك بطريرك بالإسكندرية ، وحيث أن الرأى العام يقف باقتناع قوى إلى جانب أثناسيوس بدرجة تحول دون انتخاب أحد انتخاباً حراً ، فقد عقد العزم على دعوة آريوس ، الذى كان لا يزال بالإسكندرية ، إلى القسطنطينية ليسمح له رسمياً بالعودة إلى الكنيسة عن طريق البطريرك هناك ، وكان المحرك وراء هذه الخطة هو يوسابيوس أسقف نيقوديمية ، الذى ربما صمم على فرض آريوس بطريركًا على الإسكندرية ، وهكذا يتم إخضاع بطريركية الإسكندرية إلى مشيئة الإمبراطور ،

وكان الإسكندر بطريرك القسطنطينية من المشاركين ولكنه غير راغب فى هذا الآمر، وطبقًا لإحدى الروايات فإنه " ضعف إلى أقصى حد فودع كل المصادر والمراجع المنطقية ، وجعل الله ملجأه " وصلى قائلاً :

" إذا كان رأى آريوس صحيحًا ، فإنه هو (الإسكندر) يود ألا يحيا حتى يعاين اليوم الذى تجرى فيه مناقشتها ، وإذا كان هو نفسه متمسك بالإيمان الصحيح ، فإن آريوس كمؤلف لكل هـذه الشـرور سـوف ينال العقاب الواجب على كفره **impiety**" وقد أجيبت صلاة هـذا الأسقف البار ودعـاءه ، ففى عشية إعادته للدخـول رسميًا فى الكنيسة حدث لآريوس الآتى:

" عند خروجه من القصر الإمبراطورى فى صحبة جمهور من اتباع يوسابيوس لحراسته ، سار موكبه وهو يتفاخر فى وسط المدينة ، جاذبًا إليه أنظار الناس جميعًا وعند اقترابه من المكان الذى يسمى ساحة قسطنطين حيث أقيم عمود رخام فإنه أحس برعب عنيف يتملكه لشعوره بفعل الشر الذى ارتكبه ، واقترن ذلك باسترخاء عنيف للأحشاء " (٢) .

يمضى سقراط فى روايته ليزودنا بثروة ممتعة من التفاصيل ، لقد مات المنشق الهرطوقى فجأة نتيجة نزيف حاد ، "هكذا ليؤكد بصورة إعجازية حقيقية إيمان نيقية بشهادة الله نفسه " .

حـدث هذا فى سنة ٣٣٥ ، وبعـد عـام واحـد مـات قـسطنطين ، وقـسـمت الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، فأخذ قسطنطيوس **Constantius** الجزء الشرقى ، واقتسم كونستانس **Constans** وقسطنطـين الثانى الجـزء الغربى فيما بينهما ، وبعد عدة شهور قتل قسطنطين الثانى فى معركة ضد أخيه كونستانس ، الذى تولى إمبراطورية الغرب ضد أخيه قسطنطيوس فى الشرق .

وأثناء وجود أثناسيوس فى المنفى ، ذهب إلى تريف **Treves** حيث وضع نفسه بعد موت قسطنطين ، فى حماية ابن قسطنطين الثانى ، الذى عضده بخطاب منه ، فعاد إلى الإسكندرية ليستأنف إدارة بطريركيته ، التى عزل منها ، ووصلت أخبار هذا إلى يوسابيوس بطريرك نيقوديمية ، فتقدم فى الحال إلى الإمبراطور قسطنطيوس

وأوضح له أن أثناسيوس لا يمكن أن يعاد تنصيبه إلا بسلطة من مجلس مجمع الأساقفة ، فأمر الإمبراطور أثناسيوس أن يرسل ثانية إلى المنفى (٣٣٨) وقرر يوسابيوس حينئذ عقد اجتماع لمجمع الأساقفة فى أنطاكية بغرض تعيين بطريرك جديد للإسكندرية وقد واجهتهم بعض الصعوبات فى العثور على واحد يقبل هذا الشرف الحقيقى المحفوف بالمخاطر ، ولكن تم فى النهاية اختيار واحد اسمه جريجورى **Gregory** وذهب إلى الإسكندرية لتنصيبه فى صحبة حرس من القوات الإمبراطورية .

وكان إمبراطور الغرب يتلهف على الحد من قوة الإمبراطور الشرقى وقوة يوسابيوس وأساقفته الذين يؤيدونه فتعاطفوا مع قضية أثناسيوس بالإضافة إلى المنافسة الزمنية بين الأخوة الأباطرة ، فإن يوليوس **Julius** أسقف روما ابتدأ يؤكد أن السيادة على أساقفة العالم المسيحى أعلنت مؤخراً من كرسى روما ، وسعى لتبريرها بالنص الإنجيلى " ها أنت يا بطرس" **Tu es Petrus** مستشهداً بموقف اتهام المسيح للقديس بطرس ، وكان يوليوس قد أخذ يحاول استعادة مختلف الأساقفة الشرقيين إلى أسقفياتهم التى عزلوا عنها مثل أثناسيوس ، فجاءوا إلى روما لتقديم العون والمساندة ، ومن ثم اشتد التوتر بين الشرق والغرب وأصبح كل من كونستانس ويوليوس حليفين طبيعيين ضد الإمبراطور الشرقى وضد أساقفة الشرق .

استدعى يوليوس مجمعًا من الأساقفة فى روما ، لدراسة قضايا أثناسيوس واثنين آخرين من الأساقفة الشرقيين الذين عزلوا من كراسيهم بتهمة الهرطقة ، وتمت تبرئتهم جميعًا ، وكتب يوليوس خطاباً لأساقفة الشرق يأمرهم بإعادة تعينهم فى أماكنهم ، ولم يهتم أساقفة الشرق بهذا أبداً .

وبعد عقد مجلسين – أحدهما فى الشرق فى أنطاكية ، والثانى فى الغرب فى ميلانو – للنظر فى المسائل اللاهوتية المشتركة ظاهرياً ، اتفق الأباطرة الاثنان على عقد مجمع مسكونى فى سارديكا **Sardica** على الحدود بين الإمبراطوريتين ، فى محاولة لتسوية هذه المنازعات داخل الكنيسة ، لكن تفاقمت المنازعات إلى درجة دفعت كل من أساقفة الشرق وأساقفة الغرب إلى رفض عقد اجتماع مشترك ومكث أساقفة الغرب ، الذى وصل عددهم إلى نحو ١٧٠ أسقفًا فى سيرديكا وأصدروا قراراً بتبرئة أثناسيوس وأساقفة غيره آخرين كانوا قد عزلوا بواسطة أساقفة الشرق ثم أصدروا

بياناً بعزل الأساقفة الذين يتزعمون حزب يوسابيوس ، (كان يوسابيوس قد مات منذ وقت قريب) ، واجتمع أساقفة الشرق فى فيليبوبوليس Philippopolis وعزلوا أثناسيوس ، ويوليوس والأساقفة الشرقيين الآخرين الذين كانوا فى خلاف معهم ، فالهرطقة التى بدأها آريوس قد أحدثت شرخاً بين الشرق والغرب ، وأوصلت أثناسيوس إلى تحالف مع السلطة الزمنية والسلطة الروحية فى الغرب ضد إمبراطور وأساقفة الشرق ٠

كان الأباطرة الاثنان يميلان إلى تسوية هذه المنازعات سلمياً أكثر من الأساقفة ، لأن هذا الأمر الذى ابتدأ لاهوتياً أخذ يثير الاضطرابات فى أنحاء الإمبراطوريتين ، فقد أدى نفى أثناسيوس إلى اضطرابات أهلية مستمرة فى الإسكندرية ، واضطر خليفته جريجورى أن يبقى فى حماية القوات العسكرية وتم اغتياله مؤخراً ، وأصبح هناك شيء أشبه بالحرب الأهلية فى المدينة الثانية للإمبراطورية الشرقية ، هكذا وافق قسطنطيوس بناء على الطلب الإمبراطورى من أخيه بوجوب إعادة أثناسيوس إلى كرسيه ، مهما قال أساقفة الشرق ، وهكذا عاد أثناسيوس سنة ٣٤٩ إلى الإسكندرية منتصراً ، وأثناء سفره بطريق أنطاكية البرى التقى بالإمبراطور قسطنطيوس ، الذى أقام فى بلاطه هناك ، طلب قسطنطيوس من البطريرك الذى أعيد تنصيبه أن يتصرف مع خصومه فى الإسكندرية بروح التسامح ووافق أثناسيوس على هذا ، واستقبل أثناسيوس عند عودته بحماس كبير فى الإسكندرية ، واستمر الهدوء لبضعة سنين ٠

فى سنة ٣٣٢ قتل كونستانس إمبراطور الغرب ، وأعقب ذلك فترة من الاضطرابات ، وفى نهايتها سمى قسطنطيوس أغسطس وهى المرة الثانية يطلق فيها هذا اللقب على امبراطور لإمبراطورية موحدة . وقد ودعى جالوس قيصر فى الغرب ، وأخذت سلطة أساقفة يوسابيوس الذين ارتبطوا ببلاطه برباط وثيق ، تسود فى الغرب ضد السيادة السابقة لأسقف روما ، وواصلوا العداوة ضد أثناسيوس بحماس مشتعل وفى سنة ٣٥٢ ، تمت إدانته بواسطة أساقفة الغرب فى اجتماعات عقدت أولاً فى آرلز Arles ثم فى ميلانو ، وتم نفى ليبريوس Librius أسقف روما وعين فى مكانه أسقف رشحه حزب يوسابيوس ، وبدا أن انتصار أساقفة الشرق قد اكتمل ٠

واستمر ذلك بصورة واقعية من أجل إزاحة أثناسيوس عن كرسيه كبطريرك للإسكندرية، وعندما جرد بطريرك مصر من حقوقه القانونية بواسطة الكنيسة اللاتينية، وترك مهجوراً ومحروماً من أى تأييد خارجي ، أرسل قسطنطيوس اثنين من موظفيه بتكليف لفظى لإعلان وتنفيذ أمر النفى فإن الدافع الوحيد الذى منع قسطنطيوس من إرسال قرار بتفويض مكتوب إنما يرجع إلى شكوكه من هذه الحادثة ، واحساس بالخطر الذى يمكن أن تتعرض له ثانى المدن وأخصب أقاليم الإمبراطورية إذا استمر الناس على قرارهم بالدفاع عن براءة أبيهم الروحى بالقوة المسلحة . هذا الحذر الشديد أمد أثناسيوس بحجة معقولة ظاهرياً ليناقش باحترام حقيقة أمر لا يتفق مع العدالة أو مع القرارات المعلنة فى السابق من قبل سيده العظيم ، ووجدت القوى المدنية فى مصر نفسها ليست بالكفاءة للقيام بإقناع أو إجبار الأسقف على التنازل عن عرش أسقفيته ، واضطروا إلى عقد معاهدة مع زعماء الشعب بالإسكندرية يتم بمقتضاها تأجيل كل الإجراءات والعداوات إلى أن تتأكد بوضوح رغبة الإمبراطور .

انخدع الأرثوذكس(*) بهذه الدرجة الواضحة من الاعتدال فانخرطوا فى نوع من الأمن الزائف والمدمر بينما قوات الصعيد وليبيا تتقدم بأوامر سرية وزحف سريع لمحاصرة أو مفاجأة عاصمة مسكونة بالفتنة ومشتعلة بالحماس الدينى ، وساعد موقع الإسكندرية بين البحر وبحيرة مريوط عملية دخول القوات ورسوها بل ووصولها إلى قلب المدينة قبل اتخاذ أى إجراءات فعالة لإغلاق البوابات أو لاحتلال المواقع الهامة والدفاع عنها ، ففى منتصف الليل تقدم سيريانوس **Syrianus** دوق مصر ، على رأس قوة مسلحة من ٥٠٠٠ جندى ومستعدة للهجوم ، وفجأة حاصر كنيسة القديس ثيوناس **Theonas**، حيث كان البطريرك وبعض الكهنة والشعب يؤدون صلاتهم الليلية ، واستسلمت أبواب المبنى المقدس بسبب عنف الهجوم ، كان البطريرك جالساً على كرسيه وانتظر فى هدوء ووقار وقلب ثابت اقتراب الموت ، وجرت مقاطعة القداس بصيحات الغضب وصرخات الفزع فشجع أعضاء الاجتماع المرتعدين ليعبروا عن ثقتهم الدينية بترتيل أحد مزامير داود الذى يحتفل بانتصار إله إسرائيل على استعلاء المصريين وطغيانهم الخالى من التقوى ، وانفتحت الأبواب أخيراً ، وانطلقت عاصفة من السهام بين الشعب واندفع الجنود بسيوفهم المشرعة نحو الهيكل وانعكس بريق دروعهم المخيفة بقوة الأضواء المقدسة التى كانت مشتعلة حول المذبح .

* يذكر الكاتب هنا "الكاثوليك" **Catholics** والمقصود طبعاً هم الأرثوذكس . (المترجم)

ظل أثناسيوس رافضًا لإلحاح الرهبان والأساقفة الذين كانوا مرتبطين بشخصه ، ورفض فى نبل أن يترك مكانه حتى يخرج فى أمان أخر أفراد محفله ، وساعد ظلام الليل والاضطراب على انسحاب البطريرك رغم تعرضه للضغط من أمواج الحشود الثائرة ، ورغم أنه سقط على الأرض فاقد الإحساس لا يقوى على الحركة ، فإنه استعاد شجاعته الباسلة وخدع الجنود الباحثين عنه ، الذين أخذوا التعليمات من قادتهم الآريوسيين بأن أعظم هدية يقبلها الإمبراطور هى رأس أثناسيوس - منذ هذه اللحظة اختفى بطريرك مصر عن أعين أعدائه وظل أكثر من ست سنوات مختفيًا فى غموض مطبق لا ينفذ إليه أحد(٤) .

انسحب أثناسيوس إلى صحارى مصر ، وعاش الست سنوات التالية بين المجتمعات الرهبانية التى ظهرت هناك والتى أصبح أعضاؤها من بين أتباعه المخلصين جدًا ، وظل طيلة هذا الوقت على اتصال دائم بما يجرى من أحداث فى الإسكندرية وفى العالم الخارجى عمومًا ، وقيل إنه قام بزيارات سرية عديدة للإسكندرية ، ويخبرنا جيبون أنه فى إحدى هذه الزيارات فى زمن حكم بلاديوس Palladius اختفى أثناسيوس فى منزل عذراء فى الثانية والعشرين من عمرها وكانت مشهورة فى كل أنحاء المدينة بجمالها المتألق ، فقد فوجئت فى منتصف الليل بظهور البطريرك فى زى عادى فضفاض ، يتقدم بخطوات سريعة ، ويتوسل إليها أن تجد له المكان الذى أرشده إليه صوت سماوى ليحتمى به تحت سقف بيتها المضياف ، ودون أن تفشى هذا السر لأحد أرشدت أثناسيوس إلى حجرتها فى رقة صديق وفى دأب ومثابرة خادم أمين وظلت طيلة أيام الخطر ، تمده بالكتب والمواد الغذائية وتغسل قدميه وتدير أمر سلامته ، وتخفيه ببراعة عن أعين الشك الذى تثيره هذه العلاقة المنعزلة بين قديس تحتاج شخصيته إلى طهارة كاملة وأنثى تثير مفاتنها أخطر العواطف (٥) .

فى نفس الوقت ، فإن جورج الكبادوكى ، الذى عرفه بعضنا لأسباب عدة باسم القديس جورج وهو القديس الشفيع لإنجلترا ، عين بطريركًا للإسكندرية أمام معارضة عنيفة من أهلها واحتفظ بوظيفته بتأييد القوات الإمبراطورية .

إنه نزاع لاهوتى عويص انتقل للناس وتحول إلى حركة شعبية عظيمة ، وقف فيها أثناسيوس على رأس شعب الإسكندرية ضد سلطة البلاط الإمبراطورى وادعاءات المدن المنافسة مثل القسطنطينية وأنطاكية .

وفى الخارج استمرت المعركة بين الشرق والغرب ، ففى سنة ٣٥٩ ، عقدت مجامع كنائس الشرق والغرب فى سلوقية و رينى على التوالى ، وأنتجت شروخًا جديدة وزادت الشوشرة والارتباك ، اختفى الاختلاف بين الأرثوذكس والآريوسين ولا يكاد يظهر للعيان ، وحل محله سلسلة من المشاحنات المعقدة حول الأسبقية ونظام البروتوكول ، ولكن فى قلب هذه المتاهة كلها هناك المدى الذى سوف تصل إليه الكنيسة فى خضوعها للدولة ، وفى هذا ، كان أثناسيوس يؤيد بصورة عامة ، لكنه أحيانا كان يتأرجح بتأثير أسقف روما وغالبية الأساقفة الغربيين ، فيتخذ موقفًا متماسكًا لا يقبل التنازلات ، ضد البلاط الإمبراطورى والأساقفة الشرقيين ، لقد أعلن حقه فى التدخل فى الأقاليم الأخرى ، لكن أثناسيوس أكد فى ثبات استقلال اسقفيته ، سواء جاء التهديد من جانب الأساقفة المنافسين أو من التاج الإمبراطورى ·

فى سنة ٣٦١ مات الإمبراطور قسطنطيوس ، وأعلن تنصيب جوليان ، ابن أخ قسطنطين الكبير ، والذى كان قيصراً لعدة سنوات من قبل ، إمبراطوراً ، وكان اعتلائه العرش نذير بالخطر الداهم الذى يهدد الكنيسة المسيحية ، لأن جوليان كان وثنيًا وعدواً صريحاً للإيمان المسيحى ·

وتشجع الوثنيون الذين كانوا لا يزالون كثرة فى الإسكندرية بأخبار اعتلاء جوليان للعرش ، وأغاظهم اضطهاد البطريرك جورج عندما كان تحت حماية البلاط المسيحى فثاروا ضده ، وامسكوا به فى الكنيسة ومزقوه إربا وأحرقوا بقاياه ، وقتلوا المسيحيين الذين لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، " البعض قتلوه بالسيوف ، والبعض الآخر بالعصى والحجارة ، وخنقوا البعض بالحبال ، وصلبوا آخرين ، عامدين إلى استعمال هذا النوع من الموت ازدراء لصليب المسيحيين (٦) " .

وبهذا العمل لم يميزوا تميزاً دقيقًا بين أتباع أثناسيوس وأتباع جورج ، لقد صار على عرش الإمبراطورية حاكم وثنى ، وتغير اتجاه الرياح ، وتغيرت معه عواطف العامة فى الإسكندرية ، فعندما سمع الإمبراطور الجديد بما حدث وجه توبيخًا شديداً لمواطنى الإسكندرية ، خفف من وقعه اعترافه بأن جورج استحق أن يلقى هذا المصير بسبب اضطهاده *للوثنيين* ، " *لأن جورج استحق بالعدل هذا العقاب*" ، ولأنه "كان يستحق المزيد من التعذيب الشديد ،" وبسبب عواطفه الأخوية نحو أهل الإسكندرية ، فإن الإمبراطور أعلن أنه لن يعاقبهم ، ولكنه يحصر نفسه فى حدود ، " أخف وألطف

دواء وهو التوبيخ والنصح ، وهى طريقة التعامل التى نقتنع بأنكم سوف تخضعون لها بقدر ما نفهم أنكم لستم يونانيون فقط بالنسب الأصلى بل لأنكم لازلتم تحفظون فى ذاكرتكم وشخصيتكم بقايا أمجاد أجدادكم (٧).

كان جوليان من عشاق الهللينستية وكان لديه النية لتشجيع استعادة الثقافة اليونانية والديانات الوثنية لبلاد اليونان القديمة ، ولكنه قتل فى معركة ضد الفرس خلال سنتين من توليه العرش وذهبت أحلامه أدراج الرياح ٠

وعند سماع نبأ موت جورج ، عاد أثناسيوس إلى الإسكندرية ولأن العرش الإمبراطورى لم يعد مهتمًا بقضية آريوس ، لم يجد صعوبة فى استئناف وظيفته كبطريرك ، لكن سرعان ما أسقطته السلطات المدنية الوثنية التى عينها جوليان ، وفى خلال عدة شهور وجد نفسه منفيًا مرة أخرى فى صعيد مصر ، وظل هناك حتى بلغته أخبار وفاة جوليان ، حينئذ عاد إلى الإسكندرية وظل هناك لا يعكر صفوه شىء حتى أدركته الوفاة بعد تسع سنوات فى عام ٣٧٢ ٠

كان أثناسيوس أول سلسلة طويلة من الأساقفة المسيحيين العظام الذين قاتلوا من أجل وجود كنيسة منظمة قوية ، مستقلة عن الدولة ، وكان كفاحه سياسيًا وليس لاهوتيًا ، واعتراضه على يوسابيوس لم يكن بسبب بدعتهم التى لا تكاد تظهر ، ولكن آرسطيتهم كانت بالنسبة لأثناسيوس هى أسوأ الهرطقات جميعًا ، لقد أسس استقلال الكنيسة فى بطريركيته بالإسكندرية بالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يؤسس بها وهى طبعاً موافقة الشعب ، لقد ربط نفسه والكنيسة بأمانى الشعب فى الإسكندرية ، وإلى حد ما فى مصر كلها ، بالدرجة التى جعلته البطل الشعبى الذى يقف فى وجه اضطهاد أى حكومة أجنبية ، لقد أورث هذا الارتباط لخلفائه ومعه بذور الصراع الملازم لظهور أى علامة من علامات التجديد للثقافة اليونانية فى الإسكندرية ، التى وجدت التشجيع بانتقال مركز الثقل فى الإمبراطورية إلى الشرق وفى الإحياء القصير المدى للوثنية الكلاسيكية فى عهد جوليان ٠

مات أثناسيوس بعد إعلان قسطنطين نفسه اعتناق المسيحية بستين عامًا ، ويرجع الفضل له أكثر من أى شخص آخر ، فى أن الكنيسة المسيحية لم تتحول إلى إدارة ملحقة بالدولة كما كان ينوى قسطنطين ، وقد نجد صعوبة فى التعرف على الكنيسة التى أنشأها ، وقد يظن البعض أن بعض الذين ورثوها لم يرتقوا كلية إلى مستوى ذوقه٠

Notes

(1) Neale. Patriarchate of Alexandria. Vol I. P. 120

(2) Socrates. Ecclesiastical History from 305 AD to 445 AD(tr.) Book chapter 7.

(3) Socrates. op. cit. Book I. Chapter 38.

(4) Gibbon. Decline and Fall of the Roman Empire. Chapter 21.

(5) ibid .

(6) Socrates . op. cit. Book III. Chapter 2.

(7) ibid. Book III. Chapter 4.

١٤ - كهنة صاخبون

كان أثناسيوس طوال مدة شغله لمنصب البطريرك قد نجح فى التصدى للإمبراطور الشرقى والمطارنة الشرقيين، وأنشأ حلفاً مع الإمبراطور الغربى ومع بابا روما ضد الإمبراطور الشرقى والمطارنة الشرقيين، وانتصر لعقيدة نيقية فى معظم أرجاء العالم المسيحى وحول الكنيسة المصرية إلى حركة شعبية قوية، وعلى مدى السنوات السبعين التى تلت وفاته، قام خلفاؤه فى بادىء الأمر بتعزيز وضعهم، ثم لم يلبثوا أن فقدوا هذا الوضع الذى أقاموه، أما الصراع على السلطة الذى استمر استمراراً يكاد يكون متواصلاً خلال هذه الفترة، فقد دار حول مسائل لاهوتية وإن تكن نقاط الخلاف انصبت أساساً على أمرين هما (١) : قضية السلطة العليا بين بطاركة القسطنطينية وبين الإسكندرية (٢) ، مدى ما تتمتع به بطريركية الإسكندرية من استقلال عن البلاط الملكى، فكان هذا فى نفس الوقت صراعا بين كنيسة الإسكندرية وبين الدولة البيزنطية . وبمجرد وفاة أثناسيوس، حاول الإمبراطور الشرقى فالنز Valens إقرار سلطانه على كنيسة الإسكندرية بأن فرض عليها بطريركاً اختاره بنفسه هو لوسيوس Lucius ليحل محل بطرس الذى كانت كنيسة الإسكندرية قد انتخبته خليفة لأثناسيوس، وسيق بطرس إلى المنفى، ولكن حدث فى عام ٣٧٩ أن قتل فالنز فى معركة مع البربر، فلاذ لوسيوس بالفرار وعاد بطرس إلى الإسكندرية مظفراً، وهو وضع تقبله ثيودوسيوس إمبراطور الشرق الجديد، وبادر بطرس بالإعلان عن اعتزامه المحافظة على أن تكون لبطريركية الإسكندرية سلطة عليا على بطريركية القسطنطينية، وحاول رسم مرشحه الخاص، وهو رجل لا قيمة له اسمه مكسيموس ليكون بطريركاً للقسطنطينية ضد المرشح الذى تحبذه كنيسة القسطنطينية وهو جريجورى النازيانزى، وهى محاولة لم ينجح بطرس فيها، ومات بعد بضعة أشهر من هذه الخيبة وخلفه تيموثاوس فى منصب البطريرك وكانت كنيسة الإسكندرية قد اختارته دون تدخل إمبراطورى شأنه فى هذا شأن بطرس.

وإذا كان ثيودوسيوس متلهفًا على استعادة وحدة الكنيسة الشرقية فى وجه النشاط الوثنى المتجدد الذى اكتسب فرصة جديدة للحياة فى طول الإمبراطورية وعرضها بسبب التشجيع الذى لقيه خلال حكم جوليان القصير، وأيضًا بسبب الوضع السيء الناشيء عن الانقسامات فى الكنيسة المسيحية، فدعا عام ٣٨١ إلى عقد المجمع العام الثانى للكنيسة فى القسطنطينية، وهو مجمع لم يتسم بأى نزاع لاهوتى مرير، فقام بإقرار الأرثوذكسية التى أعلنت فى نيقية وتوسع فيها، مما أسفر عن عقيدة باتت تعرف بعقيدة نيقية، وهى التى تستخدم اليوم فى خدمة العشاء الربانى الانجليكانية Anglican Communion Service وقد حفلت مداولاته السياسية بالجدل والتنازع، وقد نجح تيموثاوس فى بادىء الأمر فى عزل جريجورى النازيانزى عن بطريركية القسطنطينية، ثم رأس المجمع بنفسه وإن كان قد اضطر إلى قبول قرار المجمع الذى بمقتضاه تم إعلان روما رسميًا بأنها البابا الأول فى المسيحية، تليها القسطنطينية ثانيًا والإسكندرية ثالثًا طالما ارتضت معظم الكنائس المسيحية أن تكون لروما السلطة العليا من حيث العقيدة، أما الوضع النسبى للإسكندرية والقسطنطينية فكان يدور حوله خلاف أكبر بكثير، وكان مقترنًا كما هو الحال ـ بموضوع سلطة الدولة على الكنيسة.

وبعد اتخاذ هذا القرار غادر تيموثاوس المجمع فى سورة غضب وعاد إلى الإسكندرية حيث أمضى بقية عمره فى سلام، وعند وفاته فى عام ٣٨٥ خلفه ثيوفيلوس باعتباره البطريرك الثالث والعشرين وكان يعمل سكرتيرًا لأثناسيوس.

وقد ورث ثيوفيلوس منصبًا ذا سلطة كبيرة فى مصر، ولم تكن سلطته تقل عن سلطة الوالى الإمبراطورى، كما أن السلطة الإمبراطورية فى الإسكندرية كانت تعتمد إلى حد كبير على تأييد البطريرك والهيئات الكنسية وعلى موافقتها، وكانت هذه الهيئات تعتمد فى قوتها على التأييد الشعبى من ناحية وعلى الثروة التى تراكمت لدى الكنيسة من ناحية أخرى، ولعلها كانت تعتمد أساسًا على المؤسسات الرهبانية التى تكاثرت بمصر خلال القرن الرابع، وكان فى الوسع الاعتماد على أعضائها فى الالتفاف تأييدًا للبطريرك كلما تعرضت سلطته للتهديد.

وكانت فى الإسكندرية كذلك هيئة تعرف باسم " بارابولانى" Parabolani وتعنى حرفياً زوار الأحياء ، وكانت تتألف من عدد من القساوسة والرهبان الذين كانوا على اتصال مباشر مع البطريرك وخاضعين لأوامره، وكانت الهيئة قد انبثقت تعبيرا عن هدفها الواضح وهو توزيع الأموال على الفقراء (أما الكنيسة المصرية فقد كانت تمول أساساً من إيرادات نظام العشور حيث كان كل عضو فى الكنيسة يساهم بعشر دخله، والعشور المحصلة على هذا النحو تقسم إلى ثلاثة أقسام ـ فيذهب قسم إلى إعالة رجال الكهنوت، وقسم إلى بناء الكنائس وقسم إلى الأعمال الخيرية)، والواقع أن هيئة البارابولانى التى تعتبر ترجمة اسمها إلى « زوار الأحياء » ترجمة سخيفة وغير ملائمة فى التعبير الحديث، لأنها عبارة عن فرقة خاصة كانت تقوم بحراسة البطاركة المتتالين فى صراعهم مع السلطة الإمبراطورية وفى اضطهادهم لليهود والوثنيين والهراطقة.

والرهبانية كظاهرة كانت تعتبر « موضة » Vogue غير مألوفة فى كل من مصر والبلدان الشرقية الأخرى خلال القرون الأولى للعصر المسيحى، وكانت تسبقها وتقترن بها ظاهرة أغرب هى الزهد والتنسك eremitism ، فقضى كثير من القديسين حياتهم الطويلة فى العزلة والتأمل وفى حرمان لا يكاد يتصور، وذلك فى خلوات صحراوية، واكتسب بعضهم من أمثال القديس أنطونيو فى مصر والقديس سمعان العمودى St, SimonStylites فى سورية شهرة ونفوذاً عظيمين، وعن ممارسة العزلة والتأمل والتقشف هكذا نشأ نظام الرهبنة المجتمعية Cult of Communal monasti- cism الذى شجع عليه صدور مراسيم إمبراطورية فى القرن الرابع أعفت الرهبان من الخدمة العسكرية والضرائب، كما شجع عليه ـ دون أدنى ريب ـ ما كان يسود الحياة الدنيوية من افتقار إلى الأمن، وأقيمت مؤسسات للرهبنة فى جميع الصحارى المصرية، فى طيبة أو فى الصعيد وفى سيناء وفى نيترا (وادى النطرون) وفى صحراء غرب بحيرة مريوط.

وكان قوام هذه الأديرة فى معظمها نحو ثلاثين بيتًا، يحتوى كل بيت على عدد معين من الأخوة يصل عددهم عادة إلى أربعين شخصاً يمارسون جميعاً نفس العمل،

وهؤلاء كانوا يوزعون كل ثلاثة منهم فى صومعة، وتتألف من كل ثلاثة بيوت أو أربعة قبيلة ـ أى هيئة تتناوب الأعمال اليدوية فى أسبوع إلى جانب الخدمة المباشرة للكنيسة ولكل فرع آخر من نظام الرهبنة، أما طعامهم فيتألف عادة من البسكويت والماء، وكانوا يتناولون من هذا الطعام وجبتين زنة كل منهما ٦ أوقيات، فيتناولون وجبة عند العصر والأخرى عند مغيب الشمس، وكانوا يجتمعون للصلاة عندما يرخى الليل سدوله وفى منتصف الليل، ومجموع الصلاة اثنا عشر مزموراً يقوم واحد منهم بإنشادها وهو واقف فى حين يظل الباقون جالسين على مقاعد واطئة، وعند الانتهاء من كل مزمور، يمكث الرهبان فى صلاة ذهنية وهم واقفون ثم يجثون على ركبهم برهة ويعودون إلى الجلوس، وقد أضيف إلى المزامير درسان أحدهما من العهد القديم والآخر من العهد الجديد وهو ما يراعى يومياً باستثناء يومى السبت والأحد فى موسم الفصح **Paschal season** حيث يؤخذ الدرسان من العهد الجديد ، وكان الرهبان يتواصلون فى صباح أيام السبت والأحد، ولم يكونوا يجتمعون فى الأيام الأخرى للصلاة، وان كانوا يبقون فى صوامعهم يواصلون العمل ويتعبدون تعبداً ذهنياً(١).

وفى بعض الأحيان، كانت مدن وقرى بأسرها تأخذ نفسها بحياة الرهبنة الجماعية **enmasse**. وأبرز مثال على ذلك هو ما حدث فى أوكسيرنشوس **Oxyrinchus** بالقرب من الإسكندرية حيث قام الرهبان بتكريس العذارى اللائى قيل عنهن إنهن يشكلن القسم الأكبر من السكان.

وكان عدد المدن عشرة وعدد الراهبات عشرين ألفًا، ولم يكن فى المدينة هراطقة أو وثنيون، وإنما ضمت إلى جانب الكنائس الصغيرة الخاصة بالنساك اثنى عشرة كنيسة ـ وكان التسبيح لله يتردد فى شوارعها بصورة مستمرة(٢).

وكان التأييد الصادر عن هذه المؤسسات الرهبانية ضروريًا لدعم سلطة البطريرك، إذ كانت تشكل بالنسبة لـه الذراع الدنيوى الذى يمكنه ـ طالما ظفر بتأييدها ـ من تجاهل القوات الإمبراطورية وتحديها عند الاقتضاء، ولئن اشتهر بعض الأديرة فيما بعد بالثقافة والمعرفة، فإن معظم الرهبان كانوا جهلة ومتزمتين لديهم

استعداد دائم لأن يطلب منهم إسكات المعارضة سواء بالترديد الحثيث للشعارات اللاهوتية أو بدحر المعارضة بعنف الغوغاء.

وكان الشغل الشاغل الأول لثيوفيلوس بوصفه البطريرك هو مقاومة صحوة الوثنية فى مصر، وإزاء نفوذ الرهبنة وتعاقب البطاركة الطامعين فى السلطة كاد الدين المسيحى فى الإسكندرية يكون خلواً تماماً من الاعتبارات الثقافية السابقة، وظلت تلك الحياة الثقافية كما كانت ـ وثنية تماماً، وفى الوقت نفسه ، كانت الكنيسة قد أصبحت ـ وبدرجة متزايدة ـ متماهية مع العنصر المصرى فى المزيج السكندرى ، ومن هنا كان العنصر الإغريقى، ما كان منه شعبياً أو مثقفاً، متماهياً مع الوثنية ، أما البلاط الإمبراطورى، فقد كان على وفاق مع البطريرك فى مقاومته للوثنية لنفس الأسباب التى حملت قسطنطين على اعتناق المسيحية وبسبب التأييد الشعبى الذى كانت تتمتع به المسيحية فى الإقليم الذى مازال أغنى الأقاليم فى الإمبراطورية.

ولم تلبث المقاومة أن انحدرت إلى اضطهاد، وفى عام ٣٨٩ نشبت أعمال شغب بين المسيحيين والوثنيين فى الإسكندرية بسبب حصول ثيوفيلوس على تصريح من الإمبراطور لتحويل معبد قديم لباخوس إلى كنيسة مسيحية، فتمترس الوثنيون داخل الأكروبوليس الذى يضم معبد سيرابيس، وكان مبنى المجمع بمكتباته وقاعات المحاضرات فيه وأماكن اجتماعاته قد صار أشبه بمقر القيادة للوثنيين السكندريين، وملاذاً لقضية وصلت إلى نقطة الضياع ، وملجأ للفلاسفة وعلماء الرياضيات والشعراء، وموضعاً للهيكل الذى تقدم فيه الأضحيات غير العادية وكلها غير محرمة، ومكاناً لاجتماع معتنقى التقاليد الهللينستية المتأصلة، ومخبأ لمعارضى النظام السياسيين، وقاعدة لتدريب البلطجية الوثنيين، وإذ كان مبنى المجمع جاثماً على تل، وتكتنفه الممرات وحجرات التخزين، فقد استحال إلى قلعة ممتازة، وهنا فى هذا المكان قام الدعاة المتحمسون لسيرابيس ـ وكانت قوتهم وأعدادهم أقل بكثير مما لدى خصومهم ـ بشهر السلاح بناء على تحريض الفيلسوف أوليمبيوس الذى حثهم على الموت دياداً عن هياكل الآلهة، [٢] ضد قوات البطريرك والوالى الرومانى، وإذ كان الوالى افراجيوس **Evragius** متلهفاً على اجتناب حرب أهلية، فحاول إقناع الوثنيين

بالاستسلام بشرف، وإذا كان هذا المسعى قد أخفق ، فقد نجح فى كبح جماح النشاط الشبيه بالحرب من جانب البطريرك ريثما يتلقى تعليمات من القسطنطينية، وقد أمره ثيوديسيوس بأن يهاجم السرابيوم ويدمر جميع المعابد الوثنية الباقية فى الإسكندرية، وقد قرئت أوامر الإمبراطور جهاراً وسط مظاهرات المسيحيين الفرحين، وتعاون ثيوفيلوس مع زوار الأقاليم ورهبانه تعاوناً حماسياً فى تنفيذ أوامر الإمبراطور.

ولم تظهر من جانب الوثنيين إلا مقاومة قليلة، وسرعان ما جرى احتلال السرابيوم وانطلق ثيوفيلوس يعمل التدمير فى معبد سيرابيس دون أن يواجه أى مشكلة أخرى عدا المشكلات التى صادفها فى ثقل مواد البناء وصلابتها، وهى مشكلات تبين ألا سبيل إلى التغلب عليها، فاضطر إلى ترك الأساسات واكتفى بأن حول الصرح نفسه إلى كومة من الأنقاض، وبينما تمت عملية صهر التماثيل والزهريات الذهبية والفضية بعناية، تم تحطيم الأشياء المعدنية الأقل قيمة باحتقار وطرحت فى الشوارع، فإن ثيوفيلوس عنى نفسه بفضح أكاذيب كهنة الأصنام والمعبودين ومباذلهم، ومهارتهم فى استخدام قوة الجذب، وأساليبهم السرية التى مكنتهم من تحويل العنصر البشرى إلى تماثيل جوفاء، واستخدامهم الفاضح للثقة الكامنة فى الأزواج الأوفياء وفى الإناث اللائى لا يشك فيهن، أما التمثال الضخم لسيرابيس فقد صار جزءاً من أنقاض معبده وديانته، وكان هناك عدد كبيرمن الألواح المصنوعة من معادن مختلفة والتى تم وصلها بعضها ببعض بطريق مصطنعة ومنها يتألف التمثال المهيب للإله وهو يمد ذراعيه على جانبى جدران المعبد المقدس، أما منظر سيرابيس فى وضعه وهو جالس يحمل صولجانا فى يسراه فكان شبيهًا بالتمثال المألوف للإله جوبتر، وإن كان يختلف عن جوبتر بأنه يحمل على رأسه سلة أو وعاء كما يختلف عنه بشعار الوحش الضخم الذى يقبض عليه بيده اليمنى، كما توجد رأس حية وجسمها يتشعبان إلى ثلاثة ذيول تنتهى بدورها إلى ثلاثة رؤوس لكلب وأسد وذئب، ومما تم تأكيده بثقة أنه لو حدث أن جرؤت يد نجسة بانتهاك حرمة الإله، فإن السموات والأرضيين تعودان فوراً إلى ما كانت عليه أصلاً من خراب، وهناك جندى

مقدام يشتعل حماسه وقد سلح ببلطة حربية ثقيلة، يشاهد عند هبوطه الدرج، وهناك جموع من المسيحين تتوقع بلهفة وقوع المعركة ،قام الجندى بتسديد ضربة قوية إلى خد سيرابيس، فسقط الخد على الأرض، ومع ذلك لم يحدث رعد وبقيت السماوات والأرضيين على حالها المعتاد من نظام وهدوء، وكرر الجندى الظافر ضربته، فتحطم التمثال الضخم وانهار إلى قطع متناثرة، وتمت جرجرة أطراف سيرابيس بصورة شائنة فى شوارع الإسكندرية، وتم إحراق جثمانه المشوه فى أرض المسرح الكبير وسط هتافات من جانب الجماهير، واعترف كثيرون بأن اعتناقهم للمسيحية إنما كان بسبب ما اكتشفوه من عجز معبودهم الذى يحميهم(٤).

أدى سقوط سيرابيس إلى الانهيار التام للوثنية فى الإسكندرية، على الرغم من أن عبادة الأوثان بقيت تمارس لبعض الوقت فى مدينة كانوبوس المجاورة، وظلت مدارس الفلسفة والرياضيات والطب والفلك والجبر واللغة تتابع ازدهارها فى ظل الوثنيين حتى زمن الفتح العربى تقريباً الذى وقع بعد ذلك بمائتى عام، أما عقيدة الإغريق القديمة التى كان يدين بها الوثنيون من أن الحقيقة لا يتسنى اكتشافها بالتراتيل أو الشعارات التى يرددها الرهبان الأميون بل باستخدام الذكاء البشرى فقد ماتت موتًا نهائيًا فى الإسكندرية.

ويشوقنا أن نتأمل المأزق الذى واجه الوثنى السكندرى المتعلم خلال السنوات الثلاثمائة التى مرت بين اعتناق الإمبراطورية للدين المسيحى وبين الفتح العربى، لقد كان موزعًا بين التراث التقليدى الإغريقى وهو مستودع المعرفة المتمثل فى المتحف وبين الاستعمار الهللينيستى الذى انتهى دوره بالموت، وكان قد ورث عن المدارس الفلسفية انضباطاً فكرياً، ولكنه مضطر إلى استخدام شقشقة اللسان فى الحديث عن الخرافات الغليظة المقترنة بعبادة سيرابيس وعن الأديان الأسطورية الإغريقية، وإذا كان قد وجد تشجيعاً من عودة أساليب الحياة الهللينستية واللغة الإغريقية التى تبناها البلاط الإمبراطورى، فقد هاله ما رأى من خصائص الكهنوتية الصارمة للبلاط، وما تراءى لـه من أن الدين المسيحى ينكر الحياة الدنيوية ويتسم بالتسامح العقيم وهو الدين الذى اعتنقه البلاط ورعاه، وفى أزمنة الاضطهاد ـ فى عهد جورج الآرى

الكابودوكى والبطريركين الأرثوذكسيين ثيوفيلوس وكيرلس - نال هذا الوثنى المتعلم قدرًا من الهيبة باعتباره ممثلاً لحضارة بائدة هيمنت عليها موجة طاغية من الفلسطينيين philistines الذين يتصايحون ويقذفون بالحجارة ويرددون الشعارات ويخوضون فى المذابح، وباعتباره أجنبيًا استفاد من الأرثوذكسية التى جاءت فى اثر الخلقدونية التى تحميها قوات إمبراطورية وسط قوم معادين، فقد ارتد فيما بعد وبنوع ما إلى أيام الاستعمار الإغريقى فى فترة البطالمة المبكرة، ولكن مع فارق، ذلك أن ينابيع الحضارة الإغريقية كانت قد جفت، وكانت أرثوذكسية المذهب الملكانى عقيمة شأنها فى ذلك شأن هرطقة اليعاقبة، أما البلاط البيزنطى، فهو وإن كان يتكلم باللغة الإغريقية، إلا انه كان غريباً تمامًا بالنسبة إليه، وكان العاملون فيه من المستشرقين، أما الجنود فكانوا من البرابرة، وأما مصابيح الحضارة والمعرفة فكانت مازالت مشتعلة فى خفوت بالمدارس الوثنية، وأما المعرفة والإبداع القديمين فقد أمكن الحفاظ عليهما بل أضيف إليهما بصورة أقل، غير أن المصابيح كانت تختفى تحت إناء ولم تعد تضىء فى الخارج على جميع أرجاء عالم البحر المتوسط.

ولم يمض وقت طويل حتى اختلف ثيوفيلوس بمزاجه المستبد المتهور مع رهبان نيترا (وادى النطرون) وهو المجمع الضخم للمؤسسات الرهبانية فى الصحراء بالقرب من الإسكندرية، وكان فى وسع البطريرك أن يعتمد عليهم دائمًا للحصول على تأييدهم الروحى والمادى، وقد نشبت بينه وبين أحد قساوسته منازعة حول المال، حيث كان القس إيزيدور مصرًا على تخصيص الميراث الضخم الذى آل إليه من أرملة ثرية لإغاثة الفقراء فى الإسكندرية طبقًا لرغبات الأرملة، بدلا من تسليمه إلى البطريرك، فثار منه ثيوفيلوس بأن وجه إليه اتهامًا كاذبًا، وعندئذ فر ايزيدور Isidore إلى نيترا حيث كانت نشأته، وحرض الرهبان على البطريرك، وكان رد الفعل من جانب ثيوفيلوس هو اتهام الرهبان هناك بالهرطقة، واستنجد بمعونة القوات الإمبراطورية لطرد الرهبان من أديرتهم، وعندئذ استعد وفد من الرهبان للسفر إلى القسطنطينية لتقديم شكوى ضد ثيوفيلوس إلى القديس جون كريسوستوم Chrysostom الذى انتخب بطريركًا بعد محاولة فاشلة من جانب ثيوفيلوس للوصول إلى تعيين مرشحه

الخاص، واستقبل كريسوستوم الرهبان ـ وهو نو طبيعة تقل عن طبيعة القتال التى يتسم بها شقيقه فى الإسكندرية ـ وتلطف معهم وحاول لأن يصلح بينهم وبين ثيوفيلوس، فما كان من ثيوفيلوس إلا أن قام رداً على ذلك بالتنبيه على كريسوستوم بأن يلتفت إلى أموره الخاصة، وانطلق يتآمر مع غيره من المطارنة الشرقيين قاصداً استدعاء كريسوستوم إلى محاكمة بتهمة الهرطقة (وذلك فى عصر كانت فيه المنازعات اللاهوتية السبيل الرئيسى إلى إشعال نار الحقد، وكان تصيد الناس بتهمة الهرطقة رياضة معتادة، وكانت المعارك بين أبناء المدارس الدينية تتصف دائمًا بتوجيه اتهامات واتهامات مضادة بالهرطقة، أيًا كان الموضوع الحقيقى للنزاع)٠

وقد افلح حتى الآن فى عقد مجمع فى خلقيدونية في عام ٤٠٢ ـ وهو يعرف بمجمع خلدونية للتفرقة بينه وبين المجمع العام الذى انعقد فى نفس المكان بعد ذلك بخمسين عامًا ـ وقد شهده ٤٥ مطراناً منهم ٣٦ مطرانًا مصرياً، وقد أعلن هذا المجمع ـ الذى لم شمله ثيوفيلوس كما هو شأنه ـ خلع كريسوستوم من منصب البابوية، أما الإمبراطور أركاديوس (وكان ثيودوسيوس قد توفى فى عام ٤٩٤) فقد اعتبر أن بطريرك القسطنطينية كمًا مهملا وإن كان اعتمد على ثيوفيلوس فى حفظ القانون والنظام فى إقليم مصر الغنى، وقام بتأكيد الحكم وجرى نفى كريسوستوم، مما أدى إلى هياج شعبى فى القسطنطينية، فانفعل الإمبراطور بسبب هذا الأمر وكذلك بسبب احتجاجات الإمبراطورة يودوكسيا ـ التى كانت تتمتع بالخوض فى الشئون الكنسية شأنها شأن معظم الإمبراطورات البيزنطيات ـ فأقدم على إلغاء هذا القرار، وأعيد كريسوستوم إلى منصبه، أما ثيوفيلوس الذى تعرض قراره للرفض بصورة مهينة كما حدث مع سلفه تيموثاوس فى القسطنطينية، فقد عاد مثل تيموثاوس إلى الإسكندرية والغضب يستبد به بعدما نجا بأعجوبة من محاولة إلقائه فى البحر من جانب الغوغاء فى القسطنطينية الذين عبروا إلى خلقيدونية للقيام بمظاهرة ضد هذا المصرى٠

وفى الإسكندرية واصل ثيوفيلوس هجومه على كريسوستوم، ولعله ساهم فى العمل على عزل هذا البطريرك للمرة الثانية ونفيه، كما نجح فى إبرام صلح مع رهبان نيترا (وادى النطرون) قبل وفاته فى عام ٤١٢ .

وخلفه فى منصب البطريرك، بعد تنازع على الاختيار، ابن أخيه كيرلس، وفى عهده بلغت بطريركية الإسكندرية الذروة فى سلطتها ونفوذها الدنيويين.

ولما كان البطريرك السكندرى يقيم على مسافة بعيدة من مقر البلاط، ويتولى الرياسة فى عاصمة ضخمة، فقد أقدم شيئاً فشيئاً على اغتصاب سلطة الدولة وسلطة القاضى المدنى، وصارت أعمال الخير الحكومية والأهلية فى المدينة تدار وفقاً لمشيئته، وكان صوته يلهب مشاعر الجموع أو يتملقها، وكانت أوامره تطاع طاعة عمياء من جانب الكثيرين من زوار أحيائه المتعصبين(٥) .

ومن الأعمال الأولى التى أقدم عليها كيرلس ـ وكان مدفوعًا إلى ذلك بوحى من تعصبه أو بوحى من محبته لله ـ تحريضه للرهبان زوار أحيائه على القيام بأعمال النهب والسلب للجالية اليهودية الثرية وطردها من المدينة وكان قوامها ٤٠٠٠٠ من الأشداء، وقد أقدم على ذلك دون الحصول على أى مصادقة سواء من الإمبراطور أو من الوالى الإمبراطورى أورستيس **Oerste** ، وإزاء ما صدر من أورستيس من اعتراضات قام كيرلس بتحويل غضبة الرهبان زوار الأحياء صوب الوالى الذى جرى الاعتداء عليه فى الشوارع وأصيب بفعل جمهور من الرهبان عددهم ٥٠٠ من رهبان نيترا، فقام أورستيس باعتقال الراهب أمونيوس الذى قيل بأنه هو المتسبب فى إصابته، وتم جلده إلى أن مات، وعندئذ لجأ كيرلس إلى أسلوب معروف فى الاضطرابات المدنية التى تحدث اليوم، فأعلن أن أمونيوس شهيداً وقام بنفسه بإلقاء خطبة نارية فى حفل تشييع جنازته.

ومع أن أورستيس كان مسيحيًا من الناحية الرسمية، إلا أن الوثنيين التفوا حوله فى حربه مع كيرلس، مما أدى إلى اندلاع الغضب من جانب المسيحين ضد الوثنيين ، وفى أثناء ذلك اغتيلت هيباثيا ابنة العالم الرياضى ثيون ـ وكانت هى نفسها عالمة

مشهورة بين الوثنيين ـ قتلها الرعاع من المسيحيين، جذبت من مركبتها وعريت من ملابسها وجرت إلى كنيسة قيصرون حيث مزقت إرباً باستخدام أصداف المحار الحادة.

إن أعمال العنف التى جرت فى هذه الأحداث، والتى صورها كنجزلى King-sley تصويراً حياً فى روايته « هيباثيا » Hypatia لم تثر إلا قليلاً من الاحتجاج على ما يبدو ـ فى القسطنطينية على الرغم من أنه صدر بعد ذلك مرسوم إمبراطورى يحد من أعداد زوار الأحياء وامتيازاتهم.

أما وقد قام كيرلس بطرد اليهود وإذلال الوالى الرومانى وإرهاب البقية الباقية من الوثنيين أما وقد ألهب حماسة أتباعه من المسيحين فى هذه الأثناء، فقد بات حراً فى التفرغ « للسياسة الخارجية » وهو ما يعنى الظفر لبطريركيته بالكلمة العليا المتنازع عليها أمام القسطنطينية، فاستمر يواصل عداوته لكريسوستوم، ولم ير بدأً بعدما استرد هيبته كقديس فى نظر الكنيسة، من أن يعمل على تهدئة هذه العداوة بحكم إحساسه بضرورة عدم التناحر مع مطران روما الذى كان يعتمد عليه فى معركته مع القسطنطينية، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية، وكما هى العادة كان موضوع النزاع المختار هو الهرطقة، أما نسطوريوس الذى كان مواطناً سورياً، والذى فرضه البلاط الإمبراطورى بطريركًا على القسطنطينية، فقد بدأ عهده بإظهار جميع معالم المذهب الأرثوذكسى الطهور، فقام بإحراق كنيسة كانت تقام فيها الشعائر الآريوسية ، واضطهد عدداً من الهراطقة، وقال للإمبراطور: « هبنى عالمًا خاليًا من الهرطقة فأمنحك ملكوت السموات مكافأة لك، ساعدنى فى القضاء على الهرطقة وسأساعدك فى حمل الفرس إلى الفرار" غير أن المشاعر السائدة تأييداً للنزاع اللاهوتى لم تلبث أن أدت إلى توجيه الاتهامات بالهرطقة إليه هو نفسه، وفى سلسلة من الخدمات الدينية، استخرج نظرية أن العذراء مريم ليست والدة الإله بالمعنى المعتاد للكلمة، لأن المسيح الذى هو إله حق من إله حق كان (بلا أب وبلا أم وبلا نسل" وهو ما يبدو لغير المؤمنين بأنه تطور منطقى للأرثوذكسية المعلنة فى نيقية ، ولكن العقل المحص لكيرلس، سواء أكان ذلك

بوحى إلهى أو بسبب اعتزامه القضاء على نسطوريوس، نظر إلى الأمر نظرة مخالفة، فقام بإعداد رسالة دينية تداولها فى طول البلاد المسيحية وعرضها عن نظرية التجسد، هاجم فيها نسطوريوس هجوماً ضمنياً بأن أكد أن المسيح هو الله الكامل وأنه إنسان كامل من حيث جانبه الإنساني، وأن العذراء مريم هى أمه بكل تأكيد.

توافق هذا المنطق إلى حد كبير مع الذوق اللاهوتى والكنسى فى ذلك الوقت، ولم يمض وقت طويل حتى أصبح نصف عدد الكنائس المسيحية يدين بذلك، وقد جرت مناقشات حادة مكتوبة بين نسطوريوس وكيرلس، ولجأ كل من البطريركين إلى مطران روما سيلستين Celestine طلباً لتأييده، وبعد قيام سيلستين بالموازنة بين الحجج اللاهوتية عند ترجمتها إلى اللغة اللاتينية وكذلك الحجج السياسية التى لم يعوزه الاستعانة بمترجم فيها والتى اتفقت فيها مصالحه المشتركة مع بطريرك الإسكندرية المتمثلة فى الانتقاص من بطريرك القسطنطينية، أعلن تأييده لكيرلس وعقد مجمعًا للمطارنة فى روما أدان موقف نسطوريوس، ودعا كيرلس إلى التصرف بوصفه مندوبه للعمل على خلع نسطوريوس.

وفى الوقت نفسه، كان كيرلس يسعى لدى الكنائس الشرقية للظفر بتأييدها له أمام نسطوريوس وعندما علم أن الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى يؤيد نسطوريوس ـ وكان هذا الإمبراطور قد خلف أباه أركاديوس فى عام ٤٠٨ ـ قام بالاتصال ببولكاريا Pulcheria, شقيقة الإمبراطور، التى كانت قليلة التحمس بالنسبة له، وكان موقف نسطوريوس ضعيفاً لأنه لم يكن يتمتع بالتأييد الإجماعي من جانب كنيسة القسطنطينية حيث كانت تصدر عنها احتجاجات مسموعة على آراء البطريرك.

ولجأ الإمبراطور فيما بعد، إلى أسلوب العلاج المعتاد، وهو عقد مجمع عام للكنيسة فى مدينة أفسس فى صيف عام ٤٣١، وذهب كيرلس إلى المجمع فى صحبة خمسين مطراناً فى حين لم يصحب نسطوريوس إلا عشرة مطارنة، صحيح أن كيرلس كان مسلحاً بتأييد مطران روما وأغلبية المطارنة الحاضرين، غير أنه واجه معارضة من الإمبراطور ومن يوحنا مطران أنطاكية وكان كلاهما، ولأسباب مختلفة لا يستسيغان حجج كيرلس، فقام يوحنا بطريرك أنطاكية بتأخير حضوره وحاول

كانديديان ، المفوض من الإمبراطور الحيلولة دون المداولة فى المجمع فى غياب يوحنا ومسانديه، غير أن كيرلس الذى كانت له الرئاسة بوصفه بطريرك الإسكندرية ومفوضاً من مطران روما، اكتسح المعارضة جانباً ومضى فى مداولات المجمع، وأعلن الحاضرون بالإجماع الفعلى أن نسطوريوس مذنب بالهرطقة وحكموا بتجريده من جميع المناصب الكنسية واصدروا عليه حرمًا كنسيًا وبادر نسطوريوس مؤيداً من كانديديان المفوض الإمبراطورى بتقديم احتجاج إلى الإمبراطور على هذه المحاكمة غير الشرعية.

وبينما كانت قرارات المجمع تنسخ لكى يطلع عليها الإمبراطور، وصل يوحنا بطريرك أنطاكية وفى صحبته نحو خمسة عشر مطرانًا وعقدوا مجمعًا مستعجلاً حضره ٤٣ مطرانًا، وأصدر المجلس مرسومًا بخلع كيرلس وممنون **Memnon** مطران أفسس وهو أكبر مؤيديه واصدر حرماكنسيا عليهما، تلت ذلك سلسلة لا ضابط لها من الاتهامات بالهرطقة والهرطقة المضادة إلى أن أصدر الإمبراطور أوامره إلى مطارنة الطرفين بالوقوف أمامه فى القسطنطينية، فامتثل رجال الدين المتنازعون للأمر الإمبراطورى، وقامت القوات الإمبراطورية بالفصل بين الطرفين، وبعدما حاول الإمبراطور التوفيق بينهما بلا طائل، أعلن خلع كيرلس ونسطوريوس وممنون من مناصبهم البابوية، ورغبة فى اجتناب حدوث هياج شعبى ، أصدر الأوامر بوضع الرجال الثلاثة رهن الاعتقال، وهو ما تم فعلاً، غير أن النزاع استمر ومورست ضغوط من كل جانب على الإمبراطور، واستطاع كيرلس أن يهرب بنفسه من الاعتقال وأن يعود إلى الإسكندرية.

والإسكندرية هى قلعته الكنسية التى يجد فيها الأمن والاستقلال، غير أن مبعوثيه ـ وكل منهم داهية ـ ناضلوا بنجاح فى سبيل تهدئة حالة النفور من كيرلس والعمل على كسب تأييد الإمبراطور أو الابن الضعيف لأركاديوس، فقد تناوب السيطرة عليه زوجته وشقيقته والخصيان ونساء القصر، وكانت الأساطير والجشع تمثل الشعور المتحكم فيهم، وأضيفت القداسة على القسطنطينية وضواحيها بكثرة ما فيها من أديرة، وكرس داليتوس ويوتيشيس، وهما رئيسان مقدسان للأديرة حماستهما ووفاءهما لتأييد قضية كيرلس، ولعبادة مريم ووحدة المسيح، وتقدم رئيس

الرهبان طابوراً طويلاً من الرهبان والنساك يحملون فى أيديهم قناديل مشتعلة ويرددون الابتهالات لأم الإله وتوجهوا من أديرتهم إلى القصر واشتعلت حماسة الجماهير أمام هذا المنظر غير المألوف، وغمرتها روح من الفضائل، وأصغى الرهبان ـ وبهم رعشة ـ إلى صلوات وتوسلات الرسل الذين أعلنوا بشجاعة أنه لا أمل لأى شخص فى الخلاص ما لم يؤمن بالمذهب الأرثوذكس ويرحب بالشخص الذى خلفه أثناسيوس، وفى الوقت نفسه تمت مهاجمة كل طريق يفضى إلى العرش باستخدام الذهب، أما بولكاريا التى أعفت شقيقها من منصب الإمبراطور فقد كانت أقوى ركيزة للأرثوذكسية، وكان التحالف بين الهدير الصاعد من السنودس وعبدة البلاط من التلاحم بحيث أن كيرلس تأكد من نجاحه فيما لو استطاع استبدال واحد من الخصيان بغيره من الموالين لثيوديسوس(٦).

وفيما بعد، صدق الإمبراطور على خلع نسطوريوس وألغى قرار الخلع الخاص بكيرلس وممنون بشرط أن يتراجع كيرلس عن الاتهامات بالهرطقة التى أعلنها ضد المطارنة الشرقيين الذين أيدوا نسطوريوس.

وهكذا تحقق النصر لكيرلس ـ ومما زاد فى تحسين هذه المناسبة أنه تصالح مع يوحنا مطران أنطاكية طبقاً لشروطه الخاصة على نحو من الأنحاء، وعند نهاية حياته فى عام ٤٤٤ كانت بطريركية الإسكندرية على توافق من جديد مع روما والقسطنطينية وأنطاكية، لقد تحقق النصر للأرثوذكسية كما انتصرت من قبل فى عهد أثناسيوس، وكان أعظم أبطالها هو بطريركية الإسكندرية، وأياً كان الوضع الرسمى لبطريركية الإسكندرية، فقد كانت أقوى البطريركيات جميعًا، سواء من حيث النفوذ الدنيوى أو من حيث الأرثوذكسية المذهبية أو من حيث الزعامة المنضبطة، وفى السنوات الأخيرة لحياة كيرلس قام بتأكيد هذا الأمر الأخير وذلك بأن وضع جدولا لدورة عيد الفصح مسجلاً تواريخ العيد للسنوات الخمس والتسعين المقبلة، وهو ما ارتضته الكنيسة كلها بصورة عامة، وفى الفترة المبكرة للمسيحية، كان هذا الامتياز ممنوحًا للإسكندرية بفضل التفوق المصرى فى علم الفلك، وفيما بعد، وتزامنًا مع الإنشقاقات التى حدثت فى الكنيسة بسبب الهرطقة الآريوسية، فإن كل إقليم كان يتصرف على

هواه، وكانت قضية ارتضاء دورة الفصح التى أعدها كيرلس علامة على أن الكنيسة استعادت وحدتها كما كانت اعترافاً بمنزلة البطريركية السكندرية.

وخلف كيرلس فى منصب البطريرك معاونه الأرشيد ياكون ديوسكورس Dioscurus وهو الذى رافق سيده إلى مجمع أفسس، وكان من طراز كيرلس من حيث الطموح والنضال، ولكنه افتقر إلى الحكمة السياسية لهذا القديس، وبصورة خاصة عجز عن إدراك أن تأييد بابا روما شرط ضرورى للحصول على تأييد البلاط الإمبراطورى وتبعية بطريركية القسطنطينية، وألمح ليو البابا الجديد ـ وهو اللقب الذى بدأ مطارنة روما يطلقونه على أنفسهم ـ لديسكورس بأنه كان يتوقع منه اعترافا عندما هنأ ديسكورس على تقلد منصبه، وأشار أنه لا يشك فى أن الطقوس المرعية فى روما والإسكندرية متماثلة، لأن القديس بطرس قد علم القديس مرقس نفس الطقوس التى كان هو نفسه يحترمها.

وقبل انقضاء وقت طويل اشتعلت المنافسة المستديمة بين الإسكندرية والقسطنطينية واتخذت الشكل المعتاد وهو النزاع اللاهوتى وكان يوتيخس Eutyches رئيساً لدير كبير بالقرب من القسطنطينية وهو الذى كان واحداً من المؤيدين الرئيسين لكيرلس فى أفسس ـ قام بإيفاد رهبانه للمشاركة فى موكب المشاعل الذى اجتاز شوارع القسطنطينية فى حملة يراد منها إقناع الإمبراطور بإعادة تنصيب كيرلس والتمسك بخلع نسطوريوس، ولعل صداقة رئيس الدير لكيرلس هى التى جعلت يوسابيوس Eusebius مطران دوريلايم Dorylaeum يتهمه بالهرطقة لاعتقاده بأن المسيح كان ذا طبيعة واحدة وهى الطبيعة الإلهية، وليس طبيعتين هما الطبيعة الإلهية والبشرية، فانعقد مجمع فى القسطنطينية قوامه ثلاثون مطراناً برياسة البطريرك فلافيان Flavian وقام هذا المجلس بخلع يوتيخس واتهامه بالهرطقة وأصدر حرماً كنسيا لـــه، فى حين أن يوتيخس كان يبدو شيخاً لا يؤذى أحداً بأى قدر كاف، وكان القصد من ذلك، وهو الأرجح تحدى ديسكورس، وعادت الكنائس تتورط من جديد فى حالة هياج وغضب، وقام كل من الفريقين بالاستنجاد بالمطران ليو فى روما، وفيما بعد، وكما هو المألوف، قام الإمبراطور ثيوديسيوس الثانى بدعوة المجمع العام

للانعقاد فى أفسس ليبت فى الأمر، ووفقًا لما جرى عليه العرف من جانب مطارنة روما، فان ليو تخلف عن المشاركة بنفسه وإن كان أوفد مندوبين عنه، وأرسل مع المندوبين رأيه الخاص فى خطاب موجه إلى فلافيان صار يعرف فيما بعد باسم سفر القديس ليو، واشتمل هذا الرأى على عدة آلاف من الكلمات التى تتفق مع المذهب القائل بأن للمسيح طبيعتين ، كما تتفق مع الحكم الصادر بإدانة يوتيخس بالهرطقة

ولما كان فلافيان طرفًا فى النزاع، فقد اختير ديسكورس لكى يرأس المجمع الذى أصبح فيما بعد يدمغ بأنه مجمع "اللصوص المجتمعين فى أفسس"، وقد اتسم المجمع بمناظر للعنف لم تكن معهودة حتى فى التاريخ المضطرب للمداولات التى جرت فى الكنيسة المسيحية الأولى وكان ديسكورس عازماً على مساندة يوتيخس والعمل على خلع فلافيان وهو الذى رأس المجمع الذى سبق أن أدانه، أما وهذا هو الحال، فقد كان عازمًا على اجتناب أى نقاش حول الرأى الصادر عن ليو ضده هو شخصيًا، وإذ ظفر ديسكورس بتأييد المطارنة المصريين وبالرهبان زوار الأحياء الذى استصحبهم معه والذين قاموا بدور زعماء الهتيفة والتظاهر الصاخب العنيف، فقد أدار الأمور بيد هى العليا، فقام بإرهاب المطارنة المجتمعين لكى يبرئوا ساحة يوتيخس ويحكموا بالإدانة على يوسابيوس مطران دوريلايم وفلافيان بتهمة الهرطقة، وبموجب القرار الذى اتخذه المجمع، اتهم الاثنان بالهرطقة وحرما من جميع المناصب الكنسية والكهنوتية، وقام المطارنة بالتوقيع على الأحكام وسط ضجة عالية وفى حضور جيش من الرهبان المصريين الذين يتوعدون ويهددون، وفيما بعد، أقنع ديسكورس المجمع بان يحكم بحرمان دومنوس **Dumnus** مطران أنطاكية الذى تخلف عن حضور المجمع الذى كان على خلاف مع ديسكورس ، وعند عودة ديسكورس إلى الإسكندرية أعلن فى نوبة من النشوة أن ليو مطران روما قد تم حرمانه كنسياً وذلك فى خطاب دورى وقعه معظم المطارنة المصريين.

وبدا، ولفترة قصيرة أن ديسكورس قد حقق انتصاراً، إذ صادق الإمبراطور على قرارات المجمع، ونقل فلافيان إلى المنفى حيث توفى بعد ذلك ربما بسبب الإصابات البدنية التى تعرض لها فى أفسس أثناء اختلاط الحابل بالنابل بعد صدور قرار

الإدانة، وعين للقسطنطينية بطريرك جديد، ولم يول الإمبراطور أو أى شخص غيره اهتمامًا كبيراً للاحتجاجات الصادرة عن مطران روما، أما ديسكورس فقد أصبح بطلاً شعبياً فى الإسكندرية وفى مصر بصورة عامة.

ولكن ثيودوسيوس توفى بعد بضعة أشهر وخلفه فى منصب إمبراطور الشرق مارقيان **Marcian** وهو جندى متزوج من بولكايريا شقيقة الإمبراطور الراحل، وكان الإمبراطور الجديد - وهو أقوى بكثير من ثيودوسيوس - عازمًا على أن يحد من جموح ادعاءات ديسكورس حتى ولو كان ذلك على حساب احتمال نشوب اضطراب فى مصر، وقام مارقيان، بالاتفاق مع فالنتينيان إمبراطور الغرب الذى نقله البابا ليو، بعقد مجمع عام أخر للكنائس فى خلقيدونية على الشاطئ الأسيوى للبسفور فى مقابل القسطنطينية تمامًا ، وريثما يصدر المجمع قراراته، أعلن أن الإجراءات التى تمت فى أفسس باطلة وأمر بعودة المطارنة الذين تم خلعهم هناك إلى مناصبهم الدينية، ولعله كان خاضعاً لتأثير الشكاوى الصادرة من يوسابيوس مطران دوريلايم الذى أكد أن الإمبراطور الراحل كان مدفوعًا من جانب كريسافيوس، وزيره الأول على المصادقة على قرارات مجمع أفسس، وأن هذا الوزير الأول حصل على رشوة من ديسكورس، كما أن ديسكورس قام بنفسه بالاعتداء البدنى على فلافيان فى المجمع فأدى ذلك إلى وفاته.

وكان مكان انعقاد المجمع داخل الحرم المقدس للشهيد يوفيميا **Euphemia** الواقع فى مقاطعة خلقيدونية فى بيثنيا ولا يبعد عن البسفور بأكثر من مقياسين بُعديين، وكان الموقع جميلاً و يتصاعد تصاعداً تدريجياً بحيث أن الذاهبين إلى المعبد لا يفطنون إلى أنهم يقتربون منه مباشرة، ولكنهم يفاجئون إذ يجدون أنفسهم داخل حرم مقدس على رقعة مرتفعة من الأرض بحيث أنهم إذ يحدقون ببصرهم من موضع حاكم يستطيعون منه رؤية مستوى السطح الذى تنتشر فيه السهول تحتهم، وهى خضراء بالعشب وبالقمح المتماوج بكل لون من الأشجار، وفى الوقت نفسه يدلفون إلى سلسلة من الجبال المكسوة بالاشجار التى تتطاول فى انسياب أو تتضخم أحجامها بقوة، ويرى الناظر أيضاً أجزاء من البحر من جوانب شتى ،

فهنا هنا لا تصل الرياح، فالماء ساكن بلونه الأزرق الداكن، وإن كانت الموجات الرقيقة تتلاعب به تلاعباً عذباً على الشاطئ، وهناك تطفر اعشاب البحر والأصداف الخفيفة طفرة عنيفة وتكتسحها الأمواج وهى تزحف على الشاطئ ، وفى مواجهة القسطنطينية مباشرة يتمتع الموقع بجماله الذى يزيد من بهائه منظر مدينة شاسعة هذا قدرها(٧).

وسط هذه الروائع المحيطة واجه بطريرك الإسكندرية معركته الشبيهة بمعركة ووترلو وذلك فى أكتوبر ٤٥١، وكان عدد المطارنة المجتمعين فى خلقيدونية أكبر منه فى أى مجمع سابق، ففى نيقية كان عدد المطارنة ٣١٨ وفى القسطنطينية ١٥٠ وفى أفسس ٢٠٠ أما فى خلقيدونية فلم يكن عددهم يقل عن ٦٣٠، من كل من الشرق والغرب، وكما جرت العادة لم يحضر مطران روما بنفسه وإن كان أوفد مندوبين عنه واتخذ المجمع شكل محاكمة لديسكورس بتهمة الهرطقة وقام يوساييوس مطران دوريلايم بدور النائب العام الذى واجه ديسكورس باتهامات أنه أيد هرطقة يوتيخس وأخل بعقيدة نيقية وأدان فلافيان ظلماً، وكانت الإتهامات ضد ديسكورس جاهزة من بادئ الأمر، وكان مجمع المطارنة بتأييد من الإمبراطور عازماً على إدانته، وكان أعنف مناوئيه هم مطارنة الشرق الذين جرى إرهابهم فى أفسس لكى يدينوا فلاڤيان، ولكن الذى حدث فى هذه المرة أن الحرس الإمبراطورى، وليس الرهبان المصريين هو الذى يطوق ديسكورس حيث يستطاع الحط من قدره دون قصاص كما جرى الحط من قدر فلاڤيان فى أفسس، وساق ديسكورس دفاعاً قوياً، وانتقد المطارنة الشرقيين لجبنهم ودافع عن عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح مستشهداً بأقوال أثناسيوس وكيرلس، ولكن قرار المجمع الذى لا مفر منه صدر مقترناً بعبارات تهكم لاذع وكان ضد ديسكورس، حيث تمت إعادة يوساييوس مطران دوريلايم إلى منصبه، وتم رد الشرف إلى فلاڤيان وجرى خلع ديسكورس واتهامه بالهرطقة وصدر حرمان كنسى ضده وتمت الموافقة على العقيدة الخاصة بأن للمسيح طبيعتين (لاهوتية وناسوتية) كما أقرها البابا ليو، ولكن لم تتخذ أى إجراءات لمحاكمة يوتيخس الذى كان أصلاً لكل هذه المنازعات، وكان من الواضح أن إدانة ديسكورس لم يكن لها إلا شأن قليل من حيث آرائه المزعومة فى الهرطقة، ولكن شأنها كان شاملاً من حيث مطامحه الدنيوية.

وهكذا اختتم مجمع خلقيدونية بتأكيد هيمنة بطريركية الإسكندرية طبقًا لما أقره أثناسيوس وصادق عليه وعززه ثيوفليوس وكيرلس، وصادق الإمبراطور على قرارات المجمع، ونفى ديسكورس من مصر واختار البلاط بروتيريوس، وهو من قساوسة الإسكندرية وجرى تكريسه في القسطنطينية بوصفه البطريرك الجديد.

Notes

(1) Neal. op.cit.Vol.I.p.230 .

(2) ibid.

(3) Gibbon. op.cit. chapter 28.

(4) ibid.

(5) ibid. Chapter 47.

(6) ibid.

(7) Evragius. History of the church from 431 AD to 504 .4 AD (tr.).

١٥ - تراجع الغرب

إن المدى الذى وصلت إليه بطريركية الأقباط بالإسكندرية فى التحامها مع الشعور الشعبى ومقاومة السلطة الإمبراطورية كان واضحاً بجلاء عندما وصل المدينة " بروتريوس Proterius" البطريرك المفروض بالقوة من قبل الإمبراطور ليحل محل البطريرك المخلوع "ديوسكورس Dioscurus" المدعوم من " فلورس" Florus نائب الإمبراطور أو الحاكم الرومانى بالإسكندرية، فقد كان وصول البطريرك الجديد بمثابة إشارة البدء لانتفاضة خطيرة أوجبت التعجيل بإرسال التعزيزات العسكرية الإمبراطورية من القسطنطينية والتى إنقضت على المدينة ونهبتها، وكأنها مدينة مهزومة أثناء ذلك التنصيب القسرى .

لقد حدث هذا ذات مرة من قبل وبطريقة فاشلة، حيث فرض على شعب الإسكندرية أسقفًا، من جانب سلطة خارجية أيا كانت سياسية أو دينية ومن غير المحتمل أن يكون شعب الإسكندرية قد انشغل بالمسائل اللاهوتية وبالأخص تلك المسألة التى كانت مثار خلاف معلن والتى خلع الأسقف ديوسكورس بسببها، بل كان عندهم أن البطريرك الذى يختارونه ليس مجرد رمز ولا مجرد تقليد بل هو شىء أكبر من ذلك بكثير، عندما صارت البطريركية فى مصر أقوى من السلطة الإمبراطورية، وفى ظل نفوذها الذى امتد من الشئون الدينية إلى الشئون الدنيوية، كادت الإسكندرية ومصر أن يصبحا مستقلين عملياً وفعلياً عن البلاط الملكى الإمبراطورى.

وكان من المعروف أن قرارات المجمع المسكونى بخلقدونية لم تكن من أمور اللاهوت، بل كانت تأكيداً للسلطة الإمبراطورية، أى انقلاب تمكن به إمبراطور قوى من عزل ديوسكورس وحرمانه من دعم الكنيسة فى روما وفى البلاد الأخرى، وهو التأييد الذى كانت تنعم به بطريركية الإسكندرية من قبل، وقد قام بالقضاء عليه عامداً

بغرض استعادة الفاعلية والتأثير لحكم الإمبراطورية وفرضها على أغنى إقليم بين الأقاليم الرومانية.

وكان الإمبراطور، شأنه شأن أهل الإسكندرية، لا يهتم كثيراً بالأمور اللاهوتية، ولكن السيطرة الفعالة على مصر هى التى تهم بيزنطة بنفس الدرجة التى كانت تهم روما من قبل، وقد جعلت غارات البرابرة على حقول القمح فى طراقيا Thrace أمر توريد كمية الحبوب التى تدفع جزية إلى القسطنطينية ضرورة قصوى لسد احتياجات العاصمة الإمبراطورية، ولعل أحد أهم التهم الحساسة التى ألصقت بـ "أثناسيوس" خلال سلسلة من مؤامرات لا حصر لها دبرت ضده، هى أنه حاول التدخل لمنع إرسالها ، كما أن أحد اعتراضات الإمبراطور الرئيسية على ازدياد نفوذ بطريركية الإسكندرية هو تناقص الأصول الأساسية التى يعتمد عليها ربط الضريبة نتيجة لنقل الملكية العقارية بصورة متزايدة إلى الأديرة والمعاهد الكنسية الخاضعة لنفوذ البطريركية.

ومن جهة أخرى كانت مصر ذات أهمية بالغة، إذ أن عائدات الجمارك والرخاء الناتج من تجارة الكماليات مع الشرق كانا كلاهما معرضين لخطر غارات الفرس من الشرق، والاستقلال الوشيك لمصر، وكان من الضرورى إحكام القبضة على مصر من أجل السيطرة على الشريان الرئيسى لهذه التجارة ــ عن طريق البحر الأحمر والصحراء الشرقية، وعبر النيل إلى الإسكندرية، وكان الأباطرة تباعًا مهتمين بتوطيد العلاقات مع قبائل " Homeritae " على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ومع الـ " Hexumitae" على شاطئه الغربى، مع تأمين الطريق البرى عبر الصحراء الشرقية ووادى النيل، فقد كان الطريق البرى الممتد إلى الشرق ــ عبر مدينتى البتراء وتدمر ــ مهدداً على الدوام ويحتله الفرس غالبًا، وصارت مصر، بالنسبة لبيزنطة ، وبالنسبة للسلطة الإمبراطورية فيما بعد هى المفتاح الرئيسى للاتصال بين الشرق والغرب.

لكل هذه الأسباب، وجد الأباطرة الشرقيون أنه من الضرورى تشديد قبضتهم على مصر، ومضوا فى تحقيق ذلك بالإكراه تارة وبالترغيب تارة أخرى، وقد أدى الإكراه الذى تميز بفرض بروتروس Proterius إلى خمس سنوات من الكفاح المدنى ،

الذى بلغ ذروته بقتل بروتوريوس عام ٤٧٥ م بأيدى الرعاع فى الإسكندرية، ففى وقت سابق قام بعض أنصار ديوسكورس من الرهبان، وكان بينهم الرهبان الذين قادوا معظم حركات الاضطرابات والشغب الأهلية، بانتخاب راهب اسمه تيموثاوس ايليروس الملقب بـ " القط " بطريركًا منافسًا متشجعين بأخبار وفاة الإمبراطور مارقيان Marcian واستولوا على كنيسة قيصرية ونصبوه هناك، وفى وسط الشغب الذى أعقب ذلك ـ يوم الجمعة الحزينة ـ قام الغوغاء بإخراج بروتوريوس الذى أحاط نفسه بالمتاريس فى كاتدرائية كنيسة القديس توماس، ثم قاموا بذبحه، وعلقوا جثته على مشنقة فى معبد التترابيلون Tetrapylon بوسط المدينة قبل أن يمزقوه إربًا ويحرقوه.

أمر الإمبراطور ليو Leo الذى خلف مارقيان بإخماد الثورة، واضطر ثيموثاوس ايليروس إلى الفرار من مصر ، وفرض على الإسكندرية بطريركا جديدا هو ثيموثاوس سالوفاكيولوس Salofaciolus أو الأبيض White وأعقب ذلك بضع سنوات من الهدوء النسبى ، ويرجع ذلك أساسًا إلى شخصية سالوفاكيولوس التى كانت تتميز بالميل إلى التوفيق وإصلاح ذات البين، وفى عام ٤٦٧ م أعيد ايليروس لفترة وجيزة نتيجة عملية اغتصاب قصيرة الأمد قام بها بازيلسكوس Basilscus الذى اغتصب تاج الإمبراطورية من زينو Zeno واحتفظ به لبضعة شهور، وفى الوقت الذى أعيد فيه زينو إلى عرش الإمبراطورية فى العام التالى ، مات ايليروس وخلفه بطرس مونجوس، Peter Mongus الذى انتخب حسب التقاليد الكنسية من جانب الكهنة ، وعلى الفور أصدر الإمبراطور زينو أوامره إلى الحاكم الرومانى بالإسكندرية بأن يقوم بطرد مونجوس وأن يعيد سالوفاكيولوس، مرشح الإمبراطور إلى كرسى البطريركية، وقد تم هذا بالفعل، وكان سالوفاكيولوس فى ذلك الوقت رجلاً طاعناً فى السن، فأوفد نائبًا عنه إلى الإمبراطور ، يقترح عليه أنه يمكن رأب الصدع فى مصر لو أتيحت لكهنة الإسكندرية فرصة لاختيار خليفته عندما يحين الوقت.

ووافق الإمبراطور المتلهف على تحقيق الصلح بين الإسكندرية وبيزنطة ، وعند وفاة سالوفاكيولوس فى عام ٤٨٢ م، انتخب طاليا John Talia الذى قاد الوفد إلى الإمبراطور ، وتم تكريسه أسقفًا، و لكن الإمبراطور رفض أن يقبل هذا بناء على

نصيحة من أكاكيوس Acacius بطريرك القسطنطينية الذى، ارتاب فى أن يكون طاليا ضالعًا فى مؤامرة مع سيمبليشيوس أسقف روما، وكان عازماً على التوفيق، وظهر أن طاليا كان مصرًا بالاشتراك مع سيمبليشيوس، على إحياء كل الخلافات اللاهوتية القديمة التى نجح سالوفاكيولوس الرقيق فى تهدئتها، ولذلك استدعى "بيتر مونجوس" من منفاه إلى القسطنطينية، وأقنعه على أن يوافق على وسيلة التصالح المعروفة باسم Henoticon التى ابتدعها اكاكيوس بصفة مؤكدة، وقد صيغت هذه الوثيقة لرأب الصدع اللاهوتى الذى أبتدأ فى المجمع المسكونى بمدينة خلقيدونية، شارك مونجوس طواعية فى هذا، ثم أعيد تنصيبه كبطريرك بتشجيع ورضا الإمبراطور، خلفًا لـ " طاليا " الذى لم يحظ كما هو ظاهر بتأييد كبير فى الإسكندرية.

كان من الممكن أن يظل كل شىء على ما يرام لو أن المسألة اللاهوتية كانت هى نقطة الخلاف الحقيقية، فقد سار كل شىء على ما يرام فى الواقع ولعدة سنوات وتحققت درجة من الوئام المعقول بين الإسكندرية والقسطنطينية برغم جهود أسقف روما الرامية لإثارة المتاعب عن طريق اتهامه بطريرك الإسكندرية بالهرطقة ، لكن ساد حسن الإدراك، فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية وتغلب على نزعات التشدد حتى تم تنصيب الإمبراطور جستنيان Justinian ٥٢٧ م ومنذ عودة مونجوس إلى كرسى البطريركية، أصبح اختيار كل بطريرك جديد يتم باتفاق مشترك بين الحاكم الرومانى وكهنة وشعب الإسكندرية ودون إشارة إلى قرارات مجمع خلقيدونية المسبب للخلاف والشقاق، لكن تزامن مع اعتلاء جستنيان عرش السلطة أن مات البطريرك تيموثاوس فانفجر على الفور خلاف حول من يخلفه، وكانت نقطة الخلاف المزعومة، كالمعتاد، هى المسألة اللاهوتية، والمتعلقة بقابلية هيئة الكنيسة Body of Christ للصلاح أو الفساد، وتم تكريس أسقفان ـ الأول ثيودوسيوس Theodosius ويمثل المؤمنين بقابلية الفساد Corrupticolae وجانيوس Gainus ويمثل المؤمنين بعدم قابلية الفساد Phantasiae كما كانا يسميان ـ وبدأ أنصارهما فى محاربة كل منهما للآخر، وكان السبب الأساسى فى هذا هو التنافس بين الرهبان الذين أيدوا "جانيوس"، وبين رجال الكنيسة ومعظم السكان المدنيين الذين أيدوا "ثيودوسيوس" وقد أرسل جيستنيان ياوره

المخصى نارسيس إلى الإسكندرية ليصلح الأمر ويسوى الخلاف، وقرر نارسيس Narses إكراماً لـ "ثيودوسيوس" أن ينفى منافسه من البلاد، وأعقب ذلك فترة اضطراب، واستيقظت العداوة النائمة بين الإسكندرية والقسطنطينية، وطفت على السطح من جديد.

وحدثت الصدامات كل يوم بين العامة والجيش ، حيث كان عدد القتلى على الجانبين كبيراً، ورغم ذلك كان العدد الأكبر من القتلى من بين الجنود، وكانت النساء تقذفن من فوق أسطح منازلهن قوالب الطوب وكل ما يمكن أن يقع تحت أيديهن على الغزاة، وانتقم نارسيس لنفسه بإحراق جزء من المدينة.(١)

وفى النهاية، عقد جيستنيان العزم على أن يضع حداً فاصلاً لهذه الاضطرابات فطرد ثيودوسيوس أيضاً وفرض بطريركًا جديداً على الإسكندرية، يدعى بول Paul وكان سوريا، وقد تم رسمه أسقفاً فى القسطنطينية وأرسل إلى الإسكندرية مع حامية من الحراس المسلحين، ولكن لم يستطع هو ولا خليفته زويلوس Zoilus الذى عين فى القسطنطينية أيضًا، أن يمارسا سلطتهما على المتمردين السكندريين، ولذلك، عزم جيستنيان بعد طردهما أن يخضع مصر لطاعته، فعين أبوليناريس Apollinaris بسلطة مشتركة كبطريرك وكحاكم رومانى ويصف لنا جيبون وصول أبوليناريس وصفاً حيًا فيقول :

دخل أوبوليناريس المدينة المعادية فى كوكبة من الجنود، مؤهلة للقتال وللصلاة أيضـا، وتم نشر جنوده بسلاحهم فى الشوارع ووضعت الحراسة على بوابات الكاتدرائية ، وتم وضع فريق مختار ضمن الكورس للدفاع عن شخص رئيسهم، وقد وقف منتصباً فى تاجه، ثم ألقى جانباً غلالة المحارب، وظهر فجأة أمام الجموع فى ثياب بطريرك الإسكندرية، وهكذا أخرستهم الدهشة، لكن ما كاد يبدأ أوبوليناريس فى قراءة كتاب القديس ليو (الذى كان مقبولاً كصياغة كاثوليكية للأرثوذكسية المصرح بها فى المجمع المسكونى بخلقيدونية) حتى انهال الشعب بوابل من اللعنات والشتائم على مبعوث الإمبراطور الكريه وعلى المجمع، وفى الحال ترددت أصداء تهمة موجهة من خليفة رسول المسيح، وبدأ الجنود يخوضون حتى الركب فى الدماء، وقيل آنذاك

أنه قد سقط من المسيحيين مائتى ألف قتيل بالسيف، وهو رقم لا يصدق حتى لو أمتد الأمر من مذبحة يوم إلى ثمانية عشر عامًا من حكم أبوليناريس[٢] .

وبحلول هذا الوقت انقسم، أهل الإسكندرية إلى حزبين منفصلين، الحزب الأصغر، ويضم أتباع البلاط الإمبراطورى، وطبقًا لأقوال المؤرخين الكاثوليك، وهم أنصار الإيمان المستقيم (الأرثونكسى) المعلن فى المجمع المسكونى بخلقيدونية، وكان أغلبهم مواطنين من نوى الأصول اليونانية، وكانوا موضع ازدراء من خصومهم ويعرفون بالملكانيين **Melkites** أو أتباع الملك، أما الحزب الشعبى صاحب الأغلبية فإنه يضم خصوم القسطنطينية ومعارضى السيادة الإمبراطورية وهم فى نظر المؤرخين الكاثوليك معدودين من الهراطقة، وكان هذا الحزب يتكون أساسًا من جماعات نوى أصول مصرية، يسميهم خصومهم باليعاقبة **Jacobite** من باب الازدراء، وهم يعرفون عمومًا بهذا الاسم بعد أن وصمهم خصومهم فى خلقيدونية باطلاً بوصمة الطبيعة الواحدة ، **monophysite heresy**(*).

أكمل أوبوليناريس عملية الانقسام بين الملكانيين واليعاقبة، وسمح لثيودوسيوس بتدخل من الإمبراطورة ثيودورا ـ التى امتزج عندها حب المتعة بنكهة الهرطقة ـ أن يعود إلى مصر، وصار هو أول الصف من البطاركة اليعاقبة، أو أتباع الطبيعة الواحدة الذى يرأس الآن ما يعرف بالكنيسة القبطية المصرية، وحتى مجىء الفتح العربى ظل هؤلاء البطاركة بأنفسهم على رأس حركة المقاومة الوطنية المصرية، وتبعهم أغلب الرهبان، وأغلب السكان المسيحيين فى مصر، وأقاموا فى الإسكندرية أحيانًا، ولكنهم فى أغلب الأحوال كانوا يقيمون فى أحد أديرة الصحراء.

استنكر أتباعهم هذه البدعة الأجنبية ومعها عادات اليونانيين ولغتهم، وأصبح كل ملك فى نظرهم أجنبيًا، وكل يعقوبى مواطنا، واستهجنوا علاقات الزواج والمساعى الإنسانية باعتبارها خطيئة قاتلة، ونبذوا الولاء للإمبراطور، ولم يذعن أحد لأوامره فى الأماكن البعيدة عن الإسكندرية إلا تحت تهديد القوة العسكرية[٣].

(*) منذ أن وقع أول انقسام بعد مؤتمر خلقيدونية ٤٥١ م حتى دخول العرب مصر والكنائس الشرقية تصف كنائس الغرب بأنها **diophysite** (تؤمن بطبيعتين للمسيح) فى حين يصف الغربيون كنائس الشرق بأنها **monophysite** (تؤمن بطبيعة واحدة للمسيح) وهى تهمة يقصد بها طبيعة واحدة لاهوتية فقط بعكس ما تعنيه صيغة القديس كيرلس «طبيعة واحدة للوجوس المتجسد» أى الاتحاد الأقنومى « لكلا الطبيعتين =

ومنذ عصر أبوليناريس، كان البطاركة الملكانيون يعينون بواسطة الإمبراطور، وكانت لهم سلطة المندوب المدنى Civil Prefect تؤيدهم سلطة القوات المسلحة بقيادة المندوب العسكرى Military Prefect.

انغمس هؤلاء البطاركة انغماسا شديداً فى الشئون المدنية بدرجة لم تسمح لهم بأداء واجبهم الدينى باعتبارهم كهنة، وكانوا يجمعون القدر الأكبر من عائد اتهم من القمح، وأقاموا تجارة صادرات ضخمة، ونقلوا محاصيلهم إلى تلك الأنحاء فى أوربا حيث تباع بأعلى الأسعار وقد سمعنا ذات مرة عن أسطول صغير تابع لكنيسة الإسكندرية، يتكون من ثلاثة عشرة سفينة وقد تعرضت هذه السفن وهى تحمل شحنة حمولة كل منها حوالى ثلاثين طناً، لعاصفة أطاحت بهم على شاطئ إيطاليا، وارتفع فيما بعد عائد البطاركة من جميع كنائس مصر باسم عطايا الأتقياء، وبلغت هذه الهبات أحياناً ألفى جنيه من الذهب، أو حوالى ثمانين ألف جنيه إسترلينى(٤).

انعكست العداوة بين الملكانيين واليعاقبة على الاستعراضات التى تقوم بها كتائب حزبى الزرق Blues والخضر Green اللذين انقسم إليهما أهل الإسكندرية وأهل القسطنطينية ويعرف الزرق بالملكانيين كما يعرف الخضر باليعاقبة، لقد حدث إعلاء للعواطف الدينية والعرقية والسياسية، وأحياناً كانت تتفاقم بفعل مشاعر التحزب مع أنها تفاقمت أحياناً عن طريق مناصرة سباق العربات الذى افتتن به أهل الإسكندرية ، وكان انتصار أو هزيمة أى بطل من الخضر أو الزرق غالبًا ما يعقبه حركات شغب بين الفريقين، وعند استدعاء القوات الإمبراطورية لحماية الزرق من الهجوم المحموم الذى يشنه الخضر بتحريض من الرهبان الذين ينشدون الشعارات وهم يقذفون خصومهم بالحجارة بعد أن حصلوا على إجازة ليوم واحد من أديرتهم الصحراوية لكى يستمتعوا ببضع ساعات من الشغب الوطنى.

وفى داخل مصر استمرت حركات الشغب حتى قامت الثورة التى خلعت الإمبراطور فوكاس Phocas فى بداية القرن السابع وحتى ذلك الحين ظلت السلطة الإمبراطورية تقبض على زمام الأمور بمصر فى آمان واطمئنان ، وقد تم تحويل ثلاثة أديرة فى عهد الإمبراطور جيستنيان أحدهما بجبل سيناء بالإضافة إلى دير القديس

= الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية فى واحد ، بغير امتزاج أو اختلاط أو تغيير » هذا لا ينكر الطبيعة الإنسانية للمسيح فعلت اليونيخية (المترجم) .

بطرس والقديس بولس فى الصحراء الشرقية ـ إلى قلاع حصينة للدفاع ضد غزوات الفرس والعرب وعسكر فيها رهبان من الموالين للإمبراطور، واستمرت التجارة فى الازدهار، وكان من الممكن رؤية سفن القمح الآتية من الإسكندرية فى كل موانئ البحر الأبيض المتوسط، وكان بعضها يبحر إلى أبعد من ذلك حتى إنجلترا، واتسعت التجارة الشرقية خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس، وقام كوزمان **Cosmas** ، وهو مستكشف مصرى وتاجر، برحلاته الشهيرة إلى الخليج الفارسى والهند وسيلان عن طريق البحر الأحمر، وبرغم الغارات المتعاقبة والثورات المتكررة فى طيبة، فقد كان طريق التجارة فى وادى الحمامات من وادى النيل إلى البحر الأحمر فى حالة استخدام دائم، وقد جلب تياراً متدفقاً من السلع الكمالية الإفريقية والشرقية عبر الصحراء وعبر النيل إلى سوق الإسكندرية الضخم، حيث استمر العمل كالمعتاد وسط مناوشات الصراع المدنى، وفى هذه الاضطرابات ضاعت سجلات حصر بيوت الإسكندرية ، بينما نجت سجلات الخلافات اللاهوتية من الضياع ، ولكن ربما كانت السجلات الأولى تمثل انعكاساً أكثر دقة لولاء شعب الإسكندرية والشغل الشاغل للأغلبية .

وأثناء عهد جستنيان من عام ٥٢٧ – ٥٦٥ م، استعادت الإمبراطورية الرومانية الشرقية، مؤقتًا الكثير من أمجادها القديمة، وتم تحجيم الفرس فى الشرق، وطرد البرابرة من طراقيا فى الشمال الغربى، وأخضعت عبقرية بليزاريوس ونارسيس العسكرية إيطاليا وأفريقيا ، ونجح الإمبراطور بعبقريته الإدارية فى استعادة السلطة وإدخال الإصلاحات فى الحكومة المركزية، وتم استعادة النظام فى مصر عن طريق تعزيز الحاميات العسكرية اليونانية فى جميع أنحاء البلاد، وانتزعت جزية الحبوب، وتمت حراسة وتأمين طريق التجارة الشرقى، وأعيد أهل الإسكندرية إلى الطاعة عن طريق الحكم الصارم الذى يمارسه البطاركة الملكانيين الذين - يحكمون كمندوبين للإمبراطور والمفروضين على المصريين من جانب القسطنطينية.

من المرجح أن يكون السكان المصريون الموسومون ببدعة الطبيعة الواحدة والمعارضون للسيطرة الإمبراطورية المتشددة بالإصرار على الأرثوذكسية قد تركوا المدينة تدريجيًا التى تحولت إلى شىء أشبه بقلعة عسكرية يونانية محاطة بأسوار عالية ومطوقة بحصون قوية لتحمى السكان ضد العصيان المسلح فى المناطق الريفية المحيطة بهم ، مثلما تحميهم من الغزاة الأجانب.

وفى العصر البيزنطى أعيد بناء الأسوار وتقوية الحصون وتقلص محيط الأسوار بعد استبعاد حى البروكيوم القديم الذى صار على ما يبدو معسكراً حربياً، وكانت المدينة الجديدة المنكمشة مزدحمة بالسكان حول الميناء، وامتدت نحو الجنوب حتى خط السور القديم، وقد غطت مدخل القناة الملاحية من بحيرة مريوط إلى داخل المدينة، وكانت هذه القناة تربط الميناءين بالنيل وبالأماكن الأخرى، وكانت هى شريان الحياة فى الإسكندرية، وعليها يعتمد الازدهار التجارى للمدينة، وعبرها تنتقل محاصيل الحبوب من مصر وبضائع الشرق وأفريقيا الآتية عبر النيل عن طريق موانى البحر الأحمر والصحراء الشرقية، وكانت الثغرة الموجودة فى الأسوار والتى تمر خلالها القناة الداخلة إلى المدينة محمية ببوابتين صخريتين ضخمتين شيدتا أثناء عهد الإمبراطور فالينس Valens .

وكانت علاقات الأديرة، وأغلبها أديرة طائفة اليعاقبة، بارزة خارج المدينة ومن حولها، وفى الصحراء، وعلى ضفتى بحيرة مريوط، وكان أهم هذه الأديرة هو دير "إيناتون Ennaton" الذى يبعد حوالى تسعة أميال غرب الإسكندرية، وكان المقر الرئيسى للبطاركة من طائفة اليعاقبة وفى داخل المدينة يحكم البطاركة الملكانيين حكماً مشتركاً مع مندوبى الإمبراطور تحت حماية الحامية العسكرية التابعة للإمبراطور، وتحت حكمهم بنيت العديد من الكنائس الجديدة كشواهد على إيمان الأرثوذكس وثراء الكنيسة الأرثونكسية، وقد بنى إيولوجيوس " كنيسة القديسة مارى دورثيا" بعد كنيسة تترابيلون فى وسط المدينة، قرب نهاية القرن السادس، وهناك كنيسة القديس مرقس الكبرى بالقرب من شاطئ البحر، وهى تحتوى على رفات هذا المبشر The Evanglist - وكنيسة القديس "أثناسيوس" فى أحد نواصى الساحة العامة، أو السوق، وبنيت ثلاث كنائس وسط أطلال السيرابيوم، وكانت كل هذه الكنائس بالإضافة إلى كاتدرائية القديس ثيوناس، بالقرب من البوابة الغربية للمدينة والكنيسة القيصرية Caesareum الكبرى والتى كانت مسرحاً للكثير من حركات الشغب وأعمال القتل، ومبنى تى ديومز Te Deums التى بدأت إنشائه كليوباترا لتخليد ذكرى قيصر وأكمله أوكتافيوس ليكون رمزاً للسلطة الإمبراطورية، وتحول إلى كنيسة فى عهد قسطنطين لكى تكون رمزاً لانتصار المسيحية، والحروب التى خاضها المسيحيون بعد ذلك لتأكيد انشقاقهم ٠

وبمجرد استعادة السيادة الإمبراطورية على مصر، وتوطيد سلطة البطاركة الملكانيين فى الإسكندرية، بدا أن هناك هدنة غير رسمية بين اليونانيين والمصريين، طالما كان السلام مستتبًا، والضرائب مدفوعة، وفرص الازدهار التجارى موفورة دون إزعاج فى جو من التسامح الدينى على مستوى الممارسة فقط، ومع ذلك خصصت كنيسة إنجيليون لليعاقبة، ونتيجة لهجرة أغلب اليعاقبة من الإسكندرية وبقاء الرهبان فى أديرتهم بدلا من تنظيم الاضطرابات فى شوارع الإسكندرية وصل التمرد الدينى الذى كان مستوطناً طوال القرنين الماضيين إلى نهايته تقريباً، وتم إنجاح ذلك بإشاعة روح التنافس الدنيوى فى هذه المدينة التى صارت للمرة الثانية مدينة يونانية، والمشاحنات بين كتائب الحزبين ـ الزرق والخضر ـ التى ارتبطت لفترة طويلة بالخلافات الدينية بين الملكانيين واليعاقبة، صارت ترتبط بتأييد الإمبراطور القائم على عرش السلطة من جانب الزرق، والتأييد لأى منافس آخر قوى كفء كان يأتى من جانب الخضر.

ازدادت المنافسة حدة بسبب ضعف السلطة الإمبريالية بعد موت جيستنيان، وفى فترة حكم خلفائه ـ جيستين **Justin** ، وتيباريوس، وموريس ـ فإن معظم الفتوحات التى حققها قواده والقدر الأكبر من الاستقرار الذى حققه الإداريون تبدد، وقد بدأت هذه العملية أثناء حياته، عندما بليت الإمبراطورية الشرقية بالأوبئة والزلازل وضاعت أجزاء كثيرة منها فى الغرب، وأجزاء فى أفريقيا أثناء فترة حكم خلفائه وأثناء حكم كروسوس **Chrosoes** استأنف الفرس غاراتهم من الشرق، وبدأ البرابرة فى نهب حقول الذرة فى طراقيا، وفى مصر، اندلع العصيان مرة أخرى وهدد جزية الحبوب والتجارة الشرقية، التى كانت تمثل ضرورة دائمة بالنسبة للقسطنطينية فى أوقات المحن حين تحدث الاضطرابات فى الأماكن الأخرى.

ونتيجة لاشتعال القتال بين الخضر والزرق من عام ٦٠٢ فى القسطنطينية تم خلع وقتل الإمبراطور موريس الذى كان يتلقى التأييد من الزرق الذين كانوا يقفون دائماً فى جانب الإمبراطور منذ حكم جيستنيان، وحل محله قائد المائة، فوكاس **Phocas** الذى كان يحظى بدعم وتأييد جماعة الخضر، وأعلن فوكاس إمبراطوراً للشرق والغرب

بعد فترة وجيزة ، وطبقاً لما يقوله جيبون، كان الإمبراطور الجديد شخصًا يفتقد الجاذبية الشخصية عقليًا وبدنيًا.

وبسبب ضآلة جسمه وشكله المشوه، والتصاق حاجبيه الأشعثين، وشعره الأحمر، وذقنه الجرداء، ووجنته المشوهة بندبة هائلة، وجهله بالكتابة والقوانين، فإنه انغمس فى الشهوة والسكر على أعلى مستوى تبيحة الامتيازات وكانت ملذاته الوحشية مهينة وجارحة لأتباعه ومخزية له شخصيًا، ودون أن يتولى مقاليد السلطة كأمير، تخلى فوكاس عن واجب الجندى، وفى عهده منيت أوربا بسلام مشين، وابتليت آسيا بحرب مدمرة(٥) .

وسرعان ما نضجت الثورة فى كل إقليم، وكان أول من تحرك علنًا هو هرقل Heraclius حاكم أفريقيا، فأبحر هرقل الصغير ابن الأكسرخ Exarch بأسطول قاصداً تسالونيكا، متسلحاً بسلطته وبموارد الإقليم العسكرية، ليزحف منها إلى القسطنطينية، انطلق نيكتاس Nectas القائد الأول لجيش اكسرخ، بجيش على الطريق البرى لاستنفاذ الإسكندرية وهى المدينة الثانية ثم مصر أغنى أقاليم الإمبراطورية.

وتقدم نيكتاس نحو الإسكندرية من قورينا عبر الطريق الساحلى وكان تقدمه هذا إشارة لانطلاق المؤامرات والعنف بين فصائل الزرق التى كانت تناصر فوكاس وبين فصائل الخضر التى كانت تناصر المتمردين، وكان الاحتفاظ بالإسكندرية ومصر شيئاً ضرورياً بالنسبة لفوكاس، فأرسل بونوسوس "Bonosus كونت الشرق Count of the East" من أنطاكية إلى مصر ومعه جيش، وفى نفس الوقت نجح نيكتاس فى دخول الإسكندرية من البوابة الغربية بعد معركة انتصر فيها الثوار على جيش الإمبراطور إلى الغرب من المدينة، أما بقية أتباع فوكاس القليلون بما فيهم البطريرك الملكانى إما هربوا أو قتلوا، ألقى المواطنون عموماً بثقلهم إلى جانب نيكتاس وأعدوا المدينة للمقاومة ضد بونوسوس، واحتل نيكتاس دون مقاومة تذكر مختلف المدن التى بها حاميات عسكرية فى الدلتا ووضعها فى حالة دفاع ، ونزل بونوسوس بجيشه عند البلوزيوم (الفرما) بعد أن نزل فى قيصرية على شاطىء سورية، وبعد سلسلة من

المعارك المضنية استعاد سيطرته على الدلتا وزحف إلى الإسكندرية ، حيث كان نيكتاس ينظم المقاومة بمساعدة طائفة الخضر. ودوت الترسانات بضجيج صناعة الأسلحة وتحصنت الأسوار وتم تزويدها بوسائل دفاع قوية.(٦)

جاء الهجوم الأول من أحد قواد بونوسوس على ثغرة السور الجنوبي التي تدخل منها القناة الملاحية إلى المدينة وتم الهجوم بقوارب عائمة فوق الماء، ودمرت هذه القوارب بواسطة الصخور المقذوفة من المنجنيق المنصوب فوق البوابات الصخرية على جانبي القناة، وبذلك فشل الهجوم الأول، ثم وصل بونوسوس نفسه من الشرق، على خط القناة من جهة سكديا **Schedia** وأقام معسكره خارج السور الشرقي للمدينة، وبدأ محاولة للهجوم أحبطت بوابل من قذائف المنجنيق المنطلقة من الأسوار والأبراج، وأثناء حالة الاضطراب الذي أصاب العدو نتيجة لوابل النيران، أبحر نيكتاس إلى الأمام بقواته ورد بونوسوس إلى داخل الدلتا، وبعد مزيد من القتال استعاد حيازة الدلتا وانسحب بونوسوس من مصر، ووصل القسطنطينية في أكتوبر ٦١٠ م في وقت مناسب ليلقى نفس مصير سيده.

وفي نفس الوقت نزل هرقل في تسالونيكا وجمع جيشًا، ومن هناك أبحر إلى القسطنطينية، وفي تلك المدينة وجد مساندة من الخضر، مثلما حدث مع نيكتاس في الإسكندرية ، بينما استأثر فوكاس بولاء الزرق، وبعد معركة بحرية في البسفور، انتصر فيها هرقل، خلع فوكاس وأعدم وتم إعلان هرقل إمبراطوراً .

وعين الإمبراطور الجديد نيكتاس نائبًا لـه على مصر، ويبدو أنه اتبع سياسة مستنيرة وحافظ على السلام بين المصريين واليونانيين، وظل الملكانيون في وضع السيادة في الإسكندرية، لكن البطريرك اليعقوبي اناستاسيوس ترك في سلام، وسمح لـه بالإشراف على بعض الكنائس السكندرية، أما خليفته البطريرك الملكاني ثيودوروس الذي كان مؤيداً لـ فوكاس وقتل عندما دخل نيكتاس المدينة، خلفه البطريرك جون المعروف للأجيال التالية باسم جون موزع الصدقات **John the Almoner** بسبب كرمه لأنه وزع ثروة الكنيسة لصالح أولئك المحتاجين، وحقق الفارق الملحوظ بين كونه معروفاً كقديس لكلتا الكنيستين الملكانية واليعقوبية، وبين موقفه الظاهر في وجه

نيكتاس الذى أراد أن يحول بعض ثروات الكنيسة إلى الصناديق الإمبراطورية وقد مارس جون بجانب سلطته الدينية جزءاً كبيراً من السلطة المدنية.

وقد كانت ثروة البطريركية الملكانية فى ذلك الوقت ثروة ضخمة، وحافظت على أسطولها التجارى، وكونت أقوى شركة فى الإسكندرية، وتحول البطاركة الملكانيون من مجرد كائنات فى البلاط الإمبراطورى إلى بشر فى مثل قوة البطاركة الأرثوذكس وربما أغنى فى الأيام العظيمة لكنيسة الإسكندرية.

وفى نفس الوقت كانت الإمبراطورية مهددة بالغزو الفارسى تحت قيادة "كروزوس" **Chrosoes** وفى العام الخامس من عهد "هرقل" عام ٦١٥ م اجتاح الفرس سورية واحتلوا أورشليم ، وتقدمت عبر آسيا الصغرى على مرمى البصر من القسطنطينية.

وضخ جون موزع الصدقات ثروة كنيسته لإسعاف اللاجئين من أورشليم وإعادة بناء كنائسها بعد ذلك، وفى نفس الوقت استقبل أناستاسيوس بطريرك اليعاقبة فى ديره فى إيناتون **Ennaton** بطريرك اليعاقبة فى أنطاكية ومعه عدد من اللاجئين أغلبهم من الرهبان والعلماء، بعد أن استولى عليها الفرس.

ولكن، لم يمض وقت طويل حتى غزى الفرس مصر نفسها، وبعد أن اجتاحوا أغلب ما تبقى من مصر، فإنهم فرضوا حصاراً على الإسكندرية، ونهبوا وخربوا الأديرة الموجودة فى الضواحى، وفى النهاية استولوا على المدينة عن طريق خدعة حربية، إذ جلبوا عدداً من قوارب الصيد ، وملأوها بجنود متخفين فى ثياب صيادين، وأرسلوهم إلى البحر فى ظلام الليل ، وقبل طلوع الفجر، تسلل القارب الصغير من عرض البحر، ودخل الميناء الغربى، وإلى داخل ميناء كيبيتوس **Kibitos** وخلال بوابات قناة الملاحة المفتوحة والخالية من الحراسة ، وأبحروا فى القناة .

وتحركوا دون إزعاج إلى الجسر الذى يجرى عليه الشارع الرئيسى فى المدينة فوق القناة . وهنا ، فى الظلام الحالك ، رفعوا سيوفهم ونزلوا من السفينة ، واثقين من تنكرهم ، ومروا بهدوء أسفل الشارع الرئيسى تجاه الغرب حتى وصلوا إلى بوابة القمر **Moon gate** وهبطوا على الجنود المطمئنين وقتلوهم، وحدث ذلك فى لحظة، وقبل

إعطاء الإنذار، اندفعوا راجعين إلى البوابات الثقيلة، وبينما بزغ الفجر فوق معابد وقصور الإسكندرية، اندفعت حشود القائد شاهين إلى الداخل وأعلنت انتصار كروسوز **Chrosoes** من فوق الأسوار(٧) .

وعند وصول الفرس إلى المدينة فإن نيكتاس فر من المدينة فى قارب، وجون المتصدق فى سفينة، باختصار، وبعد هذا الخروج غير البطولى مات جون فى أماثوس **Amathus** بقبرص مسقط رأسه، ولم يعرف ماذا حدث لنيكتاس، وكان ذلك فى بداية عام ٦١٨ م، وحكم الفرس مصر والإسكندرية طوال العشر سنوات القادمة، ولم يعرف سوى القليل عن هذه الفترة من تاريخ الإسكندرية، ولكن يبدو أن حكم الفرس كان حكماً خيراً بدرجة معقولة، فتسامحوا مع الديانة المسيحية وكان من الطبيعى تفضيل اليعاقبة على حساب الملكانيين، بسبب علاقتهم مع الإمبراطورية، وفى أثناء الاحتلال الفارسى سمح للبطريرك اليعقوبى أندرونيكوس وخليفته بنيامين أن يقيما فى الإسكندرية.

وبعد ضياع مصر، انخفضت ثروات هرقل بدرجة هائلة حتى بدا أن حدود إمبراطوريته أصبحت محصورة بأسوار عاصمته، التى كان يحاصرها البرابرة من الغرب ، والفرس من الشرق على شواطئ مرمرة **Marmara** وقد فكر فى نقل مقر حكمه إلى قرطاجة، التى ظلت وحدها من بين الأراضى التى كانت خاضعة لسيطرته، ملكًا له، ولكن كان لديه مصدر قوة هائل، يفتقده كل من البرابرة والفرس، وهو البحر وقد مكنه هذا من استعادة السيطرة على ممرات البحر المتوسط ، وفى النهاية، أن يقلب المائدة على الفرس فى الحملة الحاسمة التى شنها عليهم عام ٦٢٣ م وبإلهام من سيرجيوس **Sergius** بطريرك القسطنطينية، وبعد إبرام معاهدة سلام مؤقت مع البرابرة نقل جيشه بحراً إلى خليج إيسوز **Issus** فى الشمال الشرقى للبحر المتوسط حيث تمكن الإسكندر قبل ألف عام تقريباً من تحقيق نصره الحاسم على الفرس، هناك أخذ فى ضرب خطوط اتصال الفرس الممتدة فى هذه الناحية.

وأعقب ذلك سلسلة من الحملات المنتصرة استمرت طوال ست سنوات قادمة ، مما أجبر الفرس على الانسحاب من مصر وآسيا الصغرى، وتم استرداد أنطاكية

والقدس وسورية بالكامل، وتم اجتياح الأراضى الفارسية ، واحتلت عاصمة كروسوز وأُحرق قصره ثم نبح هو نفسه، وفى عام ٨٢٦ م بعد أن ابرم معاهدة مع خليفة كروسوز، عاد "هرقل" منتصراً إلى القسطنطينية ، وهو يحمل الصليب المقدس The holy Rood وأخشاب الصليب الحقيقى الذى أخذه الفرس من بيت المقدس، واستعاده هرقل منهم.

وفى العام التالى ٦٢٩ م ـ غادر هرقل القسطنطينية إلى بيت المقدس فى رحلة شكر وحج ، وهو يحمل الصليب الحقيقى لكى يعيده إلى موطنه الفعلى ، وبعد أن هزم الفرس، كان همه أن يعيد النظام والاستقرار إلى الأراضى الواقعة تحت سلطانه، وكانت هذه الأراضى مهددة دائماً،فى مصر وسورية، بالمنازعات التى اندلعت بين الملكانيين واليعاقبة، لقد تمتع الفصيل الأخير أى اليعاقبة بالازدهار فى ظل الحكم الفارسى للإسكندرية، ولم يعد هناك وجود للسيادة الملكانية أو لسلامة الاتصالات الإمبراطورية أو لهدوء المدينة الثانية للإمبراطورية، وبتأثير من سيرجيوس بطريرك القسطنطينية، قرر هرقل أن يجمع ، فى مصر وسورية بين الإكراه ومحاولة المصالحة، اللاهوتية على أساس الخطوط الأساسية الواردة فى مرسوم الإمبراطور زينو المسمى بالهنوتيكون Henoticon .

أما مصالحة "سيرجيوس" اللاهوتية التى أعدت لرأب الصدع الذى ابتدأ فى خلقيدونية والذى سمى لاحقاً بمبدأ التوحيد Monothelitism قد طرحت مسألة الطبيعة الواحدة أو الطبيعتين للمسيح جانباً، وجزمت بإرادته الواحدة، والتى من المحتمل أن تكون فى الإطار اللاهوتى، مصالحة صادقة وقابلة للتطبيق، بالإضافة إلى أنها كانت من الناحية السياسية مطلوبة بصورة مؤكدة: ولو كان النزاع فعلاً حول مسألة لاهوتية لكان النجاح قد تحققَ لتلك المصالحة، ولكن كما كان يحدث دائمًا، لم يكن الخلاف حول جوهر المسيح وصفاته بل حول حقائق السلطة الإمبراطورية، التى صار من الضرورى استعادتها فى الإسكندرية، حيث صار اليعاقبة، تحت قيادة البطريرك بنيامين فى مرحلة تنامى وصعود وصار الرهبان يتظاهرون مرة أخرى فى الشوارع.

وفى أوائل عام ٦٣١ م، وبعد مفاوضات مطولة فى سورية، وبعد موافقة سيرجيوس، أصدر الإمبراطور هرقل قرارا بتعيين قورش **Cyrus** وهو أسقف نسطورى بطريركًا وحاكمًا للإسكندرية، بتعليمات للتوفيق بين طائفتى الملكانيين واليعاقبة، وطبقا لمصالحة التوحيد ، رسم قورش بطريركاً فى سورية وأرسل إلى الإسكندرية فى جيش لأداء مهمته.

وكان قورش حليفًا للبطريرك الملكانى الذى كان موقعه خاليًا، أما خليفة جون المتصدق، جورج فهو شخصية غير واضحة المعالم ويبدو أنه لم يتول منصبه أبداً، وكانت أراء قورش اللاهوتية لا أهمية لها، فالمسألة هى أنه كان، مثل بروتوريوس وأبوليناريس ، البطاركة الملكانيين الآخرين، مرشحاً من قبل الإمبراطور ، ومفروضاً على شعب الإسكندرية ، وقد قبل السكندريون ذلك منذ عصر جيستنيان وحتى الاحتلال الفارسى، جزئياً بسبب واقع السلطة الإمبراطورية، وجزئيًا بسبب الاضطهادات التى دفعت أغلب اليعاقبة للخروج من المدينة، وجزئياً بسبب الشخصية المسالمة للبطاركة الملكانيين المتأخرين، ولكن الاحتلال الفارسى قضى على البطريركية الملكانية وحطم السلطة الإمبراطورية، واستعاد اليعاقبة حقهم ، وبعد رحيل الفرس لم يطرأ على ذهنهم فكرة الإذعان بهدوء لحاكم بطريركى يفرضه القصر الإمبراطورى، محاطًا بجيش إمبراطورى، أيًا كانت المصالحة التى أتى بها فى إطار الصيغ اللاهوتية، ونتيجة لهذا عادت أعمال الإكراه التى كانت فى عهد "جيستنيان" تمارس من جديد.

انسحب بنيامين بطريرك اليعاقبة من الإسكندرية قبل وصول قورش، وحصن نفسه فى صعيد مصر، ولا يبدو انه بذل جهداً كبيراً للمصالحة مع أى من الجانبين، وفى الإطار اللاهوتى كان الفرق بين المونوفيزم **Monophysitism** وبين المونوثيلتزم **Monothelitism** أدق من الفرق بين المونوفيزم والأرثوذكسية المعلنة فى خلقيدونية، ولكن ضعف السلطة الإمبراطورية والضرورة المتزايدة لاحكام السيطرة الإمبراطورية على مصر أدى إلى اتساع الهوة السياسية بينهما أكثر من ذى قبل.

يبدو أن هذين الاعتبارين السياسى واللاهوتى كانا على وشك أن يصيرا غير لازمين فى وجه عدو قادم ليقضى عل صلاحيتهما، ففى عام ٦٣٢ م، وبعد عام من وصول

قورش إلى الإسكندرية توفى نبى الإسلام محمد فى المدينة ، بعد أن وحد كل قبائل الجزيرة العربية تقريباً تحت راية الإسلام، وخلال عام واحد ، أرسل خليفته أبو بكر الصديق حملة إلى سورية، وفى عام ٦٣٤، وبعد وفاة أبى بكر وتولى عمر بن الخطاب الخلافة من بعده ، هزم الجيش العربى القوات الإمبراطورية فى موقعة اليرموك، وفى عام ٦٣٥ م سقطت دمشق فى أيدى العرب، وفى بداية عام ٦٣٧ م تم الاستيلاء على بيت المقدس بعد حصار طويل، ولم يبق فى سورية غير بضع مدن ساحلية صمدت أمام الغزاة.

وفى عام ٦٣٩ م، وأثناء انشغال العرب بحصار قيصرية **Caesarea** آخر نقطة مقاومة فى سورية، انطلق عمرو بن العاص على رأس جيش صغير قوامه (٤٠٠٠) مقاتل، عبر صحراء سيناء بأوامر من الخليفة رغم تردده نسبياً، لغزو مصر، وسقطت قلعة بيلزيوم فى المقدمة دون مقاومة كبيرة، ثم سار عمرو بحذاء فرع دمياط إلى رأس الدلتا، لكى يحاصر حصن بابليون الذى شيده الرومان على الضفة الشرقية للنيل ، فى الموقع الذى يسمى الآن مصر القديمة، وبسبب تشابك المجرى المائى فى الدلتا، فالطريق الوحيد القابل للاستخدام فى الغزو البرى من سورية، كان يسير بمحاذاة محيط الدلتا الجنوبى الغربى حتى رأسها فى بابليون، ثم الشمال الغربى على طول محيطها إلى الإسكندرية، كان لابد من الاستيلاء على حصن بابليون لتأمين مؤخرة الجيش الغازى، ولذلك كانت الإسكندرية، بالنسبة لغاز بدون قوة بحرية مثل العرب محمية بقوة من العمق.

أما قورش الذى عين من قبل "هرقل" كنائب عنه لكل مصر بالكامل وبطريرك لكنيسة الإسكندرية أيضاً، فقد أشرف على المعارك ضد العدو، وكان عمرو مع جيش صغير، أصغر من أن يهاجم قلعة بابليون، فأرسل إلى الخليفة يطلب تعزيزات وأثناء انتظار التعزيزات، عبر ضفة النيل أمام حصن بابليون وأغار بحملته على الفيوم، وعندما سمع بوصول التعزيزات من سورية، عبر النيل مرة أخرى وانضم إليهم ووصل عدد أفراد هذا الجيش إلى (١٥٠٠٠) جندياً تقريباً وبهذا الجيش أوقع عمرو الرومان فى معركة سهل هيليوبوليس على بعد (١٥) ميلاً شمال شرق بابليون، وانهزم الرومان

وتقهقرت فلوك جيشهم إلى حصن بابليون الذى شرع عمرو بن العاص فى محاصرته وكان ذلك فى شهر يوليو من عام ٦٤٠ وكان العرب يفتقرون إلى المهارة والمعدات فى عمليات الحصار، وبدا وكأن حصن بابليون يمكن أن يصمد بسهولة حتى تصل النجدة الحربية من الإسكندرية، وبينما عسكر جزء من الجيش العربى أمامه، أرسل عمرو الجزء الباقى فى كتائب لنهب القرى المجاورة فى الريف والقيام بغارات وقائية فى اتجاه الإسكندرية، والمعلومات عن الحصار مبتورة ومتناقضة، ولكن يبدو أنه فى أكتوبر من عام ٦٤٠ م ، جاء قورش المعروف لدى المؤرخين العرب باسم "المقوقس" وهو شخصية يلفها الغموض، جاء من الإسكندرية، وبدأ مفاوضات سلام مع عمرو فى جزيرة الروضة، أمام حصن بابليون، وفى مقابل الاستسلام ودفع الجزية، وافق عمرو على أن يترك لسكان مصر حق الاحتفاظ بحياتهم وممتلكاتهم وبحرية العبادة الدينية، وأوضح قورش أن هذه الشروط لابد من عرضها على الإمبراطور واتفقا على هدنة انتظاراً لاتخاذ القرار، ثم عاد قورش إلى الإسكندرية وأرسل شروط عمرو إلى الإمبراطور بتزكية لقبولها، ورد الإمبراطور باستدعاء قورش للحضور شخصياً إلى القسطنطينية لشرح هذه الأمور، وقد بدا الاقتراح غريباً أن يفرض على أغنى إقليم فى الإمبراطورية أن يستسلم لغاز لا يملك إلا عشرة آلاف جندى فقط تحت قيادته، وليس لديه أية تجهيزات للحصار، فى حين كانت كل الحصون سليمة لم يصبها أى ضرر وهناك جيش الإمبراطور موجوداً ويمكن دعمه بالتعزيزات بحراً من القسطنطينية.

ولم يعرف أحد تفاصيل ما دار بين هرقل وقورش فى القسطنطينية، نتيجة لذلك تم عزل قورش من منصبه ونفيه، ورفض الإمبراطور هرقل شروط عمرو، واستؤنفت العداوات فى مصر، واستمر الحصار، ولكن لم تأت أى نجدة من أى مكان فى مصر لقوات الإمبراطور وفى النهاية، وفى يوم الجمعة العظيمة عام ٦٤١ م، وبعد حصار دام ثمانية شهور، اقتحم العرب حصن بابليون واستولوا عليه، وتفرغ عمرو للتحرك إلى الإسكندرية.

وفى القسطنطينية، وقبل حوالي شهرين من سقوط بابليون مات الإمبراطور هرقل فى سن السادسة والستين، منهوكًا بالقلق وخيبة الأمل، وتلى موته المؤامرات المعتادة

على خلافته ، وقد تزوج " هرقل " مرتين ، الأولى من إيودوكسيا، والثانية، سفاحًا من ابنة أخيه "مارتينا"، التى عاشت بعده ، وفى وصيته جعل "مارتينا" وولديه قسطنطين وهرقلون من زوجتيه الأولى والثانية، ورثة للعرش حسب ترتيب أسماءهم.

وكانت الإمبراطورة "مارتينا" امرأة ذات إرادة قوية، وهى التى حكمت الإمبراطورية خلال الشهور الأخيرة من حياة "هرقل"، ولم يكن لديها أى نية لمشاركة التاج الملكى مع ابن زوجها قسطنطين، الذى كان مؤيداً من طائفة الزرق، ومن لاجروس أمين الخزينة الإمبراطورية، ومن فالنتين القائد العام فى آسيا الصغرى، وبسبب هذا التأييد، استبعدت "مارتينا" وأبنها هرقلون من السلطة خلال الفترة القصيرة الباقية من حياة قسطنطين وكان أول عمل قام به قسطنطين هو استدعاء قورش المنفى، وثيودور القائد الإمبراطورى العام فى مصر، إلى القسطنطينية للتشاور حول كيفية التعامل الأفضل مع التهديد الذى تتعرض لـــه الإسكندرية بعد أن سقط حصن بابليون، ولكنه قبل الوصول إلى أى قرار، مات قسطنطين بعد فترة حكم حوالى مائة يوم، ومن المحتمل أن تكون "مارتينا" قد دست له السم وقد استطاعت ومعها ابنها الطفل هرقلون وبمساندة من طائفة الخضر أن تطرد لاجروس وتتولى إدارة شئون الإمبراطورية ، وأعيد قورش إلى منصبه كنائب للإمبراطور على مصر، وفوضت لـــه السلطة فى إقامة سلام مع عمرو بن العاص بنفس الشروط التى سبق أن رفضها هرقل، فعاد هو وثيودور إلى الإسكندرية فى حوالى شهر أغسطس من عام ٦٤١ م ، وبعد بضعة شهور عبر فالنتين البسفور، وخلع "مارتينا" وهرقلون ومؤيدوهما الخضر وتوج كونستانس **Constans** ابن قسطنطين فى القسطنطينية سيداً وحيداً على الإمبراطورية.

وفى نفس الوقت، انعكست الدسائس التى أعقبت وفاة هرقل بالقسطنطينية على المعارك الطائفية بين الزرق والخضر فى الإسكندرية، وتورط فيها دومتيانوس وميناس، القائدان التابعان لـ"ثيودور"، بدلاً من تكريس جهودهما وطاقتهما لمقاومة العرب، انغمسا فى هذه المعارك فعرف دومتيانوس بمناصرة الزرق وميناس بمناصرة الخضر إلى الحد الذى لم تكن فيه هذه المعارك تعبيراً عن التنافس الشخصى بين الرجلين،

اللذين كانا يحتال كل منهما للحصول على منصب خليفة ثيودور فقد بدا أن الخلافات القديمة بين الملكانيين واليعاقبة قد انفجرت من جديد، وبعد سقوط حصن بابليون، وبينما بدأ العرب يتقدمون خلال الدلتا نحو الإسكندرية، نزح سيل من اللاجئين، وأغلبهم من المصريين، وتزاحموا داخل العاصمة، وكان "ميناس" نفسه مصرياً، ومتعاطفاً مع اليعاقبة، وربما تلقى معونة من هؤلاء اللاجئين.

وبمجرد عودة قورش وثيودور من القسطنطينية إلى الإسكندرية، أعيد شيء من النظام، وقام ثيودور بطرد دومتيانوس من منصبه، وعين ميناس قائداً لحامية الإسكندرية، وللوقت انتصر الخضر، وقد أثبتت الأيام أنه نصر لا معنى له.

وقوبل قورش بحفاوة كبيرة عند عودته، ويبدو أنه حاول التوفيق بين الطائفتين، وإن جاء ذلك متأخراً، ولم يشر علنًا إلى مقترحات السلام التى عاد من أجلها إلى الإسكندرية، وبعد بضعة أيام من عودته، وفى مناسبة عيد رفع الصليب الذى احتفل به بعد استعادة بيت المقدس من الفرس، وإعادة الصليب الحقيقى إلى المدينة المقدسة ألقى موعظة حارة مثيرة فى الكنيسة الكبرى بقيصرية وتقدم فى موكب عظيم وهو يحمل قطعة الصليب الحقيقى التى أعطاها له هرقل، وتم فرش طريق قورش بالسجاد، بينما رفرفت الرايات الحريرية، وارتفع دخان البخور، وترددت أصوات التراتيل من جديد [8]، ولم يكن ذلك سوى استعراض فارغ لا معنى لــه، لأن بيت المقدس الذى تم استعادتها من الفرس سقطت فى أيدى العرب الذين كانت تقترب جيوشهم آنذاك نحو الإسكندرية، وانتهت الخدمة فى كنيسة قيصرية، مثل غيرها من الكنائس إلى فوضى، نتيجة للخلاف الصاخب حول المزمور الملائم لإنشاده فى هذا اليوم، ووضع هذا نهاية للهدنة وانفجرت المعارك الطائفية من جديد.

وفى نفس الوقت لم يكن "عمرو" متعجلاً السير نحو الإسكندرية، واستولى على قلعة نيقية **Nikiou** (بالقرب من منوف الحالية) قاطعاً الطريق بين الإسكندرية وبابليون، وفى شهر يوليو تسبب فيضان النيل فى صعوبة الحركة فى أراضى الدلتا، ومن ثم انتظر عمرو فى حصن بابليون حتى ينحسر الفيضان، بينما كان جزء من جيشه مشغولاً بإخضاع صعيد مصر، وهناك استقبل قورش فى شهر نوفمبر عام ٦٤١ م،

الذى جاء لمناقشة شروط السلام، ووقعت المعاهدة على الفور من الجانبين بالشروط التالية:

(١) أن تتوقف جميع أنواع المقاومة فى مصر على الفور.

(٢) هدنة لمدة أحد عشر شهراً، يسمح خلالها لكل القوات الإمبراطورية والموظفين اليونانيين، الذين يرغبون فى مغادرة مصر بالرحيل بحراً من الإسكندرية، وللجنود أن يأخذوا أسلحتهم وعتادهم معهم ، والمدنيين أن يأخذوا معهم منقولاتهم.

(٣) على كل المصريين واليهود واليونانيين، الذين يرغبون فى البقاء، أن يخضعوا للفاتحين، ويجرى اعتبارهم من أهل الذمة ـ مواطنين خاضعين لهم حق الحماية، ولهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ويتم إعفائهم من التجنيد فى الخدمة العسكرية، وأن يدفعوا جزية سنوية عن كل رأس.

(٤) جزية مقدارها (١٢,٠٠٠,٠٠) ديناراً بواقع دينارين عن كل رأس من عدد السكان المقدر فى مصر، يستثنى من ذلك الأطفال، وتدفع هذه الجزية على ثلاثة أقساط قبل انتهاء مهلة الأحد عشر شهراً.

(٥) لا يحق لأى قوات إمبراطورية أن تحاول استعادة مصر بقوة السلاح .

ولم تكن هذه الشروط تخلو من الكرم بالنسبة لشعب مهزوم ولكن كان من الجبن أن يقبل حاكم مصر ونائب الإمبراطور هذه الشروط، والذى كانت عاصمته منيعة لا يطالها أى هجوم برى ولا أن يقبلها ممثل الإمبراطورية الذى مايزال يملك السيطرة على البحر .

وكانت المعاهدة تتطلب التصديق عليها من القسطنطينية وقد حدث هذا فى نهاية شهر نوفمبر بواسطة "هرقلون" وربما كان هذا آخر أعماله الهامة كإمبراطور قبل أن يخلعه فالنتين لصالح كونستانس **Constans** واستقبلت المعاهدة فى مصر كلها بالتسليم، وكان عمرو يرى أن أمامه قتال لابد منه قبل أن يعتبر نفسه سيداً للبلاد.

وفى الإسكندرية، يبدو أن قورش قد حصل فى طريق عودته من بابليون على موافقة المسئولين المدنين والعسكريين قبل أن يقوم بإرسال نص المعاهدة إلى القسطنطينية للتصديق عليها، لكن أخبار الاستسلام نقلت إلى السكندريين كلها عند ظهور الجيش العربى، وهم يحملون رايات الهدنة أمام أسوار المدينة، فقد جاءوا لاستلام القسط الأول من الجزية المنصوص عليها فى المعاهدة، واندفعت الجماهير الغاضبة فى الشوارع غير مصدقة واتجهت إلى قصر رئيس الأساقفة، وفى النهاية عندما خرج إليهم قورش للحظة اندفع الناس نحوه وأخذوا يمطرونه بالحجارة [٩].

وكانت فصاحة قورش واقتناع الحامية الإمبراطورية كافيين لتهدئة الجماهير السكندرية الذين لم يكن لديهم أى نية فى تشكيل حركة مقاومة خاصة بهم، وبذلك وبمجرد أن هدأت الجماهير، خيمت عليهم أحزان جمع القسط الأول من الجزية، وتم جمع الذهب من الكنائس والمتاجر ومن الخزينة بل ومن كل مكان يمكن الحصول على الذهب منه، وقد شحنت هذه الكنوز من البوابة الجنوبية حتى السفن، وقام قورش نفسه بتسليم هذه الحمولة للقائد العربى.

كان ذلك فى شهر ديسمبر من عام ٦٤١، ولم تمضى عشرة أشهر أخرى حتى حل موعد امتلاك العرب للمدينة طبقًا لشروط الهدنة، وفى نفس الوقت عسكر الجيش العربى فى الضواحى انتظارًا لتسليم الجائزة إليهم.

ورغم تغير النظام فى القسطنطينية فلم تجر أى محاولة لإلغاء المعاهدة، وإرسال التعزيزات إلى الإسكندرية، ونقل فالنتين معظم الموظفين نوى الحظوة لدى الإمبراطورة مارتينا، لكنه لم يستطع نقل قورش دون التراجع عن سياسة الاستسلام فى مصر، وبالرغم من أنه يمتلك الوسيلة، إلا أنه كما يبدو كان يفتقد الإرادة ليفعل ذلك ، ومن ثم سمح لقورش أن يبقى فى مكانه، لكى يشرف على جمع الجزية وينظم عملية الانسحاب، وأثناء انشغاله فى هذه المهام عاجله الموت فى أسبوع الآلام **Holyweek** عام ٦٤٢، قبل بستة شهور من انتهاء الهدنة.

لقد تم جلاء القوات الإمبراطورية والموظفين عن الإسكندرية وجلا معها ألف عام من الحضارة اليونانية فى المدينة وحتى بعد دفع جميع أقساط الجزية تبقى ذهب كثير . ولم يعرف أحد كم الكنوز الفنية والمخطوطات التى لا تقدر بثمن، والجواهر، والمطرزات، التى نقلت بحراً إلى القسطنطينية، أو إلى قبرص، والتى صنعت بأيدى المصريين، خلال الشهور الأخيرة من الهدنة؟ لم يكن واضحًا تمامًا من الذى كان مسموحاً لهم بالرحيل، غير الجنود والموظفين، ولكننا نشك فى أن أصحاب الثروات رغبوا فى الخروج، ولم تواجههم صعوبة فى ذلك، أما المعدمون، الجماهير الغفيرة، أى الشعب الذى كان يصرخ بالشعارات ويقذف الحجارة فى الصدامات بين الزرق والخضر، فقد تركوا فى الخلفية، لم يكن بمقدورهم ترتيب وسيلة للخروج ولم يكن لديهم مكان يذهبون إليه، فقد كانت الإسكندرية هى عالمهم ووطنهم أيضاً، خيم الإحباط والكآبة على المدينة خلال أسابيع الهدنة القليلة، وهجرت كثير من الدور، وقل التعجل فى الرحيل من أرصفة الميناء، بينما كانت السفن ترحل الواحدة بعد الأخرى محملة بالرومان المستسلمين وبضائعهم ومنقو لاتهم، وهى تبحر بلا عودة تجاه الشمال [١٠].

وكانت الحامية الإمبراطورية آخر الراحلين، ومن شهر يوليو، وحتى ارتفاع النيل، جاء الجنود من الداخل فى سفن إلى أسفل النيل عبر قناة دراجون **Dragon Canal** التى تربط النيل ببحيرة مريوط ومن البحيرة إلى القناة الملاحية **Ship Canal** عبر بوابات المياه الضخمة، أسفل الجسر الذى يمر عليه الشارع الرئيسى بالإسكندرية، ثم إلى الميناء الغربى حيث كانت السفن الإمبراطورية فى انتظارهم.

فى ١٤ سبتمبر أقيم قداس ثان بكنيسة قيصرية المواجهة للبحر، للاحتفال باستعادة بيت المقدس من أيدى الفرس، وعلى بعد نصف ميل فى الميناء الغربى كانت الحامية العسكرية التى تحرس مؤخرة القوات تستعد للصعود على ظهر السفينة، وبعد ثلاثة أيام أى فى يوم ١٧ سبتمبر، أخذت آخر السفن الإمبراطورية تحت قيادة ثيودور الذى خلف قورش كنائب للإمبراطور فى مصر، أخذت مسارها ببطء إلى خارج الميناء الغربى ثم فردت أشرعتها لتحتضن رياح ايتسيان **Etesian** المنعشة التى حملتها إلى الشمال الشرقى نحو قبرص بعد مرورها بجزيرة فاروس وبالفنار.

وبعد أقل من أسبوعين، انتهت هدنة الأحد عشر شهراً فى ٢٩ سبتمبر سنة ٦٤٢ وفتحت بوابات المدينة على مصراعيها ليدخل عمرو بن العاص وجنوده من محاربى الصحراء.

وهكذا انتهت فترة ألف عام من حياة الإسكندرية كمدينة عظمى، وفى العام التالى جرت محاولة متأخرة وضعيفة من جانب البيزنطيين لاستعادة المدينة لكنها فشلت وقام العرب بضربها، بعد ذلك أخذت أهمية الإسكندرية فى الاضمحلال فأقيمت العاصمة الجديدة لمصر واستمرت فى موقع استراتيجى على رأس الدلتا ، يتحكم فى الطريق البرى بين دلتا النيل وصعيد مصر ، وقد أدى جفاف فرع النيل الكانوبى، وانكماش بحيرة مريوط إلى حرمان الإسكندرية من طريق الوصول إلى النيل وعلى مدى قرون صارت رشيد ودمياط كمناءين عند مصب فرعى النيل تحتلان مكان الإسكندرية كميناء رئيسى، أما الفنار والآثار الإغريقية والرومانية الأخرى فقد انهارت ببطء وصارت خراباً.

وفى بداية القرن التاسع عشر، فتحت نوافذ مصر مرة أخرى لتطل منها على الغرب، نتيجة لحملة نابليون وتم ربط الإسكندرية بالنيل عن طريق قناة ملاحية، وصارت للمرة الثانية هى الميناء الرئيسى لمصر، وبتأثير صناعة القطن أصبحت مكاناً لمنتدى دولى ولثقافة كوزموبوليتانية، ونتيجة لهذا تجدد الاهتمام بالإسكندرية القديمة، بل بالإسكندرية ذاتها وبالعالم كله، وفى مطلع القرن العشرين أنجبت الإسكندرية شاعراً يونانيا كبيراً هو كڤافى **Cavafy** الذى استطاع أن يستعيد فى شعره، وبطرق تستعصى على المحاكاة، شيئاً من رحابة الإسكندرية الغنية فى أيام عصرها الذهبى.

Notes

(1) Neale. op. cit .Vol. II. P. 34

(2) Gibbon. op. cit. Chapter 47.

(3) ibid.

(4) Sharpe. op. cit. Chapter21.

(5) Gibbon. op. cit. Chapter 46.

(6) Butler. The Arab Conquest of Egypt.

(7) ibid.

(8) ibid.

(9) ibid.

(10) ibid.

ملاحق

ملحق ١

الموت على الطريقة السكندرية

شأن الإسكندرية شأن كافة المدن فى مصر ، ترى المدافن فيها أكثرعدداً وأصدق إفصاحاً من أى نصب تذكارية حية فى الحياة اليومية، وبينما لا نعثر على أى آثر باق للفنار أو للقصور البطلمية والمكتبة والمتحف والجمنازيوم وبقية المبانى العظيمة الأخرى للمدينة البطلمية، أو من آثار المعابد والكنائس والمبانى العامة للمدينة الرومانية، فإن آثار المدافن التى كشفت عنها الحفريات خارج أسوار المدينة تغطى فترة حياة المدينة القديمة، منذ إنشائها حتى الفتح العربى. يتصرف اليونانيون إزاء موتاهم مثلنا تماماً، فهم يحرقون جثثهم أو يدفنونها، وفى حالة الحرق فإنهم يضعون رمادها داخل قارورة أو فى إناء من الأوانى الطينية ثم يدفنونها فى جبانة، وفى كلتا الحالتين، كانت القبور تعلم بشواهد حجرية يكتب عليها عادة اسم المتوفى وأصله، وأحياناً ينقش اسمه على الشاهد بحروف بارزة وبه صورة للميت، توجد مئات من هذه الشواهد فى الجبانات حول الإسكندرية القديمة، وقد وجدت هناك قطع مستطيلة الشكل ذات أحجام مختلفة مصنوعة من الحجر الجيرى، كما أن معظم شواهد قبور البطالمة وجدت فى الجبانة الشرقية، ووجدت شواهد قبور الرومان فى الجبانة الغربية، وهذا يرجع بالتأكيد إلى انتشار الضواحى الشرقية فى العصر الرومانى، وكان من نتيجة ذلك تركيز الجبانات على الجانب الغربى للمدينة ، وكانت الجبانات الأولى فى العصر البطلمى تقع فى الشاطبى خارج السور الشرقى للمدينة، أما قبور البطالمة المتأخرة فهى إما فى أقصى الشرق أو أقصى الجنوب، وخلال العهد الرومانى، كانت نيكروبوليس الغربية ـ حيث يوجد الآن القبارى ومفروزة، تستخدم كجبانة للمصريين فى راكوتيس أثناء العهد البطلمى، وربما كانت جبانة لكل أهل المدينة.

تتميز بعض الشواهد البطلمية بالجمال والسحر، تظهر إحداها سيدة جالسة فوق كرسي وهى تصفق بيديها ، ربما وداعًا لصديقة تقف أمامها ـ وقد حفر تحت الصورة اسم سيدتين ـ إزادورا و أرتميس، هناك شاهد جميل آخر محفور عليه صورة موسيقار يعزف على القيثارة، وتحته نقش اسم الموسيقار ـ ثيوفيلوس، شواهد العصر الرومانى تشبهها فى النمط ولكنها تقل عنها فى جاذبية التصميم، لقد وجدوا عدداً من شواهد القبور المسيحية يبدأ تاريخها من القرن الخامس الميلادى فى مواقع أديرة غرب الإسكندرية وعليها نقوش مكتوبة باللغة القبطية، ومحفور عليها رموز مسيحية.

وليس لدينا ما يؤكد إذا كان اليونانيون قد حذوا حذو المصريين فى تحنيط الجثث، وزخرفة القبور وأداء شعائر الدفن، لكن المؤكد أن الإسكندر الأكبر تم تحنيطه، أما بطليموس الرابع وزوجته أرسينوى فقد حرقت جثتيهما وعرضت آنية الدفن للجمهور دلالة على انهما صارا فى عداد الأموات، لآن ظروف موتهما كانت مثيرة للشكوك والريب، ولآن سوسيبوس Sosibous وشركاءه ما كانا لهم أن يتجرءوا على فعل هذا لولا أن حرق الجثث كان طريقة طبيعية للتخلص من بقايا جثث الملوك.

أيًا كانت التقاليد الملكية، فكثير من إغريق الإسكندرية، من الأغنياء على الأرجح، قد اقتبسوا، فى وقت مبكر جداً، عادة أغنياء المصريين فى دفن موتاهم فى قبور صخرية محفورة خصيصاً لهذا الغرض ، وقد وجد فى الشاطبى ما يظهر أنه قبو أو سرداب عائلى a family-vault يتكون من قبر محفور فى الصخر بالأسلوب المصرى، لكنه مشيد على شكل بيت إغريقى من بيوت تلك الفترة، له مدخل على جانبيه أنصاف أعمدة من الطراز الدورى والطراز الأيونى Ionic, وممر قائم الزوايا على المدخل يؤدى إلى فناء، يصل إلى حجرة أمامية، (Prostas) وفى النهاية حجرة داخلية، (Oikos) حجرة الدفن، بها تابوت محفور فى الحجر على شكل سرير عليه مخدات، وواضح أن هذا هو الشكل الأصلى للمقبرة، ومؤخراً أضيفت حجرات دفن إضافية على شكل أوانى ذات أحجام مختلفة مجوفة داخل الصخر ـ القبو الأكبر ربما خصص للأجساد (المحنطة)، والفجوات الأصغر لدفن أوعية الجثث المحروقة، هذه الأوعية أو الأوانى

مسدودة بأقراص من الحجر الجيرى، محفور عليها بخط بارز صورة معبد إغريقى أو مصرى، وأحيانًا عليها نقش.

يبدأ تاريخ مقبرة الشاطبى الصخرية من القرن الثالث ق.م، قبور البطالمة الأخرى الصخرية يبدأ تاريخها من القرن الثانى أو الأول ق.م، وهى تكشف نفس الملامح ، عموماً ، كلما تأخر بنا الزمن، كلما برزت وبصورة أوضح الملامح المصرية بمقارنتها بالملامح الإغريقية، فى أشكال الزخرفة وفى معمار الأعمدة وفتحات الأبواب الخ، ثم فى رسومات الحوائط التى نجت من عوامل الزمن، الواقع أن هذه القبور الصخرية توفر لنا نموذجًا توضيحيًا للتكوين التدريجى لعملية الدمج " amalgam " الإسكندرانية، ففى إحدى المقابر الصخرية، التى وجدت بالورديان، فى نيكربوليس الغربية، والتى يرجح أن تكون من القرن الأول ق.م، يوجد رسم على جدار (وهو موجود الآن بالمتحف اليونانى الرومانى بالإسكندرية) ينقل بدرجة حية وقوية وساحرة، صورة ساقية يديرها ثوران، ورغم أن الموضوع مصرى ، فإن أسلوب الرسم هللينستى بدرجة لا تخطئها العين.

ربما كان أبرز القبور المكتشفة حتى الآن هو مجمع كوم الشقافة بالقرب من الإسكندرية، على بعد مئات قليلة من الياردات غرب موقع السيرابيوم، وهذا يبدأ تاريخه من القرن الثانى ق.م ويحتوى على ثلاثمائة مقبرة تحت الأرض، محفورة فى الصخر، مرتبة فى ثلاث طوابق، يتم الوصول إليها عن طريق نفق عمودى مفرد يبدأ من مستوى سطح الأرض، وتتجمع حول بناء دائرى فوقه قبة، وملحق به قاعات حفلات، فى هذا المجمع توجد مقبرة عائلية رئيسية، تتكون من حجرة أمامية مزخرفة، وحجرة كبيرة واسعة بها ثلاثة توابيت وعليها حفر هللينيستى، والحفر على الحائط يمثل آلهة مصرية وموتيفات دينية ولكنها تكشف عن تأثير هللينستى فى أسلوبها الطبيعى ، إن وضع الموتيفات الدينية الهللينستية جنبًا إلى جنب مع المصرية فى نفس المقبرة إنما يرمز إلى عملية المزج أو الدمج الإسكندرانية، يصعب الجزم عما إذا كانت المقبرة قصد بها أن تكون لعائلة مصرية أو عائلة يونانية، الإجابة المرجحة هى أنه، فى القرن الثانى

الميلادى، كانت التفرقة شيئًا لا معنى له ، فالمقبرة كانت مخصصة للإسكندرانيين ممن يتكلمون اليونانية، الذين لم يعد لهم إيمان بالميثولوجيا اليونانية أكثر من إيمانهم بالميثولوجيا المصرية المعروضة على جدران حجرة المقبرة وعلى التوابيت، لقد حدث هذا الاندماج بين العنصرين فى عادا تهم وتقاليدهم فقط وليس فى أى تركيب بين المعتقدات الدينية التقليدية،

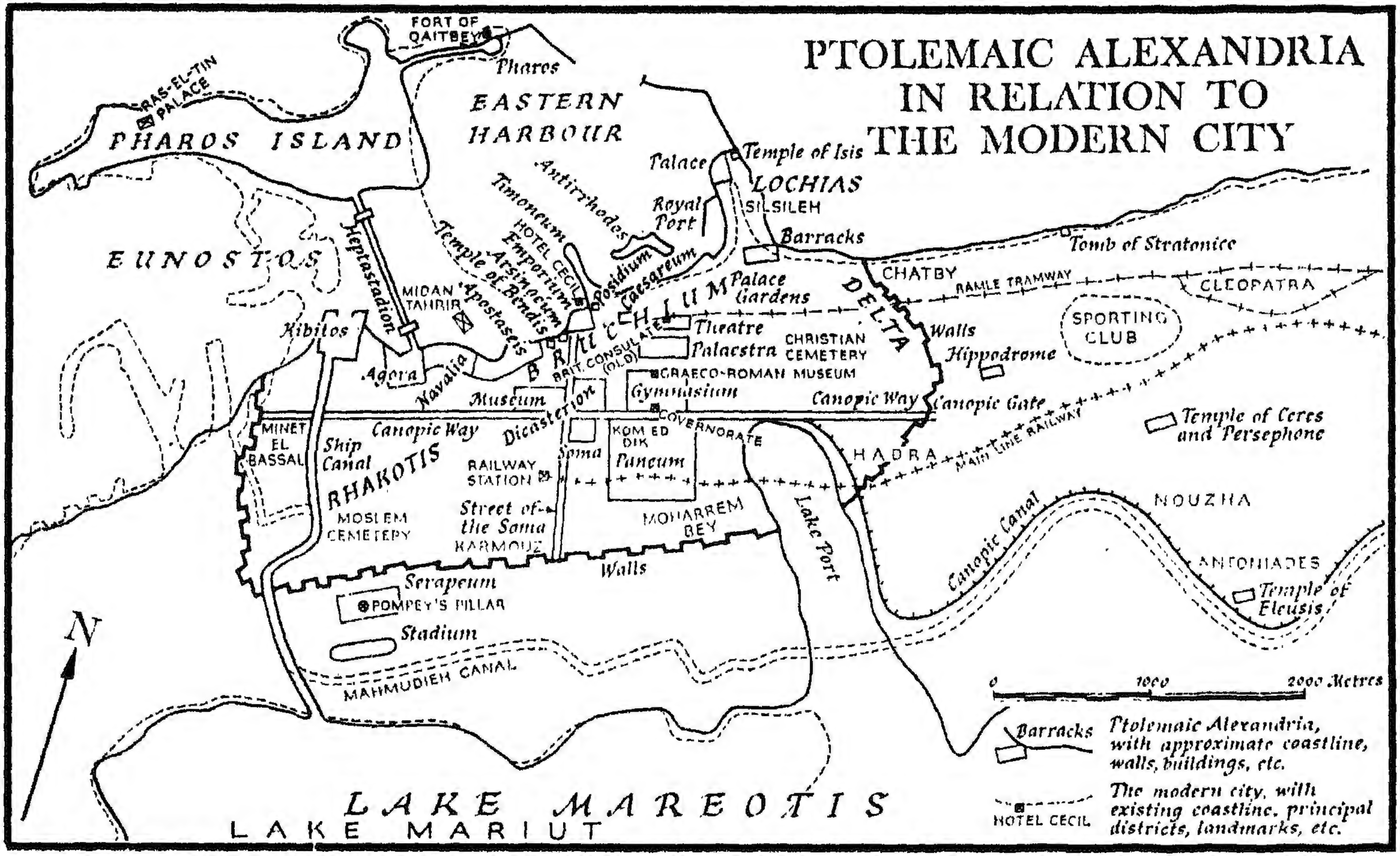
فى كوم الشقاقة، علاوة على غرفة الدفن الرئيسية، نجد عدداً كبيراً من الممرات، بها كوات غير نافذة محفورة فى الصخر على الجانبين ، بعضها كبير بدرجة تكفى لاستقبال جثث الموتى، وبعضها صغير لاستقبال الأوانى التى تحوى رماد الموتى، وهذا كما هو واضح يدل على أن هذا المجمع، كان، أو صار جبانة عامة أو مقبرة عائلية كبيرة **Family Vault** .

أما التوابيت التى كان يدفن فيها أصحاب الثراء العريض والمحبين للتفاخر بعد تحنيطهم، فهى إما من الرخام أو الجرانيت أو البازلت، فالتوابيت الرخامية كانت مزينة بزخارف محفورة بحروف بارزة، عليها مناظر من الميثولوجيا اليونانية على الجوانب والأطراف، وأحياناً تحفر الزخرفة على الغطاء، وأحد التوابيت الرخامية البيضاء من العصر الرومانى، الموجود فى أبى قير، (كانوب القديمة)، محفور على غطائه الرخامى الأبيض صورة فى حجم شخص حى لرجل ينحنى نصف انحناءة ، وفى أحد يديه كأس له قاعدة ، وفى اليد الأخرى باقة من الزهور.

وكانت عادة المصريين فى وضع بعض حاجات الميت الصغيرة معه فى القبر متبعة، فى المقابر الصخرية وفى غيرها من المقابر الأقل ثراء ــ أغلب التماثيل الصغيرة المصنوعة من الفخار والتى كانت تجسد أحد ملامح الفنون المنزلية فى زمن البطالمة، قد استخرجت من مقابر نيكربوليس الشرقية.

لا حاجة للادعاء بأن اقتباس الإغريق لأسلوب المصريين فى دفن الموتى، بالدرجة التى تم بها الاقتباس يعطى دليلاً على أى تحول نحو العقيدة المصرية فى خلود الروح،

كذلك لا ضرورة للقول بأن عمليات التحنيط والدفن الباهظة التكاليف لأثرياء الأمريكيين متأثرة بأى إيمان فى العقيدة المسيحية الخاصة بالخلود، بل الأغلب سواء فى الحالة الأولى أو الثانية إنها مسألة ذاتية بحتة لدى الأغنياء ورجال المال، الذين يصرون فى مناسبات الحياة أو الموت على تأكيد أهميتهم باستخدام أغلى الوسائل الممكنة فى السكن والملبس، والخدمة والدهان بالزيت والعطور.



PTOLEMAIC ALEXANDRIA IN RELATION TO THE MODERN CITY

ملحق ٢

طبوغرافية الإسكندرية البطلمية وعلاقتها بالمدينة الحديثة

ليس لدينا سوى القليل من المعلومات المؤكدة نسبيًا حول هذا الموضوع، ومصادرنا هى:

(أ) روايات الكتاب الرومان، وأهمهم استرابو .

(ب) من الآثار الباقية أو التى اكتشفت، فى مواقعها، هناك ثلاث نقاط للمرجعية - ثلاث مبانى قديمة مواقعها معروفة بصورة مؤكدة ـ بحيث يمكن بناء خطة نظرية حولها، إن الفاروس (الفنار) كان فى مكان قلعة قايتباى **Qaitbey** حول قاعدته الموجودة تحت البحر يمكن رؤية، قطع أعمدة الجرانيت التى كانت تكون رواق الأعمدة المحيطة بالقاعدة، أما السيرابيوم فكان موجوداً فى المكان الذى يقف فيه الآن عمود بومبى، هذه الحقيقة، كانت مقبولة بصورة عادية، وقد تأكدت صحتها الآن نتيجة الاكتشافات التى قام بها مستر الآن روى **Mr Alan Rowe** ١٩٤٢، أما قيصرية أو معبد قيصر فكانت فى الموقع الذى تحتله محطة ترام الرمل الآن ، وهذه حقيقة راسخة لآن المسلتين التى أقامتهما كليوباترا أو أوكتاڤيوس فى الجانب المواجه للبحر ما زالتا موجودتان فى موقعهما ـ وان كانت إحداهما قد انهارت ـ مؤخراً فى عام ١٨٧٧ ، عند نقل ـ إحداهما إلى لندن حيث لا تزال قائمة على ضفة النهر وتعرف باسم كليوباترا **Cleopatra's Needle** والثانية إلى نيويورك، هناك صورة فوتوغرافية موجودة، أخذت عام ١٨٧٧، للمسلتين فى موقعهما، وهذا يمكننا من تحديد موقعهما بدقة بالنسبة للمدينة الجديدة.

اعتماداً على هذه النقاط المرجعية، وبإضافة بعض خطوط المدينة القديمة إلى خريطة المدينة الحديثة، مع تصغيرها بنفس مقياس رسم الخريطة الحديثة، يمكننا أن نحدد اختياراتنا التى تظهر على الخريطة المرفقة بهذا الكلام.

هناك عدد من الخرائط المنشورة للمدينة القديمة ومنها درست الآتى:

١ – **Carte de L' Antique Alexandrie** خريطة الإسكندرية القديمة التى رسمها محمود بيه الفلكى، فلكى صاحب السمو الخديوى إسماعيل، فى كتاب نشر فى كوبنهاجن عام ١٨٦٦ م (وأعيد طبعها شكل ٧ المقابل لصفحة ٥٠ فى الطبعة الفرنسية التى نشرها السينيور بريكشيا)

Sig " EV " Brecchia's Alexandrea ad Aegyptum, Published in 1914 by the Instituto Italiano d'Arti Graiche, Bergamo)

٢ – **Alexandrie Ancienne** الاسكندرية القديمة رسمها نيروتسوس بيه **Neroutsos** فى كتاب قام بنشره ، بنفس العنوان فى باريس ١٨٨٨ م (أعيد نشرها فى شكل ٩ مقابل صـ ٥٦ فى كتاب بريكشيا).

٣ – **Carte de L'Antique Alexandrie-** وضعها جـ بوتى، **G. Booti,** أول مدير للمتحف اليونانى الرومانى فى الإسكندرية، عام ١٨٩٨ (وأعيد نشرها فى شكل ١٠ ، مقابل صـ ٥٨ فى كتاب بريكشيا) السالف الذكر.

٤ – **Karte des Atlen Alexandrien** وضعها ويلهلم سيجلن **Wilhelm Sieglin** فى عام ١٩٠٧ (وأعيد نشرها برقم ٨ مقابل صـ ٥٢ فى كتاب بريكشيا) .

٥ – **Alexandrie, Plan de la ville Ancienne et Moderne**

الإسكندرية خريطة المدينة القديمة والحديثة، أعدها بريكشيا **Brecchia** وضمنها كتابه **Alexandrea ad Agyptum** فى الورقة الأخيرة بالكتاب.

هناك اتفاق عام على أن الطريقين العرضيين، طريق كانوب وشارع الصوما **Soma** اللذان يتقاطعان فى نقطة بالقرب من وسط المدينة البطلمية، كانا يسيران

بمحاذاة الخطوط العامة لشارع طريق الحرية الحالى (فؤاد الأول سابقًا) من الشرق إلى الغرب، وشارع النبى دانيال من الشمال إلى الجنوب ، فى داخل هذا الإطار، وبناء على افتراضات الفلكى، التى تعتبر جيدة بشكل عام، فإنه كان هناك أحد عشرة طريقاً من الشمال إلى الجنوب وسبع طرق من الشرق إلى الغرب وبناء على ذلك يمكن لنا أن نمضى فى رسم خريطتنا .

ليس ثمة جدال حول التطابق بين رأس لوكياس، حيث بنى قصر البطالمة، وأقيم رأس السلسلة الحديثة، مع أن السلسلة تحتل مساحة من الأرض أقل مما كان يحتل رأس لوكياس بسبب زحف البحر، إضافة إلى قصر البطالمة، هناك أثر كليوباترا، والأرجح انه كان معبداً لإيزيس، بنى على رأس لوكياس، وعلى الجانب الغربى للرأس ميناء ملكى صغير، مفتوح على الميناء الغربى، أما على الجانب الشرقى فكان هناك ثكنات الحرس المقدونى الخاص الذى يحمى مدخل القصر، أما الجزء المواجه للماء والأرض التى تقع وراء البحر إلى جنوب وغرب رأس لوكياس فكانت تحتلها حدائق القصر ، فى هذه الحدائق كان يوجد مسرح ديونيسيوس، متصل بالقصر، بطريق مغطى يسمى سيرنكس **Syrinx** وهو الذى بناه البطالمة الأوائل لإقامة الحفلات المسرحية والذى استخدمه يوليوس قيصر كمركز لقيادته أثناء حرب الإسكندرية ، وكان يقع على تل صغير يطل على الميناء الشرقى وربما كان الموقع الذى يحتله الآن ملعب الكرة الحالى خلف القنصلية البريطانية ، حيث تجرى الحفريات الآن (١٩٧١) هذا الملعب يقع على تل طبيعى ارتفاعه خمسين قدماً فوق مستوى البحر، وأمام المسرح مباشرة على مسافة عدة ياردات قليلة خارج الميناء الشرقى، كانت هناك جزيرة انترهودز **Antirhodos** الصغيرة والتى يمكن رؤية الأجزاء المغمورة منها فى الماء، وفوق هذه الجزيرة كان هناك قصر ملكى وميناء صغير بناهما البطالمة، أما بوزايدون **Posideion** أو معبد نبتون **Neptune** فكان عند قاعدة رأس بحرى صغير، اختفى الآن، يقع مباشرة شمال محطة ترام الرمل الحالية بين الموقع الذى سمى فيما بعد قيصرية **Caesareum** أى معبد قيصر وبين البحر، ومن المرجح أن ذلك المعبد قد اختفى فى عهد كليوباترا وكانت قيصرية بمعنى ما بديلاً عنه، وعند طرف الرأس

البحرى الصغير كان يوجد معبد تيمونيوم **Timoneum** أو معبد النساك والذى سكنه أنطونيو لفترة قصيرة بعد هزيمته فى اكتيوم، أما السوق **The Emporium** أو البورصة **Bourse** فكانت على المجانب المواجه للماء مباشرة غرب هذه الرأس وحيث يوجد ميدان سعد زغلول الآن.

وقد أقيم جزء من المدينة الحديثة فوق الأرض المستصلحة ضمن منهج ترسيب الطمى على جانبى الهيبتاستيون **Heptastadion,** وربما تقدمت هذه العملية فى زمن الفتح العربى لكنها قد بدأت فى عهد يوليوس قيصر حينما كان هناك اتصال بين الميناء الشرقى، والميناء الغربى عبر الجسرين المقامين على الهيبتاستاديون، وفى عصور البطالمة، كان الساحل يسمح لرأس لوكياس أن تحتل مساحة واسعة من الأرض بالمقارنة بمساحة السلسلة، وبسبب اختفاء هذه الرأس الصغيرة التى أقيم عليها معبد التيمونيوم فإنه يلتقى تقريبًا مع خط الساحل الحالى إلى الغرب حتى ميدان سعد زغلول، حيث كان (السوق) ومن هناك فى اتجاه الغرب تأخذ المسار التالى:

من الغرفة التجارية المصرية عند الطرف الغربى لميدان سعد زغلول حتى البورصة القديمة (الآن المقر الرئيسى للاتحاد الاشتراكى العربى بالإسكندرية) فى الطرف الجنوبى لميدان التحرير (قصر محمد على سابقًا) ومنها إلى كيبيتوس **Kibitos** (الميناء الداخلى) الواقع حاليًا بين مصلحة الجمارك وشارع باب الأخضر، وقد امتدت بعد ذلك كما هى الآن تقريباً.

جسرالهيبتاستاديون **Hepastadion** كان يبدأ حيث يوجد شارع الجزيار الآن (أناستاسيا- سابقًا) ويتجه نحو الشمال الشرقى إلى جزيرة فاروس فى منتصف المسافة بين شارعى البحرية والنقراشى وموازياً لهما، والشاطئ الجنوبى لجزيرة فاروس، كان يمتد على خط شارع رأس التين تقريباً متجهًا إلى ثكنات رأس التين، وبين السوق **Emporium** والهيبتاستاديون **Heptastadion** بمحاذاة واجهة البحر التى تابعناها حتى الآن ، نقرأ من الشرق إلى الغرب، **Apostaseis** أو مخازن الجمرك ، معبد أرسينوى **Arsinoeum** الذى أقامه بطليموس الثانى تخليداً لذكرى أخته وزوجته

المؤلهة بعد رحيلها، ثم معبد بنديس The Temple of Bendis وأحواض بناء السفن Navalia ، وإلى الغرب من الهيبتا ستاديون Heptastadion فيما بين قنطرة العبور causeaway وكيبيتوس Kibitos ، أو الميناء الداخلى توجد أرصفة الميناء.

ثمة شك حول موقع المتحف والمكتبة، والراجح أنهما كانا قريبين من بعضهما البعض أو كانا متجاورين وكان يقعان بالتأكيد فى حى البروكيوم Brochium, لكن لا أحد يعرف كم كان طول امتداد البروكيوم، بعض الكتاب وضعوا المتحف والمكتبة فى حدائق القصر الملكى ، جنوب غرب رأس لوكياس البحرى مباشرة، ومعضلة هذا الافتراض أنه لا يوجد فضاء، (هناك فقط ربع ميل بين السلسلة والموقع المحتمل لمسرح ديونيسيوس، وربع ميل آخر بين ذاك المكان وبين قيصرية ، أهم الافتراضات البديلة، التى تتفق مع بعض الشواهد الآركيولوجية الضعيفة كما تتفق مع الأدلة التى تقول أن المكتبة قد احترقت أثناء حرب الإسكندرية، هو أن الموقع فى الركن الشمالى الغربى للتقاطع المحورى الكبير وهذا يضعها فى المستطيل الذى يحده شارع سعد زغلول من الشمال، وشارع سيدى المتولى من الجنوب، وشارع النبى دانيال من الشرق وشارع جوهر القائد فى الغرب، فى الإسكندرية القديمة كان الجزء الشمالى من الموقع متاخماً لمستودعات الجمرك، على واجهة البحر، وافتراض أن المكتبة قد شغلت هذا الجزء من الموقع، سوف يفسر لنا سر احتراقها فى حرب الإسكندرية، عندما أشعل قيصر النار فى سفن الأسطول المصرى وامتدت منها إلى المخازن أو مستودعات الجمرك.

الصوما Soma أو ضريح الإسكندر الأكبر، يعتقد عادة انه كان يقع عند التقاطع المحورى فى الركن الجنوبى الشرقى للتقاطع حيث يوجد الآن مسجد النبى دانيال، أما الركن الشمالى الشرقى من التقاطع، أى المنطقة بين طريق الحرية وشارع الشهيد صلاح مصطفى، كان يشغلها غالباً قصر العدالة Dicasterion الذى كانت تحيط به الغابات، وإذا اتجهنا شرقاً من التقاطع الرئيسى، فإن البانيوم Paneum معبد الإله بان Pan كان على وجه التأكيد قائماً فوق التل الطبيعى المعروف الآن باسم كوم الدكة على الجانب الجنوبى لطريق الحرية، وربما كان الجمنازيوم على الجانب الشمالى لطريق الحرية أيضاً بين مبنى المحافظة حالياً وبين الحدائق العامة، ربما كانت

الباليسترا Palaestra تقع بين الجمنازيوم وبين مسرح ديونيسيوس بالقرب من موقع المتحف اليونانى الرومانى الآن.

القناة الملاحية التى تمتد بين بحيرة مريوط وبين جزيرة كيبيتوس Kibitos كانت على ما يبدو تسير تقريبًا فى خط ترعة المحمودية الحالية حيث تتجه جنوباً نحو الميناء إلى نقطة جنوب شارع شريف مباشرة (الخديوى الأول سابقًا) حيث تأخذ.ترعة المحمودية انحرافاً حاداً نحو الغرب باتجاه طريق الكوبرى الذى يجرى فوقه الطريق الرئيسى المتجه إلى الصحراء الغربية (شارع السبع بنات والمعروف جيداً للأوربيين باسم (Rue des Soeurs) ولابد انه سار من هناك نحو الشمال خلف مخازن القطن الحالية التابعة لميناء البصل حتى يصل إلى كيبيتوس Kibitos ويقطعه من فوق أحد الكبارى و طريق كانوب Canopic way عند الركن الشمالى الغربى لحى ميناء البصل الحالى ، أما البوابة الغربية ، أو بوابة القمر The Moon Gate التى يمر من عبرها طريق كانوب نحو سور المدينة كانت تقع فى مكان ما بالقرب من هويس المياه الحالى عند ملتقى ترعة المحمودية والميناء.

ربما يتفق شاطئ بحيرة مريوط الشمالى الحالى مع ما كان عليه هذا الشاطئ قديما رغم أن الأخير كان يمتد نحو الشرق ونحو الغرب بدرجة أكبر من البحيرة الحالية، هناك بعض الخلافات فى الرأى حول موقع ميناء البحيرة فالطريق الرئيسى الخاص بالاستيراد والتصدير كان يمر عبر القناة الملاحية The ship canal لكن كان للبحيرة أيضاً ميناءها Port Lake ، وأفضل هذه الآراء يقول إن الميناء كانت على رأس مدخل البحيرة الذى كان يمتد شمالاً من البحيرة بين حى الحضرة الحالى وبين حى محرم بيه حتى يصل إلى التقاطع الموجود فى الوقت الحالى بين طريق الحرية وبين شارع قناة السويس، حيث توجد الحدائق العامة الآن، أو فى نطاق الإسكندرية القديمة ، وكان يمتد شمالاً حتى طريق كانوب.

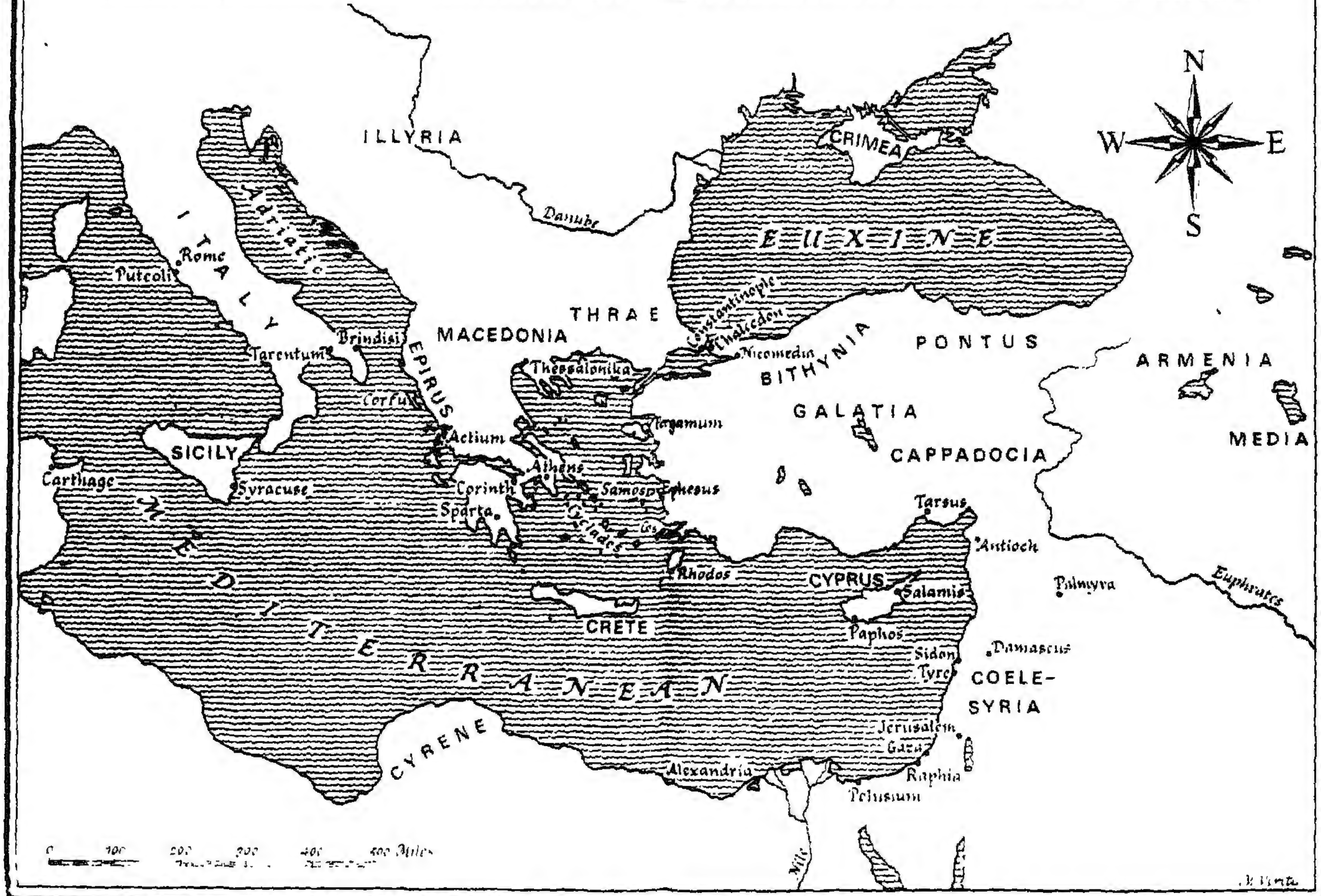
منذ تأسيس هذه المدينة، كانت إمدادات مياه الشرب تأتيها عن طريق قناة تجرى من كانوبس Canopus, على فرع النيل الكانوبى، بالقرب من مصبه ،(وقد مد أوكتافيوس هذه القناة بإجراء فرع إلى سكديا Schedia ، أعلى فرع الكانوب، ربما

لكى تزيد من كميات المياه اللازمة للشرب، هذه القناة التى كانت تسير فى الخط التقريبى لترعة المحمودية، وتستدير شمالاً بمحاذاة البحيرة شرق مدخلها مباشرة، ثم تواصل سيرها حول رأس المدخل وتجرى نحو الغرب ثم جنوباً فغربًا عبر حى راكوتيس **Rhakotis** وفى النهاية تصب ماءها فى الميناء الغربى **Western Harbour,** وعند النقطة التى تدخل منها المدينة، يحول جزء من مجراها إلى قنوات تحت الأرض تجرى تحت شوارع حى البروكيوم وتزود صهاريج المياه المقامة أسفل المبانى الرئيسية، لقد تم اكتشاف آثار الصهاريج، التى كانت تتميز بقدرتها على تزويد سكان تلك المناطق بمياه الشرب النقية بعد تصفيتها من طمى النهر الذى كان يترسب عند القاع .

أما السكان المصريون فى حى راكوتيس، الذى كانت تمر من خلاله القناة المفتوحة فكانوا مضطرين إلى الاعتماد على مياه غير نقية.

لقد تم تقدير محيط الأسوار البطلمية بحوالى خمسة عشر كيلو متراً، كانت تمتد فى الطريق التالى على وجه التقريب، من الشمال إلى الجنوب باتجاه عقرب الساعة، وفى نطاق المدينة الحديثة، فإنها تبدأ من البحر فى الجانب الشرقى: من كازينو الشاطبى إلى الجنوب الشرقى حتى الحد الغربى لنادى اسبورتنج ،، ومن هناك تتجه جنوباً إلى طريق كانوب، أو البوابة الشرقية **Eastern Gate** التى تقع حيث منطقة عبور كوبرى السكة الحديد لشارع الشهيد جوهر حسنى عند بداية الطريق الزراعى إلى القاهرة ثم يسير إلى الجنوب الغربى داخل حى الحضرة حتى الشاطئ الشرقى لمدخل البحيرة، عند موقع سجن الحضرة الآن، ثم من الشاطئ الغربى للمدخل، غرباً إلى الجنوب الغربى تقريباً داخل محرم بيه والجبانة الإسلامية **MoslemCemetry** عبر ترعة المحمودية حتى محطة حديد القبارى، ثم إلى الشمال الغربى حتى البحر على طول خط سكة حديد الميناء الحالى

ALEXANDRIA IN RELATION TO THE MEDITERRANEAN WORLD



مؤلف الكتاب

ليس لدينا معلومات كافية عن « جون مارلو » صاحب كتاب « العصر الذهبى للإسكندرية » غير إشارة فى صدر الكتاب يشكر فيها المؤلف داوود داوود رئيس جمعية الآثار بالإسكندرية الذى أتاح له فرصة إدارة مكتب الجمعية وساعده بعلمه وخبرته فى موضوع هذا الكتاب ، لكن قائمة كتب المؤلف تضم عددا كبيرا من الكتب المهمة منها :

١ – الثورة فى فلسطين .

٢ – العلاقات المصرية البريطانية ١٨٠٠ – ١٩٥٣

٣ – التقليد البيوريتانى فى حياة المجتمع الإنجليزى .

٤ – كرسى بيلاطس .

٥ – القومية العربية والاستعمار البريطانى .

٦ – الخليج الفارسى فى القرن العشرين .

٧ – إيران – دليل سياسى موجز .

٨ – مشروع قناة السويس .

٩ – أربعة وجوه لمصر .

١٠ – حياة السير أرنولد تالبوت : أواخر العصر الفيكتورى .

١١ – بعثة إلى الخرطوم .

١٢ – كرومر فى مصر .

هذه الكتب إن دلت على شىء فإنما تدل على اهتمام هذا المؤرخ وتركيزه على دراسة مشاكل الشرق الأوسط والعلاقات بين دول المنطقة والقوى الدولية الأخرى وفى مقدمتها بريطانيا . ولاشك أن هذا التركيز قد أضفى على كتابه « العصر الذهبى للإسكندرية » عمقاً وشمولاً جديرين بالتقدير .

مترجم الكتاب

نسيم مجلى

ناقد وكاتب مسرح

مؤلفات :

(أ) دراسات نقدية :

١- المسرح وقضايا الحرية	الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٤
٢ - قضايا الإبداع والنقد	الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦
٣ - أمل دنقل - أمير شعراء الرفض	المركز القومى للابداع ١٩٨٨
٤ - ابن سينا القرن العشرين (جراح العظام - محمد كامل حسين)	الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨
٥ - لويس عوض ومعاركه الأدبية	الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٥
٦ - صدام الاصالة والمعاصرة (لويس وشاكر)	كتاب الأهالى ١٩٩٨
٧ - لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة لابن مماتى - تحقيق وتقديم	الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠

(ب) مسرحيات :

١ - القضية	الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٨
٢ - المجنونة	الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨
٣ - لقاء على القنال	مجلة آفاق المسرح ١٩٩٩

(ج) مترجمات إلى العربية :

١ - بريخت	الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢
٢ - الحب عند الفرنسيين	مجلة الهلال عددى مايو ، يونيه ١٩٧٧
٣ - الأسد والجوهرة - تأليف : وول شوينكا	المسرح العالمى للكويت ١٩٩٧
٤ - القديس مرقس وتأسيس كنيسة الإسكندرية تاريخ المصريين -	الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩
٥ - حصاد كونجى - تأليف : وول شوينكا	المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
٦ - سكان المستنقع - تأليف : وول شوينكا	المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
٧ - ترجمة عشرين مدخلا فى الموسوعة العربية العالمية	مؤسسة نشر الموسوعة - السعودية ١٩٩٦
٨ - فرانز كافكا - تأليف رونالد جراى	المشروع القومى للترجمة ٢٠٠٠
٩ - محاكمة سقراط - تأليف : أى . أف . ستون	المشروع القومى للترجمة - ٢٠٠١
١٠ - سالومى - تأليف : أوسكار وايلد	

مراجعة الترجمات التالية :

١ - مجال الدراما - تأليف : مارتن أسلن	مهرجان المسرح التجريبى ١٩٩٢
٢ - مسرح الشارع - تأليف : آلان ماكدونالد ستيفن ستيكى	الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩
٣ - مسرحيتى : محنة الأخ جيرو وتحول الأخ جيرو »	سلسلة مسرحيات عالمية بالكويت ٢٠٠٠

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرنانذو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوپرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي — مجموعة من النقاد — ت : محمود علي مكي

١٠٩ – حروب المياه — جون بولوك وعادل درويش — ت : هاشم أحمد محمد

١١٠ – النساء في العالم النامي — حسنة بيجوم — ت : منى قطان

١١١ – المرأة والجريمة — فرانسيس هيندسون — ت : ريهام حسين إبراهيم

١١٢ – الاحتجاج الهادئ — أرلين علوى ماكليود — ت : إكرام يوسف

١١٣ – راية التمرد — سادي بلانت — ت : أحمد حسان

١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع — وول شوينكا — ت : نسيم مجلي

١١٥ – غرفة تخص المرء وحده — فرجينيا وولف — ت : سمية رمضان

١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) — سينثيا نلسون — ت : نهاد أحمد سالم

١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام — ليلى أحمد — ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال

١١٨ – النهضة النسائية في مصر — بث بارون — ت : لميس النقاش

١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق — أميرة الأزهري سنبل — ت : بإشراف/ رؤوف عباس

١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط — ليلى أبو لغد — ت : نخبة من المترجمين

١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية — فاطمة موسى — ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال

١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان — جوزيف فوجت — ت : منيرة كروان

١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية — نيقل الكسندر وفنادولينا — ت: أنور محمد إبراهيم

١٢٤ – الفجر الكاذب — جون جراي — ت : أحمد فؤاد بلبع

١٢٥ – التحليل الموسيقي — سيدريك ثورب ديڤي — ت : سمحه الخولي

١٢٦ – فعل القراءة — ڤولفانج إيسر — ت : عبد الوهاب علوب

١٢٧ – إرهاب — صفاء فتحي — ت : بشير السباعي

١٢٨ – الأدب المقارن — سوزان باسنيت — ت : أميرة حسن نويرة

١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة — ماريا دولورس أسيس جاروته — ت : محمد أبو العطا وآخرون

١٣٠ – الشرق يصعد ثانية — أندريه جوندر فرانك — ت : شوقي جلال

١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) — مجموعة من المؤلفين — ت : لويس بقطر

١٣٢ – ثقافة العولمة — مايك فيذرستون — ت : عبد الوهاب علوب

١٣٣ – الخوف من المرايا — طارق علي — ت : طلعت الشايب

١٣٤ – تشريح حضارة — باري ج. كيمب — ت : أحمد محمود

١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) — ت. س. إليوت — ت : ماهر شفيق فريد

١٣٦ – فلاحو الباشا — كينيث كونو — ت : سحر توفيق

١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية — جوزيف ماري مواريه — ت : كاميليا صبحي

١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف — إيڤلينا تاروني — ت : وجيه سمعان عبد المسيح

١٣٩ – پارسيڤال — ريشارد ڤاجنر — ت : مصطفى ماهر

١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار — هربرت ميسن — ت : أمل الجبوري

١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية — مجموعة من المؤلفين — ت : نعيم عطية

١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل — أ. م. فورستر — ت : حسن بيومي

١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي — ديريك لايدار — ت : عدلي السمري

١٤٤ – صاحبة اللوكاندة — كارلو جولدوني — ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت . أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى آنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت . عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف . محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت . شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت · إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألڤين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	پول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابند	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا بيف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربى	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسوريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوچيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت :كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	ديليو. إيوجين كليناور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ - عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ - الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ - لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ - عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ - متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ - فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ - تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ - اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ - قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ - سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ - العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ - الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ - الركض خلف الزمن	بوته ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ - سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ - الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ - المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ - بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ - مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ - قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ - الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ - الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ - التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ - الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ - متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ - أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ - محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ - تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ - حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ - حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ - سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

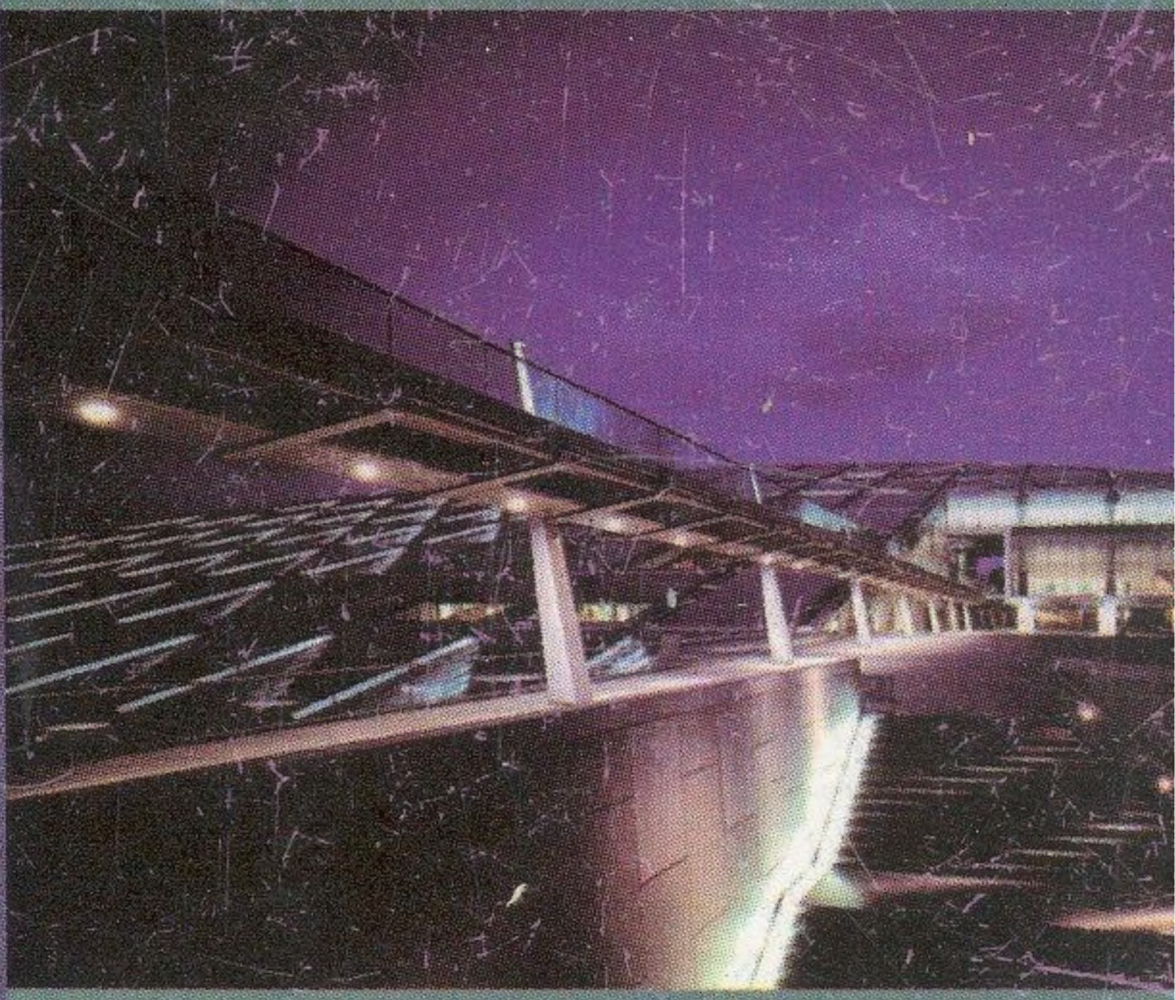
٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	توبور شتورم	ت : عماد حسن بكر

٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠– خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة
٤١١ – همس من الماضى	جينيفر آكرمان	ت : أحمد مستجير
٤١٢ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى بروفنسال	ت : نخبة
٤١٣ – أغنيات المنفى	ناظم حكمت	ت : محمد البخارى
٤١٤ – الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	ت : أمل الصبان
٤١٥ – صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	ت : أحمد كامل عبد الرحيم
٤١٦ – مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	ت : مصطفى بدوى
٤١٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٥	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤١٨ – سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	ت : عبد الرحمن الشيخ
٤١٩ – العصر الذهبى للإسكندرية	جون مارلو	ت : نسيم مجلى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٩٠٥٤ / ٢٠٠٢

العصر الذهبى للإسكندرية



المجلس الأعلى للثقافة

ففى القرن السابع، فى وقت الفتح العربى، كانت الإسكندرية لا تزال أجمل مدن العالم على الرغم من ذهاب الكثير من مجدها الغابر. فقد كانت الإسكندرية - منذ أن أنشأها الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ ق.م حتى غزاها أكتافيوس قيصر فى ٣٠ ق.م - عاصمة لإمبراطورية عظيمة، كما كانت المركز الثقافى والاجتماعى للعالم الهللينستى، ومركز الجاذبية الذى تأتيه الثروات المادية من آسيا وافريقيا، وتنجذب إليه كل مصادر الثقافة والفكر من كل بلاد الإغريق؛ إذ كانت هى مصدر الطاقة المحركة التى تحول هذه الثروة إلى حضارة، وتنشرها عبر البحر الأبيض المتوسط. وحتى بعد أن انتقل مركز الجاذبية غربا إلى روما، فقد بقى للإسكندرية تفوقها وسيادتها الفكرية والثقافية، وظلت كما هى البوابة الرئيسية التى يمكن من خلالها أن تنتقل الثروة المادية بل والأفكار الروحية وتراث الشرق إلى ما كان يسمى آنذاك بالعالم الرومانى للبحر المتوسط.

ظلت الإسكندرية طيلة ألف عام أعظم مدن العالم فى جانب أو أكثر من جوانب عظمتها الكثيرة، فقد ... الموانى، ومركز التجارة العالمية، بل "مجتمع التس... لا يرقى إلى مستواه مجتمع آخر، استحوذت ... وفى مكتبتها على أعظم كنوز المعرفة الأكاديم... العلمى. وكانت فى الوقت نفسه مصدر الإلهام لط... والفنانين الذين كانت طرائق أعمالهم بل وحالاتهم ... نماذج يحاكيها كل الذين يودون أن ينظر الناس ... أنهم "من أتباعها".

تصميم الغلاف: إيهاب ممدوح